

أبناء موت

أبناء موت

رواية

أمنية طلعت

عبد الحكيم صالح

عبد القادر فايز الهندي

اتيليه تاتش – المحروسة

الدار للنشر والتوزيع

محمد صلاح مراد

٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧

eddar_press@yahoo.com

www.facebook.com/eldarpublish

اسم العمل

النوع

تأليف

تصميم الغلاف

إخراج داخلي

الطباعة

الناشر

المدير العام

تأليف

البريد الإلكتروني

فيس بوك

رقم الإيداع

الترقيم الدولي

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٥

أبناء موت

رواية

أمنية طلعت

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٥

إهداء

إلى الذين ماتوا...

إلى الذين يسرون خوالموت..

إلينا جميعاً..

أمنية طلعت

٢٢ أبريل ٢٠٠٦

شكر خاص

إلى الصديق محمد زويل على تصحيحه للرواية لغويا .
إلى الصديقة نورا الأمير على ضبطها الحوار باللهجة الفلسطينية .
إلى الصديق يحيى البطاط على ضبطه الحوار باللهجة العراقية .
إلى مركز معلومات دار الخليج للطباعة والنشر في الشارقة، على
إتاحتهم لي فرصة البحث، وصدرهم الرحب في مساعدتهم لي،
خاصة مدير المركز محمد جلال .

شكراً لكم جميعاً ...

أمنية

أبناء موت

مقدمة

في غياب الحلم، في تجلي الألم أجلس في حيرتي أرقب
إرتعاشة كفي، واختلال توازني، حيث غير مسموح بالصراخ، والزمن لا
يلتفت إلينا بل يمضي لينهبنا أكثر ويدهسنا تحت عجلاته التي تنقل
مطاطها بجلودنا.

الحق يدحرننا، والوهم يطحن عظامنا التي تبيست من كثرة
الانغماس في ما لا يمكن أن يصبح واقعاً نراه ونلمسه ونشمه بأنوفنا،
التي أزمكها تعفننا في انتظار السراب، تلك الرحي الدائرة المنحوتة من
صوان تنعم بالدوران علينا، لا تهدأ أبداً كجندي نظامي، تعبر علينا بلا
هودة، تلك التي لا نعلم من ستطحنه الآن أو غداً، ومن ستغض
الطرف عنه قليلاً، لكنها لن تنساه.. تلك الرحي التي تغيبنا عن بعضنا
البعض، وتمحونا من ذاكرة بعضنا البعض، وتخنق كل ما لنا.

كيف لي الانعتاق مما يكمد قلبي؟ وأنى لي الهدوء الذي أنشده
عبثاً؟ هنا بعيداً حيث غابت كل الوجوه الأليفة، واستباح الرمل جوفي،
زاحفاً نحو كل ما مضى ليردمه بنعومة، يطفئ وهجه لصالح كل ما هو
عقيم.

كان الهروب حلاً للمؤقت فانغمست في الفناء الدائم، أجلس
في بقعتي أنتظر المحال، ولا أتلقى سوى أخبار النعوش المتراكمة أسفل
الأرض الشرهة لدماء عيوننا الحالمة.. وأنا لا أفعل سوى التمرغ في
نعيم ظل رايتي البيضاء التي رفعتها منذ غادرت مصر!

ذلك العفن الذي يعتلي جلدي، ينام ويسكن في المسام، لا
يبرحني مهما سكبت من مياه.. من أين أتى؟! وتلك الخمر المندلقة في

جوفي.. من يدفعها إلى فمي؟! أنا لا أشرب الخمر، ماذا لو علمت أمي؟! ومن سيخبرها؟! لقد ابتعد حضنها كثيراً على أية حال وغابت تعاليمها أكثر، ربما لم يكن هناك سبب لوجودها من الأساس، فكل ما عانت من أجل تحقيقه ذهب أدراج الرياح!

أدراج الرياح؟! وهل هناك رياح ليذهب في أدراجها شيء؟!.. لقد تعفنت وصايا أمي في كتمة الليالي وانقباض السماء، لا بل تحولت إلى نثرات مبعثرة على ليالي، تتسلل بعقبها نحو أنفي في ذروة نعاسي تحت رايتي.

لماذا يأتي ذكرها الآن؟! فلتذهب مثلما ذهب الدفء، مثلما غاب الضوء الشفيف الذي كان يدغدغ صباحاتي قبل الذهاب إلى المدرسة، ولتبقين هنا تتجرعين قطرات الخمر المرة، وتنتظرين نسيان الأحلام بما فيها من أحبة ولوا ظهورهم لك، وحب لوطن سد أذنيه عن ندائك، وعمل لم يبق منه سوى قروش تحصدينها أول كل شهر، وأصدقاء يتساقطون الواحد تلو الآخر بلا مبرر.

يقولون السجائر تحصد العمر.. فلتحصده!.. على الأقل يكون هناك مبرر بدلاً من الذهاب دون سبب مقنع واحد!.. منى لا تحبني وأنا أدخن، وتردد دوماً أن السجارة تمحو طفولتي، وهل مازالت هناك طفولة باقية يا منى؟! أنت وحدك الطفلة في عالم من الناضجين.. الناضجين لحد التخمة.. أنت وحدك التي تبقيين على عهد الغضاضة، متجرعة سموم الآخرين كمسيح جلد، أحياناً أحسبك وأحياناً أخرى أشفق عليك، وأنا لا أدري من منا المخطئ؟!.. بالتأكيد أنا.. فأنا أدخن وأستسلم للخمر المتسللة نحو جوفي، وأمتع نفسي بحب مؤقت مع رجال عابرين.. من الممكن أن تكوني أنت المخطئة، فالإصرار على أحلام عقيمة بله، نعم أنت بلهاء يا منى! فلتذهبي بعيداً عني، كفاك ملاحقة لي في كل خطوة، لا تعبئي بالرمال التي تتراكم علي، فأنا

أرغب في الموت.. حتى لو لفطني الله من جنته، فأنا لا أعبأ بها، فلقد اعتدت الجحيم!

تلك الغرفة القاحلة التي أنسحق داخلها.. لا صوت طفل يتردد في أركانك ولا تأوهات عشق.. سريرك بارد وألوان حوائطك حائلة لا تتركشها شخبطات طفلي.. لا بد من وجود شيء واحد يدفعني إلى البقاء داخلك.. لا يمكن أن تظلي على صمتك هذا.. أين الأصدقاء؟ وأين حبيبي؟ لماذا لا يأتون ليتسامروا معي مثلما عهدتهم في الماضي؟ أين أنت يا سعيد لتحدثني عن الوطن؟ وأين أنت يا مؤمن لتعلي قهقهاتي؟ وأنت يا منى لا تتركيني، تعالي بأوهامك الجميلة، ولتحضري معك سهام لتتلو علينا سفر العودة إلى فلسطين.. وأنت يا فادي، عد إلينا بقصصك وسرايك.. وأنت يا سحر، لملمي أشلاءك المتناثرة على قمم الثلج السويسري وعودي!

أين أنتم؟!.. وأين أيامنا التي ضاعت من بين أيدينا عبثاً؟.. هل من الممكن أن يمنحنا الله فرصة واحدة أخرى على هذه الأرض؟.. فرصة حقيقية هذه المرة، يسجن فيها المردة والشرطاطين، ويوصد عليهم أبواب جهنم ليبقوا مصفدين بالأغلال، بدلاً من أن يرتعوا عابثين بأقمارنا المسائية، مشتتين شعاع الشمس ليصطدم بالأرض مبعثراً كشهب منطفئة بين أقدامنا.

فرصة واحدة يا الله!

لا أطلب منك سوى أن توجه نظرك نحونا قليلاً!.. نظرة واحدة لا أكثر!.. أم أنك خلقتنا لتطعم بنا الموت وتتخم بأجسادنا معدة الفناء؟!

سعيد مختار

أتكون أحلام هي من تتادي؟! أسمع صوتاً يشبه صوتها كثيراً يناديني، أيعقل أن تكون مبقية على ذكراري حتى الآن؟! لقد مرت سنون طويلة على رحيلي، سنون لا أستطيع عدها هنا، لكن من خبرتي بالزمن على الأرض لابد أن تكون قد مرت على الأقل خمس أو ست سنوات، هل يعقل أن تكون ذكراري باقية في خلد أحلام؟! دائماً ما تيقنت أنها لابد أن تكون قد مضت في حياتها، تزوجت وأنجبت وعاشت بشكل طبيعي، لم أتشكك أبداً في إخلاصها لي وحزنها الشديد علي، لكن هذه هي طبيعة الأمور.. يتوه الراحل في دوامة الذكريات المتراكمة، ويبدأ الحي التعاطي مع الأيام، ورويداً رويداً يسقط الميت في جب النسيان.

كان رحيلي صعباً علي، فلم أكن أتخيل أبداً أنني سأترك الدنيا في هذا الوقت المبكر، كان لدي العديد من الخطط والأحلام للمستقبل، كنت أعد نفسي للعمل في السلك الدبلوماسي، قرأت كثيراً في تاريخ مصر وعلاقاتها الدبلوماسية والخارجية مع جميع دول العالم، وبشكل خاص مع الدول الكبرى ودول الجوار والامتداد الأفريقي والعربي لها، قرأت في الشيوعية وانتميت إليها، فقط لأنني انتميت إلى الفقراء وحلمت بخلاصهم، ولذلك تحولت أحلامي إلى دراسة الاقتصاد، متوهماً أنني سأصبح خبيراً اقتصادياً يخرج بالناس من المأزق الذي يعيشون فيه، يااااااه! لقد عشت حياة جادة منذ نعومة أظفاري، ورغم أنه كان من الممكن أن أعيش حياة مرفهة، بعيداً عن وجع الرأس ومهارات السياسة، والأحلام من أجل الوطن، والشعب الفقير ومعاناته، على الأقل كنت حظيت برضا والدي، وعلى الأقل كنت عشت حياة طويلة

مديدة مليئة بالإنجازات العملية، والأرباح التي لا حصر لها ولا عد في سلسلة شركات والذي الاستثمارية.

مازال نداء أحلام يتردد، يأتي من بعيد، يا ترى لماذا تتناديني الآن؟ أعتقد أنها تتنادي آخرين غيري، هل هناك من رحل غيري في عالمنا الشاب يا أحلام؟! ربما.. فالحياة في مصر لا تؤدي إلا إلى الموت أو الانتحار!.. أحياناً ما أشعر بالسعادة لرحيلي المبكر، فما الذي كنت سأجنيه من تراكم السنين فوق السنين في وطن لا يفعل سوى أكل أبنائه أحياء؟! نعم، هذا الوطن الذي سمح لواحد مثل والذي بأن يجني كل هذا المال من الهواء، يجنيه على حساب آخرين يتساقطون يوماً بعد يوم ضحايا لمن هم مثل أبي، ومن مثل أبي يتزايد عددهم يوماً بعد يوم، منذ أن فتحت السادات الأبواب للجميع دون حساب، وقالها بصوت جهوري: (من لم يغتن في عهدي لن يغتنى بعدي)، هذا الرجل فعلاً كانت له رؤية ثاقبة، فبعده لم يغتن أحد فعلاً، فقط تنهار البلد على أيدي من اغتتوا في عهده، فعلاً أحمد الله على رحيلي، فكيف كان من الممكن أن أواصل حياتي بالشكل الذي اخترته في كنف أب مثل أبي؟! حتى لو بعدت عنه وقاطعته ماضياً في طريقي، ما كان ليتركني في حالي أبداً، كان سيظل ورائي حتى أعود إلى حظيرته، فكما كان يقول أنا وارثه الوحيد على ثلاث بنات سيتسببن بإدخال الغرياء إلى الميراث العظيم! الغرياء بالطبع هم أعمامي! أعمامي الذين عاداهم أبي واحداً تلو الآخر، رافضاً مد يديه لهم بأي مساعدة، بل وقف ضدهم في أعمالهم حتى لا يكون هناك ثري وناجح في العائلة سواه.. كم كانت مبادئ أبي غريبة وغير مفهومة لي، ففي الوقت الذي يعادي فيه إخوانه، كان يطالب أخواتي بأن يكن لطيفات مع بعضهن البعض، وأن يحبين بعضهن بعضاً، لكن الحقيقة أن

أخواتي كن تطبيقاً واضحاً للمثل الذي يقول: من شابه أباه فما ظلم، أو توافقاً مع وضعهن: من شابهت أباهما فما ظلمت!

لا أدري كيف لم أستطع يوماً تفسير سبب اختلافي عنهم جميعاً، عن أُمِّي التي تحمل إرث أرستقراطيتها المنفرطة منذ عهد عبد الناصر، وعن أبي الذي صعد بصاروخ أرض جو إلى عالم المال والأعمال مكماً للمشهد الاجتماعي بأُمِّي، التي أكملت بدورها الجانب المادي المتناقص لدى عائلتها من خلال أبي، وأخواتي اللاتي تمزقن بين لغة السوق ولغة الأرستقراطية البائدة، حكاية مملة ومتكررة، لا تعد عائلتي النموذج الوحيد والفريد لها، ففي محيط أصدقاء أُمِّي وأبي فقط يوجد ما لا يقل عن عشر حالات مشابهة، أو هذا على الأقل ما نما إلى علمي.

ربما سبب اختلافي يعود إلى جدتي لأبي، الذي كان دائماً ما يتهمني بأنني (فقري) مثلها، فهذه المرأة رفضت ترك منزلها في السيدة زينب لتعيش مع والدي، بعد أن حقق مكاسب سريعة من خلال تجارة العملة والسمسرة العقارية والوساطة للاستثمارات الأجنبية، وقررت أن تبقى لتموت في بيتها الذي شهد عمرها كله مع جدي الراحل، والذي ربت فيه أبناءها حتى تخرجوا جميعاً في الجامعة، بكدها ومثابرتها مع جدي، ربما أيضاً لأنها كثيراً ما تشككت في مصدر رزق أبي الذي اتسع على حين غرة، دون أية مقدمات توحى بالنتيجة التي رأتها أمام عينيها فجأة. عندما كنت أذهب إليها لقضاء إجازتي الأسبوعية، مستغلاً حنين أبي لأمه كي يوافق ويجبر أُمِّي على تركي لحالي والذهاب إلى جدتي، كانت دائماً ما تنظر إلي بحزن شديد، وتمسح على وجهي بكفها وتقول: (إنت شبه جدك يا سعيد، كان يحب الناس ويعطف على الفقير ويشيل هم الجيران، كان رغم الرزق القليل يعطي وما يفكرش في نفسه، وعشان كده ربنا سترها وساعدنا نربي ولادنا كلهم

ونخرجهم من الجامعة، ما خابش منهم غير أبوك!). وعندما كنت صغيراً كنت لا أعى فكرة أن أبى خائب، فكنت أسألها: (إزاي بابا خايب يا نينه؟! ده بابا أغنى واحد في اعمامي) ، لم تكن تجيب، فقط تبتسم بشفتين مملوءتين بالأسى، وتقول: (لو أنا فاهماك صح وأبوك ما عرفش يأنر عليك هتفهم لما تكبر).

لم أحتج وقتاً طويلاً كي أفهم لماذا أبى خائب في نظر جدتي، فلقد قادني مصيري مبكراً إلى رؤية أشياء، والتعرف بأصدقاء قادوني إلى ما كان سبباً في هجري منزل أهلي وأنا في الثانوية العامة.

لماذا أحكى كل هذا الكلام؟! ولمن أحكيه؟! أنا الآن مستقر في عالم لا يحتوي على شيء مما هو موجود على الأرض، أو بالتحديد على أرض مثل ذلك الوطن الذي ولدت ونشأت فيه حتى رحيلي، ربما ذلك النداء الذي أتهم أنه من أحلام؟! إنني أسمع نداءها جلياً يتردد بين الأرض وعالمي الحالي: (أين أنت يا سعيد لتحدثني عن الوطن؟! أين أنت يا سعيد لتحدثني عن الوطن؟).. أحدثك عن الوطن؟! وأي وطن أحدثك عنه؟! لقد غاب الوطن كثيراً من مستقري هنا، غاب ولم يبق سوى ذكرى المعذبين والمسحوقين الذين رأيتهم في السيدة زينب وإمبابة والسيدة عائشة والقلعة وباب الخلق والأزهر.. وكل الأحياء والمدن التي تعيش واقعاً قاسياً ومختلفاً عن تلك التي عشت بينها مع أهلي.. أي وطن أحدثك عنه؟! أنتم يا أحلام تعيشون في ألف وطن على أرض واحدة.. نعم كنت أحدثك عن مصر، وكيف نعيد بناءها، ونفتح الأبواب لكل أبنائها ليأخذ كل منهم فرصته وحصته بعدل دون تمييز، كنت أحدثك عن العمال والفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى، التي يجب أن تعود إلى مكانها مرة أخرى لتقود النهضة، كنت أحاول أن أجعلك لا تتجرفين بسهولة وراء شعارات العروبة والإسلام، وكنت كثيراً ما تتهميني بالتهاون والاستهانة بعروبتي وإسلامي، وكنت لا

أدري كيف أنظم حماسك وأوجهه للطريق الصحيح، أو كما عشت عمري كله مؤمناً أنه الطريق الصحيح، الآن تتادينني من الموت لأعود وأحدثك عن الوطن؟! وليكن يا أحلام! تعالي كي أحدثك عن الوطن ولكن بطريقة مختلفة قليلاً، تعالي أعد معك إلى حياتي التي عشتها، والتي سكنت أنت في أربع سنوات منها، تعالي أعد بك إلى بعيد، إلى منطقة بداية الذكريات، أعتقد أنني حينها كنت في الخامسة عشرة من عمري.. هيا تعالي معي، هل تسمعينني من بقعة نواحك؟! لا أدري.. لكني سأحكى، ربما سمعت، وربما ساعدتك ذكرياتي قليلاً على الاتزان!

من هنا حيث الصمت المسالم وروحي الممدة على السحاب،
 يجاورني القمر وتتألاً النجوم على كفي، أترك الهدوء وأعود إلى عالم
 الثرثرة مرة أخرى، فقط من أجلك يا فتاتي، فتاة الحلم كنت يا أحلام،
 بهذين الجناحين اللذين تطيرين بهما فوق خبث العالم ودونية الآدميين،
 بروحك المسامحة أبداً كل شيء وأي شيء، حتى والدك الذي خلفك
 وراءه ورحل وأنت بعد جنين في رحم أمك، بتمردك على كل الجمود،
 ورغبتك في تحطيم التخلف بمعول صغير تحملينه، معتقدة أنك
 ستحطمين به كل الجدران المغلقة على ظلام.. من أجلك فقط أترك
 أريج غرفتي السابحة في العالم اللامتناهي، وأعود لأطل من شرفتي
 المزهرة عليكم.. عليك.. نعم، عليك وحدك لأحكي لك حكاية الوطن
 كما عشته أنا.

تعليمين يا أحلام ما هي خلاصة معرفتي بالوطن؟ الناس على
 أرض الوطن جوعى يا أحلام.. أتدركين معنى الجوع في أصله؟ أن
 تكوني خاوية من كل شيء، ومن هنا عليك أن تبدئي أو تبدءوا..
 عليكم أن تسدوا فم الجوع الشره.

قد تقولين إنني أتفلسف من غرفتي المأرجحة السابحة على
 مهد السحاب الناعم، فلنقول ما تشائين، فهنا لم يعد يهمني شيء، فقط
 أحاول أن أساعدك ربما خرجت من التيه التي تغوصين فيها بكل
 روحك.

عندما كنت في إجازة السنة الثانية من الثانوية العامة،
 وبالطبع كما تعلمين أنني تعلمت في المدارس البريطانية بالقاهرة،
 قررت ذات صباح أن أزور جدتي، كنت قد انقطعت عن زيارتها فترة

طويلة تمتد بعدد شهور الدراسة، ولأن الإجازة في المدارس البريطانية ليست طويلة، فقد قررت زيارتها في الأسبوع الثاني من بدء إجازتي، وهذه المرة توسلت إلى أبي أن يسمح لي بالإقامة لديها لمدة أسبوع، بعد مشاحنات طويلة مع أمي وأبي، انتهت بمعايرة أمي أبي بأصله الشعبي المتواضع، قرر أبي الانتقام من أمي بالموافقة على بقائي لدى جدتي الأسبوع الذي أريده أو ما شئت من الأسابيع، وعندما همت بفتح فمها معترضة هدها بالطلاق، وإعادتها إلى منزل والدها الأرستقراطي للتمرغ في النعيم الزائل! عند هذا الحد صمتت أمي كمدأ، ونظرت إلي بازدراء نافية تماماً بنوتي لها: (إنت لا ابني ولا أعرفك). بالطبع ولأنني أعرف أمي جيداً، قررت أن أصالحها بعد عودتي إلى المنزل ونيلي ما أريد، ألا وهو البقاء بين ذراعي جدتي، التي وبالمناسبة أعيش الآن بين ذراعيها دون ضجيج والدي العزيزين!

لم أكن أدرك أن هذه الزيارة سوف تغير مسار حياتي تماماً، فحتى تلك اللحظة كنت أحلم بأن ألتحق بكلية السياسة والاقتصاد للعمل في السلك الدبلوماسي، برغم أن والدي كان مصراً على التحاقني بقسم الاقتصاد، حتى أحمل لواء سلسلة شركاتنا الاستثمارية التي لم أعرف يوماً ما الذي تنتجه بالضبط! ومن هم زبائننا المنتفعون مما تنتجه!.. المهم وحتى لا أطيل، لأنني لا أريد البقاء في عالم الثروة الأرضية هذا طويلاً، ذهبت إلى جدتي في موكب احتفالي كالمعتاد، حيث يصر أبي في كل مرة أذهب فيها إلى هناك على أن يأخذني عم محمود السائق، وهو بالمناسبة من أهالي السيدة زينب أيضاً، راكباً سيارة أبي المرسيدس الفارهة، وبالطبع أنت تدرकिन الآن مغزى المرسيدس التي تمتلكها جميع العائلات الاستثمارية الكبرى.. اعذرني يا أحلام لاستخدامي هذه اللهجة التهكمية، ولكن هذه الأمور الآن تعد نكاتاً ونوادر أرضية، أو إن شئت مصرية! تضحكني ملء شدي..

ربما أيضاً أحببت أن أضحكك قبل أن أحكي قصة تحولي التي قصصتها عليك من قبل، لكنني هذه المرة ومن خلال صفائي الروحي الذي أتمتع به، سأصف المشهد ببلاغة لم أكن أتمتع بها عندما كنت أرضياً!

عندما وصلت إلى البناية التي تقطن فيها جدتي، أصدرت أوامري كبارون صغير إلى السائق بأن يمضي، سعدت متعجرفاً على سلام البناية المتآكلة حتى بلغت الدور الثالث حيث جدتي، طرقت الباب وما من مجيب، طرقت بقوة ثم بعنف، ولكن لم يكن هناك أي رد، تلبسني خوف من هاجس مر بخاطري أن تكون جدتي ميتة في الداخل، فجريت بكل قوتي تلك المسافة القليلة بين شقتها وشقة الجارة، وطرقت لاهثاً هذه المرة وكأنني قطعت أميالاً طويلة، ففتحت لي الجارة مبتسمة في تزلف ومرحبة: (أهلاً أهلاً يا أستاذ سعيد)، (فين نينه؟)، (مالك مفزوع كده ليه؟! ما تخليش فكرك يروح لبعيد ستك كويسة وبخير، هي بس في مشوار عند أم بكر بباعة الخضار اللي ساكنة في الشارع اللي ورانا بتطمئن عليها، أصلها عيانة أوي.. وإنت عارف إن ستك حنينة وصاحبة واجب). بدأ الهدوء يسكن خلایاي التي انتفضت بعنف منذ لحظات، ولكنني أحببت أن أتأكد بنفسي من معلومات تلك الجارة فقلت لها: (طيب لو سمحتي ممكن تاخدينني لعهدها؟)، (طب وليه تتعب نفسك، اتفضل نورنا لغاية ما ترجع)، (معلش.. أرجوكي خديني لعهدها)، (طيب أوامرك.. ثانية واحدة أما أحط حاجة عليا وآجي معاك).

قادتني الجارة إلى منزل أم بكر بائعة الخضار، لم أكن أتصور قبل تلك اللحظة أن هناك من يعيشون حياة كنتك التي تعيشها تلك المرأة، كان منزل أم بكر مختصراً في علبة من الصفيح لا يزيد اتساعها عن مترين في ثلاثة أمتار، أثاث المنزل هو مرتبة حط عليها

الزمن كل صنوف القذارة، ورائحتها المعبقة بعفن طعام قديم تفوح في كل الأرجاء، ربما كانت الرائحة منبعثة أيضاً من كل شيء آخر في الغرفة، التي كانت مزدحمة بحطام أثاث متواضع.. بعض الكراسي الخشبية وزير للماء وأوان ملقاة على الجانب، بعضها متسخ ببقايا طعام لم أستطع تحديده حينها.. وأم بكر ملقاة على المرتبة يتحلق حولها خمسة أطفال صغار، ربما كان الأكبر في العاشرة بينما الصغير لا يتجاوز العامين.

فوجئت جدتي بي داخل تلك الحظيرة البشرية، فانتفضت من جوار أم بكر قائلة: (إنت إيه اللي جابك هنا؟!)، ثم نظرت إلى جارتها معنفة إياها: (إنتي إيه اللي خلاكي تجيبه هنا يا ام حنان؟!)، (هو اللي صمم واللهي يا ام مختار.. معلى لا مؤاخذة). انسحبت الجارة في هدوء، بينما كنت منشغلاً أنا برصد تلك الحظيرة، ومحاولة استيعاب وجود بشر يعيشون تلك الحياة الرثة المفجعة، كنت أنظر إلى أم بكر وهي تلهث بوجهها الضارب إلى الصفرة وشفتيها البيضاوين، شبه غائبة عن الوعي، يمسك صغيرها بثدييها محاولاً إخراج أحدهما لالتقاطه بفمه الجائع، بينما يبكي باقي الأولاد منتحبين على أمهم التي ترقد على حافة الموت.

سحبتني جدتي من يدي وقالت لبكر وهي تخرج: (خد بالك من إخوانك يا ولد، ولو حصل حاجة كده ولا كده تعاللي فوراً.. ولو الأكل والفلوس اللي معاك ما كفوش برضه تعالى). ونحن خارجان من حظيرة أم بكر الننتة أخذت جدتي تعنفني: (إنت إيه اللي جابك دلوقت؟! ولما جيت وما لقيتيش مارجعتش على بيت أبوك تاني ليه؟! ولا حتى ما استنتش عند ام حنان ليه?!). كانت غاضبة جداً، ولم أكن حينها مدركاً أنها حاولت منذ بدء ترددي عليها أن تجنبي أهوال الحقيقة لكثير من ساكني السيدة زينب، فقط كانت تسمح لي برؤية

السطح الذي يعيش حياة فقيرة في نظري، لكنها كانت في الحقيقة مرفهة بالنسبة لأم بكر، وأمثالها من الهاربين من جوع الريف إلى جوع المدينة الأخف وطأة.

عندما وصلنا إلى منزل جدتي بدأت طرح أسئلتني عن تلك المرأة، من هي؟ وما هي طبيعة مرضها؟ ولم لا تذهب إلى الطبيب أو حتى المستشفى؟ وكيف تعيش في مكان كهذا لا يصلح حتى للحيوانات؟ وكيف يعيش أولادها في ظل تلك الظروف؟ وأين زوجها؟ ووووو..؟ طالبتني جدتي بألا أوجع رأسي بهذه الأمور، وطلبت مني أن أعود إلى منزلي، ولنقل هنا الحقيقة: القصر الذي أسكنه، لأن أم بكر قد تموت في أي لحظة، وستشغل بمراسم دفنها، ومحاولة إرسال أبنائها إلى بلدهم بركة السبع بالمنوفية. كانت جدتي تقول لي هذا الكلام وأنا أهذي بأسئلتني الذاهلة، لكنها كانت لا تسمعي أو تعتمد تجاهلي، ظل الأمر على هذا الحال ربما دقائق، حتى نهضت من مقعدي وأنا أصرخ في وجهها: (مش هامشي يا نينه، ولازم تقولي لي كل حاجة عن الست دي، وكمان تقولي إزاي أقدر أنقذها)، أجابت جدتي بمرارة ساخرة: (تنقذها؟! تنقذها إزاي يا عيل إنت! إذا كان أبوك بجلالة قدره رفض ينقذها!). نزلت كلمات جدتي التي خرجت من شفثيها المزمومتين بامتعاض وحسرة على ابن رحمها وجار قلبها الأول، على سمعي كصفعة أصمتتني للحظات، شعرت بغثيان يجتاح كل جسدي مائلاً فمي بعفونة لم أعرف لها طعماً قبلاً، ترتعش شفثاي ويهتز جسدي من هول تلك الجملة التي ركبتهما جدتي في قسوة، أو هكذا رأيتهما حينها، امرأة قاسية وربما كاذبة تفترى على أبي!

أم بكر فلاحه فقيرة جاءت إلى السيدة زينب قبل خمس سنوات حينذاك، تجر وراءها زوجاً كهلاً وثلاثة أطفال، حضرت من بلدتها في المنوفية حاملة هي وزوجها بباب رزق واسع في القاهرة العامرة، أقامت

وزوجها منزل الصفيح ذلك إلى جوار العديد ممن ضاقت بهم سبل العيش في قراهم ومدنهم الصغيرة، حيث لا أرض يمتلكون ولا أجر يسد الرمق في أراضي الأعيان.. بالمناسبة ذلك الأمر كان في عام ١٩٨٨ وليس في ١٩٤٠ مثلاً، آسف على هذا التوضيح، فكلامي فعلاً يشبه الروايات والأفلام التي كانت تحكي مآسي الفلاحين والعمال قبل الثورة، لكن الأمر ليس بيدي، فالحال عاد مرة أخرى إلى ما كان عليه، وعدنا مرة أخرى إلى استخدام ألفاظ مثل الأعيان، فهم فعلاً أعيان، وإن كانوا أعياناً جدداً بمواصفات جديدة.

ظلت أم بكر تتبع الخضر التي يذهب زوجها كل يوم لإحضارها بنفسه من تجار الخضروات الكبار في روض الفرج، وأنجبت خلال تلك السنوات الخمس طفلين آخرين، كان آخرهما ذلك الذي رأيته مرتعباً، يعبث بكفيه الصغيرتين في جيب أمه باحثاً عن ثدييها المتغضنين، أملاً في قطرة لبن أخيرة قبل رحيلها النهائي، حتى مات زوجها إثر حادث تعرضت إليه عربة النقل الصغيرة، التي يحمل عليها هو وبعض الباعة الآخرين الخضروات من روض الفرج، فقد انقلبت بهم السيارة المتهالكة ومات من مات وأصيب من أصيب بالتقاعد، حملت المرأة مسئولية أبنائها بجلد حتى بدأت تواجه إغماءات متوالية فسرتها بأنها ضعف من قلة الغذاء، أخذت جدتي على عاتقها إرسال طعام لها ولأولادها، حيث أجبرت تلك الإغماءات المرأة على البقاء في منزلها دون عمل، وعندما أدركت جدتي أن الأمر ليس مجرد ضعف، بل قد يكون أنيميا حادة أخذتها إلى مستشفى قصر العيني، وهناك علمت أنها مصابة بسرطان الدم، بالطبع المستشفى الحكومي لم يتخل عن دوره في علاج أم بكر، فقد وضعها على القائمة الطويلة جداً التي تنتظر فراغ سرير في المستشفى، وكالعادة سبق الموت دور أم بكر!

أما بخصوص والدي فقد اتصلت به جدتي طالبة عونهُ المادي لإنقاذ تلك الروح الفقيرة بإمكانياته المادية، فالمرأة كما نصح الأطباء يجب أن تذهب إلى مستشفى خاص لأنها لا يمكن أن تنتظر طويلاً، لكن أبي العظيم أجاب والدته بعجرفة: (هو أنا فاتحها جمعية خيرية يا ماما؟! وبعدين اللوكيميا دي مرض صعب حد يخف منه؟! أرمي أنا بقى فلوسي في الشارع على حاجة مفيش منها رجا.. سيبها تموت وتستريح، وبعدين نبقي ندي ولادها حاجة كده يمشوا بيها نفسهم!). وبالفعل أرسل إلى والدتي ألف جنيه، تبرعاً كريماً منه لأبناء أم بكر الخمسة!

لم أصدق حكاية جدتي، فاتصلت بنفسي بوالدي وقصصت عليه حكاية أم بكر من جديد، طالباً منه معاونتها، فكان رده كالاتي: (هي الست دي لسه ما متتش؟! لو اعرف كده ما كنتش بعثك عند جدتك)، ثم قال متداركاً: (لو المسألة دي مضايكاك يا حبيبي ارجع، وبعدين ابقى روح لنينه لما تخلص، أصل أنا عارف ماما كويس غاوية وجع راس!).

كان ذلك رد والدي العظيم، وكانت تلك آخر مرة يتحدث فيها إلي بهدوء، حيث لم يكن بيننا بعد تلك اللحظة سوى العراك، خاصة أنني لم أعد إلى قصره العامر مرة أخرى.

في السيدة زينب فتحت أمامي أبواب مختلفة على عوالم عجائبية، لم أكن أتخيل لحظة أنها موجودة في مصر، فمعنى كلمة فقر وعوز لم يصل في مخيلتي إلى ذلك الحد الذي رأيته لدى كثير من سكان الطبقة السفلى في هذا الحي، السيدة زينب كما تعلمين تضم أيضاً عدداً لا بأس به من الطبقة الوسطى المتعلمة وأبنائها، بل دعينا نقل تضم عدداً من المثقفين الذين ينتمون إلى مراحل عمرية وتيارات سياسية مختلفة.. كان عالم السيدة زينب على بساطته واقتربه من خطوط الفقر، مدهشاً ومبهراً في نفس الوقت بالنسبة لي، فهناك يمكنك أن تعرفي جمال الإنسان الطبيعي، بعيداً عن النقوش والزخارف المزيفة التي تشغل العين، بعيداً عن جوهر كائنات الطبقة الغنية الجديدة، أو (النفو ريش) كما اعتدنا أن نقول بعد ذلك في اجتماعاتنا، طبعاً تدرकिन أي الاجتماعات أقصد! هناك حيث عشت إلى تلك اللحظة التي فارقت فيها عالمكم، تعلمت أشياء كثيرة، وانقلب ميزان حياتي رأساً على عقب، فبعد أن كنت ولداً غنياً متقفاً له أحلام مستقلة عن حسابات والده في البنوك، أصبحت ولداً ينتمي إلى الشارع وناسه، ويحلم لأجلهم، ويحاول جاهداً أن يغير أحوالهم.. ربما تبدو كلماتي حماسية تشبه الشعارات التي يطلقها الممثلون في الأفلام والمسلسلات الوطنية، لكن في الحقيقة هذا كان حالي، وأرجوك يا أحلام لا تأخذي علي هذه المشاعر المراهقة، فأنا لم أعرف غيرها، حيث لم تسمح لي هراوات الأمن المركزي وقنابله المسيلة للدموع أن أعرف غيرها، فأنا لم أتخط أبواب الجامعة لأعيش حياة تعلمني أشياء أخرى.

اتصل والدي كثيراً بي في أيامي الأولى في منزل جدتي، كان يصرخ أحياناً مهدداً إياي بحرمانني حتى من المصروف، ويستعطفني

أحياناً أخرى مقدماً عروضاً برشاوى مغرية، كأن يحضر لي سيارة موديل العام، أو يرسل إلي مع سائقه أموالاً تصل إلى عشرة آلاف جنيه كمصروف جيب! لم يكن يدرك أنني أمام هذه الأموال لم أشعر سوى بالقرف منه، لأن هذا السيل المالي كان من الممكن أن ينقذ حياة أم بكر، أو يحل مشاكل أبنائها الذين تركتهم وراءها بلا معيل أو مورد للرزق.. أما أمي فكانت تتصل بي مستعطفة إياي بدموعها ونهناياتها المتقطعة، راجية إياي العودة إلى حضنها، بينما كانت تكيل الاتهامات لجديتي، معتبرة إياها السبب في عصياني والدي وهجري منزلي وعائلي، لم أستطع يوماً الوقوف على حقيقة قوتي وثباتي على موقعي في هذه السن، لكن كان هناك دائماً شيء يدعوني إلى البقاء، حيث كان مؤكداً لي أن السيدة زينب ومنزل جدتي هما المكان الحقيقي الذي يجب أن أنتمي إليه وأبقى فيه، من ناحيتها كانت جدتي ممزقة بين رغبتها في ألا أنفصل عن عالم أبي وأسرتي، وبين حبها لي ورغبتها في بقائي معها، حيث لا يوجد من يؤنس وحدتها في شتاء عمرها القارس، وكنت أنا في البداية أتعامل مع الأمر كأنني أوجه صفة لوجه أبي، معاقباً إياه على ترك أم بكر دون عون حتى ماتت، لكن بعد ذلك تحول الأمر لدي إلى موقف من كل الأغنياء الذين يمصون دماء الناس ويسرقون خيرهم، مخلفين إياهم يعمهون في ظلمة الفقر والجهل والمرض.

بدأت حياتي تتخذ منحى جديداً تماماً، تحديداً بعد أن قابلت باسم الزيتوني، باسم هو الابن الأكبر لعائلة عبدالله الزيتوني الموظف بوزارة الصحة، والذي يقطن في الشقة المماثلة لشقة جدتي بالدور الرابع، طالب في السنة الثانية بكلية الحقوق جامعة القاهرة، على وجهه مسحة جادة أثارت لدي الإعجاب والاهتمام، خاصة تلك النظارة ذات الإطار الأسود الرفيع التي تعطي أنفه، والذي ينظر من خلفها نحو

العالم نظرة صقرية فاحصة، انشغلت به كثيراً لدرجة أنني أخذت أراقبه من الشرفة حتى عرفت مواعيد خروجه وعودته، كان دائماً ما يختفي طوال النهار، وبمجرد أن تدق الساعة السابعة مساء يخرج من باب البناية، حاملاً في يده كتباً وأوراقاً ليغيب مدة طويلة، يعود بعدها بين الساعة الواحدة والثانية ليلاً.

لاحظت جدتي أنني مرابط لساعات طويلة في الشرفة، أو أظل في حالة ذهاب وإياب إليها ومنها، اعتقدت أنني معجب بإحدى فتيات شارعنا، فسألتني بمكر امرأة عجوز يخرج من ابتسامة غنجة: (مين اللي شاغلاك أوي كده ومخليك ساكن في البلكونة؟!)، (اللي شاغلاني؟! .. تقصدي إيه يا نينه؟!)، (أقصد إنه لازم تكون في واحدة بتشاغلك ومخليك ساكن في البلكونة ليل ونهار!)، (ولا واحدة ولا يحزنون.. أنا بس حابب أتفرج على الشارع)، (وتتفرج على الشارع ليه من البلكونة؟! ما تنزل اتمشي واتفرج بنفسك على الناس، ولا انت مستكبر تمشي في شوارع السيدة زينب؟!)، (كده برضه يا نينه، أنا بس مش عارف الشوارع وخايف أتوه)، (نتوه؟! يا نوعة! ما انت هتفضل مش عارف الشوارع طول ما انت واقف تبص عليها من البلكونة! لازم تمشي فيها عشان تعرفها). ربما كان هذا أول درس أتعلمه في الحياة، مجرد جملة قالتها جدتي، ربما كانت تعنيها أو لا، لكنه كان درساً مهماً جداً.. لن نعرف الشوارع وما يدور بين الناس إلا عندما نمشي فيها بينهم، ووجدتني أقول لها قافراً وكأنني نيوتن مكتشف الجاذبية الأرضية: (فعلاً يا نينه عندك حق!).

ارتديت ملابس سريعة جارية كملسوع نحو الباب، فلاحقتني جدتي قائلة: (في إيه يا ولد رايح على فين؟!)، (إنتي مش قلتي إني مش هاعرف الشوارع إلا لما امشي فيها.. أديني رايح أمشي فيها

أهو!)، حينها ابتسمت قائلة: (أقطع دراعي إن ما كان فيها واحدة بنت!).

نزلت إلى الشارع لا أدري إلى أين أذهب، ولكني أخذت أخطو وكأنني أعرف هذه الأماكن جيداً، أتأمل مطاعم الفول والطعمية ومطاعم الكباب والكفتة والمسامط، وبالمناسبة كانت هذه أول مرة أعرف أن هناك وجبات تصنع من مخلفات الماشية!.. هل تضحكين؟! نعم، مخلفات الماشية.. الفشة والكوارع والمخ واللسان والجوهره.. كانت هذه الأكلات بالنسبة لي اختراعاً، فلقد نادتني مثل النداهة برائحتها الغريبة فدخلت إلى أحد المسامط، وأنا لا أدري ما الذي سأكله وما اسمه، ظل النادل أمامي ناظراً ببلاهة، متعجباً من ذلك الكائن الفضائي الذي يطلب منه (المنيو)! هل تتخيلين؟! لقد طلبت منه قائمة الوجبات قائلاً: (إديني المنيو لو سمحت)، أعتقد أن هذا المشهد الذي ضمنني والندال كان يستحق كاميرات الأفلام الكوميدية، فأنا أضحك حتى الآن وأنا في برزخي السعيد مما حدث! لم ينقذني سوى باسم! نعم، فلقد كان موجوداً مع إحدى صديقاته في المسمط وعرفني، حيث كنت مشهوراً في بنايتنا دون أن أدري.. ربما بسبب السيارات الفارهة التي تأتي بي كل مرة أزور فيها جدتي.

اقترب باسم من النادل وطلب منه أن يذهب على أن يأتي لاحقاً، وبمجرد أن ذهب النادل سألني دهشاً: (إنت إيه اللي جابك هنا؟!)، ربما فرحت لأنه يعرفني مثلما أعرفه، أو بمعنى أصح أرصده، لذلك قلت متسائلاً بزهو: (إنت تعرفني؟!)، (طبعاً.. مش انت حفيد الحاجة أم مختار؟)، (بالظبط)، (طيب يفضل سؤالي: إنت هنا بتعمل إيه؟!.. تكونش بتعمل رحلة استكشافية في السيدة زينب؟!)، (فعلاً هو كده بالظبط). يبدو أنني أجبته ببلاهة جعلته يضحك برزانة غير مستخفة بي، بعدها أشار إلي بيده أن أنهض قائلاً: (طيب ياللا قوم

اقعد معانا). وبالفعل ذهبت للجلوس معه وصديقتة، عرفني بها على أنها زميلته في الجامعة، وعضو في الأسرة التي ينتمي إليها في كلية الحقوق، لم أكن وقتها قد انتميت إلى عالم الجامعة لأعرف معنى أسرة، فتولى باسم شرح معناها لي، أتذكر أنني وقتها نقت إلى أن أكون عضواً في أسرة مماثلة، لأتمتع بوجود أصدقاء ينتمون إلى نفس اهتماماتي وأفكاري.. أمضيت الليل كله مع باسم، حتى بعد أن أوصلنا زميلته إلى بيتها في تمام الحادية عشرة ليلاً، لنكمل نحن جولتنا في شوارع السيدة زينب، أذكر أننا مشينا يومها كثيراً حتى وصلنا إلى ميدان باب الخلق، قاطعين تلك المسافة التي لم أمش يوماً مثلاً من قبل بداية من ميدان السيدة زينب، وجدت نفسي غارقاً في الحكي عن حياتي، وكيف لا أشعر بتوافق مع أسرتي، ومقاطعتي إياهم بسبب حادثة أم بكر، بينما باسم يكتفي بهز رأسه والنظر إلي من حين لآخر نظرة عميقة مفكرة، كأنه يتأكد من توافق ما أقول مع حقيقة دواخلي، بينما يقاطعني من وقت لآخر، مشيراً إلى مبنى تاريخي، أو محل طعام شهير، أو تعبير رسم على وجه عجوز يستند إلى عصاه ويتأمل الشارع من أمام دكانه العتيق، الذي يبيع فيه أشياء عجيبة جداً، مثل شلل الخيط بأنواعها المختلفة.. حرير وصوف ونيلي، والتي لم أفكر يوماً أن هناك من يتخصص في بيع تلك الأشياء، وأن هناك من يشتريها ليستغل مفارش وقمصاناً بالتريكو والكورشييه ليكسب منها رزقه.

عندما وصلنا إلى باب الخلق نظر إلي باسم قائلاً: (هنا بقى آخر الخط يا أستاذ، لازم نرجع ولا رجلك ما وجعتكش من المشي؟!)، نظرت إليه بخجل قائلاً: (يعني.. هو أنا عمري ما مشيت كثير كده، بس أنا متعود ألف التراك في النادي أكثر من مرة كل يوم تقريباً)، ضحك وقال: (بس المشي من السيدة لغاية هنا مش زي لف التراك أبداً يا سعيد ولا إيه؟!)، حينها أجبتة بصدق قائلاً: (لا تتخيل قد إيه المشي

من السيدة لهذا أهم وأغنى وأمتع بكثير)، (إيه يا ابن مختار بيه،
واللهي أنا مختار في أمرك.. أنت متخيل إنك تقدر فعلاً تعيش في
السيدة زينب بعد ما اتولدت واتربيت في الفل والقصور ولفيت أوربا
وأمریکا وبلاد تركب الأفیال!)، (بلاد تركب الأفیال؟!)، (معلش بس
القافية حكمت!.. المهم أنا بس حابب أقولك إن أنا سعيد بیک جداً وقبل
ما نقعد سوا ونتكلم ونتناقش ونتبادل الكتب.. لازم الأول أعملك جولة
سياحية في السيدة زينب كلها.. مش عشان تعرف المكان الجديد اللي
هتعيش فيه.. لا.. عشان تشوف نموذج لأحياء القاهرة الواسعة..
القاهرة اللي إنت ما تعرفهاش، وتتعرف على الناس اللي حاملين نفس
الجنسية اللي انت بتحملها، وتعرف الفرق بينك وبينهم واللي يجمع
بينك وبينهم، وبعدها تقرر إن كنت ترجع لوالدك ولا تكمل معانا).
وبعدها نظر إلي نظرة مثل بها الخبث قائلاً: (لأنك يا حلو لو قررت
تفضل معانا هاورطك في طريق أجارك الله منه.. كله وجع دماغ!)،
(طريق إيه ده؟!)، (ما تستعجلش).

في اليوم التالي بدأت مع باسم رحلتنا بين شوارع وأزقة السيدة
زينب، نتقلنا من شارع السد الذي يقع بين ميدان السيدة وميدان
أبوالريش، إلى بركة الفيل ودرب الشمسي والمراسينا والحوض المرصود
وشارع قدري ونوبار وزين العابدين ولاطوغلي وغيرها.. جلسنا في
المقاهي وتحدثنا مع الناس، وارتدنا المطاعم والسينمات القديمة
المتهاكة.. رأيت وجوهاً تحمل تعباً ينوء بحمله العالم، لكنها مازالت
تضحك وتطلق النكات وتداعب بعضها بعضاً، رأيت الشحاذين وأطفال
الشوارع الذين يتخذون من أرصفة الحواري وأركان البنايات وجوار
المساجد منازل لهم، رأيت المجانين الذين يكلمون أنفسهم وهم غارقون
في أسماهم المزيطة الممزقة، وأجسادهم التي لم تمسها المياه منذ سنين،
رأيت الفتيات الغنجات بأزيائهن الساذجة وألوان أصباغهن الفاقعة،

ورأيت نساء شائخات قبل الأوان يجررن هم الطعام اليومي وراءهن في صمت كئيب، رأيت رجالاً يهربون من جبل المسئوليات بنسيانها على المقهى، وافتعال الضحك الهستيري على أي شيء يقال، شباب ضائع في متاهات المخدرات، وآخرون تذهب بهم البطالة في طريق البلطجة والبطولات الزائفة، ورجال يتخبطون في ردهات الصمت المشتت على أبواب الأحلام المفقودة والمستقبل الميت.

رأيت ورأيت ورأيت.. وبعدما رأيت وجدت نفسي واقعاً في الفخ، فخ الرفض لكل ما كنت أنتمي إليه، والرغبة في الانتماء إلى هؤلاء لأخرجهم مما هم فيه وأعيد لهم المستقبل والبسمة، وجدت نفسي أقول لباسم: (واللهي لما أوريث بابا هاتبرع بكل اللي يملكه للناس دي)، حينها ضحك باسم وقال: (ما كنش انعز ولا باع جزر يا أستاذ.. لازم تغير القوانين اللي خلت في واحد زي أبوك وواحد تاني زي المتشرد اللي قاعد هناك ده)، وأشار إلى رجل شعره طويل جداً ومغبر وذقنه مشعث يرتدي ملابس مهترئة قذرة، يمد ساقيه أمامه ويرخي ذراعيه إلى جانبه، مطأطئ الرأس زائغ العينين، هالني مرأى هذا الرجل فقلت في تساؤل خائف: (طب أعمل إيه يعني؟!)، (أنا هاقولك، وإن كان الطريق اللي هاقدمه ليك طويل ومتعب ونتايجه مش واضحة المعالم، لكن على الأقل هو الطريق اللي لازم كلنا نمشي فيه عشان تتغير الأحوال دي حتى لو كان بعد مية سنة).

ومن هنا بدأ انتمائي إلى الشيوعية، التي آمنت لآخر لحظة في حياتي أنها الحل الوحيد لخلاص الشعوب من الاستغلال، والعيش سواسية كأسنان المشط فعلاً.

لم يمنعني انغماسي في قراءاتي حول الشيوعية، والاجتماعات الدورية مع مجموعة الشباب الجامعيين من أصدقاء باسم والمنتمين مثله إلى نفس التيار السياسي، من متابعة دراستي بالسنة النهائية من الثانوية البريطانية التي دفع أبي مصاريفها، مؤمناً بأنني سأعود إليه يوماً بعد أن أكتشف حقيقة الحياة، وأمل بؤس العيش في السيدة زينب، بالطبع لم يكن يعرف أي شيء عن ميولي السياسية الجديدة، والتي كانت من الممكن أن تشعل فتيل الحرب بيننا إلى أقصى حد يمكن تصويره، لدرجة أن يأتي ليحملني مقيداً عائداً بي إلى قصره، وربما حابساً إياي مانعاً عني الطعام والشراب إلى أن أعلن توبتي والخضوع لرأسماليته الجديدة!

تشكلت أمامي دوافع جديدة في الحياة، فبعد أن كانت أحلامي قاصرة على التمثيل الدبلوماسي لمصر في الخارج، أصبح كل هدفي هو تمثيل الناس وأحلامهم، ومحاولة الخروج بهم من مأزق الانسحاق تحت آليات السوق والعمل الجديدة، التي تنهش عظامهم لتتخرها وتحولها إلى مجرد مسحوق ترابي بلا لون تذروه الرياح، لذلك قررت أن ألتحق بكلية السياسة والاقتصاد، ولكن هذه المرة بقسم الاقتصاد، لا لأدير مشروعات أبي الاقتصادية الهشة، ولكن لأفهم سبب الانهيارات الاقتصادية التي تتحدر فيها البلد عاماً بعد عام، جارة معها سيل البشر المنخفين في الأزقة والحواري والشوارع العتيقة الضيقة، يااه يا أحلام! لقد كانت أحلامي عريضة ولم أكن أدري أنها لا تصلح لزماننا الضيق!

كنت في تلك الفترة أشعر بأهميتي في الحياة، تلك الأهمية التي كانت مفقودة في عالم أبي، حيث كنت دائماً ما أقول لنفسي إنه

لابد من وجود شيء ذي معنى أقوم به في الحياة، لا يمكن أن تتلخص أيامي في جملة واحدة: (سعيد مختار الابن الوحيد لمختار بيه، والذي سيحمل راية ممتلكاته ومشروعاته بعد أن ينهي دراسته الجامعية في أمريكا أو لندن حسب تخطيطات والده)، هذه الخطط التي أفسدتها له بالطبع. فبعد أن ظهرت نتيجة الفصل الدراسي الأخير من الثانوية البريطانية، وحصلت على تقدير (A)، أي ممتاز، حضر والدي إلى منزل جدتي بسيارته الفارهة وهو ينظر إلى كل ما حوله باستعلاء، لاعناً اليوم الذي اضطره إلى الحضور إلى هذا المكان الذي محاه من حياته إلى الأبد، وإن كان اعترف به بعد ذلك عندما قرر أن يرشح نفسه لمجلس الشعب، كنوع من زيادة النفوذ والاقتراب أكثر من السلطة.. التي تفتح لأمثال أبي أبواباً استثمارية خاصة، عندما يتقربون إليها زلفى بشكل علني سافر، ويقدمون خدماتهم الجليلة لها، (يعني: هات وخذ!)، في محاولة للتضامن والاتحاد أمام الشارع بما يحويه من بشر لا حاجة إليهم!

أتى أبي معتقداً أن نجاحي المذهل في نظره سينهي القطيعة، وسأعود معه فرحاً متهللاً، وحالماً بالعيش في أمريكا للدراسة هناك، والعودة بماجستير أو دكتوراه أمريكية تكمل الوجهة الاجتماعية! أو توصل نفوذه في عالم الاستثمار، عندما يكون ابنه متعلماً عند شركائه الذين يعيش في كنفهم ورعايتهم، لم يكن أبي المسكين - في الحقيقة أنا الآن أرى أنه عاش مسكيناً وسيموت مسكيناً - يدرك حقيقة ما وصلت إليه، لا يمكن نسيان علامات الفزع التي ارتسمت على وجهه، عندما أخبرته بنيتي الالتحاق بكلية السياسة والاقتصاد بجامعة القاهرة، كان هديره فوق احتمال أذني، لدرجة أن جدتي برغم كل شيء صعب عليها حال ابنها، وأخذت تتوسل إلي أن أعود مع أبي، وأنفذ رغبته بالسفر والدراسة في أمريكا.. لا أنكر أن الرعب داخلي من نبرة صوت أبي

المهددة والمتوعة، ووجهه المنتفخ احمراراً، وأنفه الذي ينفث عادماً حارقاً في وجهي! مازلت أتذكر هذا اليوم جيداً، ولا أدري حتى الآن كيف استطعت تحمل صفعته وركلاته، التي لجأ إليها في النهاية عندما ثبت على موقفتي، ولم أتنازل عن رغبتني في البقاء عند الجدة والدراسة في جامعة القاهرة.

بالطبع أعلن أبي في النهاية وقبل أن يمضي حرمانني كل شيء.. المصروف ومصاريف جامعة الشحاذين التي اخترتها، وحتى الإنفاق على مأكلي وملبسي، فلقد كان منتظماً خلال عامي الأول بمنزل جدتي في إرسال الأموال الوفيرة إلي مع سائقه، والتي بالطبع لم أكن أصرف منها شيئاً يذكر، ولأكون صادقاً معك يا أحلام ساعدتني تلك الأموال، والتي حوشتها لي جدتي بعناية، على العيش بشكل جيد طوال سنواتي الجامعية التي رحلت في آخر عام منها.. هل تصدقين أنني مازلت أشعر بأنني أستعد لامتحانات آخر العام!؟

والتحقت بالجامعة مثلي مثل جميع الطلاب الذين اكتشفت أنهم ليسوا جميعاً من أبناء الطبقة الوسطى، بل ينتمون إلى جميع الطبقات حتى الطبقة الغنية، فلقد كان معي زملاء ينتمون إلى جميع الشرائح بما فيها شريحتي من أبناء الأرستقراطيين الجدد، بالطبع لم أحسب عليهم لأنني ذهبت إلى الجامعة شبه خالي الوفاض من مظاهر الغنى، فلا تسخر أسفل قدمي دواسات بنزين سيارة فاخرة ولا حتى متواضعة، كما كانت آليات صرفي مشابهة تماماً لمن هم مثل باسم، حيث أفهمتني جدتي ببساطة أننا يجب أن نعيش في حدود الأموال التي كان أبي يصدقها خلال عامي الدراسي الأخير بالثانوية، والتي وإن كانت تصل إلى آلاف كثيرة، إلا أنه وكما يقول المثل: (خذ من التل يخلت). لم تكن جدتي في حاجة إلى شرح الأمر، فلقد كنت بالفعل زاهداً في الحياة المرفهة، وأريد أن أكون مثل زملائي الشيوعيين، الذين

انضمت إليهم بكل الحب والرغبة في إحداث تغيير إيجابي لكل الناس، لينالوا جميعاً فرصاً عادلة في الحياة.

بالطبع نتذكرين عامنا الأول بالجامعة، وكيف كان ملتعباً بسبب غزو العراق الكويت، وتدخل أمريكا بقواتها العسكرية في المنطقة بدعوى تحرير الكويت، وكيف أن الزعماء العرب الأفاضل ساقوا أبناءنا في تلك الصفقة الحربية لنيل بعض المكاسب الزهيدة، التي لم نزل منها شيئاً في النهاية سوى الذل والهوان والخضوع أكثر للهيمنة الأمريكية. كان ذلك الحدث سبباً في خوضي غمار أول احتكاك حقيقي لي بالعمل السياسي، وكذلك تجربتي لأول دقائق تطرق باب قلبي، هل مازلت نتذكرين قلبي لك مداعباً: (شكراً لصدام حسين ويوش عشان خلوني أعرفك!)؟! هل نتذكرين كيف التقينا أول مرة بين الأجساد المتراحمة في تلك المظاهرة التي اشتعلت الجامعة بها، فور إرسال مصر قواتها للمشاركة في ما سمي حرب تحرير الكويت؟! كان يوماً عاصفاً ومهيباً مازلت أذكره حتى الآن، اجتمعت التيارات اليسارية في الجامعة، وقررت أن تقيم سلسلة من المظاهرات في الجامعة تخرج إلى الشارع وتصل حتى ميدان التحرير، في الوقت الذي اتفقت فيه أيضاً التيارات الإسلامية على إشعال مظاهرات، وفي النهاية اتفقنا جميعاً على أن تقام تلك المظاهرات في نفس الوقت.

كانت الساعة الثانية عشرة عندما بدأ قائدنا في الجامعة أحمد حسني بالصعود على سلاّم قاعة احتفالات الجامعة، للتدديد بالوجود الأمريكي في الأراضي العربية، ومشاركة القوات العربية بما فيها المصرية في هذه المهزلة، في نفس الوقت تقريباً كانت التيارات الإسلامية تقوم بعمل الشيء نفسه من أسفل ساعة الجامعة، وبعد مرور ساعة تقريباً أخذت الهتافات تعلو تدريجياً، وينضم إلينا طلاب آخرون من الجامعة. دون أن ندري توافدت عربات الأمن المركزي على

الجامعة لتشكل سوراً حديدياً محيطاً بجدرانها، لم ندرك وجودهم بهذه الكثافة في البداية، وأذكر أن باسم قال لي عندما أشرت إليهم خارج بوابة الجامعة المركزية: (ما تقلقش دول الأمن المركزي، مسألة طبيعية واخدين عليها، كل ما نعمل مظاهرة بيعتوا عربيتين ثلاثة عشان يخوفونا). لكن الحقيقة كانت خلاف ما قاله لي باسم، فعربات الأمن المركزي لم تكن واحدة أو حتى خمساً، لقد كان سيلاً من العربات التي تتوافد وراء بعضها البعض، مسقطة عساكرها بملابسهم السوداء الكابية وهرواتهم ودروعهم الواقية، يصطفون وراء بعضهم البعض، مشكلين دائرة عظيمة تحيط بجميع أسوار الحرم الجامعي.

لم تمض ساعة أخرى حتى أغلقوا جميع أبواب الجامعة، حتى إن الطلاب الذين آثروا السلامة ورغبوا في العودة إلى منازلهم حبسوا في الداخل، ولم يجد بعضهم سوى الاختباء في قاعات المحاضرات، خوفاً من أن يصيبهم شيء أو يتم القبض عليهم. أذكر أن تلك المظاهرة كانت من أكبر المظاهرات التي شهدتها، فلا بد أن عدد الطلاب الذين احتشدوا بساحة الجامعة تجاوز خمسة آلاف.. كان الجميع يهتفون بصوت عال وبحماسة شديدة: (يا بغداد شدي الحيل، وري جيوش أمريكا الويل. اللي بيضرب في العراق، بكرة هيضرب في الوراق. وعلي صوت الأريجييه، هدي بلاد السي أي إيه. آه يا بلادنا بقولها بحسرة، باعو القدس وباعو البصرة. يا جبان يا جبان يا عميل الأمريكان).

وعندما بدءوا إلقاء القنابل المسيلة للدموع اختلط حابلنا بنابلنا، وتداخلت أجساد الطلاب في بعضها البعض، لكننا لم نتوقف عن الهتاف، ووجدت باسم يهتف في غضب شديد: (يا حرية فينك فينك، أمن الدولة بيني وبينك). وربما شعور الغضب الذي اعترى الجميع حينها مما يفعله الأمن المركزي بنا، وتساقط بعضنا مغشياً عليه من

تأثير الغاز المسيل للدموع، جعل الشباب يلتفون حول باسم، يصفقون جميعاً وهم يقولون وراءه: (يا حرية فينك فينك، أمن الدولة بيني وبينك).. كنت واحدة من أولئك الطلاب يا أحلام، أتيت لتتدسي بيني وبين واحد آخر، ودون أن يرف لك جفن أخذت تصفقين وأنت ترددين وراء باسم: (علي فسور السجن وعلي، بكرة الثورة تقوم ما تخلي. يا حرية فينك فينك، مليون سنة بيني وبينك. عبد الناصر اصحا وشوف، الخيانة ع المكشوف). ثم بدأنا نغني للشيخ إمام، لم تكوني تحفظين له شيئاً بعد، لكنك التقتت الكلمات منا سريعاً وأخذت ترددين معنا: (إصحي يا مصر إصحي يا مصر، هزي هالك هاتي النصر).. كان الغاز المسيل للدموع قد تمكن منك، وأخذت تتركين عينيك بعصبية شديدة وتسعلين بصوت عال، حينها أخرجت لك المناديل الورقية التي في جيبك وأعطيتك إياها، لم أستطع من شدة الزحام أن أسحبك خارج الدائرة التي كونها باسم بهتافاته، فاكثفت بأن أحطتك بذراعي وأنت تحاولين برغم ما كنت تعانينه أن تبعدى ذراعي الملتفتين حولك، لم أجد شيئاً لأقوله سوى: (ما تخافيش إحنا زملا والموقف اللي احنا فيه ما يخليش حد يفكر بدناءة)، حينها نظرت إلي بعينيك الملتهبتين، وبرغم ذلك اخترقتني بطيبة نظرتك التي لم أر مثلاً في الوجود، حتى في نظرة جدتي.. (أنا اسمي سعيد مختار طالب في سنة أولى سياسة واقتصاد وإنتي؟)، (أنا أحلام السيد برضه في سنة أولى بس في إعلام)، ثم سقطت متهاوية، لكن أجساد الطلاب المتعشقة لم تسمح بسقوطك على الأرض، أحطتك بذراعي حتى لا تدهسك أقدام الطلاب، الذين أسكرتهم موجة الغضب والرغبة الحقيقية في إحداث تغيير ما، وربما كنا نفكر جميعاً حينها أنه لا بد أن تعود الكئاب المصرية من الكويت دون المشاركة في الحرب، بعد ما فعلناه في ساحة الجامعة يومها.

ظللت أحيطك بذراعي حاجباً جسدك عن الانهيار أرضاً، حتى سمعت صوتاً يشبه صوت عربة الإسعاف، حاولت أن أنظر لأتبين موقعها، لكن الدخان وعيني الغارقتين في الدموع لم يساعداني على تحديد الموقع جيداً، ظللت حائراً لا أدري ماذا أفعل، حتى وجدت نفسي أصرخ قائلاً: (حد يساعدني يا زملا، أرجوكم حد يساعدني، الزميلة مغمى عليها ومش عارف أعملها إيه)، سمعني بعض ممن إلى جوارني فالتفتوا ناحيتي وحملوك معي، أخذنا نلف وندور حول بعضنا البعض ونحن مرتبكون لا نعرف كيف نحدد مكان عربة الإسعاف، في النهاية عثرنا عليها، فسلمناك إلى الممرضات اللاتي يختبئن داخل العربة خوفاً مما يحدث في الخارج، وقالت لنا واحدة منهن: (والنبي يا اخوانا لو لقيتم حد مغمى عليه ثاني هاتوه). بعدها اكتشفنا أن هناك أكثر من عربة للإسعاف، أرسلها ولاية أمورنا العطفون لإنقاذنا بعد أن ألقوا علينا قنابلهم!

انتهت المظاهرة نحو الساعة العاشرة ليلاً، بعد أن انهار الكثيرون منا، وأصيب جلنا بالتعب والإرهاق، سمعنا أنهم قبضوا على عدد من زملائنا من جميع التيارات، وأتت إلينا الأوامر بأن نعود إلى منازلنا على أن نتجمع مرة أخرى غداً صباحاً.

عندما عدت إلى جدتي بملابسي الممزقة وشعري المشعث وعيني الداميتين وجسدي المنهار، أطلقت صرخة ملتاعة، ثم احتضنتني وهي تسأل برعب حقيقي عما ألم بي، أخبرتها بأنه كانت هناك مظاهرات في الجامعة، لكنني خفت أن أخبرها بأنني شاركت في تلك المظاهرات، بالطبع لم تهدأ وأخذت تستحلفني بالله وبجميع الرسل والأولياء ألا أكون شاركت في هذه المظاهرات، لم أجد مبرراً لذكري الحقيقة أمامها وحلفت أنني لم أشارك، وأن ما آل إليه مظهري كان بسبب محاولاتي اليائسة للخروج من الجامعة، بالطبع لم تصدقني،

خاصة بعد أن طرق بابنا عم عبدالله الزيتوني، متسائلاً إذا ما كنت رأيت باسم لأنه لم يعد حتى الآن، لم أجد حينها بداً من قول الحقيقة كاملة أمامه وأمام جدتي، التي أخذت تولول وتلوم نفسها لأنها وافقتني على البقاء لديها وعدم العودة مع أبي، كانت خائفة من المسؤولية التي قد تقع على عاتقها إذا ما قبض علي، كما اشتبهنا في أن يكون قد حصل ذلك بالفعل لباسم، برغم ذلك أخذ عم عبدالله يطيب خاطر جدتي ويطمئنها قائلاً: (ده حقهم يا ام مختار.. دي بلادنا وبلادهم وزى ما كنا بنحلم ليها واحنا شباب من حقهم هما كمان يحلموا). برغم كلماته الشجاعة، كان القلق الذي ينهش كبده بادياً على وجهه وأطرافه التي ترتعش في وقار، وبعد مرور ساعة تقريباً جاءت أخت باسم تبلغ أباهاً أنه وصل منهكاً وتعباً للغاية، جرى الرجل مهولاً على السلام غير مصدق، تبعته إلى حيث منزلهم، وبمجرد أن رأيته باسم احتضنني بقوة وقال: (النهارده كان يوم مشهود يا سعيد.. بكرة لازم نكمل اللي بدأناه).

في اليوم التالي رفضت جدتي أن تتركني أخرج، أحضرت كرسي السفرة ووضعت أمام الباب قائلة: (لو عايز تخرج شيلني وارميني بعيد الأول)، (يا نينه ما ينفعش اللي انتي بتعمليه ده.. إنتي ما يرضكيش ابن ابنك يكون جبان في نظر أصحابه)، (عيش جبان أحسن ما تموت شجاع)، (بذمتك إنتي مؤمنة باللي انتي بتقوليه ده؟!)، (أيوه يا سيدي أنا مؤمنة بيه).. كان باسم يناديني آنذاك من بئر السلم فاستشطت غضباً منها، وأخذت أهددها أنني سأحملها بالفعل من أمام الباب لأخرج.. (شيلني يا ابن مختار وكسر كلامي هو انت هتجيبه من بره؟! ما ابن الوز عوام)، أصابتني كلماتها تلك بحزن شديد، فمن الصعب أن تقارنني بأبي، أبي الذي يتأرجح الآن على كرسيه الهزاز من وراء مكتبه الأبنوسي الفاخر، باحثاً عما يمكن كسبه من وراء تلك

الحرب، وهذه الجثث التي تتزايد يوماً بعد يوم من جميع الصفوف المشاركة في الحرب، وجددتني أقول لها: (أنا يا نينه ابن الوز؟! كنت فاكرك هتشجعيني وتقوليلي إني بفاكرك بجدي اللي هتف ضد الانجليز.. مش فاكرة حكياتك ليا عنه، وإزاي كان بيهتف ضد الانجليز ويرمي الورد على الجنود وهما ماشيين في الشوارع رايعين على الجبهة عشان يحاربوا إسرائيل؟! كنت فاكرك هتقوليلي إني باكمل مشواره لما كان بيروح يتبرع بدمه لجرحى الحرب في ٦٧ و ٧٣، ولما شارك في حرب ٤٨ ورجع حزين بعد ما خدوا مننا فلسطين، يا نينه هما عايزين ياخدوا اللي بعد فلسطين لغاية ما يوصلوا لمصر، عايزاني أعيش جبان لغاية ما أموت جبان على إيد إسرائيلي ولا أمريكي بعد ما يدخلوا مصر كمان؟! هه؟! قولي يا نينه عايزاني أعيش جبان لغاية ما أموت جبان برضه؟!).

لاحظت الدموع تتساقط على خديها وهي تنهض بئس شديد، وتفسح لي الطريق كي أعبر من الباب الذي فتحتة بيدها، حينها احتضنتها بقوة قائلاً: (ماتخافيش عليا يا نينه هارجعك سليم، ديتها كام قميص وينطلون بس يقطعوا!))، ثم قبلتها ونزلت إلى باسم لنتوجه إلى الجامعة، لم أكن أتخيل أبداً أنني سأراك ثانية ذلك اليوم، فلقد اعتقدت أنك مازلت مريضة، ومنيت نفسي بزيارتك في كليتك التي تقبع في الدور الأخير من مبنى كليتي، بعد انتهاء هذه المظاهرات وعودة الكتائب المصرية.. ها ها ها ها! عودة الكتائب المصرية؟! كم كنا أغراراً صغاراً.

كان التجمع في اليوم التالي أقل من السابق عليه، لكن كان عددنا لا بأس به على أية حال، ربما كان ذلك سبباً في رؤيتي إياك بسهولة، كنت تبحثين عني كما أخبرتني بنفسك بعد ذلك، بمجرد أن رأيته جريت نحوك واحتضنتك كفك مصافحاً بحماسة شديدة أخلجته،

فسحبت يدك مدارية خجلك وأنت تقولين: (فقت بسرعة إمبراح، قالتلي الممرضة إن واحد زميلي هو اللي شالني لعندهم، وطبعاً عرفت إنه لازم يكون إنت، عشان كده أنا جاية النهارده أشكرك)، (جاية النهارده عشان تشكريني بس ولا كمان عشان المظاهرة؟!)، (صدقني أنا ما اعرفش إن في مظاهرة النهارده كمان)، (هو انتي تبع الجماعات الإسلامية؟!)، حينها نظرت إلي بتعجب متسائلة: (جماعات إسلامية إيه؟!.. أنا مش تبع حد)، (أمال مشيتي في المظاهرة بناء على إيه؟!)، (بناء على إني عربية وأرفض التدخل الأمريكي في الشؤون العربية، وكمان عشان بحب بلدي جداً)، (يعني انتي مش تبع الجماعات؟!)، (ما قلتك لأ!)، (أمال لابسة حجاب ليه?!)، فنظرت إلي بذهول ثم قلت بغیظ: (سبحان الله أنا حرة، وكمان أعتقد إن أنا مسلمة والحجاب فرض على كل مسلمة، ولا انت عندك رأي ثاني?!)، (طيب طيب ما تتنرفزيش.. قوليلي إنتي بتحبي عبد الناصر؟)، (ومين مش بيحبه?!)، (لا من الناحية دي في كتير مش بيحبوه، بس عموماً طالما بتحبیه يبقى ممكن نبدأ نتفاهم مع بعض.. تعالي)، ثم أمسكت بيدك جاذباً إياك ورائي، لحظتها نزعت يدك من يدي بعنف وقلت لي: (في إيه يا ابني انت؟! إنت فاكرني إيه بالضبط?!)، نظرت إليك دهشاً ثم قلت: (إيه في إيه بس?!)، (في إيه بس?! إنت إزاي تمسك إيدي كده?! أما انت بني آدم مش محترم صحيح، عموماً أنا جيت أشكرك، لكن باين عليك ما تستاهلش!)، ثم وليت وانطلقت مندفعة نحو فتاة أخرى محبة أيضاً كانت تنتظرك بعيداً، عرفت في ما بعد أنها صديقتك الحميمة منى حاكم.

برغم تصرفاتك الخشنة، وغطاء رأسك المزعج، ونبرة صوتك العنيفة، إلا أن هناك شيئاً حرك مشاعري تجاهك، ولأنتي أعلم أين

أجذك بعد ذلك تركتك تمضين، وذهبت للانضمام إلى صفوف
المظاهرة التي بدأت الاشتعال.

تكرر مشهد الأمن المركزي مرة أخرى، ولكن هذه المرة ألقوا
علينا الحجارة من خارج سور الجامعة، ثم ادعوا بعد ذلك أننا نحن
الذين ألقيناها على نوافذ الجامعة لنحطمها! إضافة إلى إطلاق
الرصاص البلاستيكي الذي أمطرونا به. كان ذلك اليوم أكثر عنفاً،
ونظراً إلى قلة عددها عن اليوم السابق استطاعوا أن يصيبوا الكثيرين،
فمات طالب من كلية الحقوق، وأصيبت عين آخر من كلية الهندسة،
غير المتساقطين من جراء الغازات الخانقة، والقبض على عدد كبير
منا وصل إلى خمسمائة طالب، كنت أنا واحداً منهم!

تلك كانت تجربتي الأولى مع النضال من أجل الوطن، هكذا كنا نسميه: (النضال من أجل الوطن).. ربما تعود تلك التسمية إلى تأثرنا بالأفلام القديمة التي تتردد فيها هتافات مثل: (مصر مصر تحيا مصر)، أو (نموت نموت ويحيا الوطن).. أذكر أنه جمعتني المصادفة ذات مرة بأحد الشباب (الروش) في كليتنا، وأخذ يطلق علي النكات مستهزئاً بنشاطي الطلابي الذي يأخذ منحى سياسياً دائماً، فأخذ يقول: (آه إنتم بقى بتوع نموت نموت ويحيا توتو)، لدغتنى الكلمة فقلت مستفسراً ربما أكون قد سمعته خطأ: (توتو؟!)، فأجابني باستهانة شديدة: (آه توتو! إنت فاكِر إن في حد غير توتو له حق الحياة في البلد دي.. يا ابني فوق بقى إنت واصحابك وعيشوا)، ثم تركني وذهب. بالطبع نظرت إليه باحتقار شديد حينها، وقلت إن من هم مثل هذا الشباب أحد أسباب انهيار البلد.. أما الآن فلا أعتقد هذا، فلقد كان الفتى محقاً.. لقد اختار الحياة على الموت من أجل لا شيء.. نعم - للأسف - الوطن لا شيء.

بعد أن تم جمعنا من ساحة الجامعة بشكل عشوائي.. نعم عشوائي، فلقد كان رجال الأمن المركزي يجمعون ما استطاعوا من الطلاب دون تمييز، حتى إنهم أخذوا بعضاً من أصحاب الحظ التمس الذين كانوا يحاولون الفرار.. ذهبوا بنا إلى قسم شرطة الدقي، وألقوا بنا في الحجز، كان هناك الكثير من الفتيات معنا أيضاً، وشعرت بالقلق الشديد عليك، لقد كنت خائفاً أن تكوني واحدة من هؤلاء الفتيات، أو لربما تكونين ضمن مجموعة أخرى ذهبوا بها إلى قسم شرطة آخر. لن أدخل في تفاصيل كثيرة، من ذكر بذات ضباط الشرطة والعساكر

وغيرهم.. ولكن على العموم لم أمكث طويلاً في ذلك المكان النتن الذي لا يمت للإنسانية بشيء، فلقد خرجت سريعاً في اليوم التالي.

عندما لم أعد في تلك الليلة حتى الساعة العاشرة مساء وعاد باسم وحده، أخبر جدتي بأنه لابد أن أكون واحداً من المقبوض عليهم، أسرعت جدتي إلى الاتصال بأبي، الذي قام بتكوين فريق سريع من موظفيه للبحث عني في كل أقسام الشرطة بالقاهرة، وبالفعل قبل أن ينبلج الصباح كان قد تم تحديد مكاني، أتى أبي بجاهه وسلطانه مخرجاً إياي دون اتخاذ إجراء واحد، فقط كان داخل القسم في نفس اللحظة التي تلقى فيها الأمور اتصالاً ساخناً من شخصية أمنية عليا، في اللحظة نفسها تم إخراجي من الحجز مع اعتذارات شديدة لأبي ولي، وجملة واحدة سريعة على استحياء من الأمور وجهت لي: (ما تبقاش تقرب من العيال دول ثاني.. إنت ابن ناس مش زيه!).

قبلت الخروج ربما لضعف مني، وعدم قدرة على تحمل المزيد من الإيذاء النفسي والبدني الذي تلقيناه جميعاً في تلك البقعة العفنة، خرجت مع أبي صاغراً وأنا أجر أذيال هزيمتي وشعوري بالخيانة تجاه زملائي الذين خلفتهم ورائي، كان الضعف والإعياء يتملكان روحي وبدني، لا بسبب تلك الليلة التي أمضيتها في الحجز، ولكن بسبب إحساسي بأني ضعيف قابل للكسر سريعاً، وأنني بتلك الروح لا أستطيع القيام بالدور النضالي الذي اخترته لنفسه كطريق لحياتي.

في قصرنا الفاخر استقبلتني أمي بالدموع والجمال الهستيرية غير المفهومة، لم أجد في نفسي الحماس الكافي لتلقيها بنفس الشوق واللهفة، وجدنتي أنسحب من بين ذراعيها ملقياً سلاماً سريعاً على أخواتي، ونظرة جانبية لائمة نحو أبي، الذي كان يقف متحدياً لي وكأنه يعلن انتصاره علي، صعدت إلى حيث غرفتي كما اعتدت سابقاً، وألقيت بنفسي على الفراش ثم غرقت في نوم عميق.

عندما استيقظت في اليوم التالي وفتحت عيني، وجدتني أنفض فزعاً في الفراش وأنا أصرخ: (أنا فين؟!).. بعد قليل بدأت أدرك الأمر وأستعيد أحداث الليلتين الماضيتين.. في هدوء توجهت نحو الحمام واغتسلت، ثم خرجت باحثاً عن ملابس نظيفة لارتدائها، اكتشفت أن ملابسني المكدة بانتظام داخل الخزانة لم تعد تصلح لي، حقيقة تعجبت من نفسي آنذاك، فلقد أخذت أنصرف باستعلاء شديد مع كل شيء في تلك الغرفة وأولئك البشر في ذلك المكان، التقطت سماعة التليفون واتصلت بغرفة الخدم طالباً وصلي بأمي، وفي التو انطلق صوت أمي عبر سماعة التليفون مرحباً: (صح النوم يا حبيب مامي.. ياللا أنا مستتيك في الجنينة)، (الأول ابعتي هاتيلي هدموم ألبسها.. الهدوم اللي هنا صغرت عليا)، (وتفتكر دي حاجة تفوت مامي؟! فوراً آن هتطلعك بالهدوم الجديدة). وأن يا أحلام هي مديرة منزلنا التي تحمل جواز سفر بريطاني، فهذا أحد شروط الانتماء إلى طبقة الأثرياء الجدد: (أن تستخدمني من كان يستخدمك في الماضي)! نوع من أنواع تعويض الشعور بالنقص.

عندما ارتديت الملابس التي أحضرتها لي آن المبجلة، والتي استقبلتها من وراء الباب مجيباً: (thank you) على ترحيبها المترن بي: (welcome back sir)، توجهت مسرعاً نحو والدتي وأنا أردد بعنف في داخلي: (أنا مش باك، أنا مش باك يا آن!).

كنت أشعر بحيوية غريبة لا توحى بها المقدمات السابقة التي وقعت في اليومين الماضيين، خدعت أمي ملامحي المبتهجة والمستبشرة، كان من الطبيعي لفتي ينتمي إلى أم تعود لأصول تركية وأب صعد على دماء أبناء بلده، أن يعود إلى جذوره، فالأصل غلاب كما يقولون، لكنني لم أعد، وهذا ما أخبرت به والدتي على مائدة إفطارنا التي تحيط بها الأشجار في الحديقة، ويجاورها حمام السباحة الطويل

العريض، بالطبع لم تفهمني وأنا أشرح لها أنني لا أشعر بالانتماء إلى هذا المكان وهذه الحياة، وأنني اخترت طريقاً لا يتقابل وطريقهم، كانت تهز رأسها يميناً ويساراً بينما عيناها زائعتان في كل الاتجاهات، شعرت بالألم تجاهها، ففي النهاية هي أم محرومة من ابنها، لكن لم يكن باستطاعتي إرضاؤها، قبلت جبينها وأنا أؤكد نيتي زيارتها من وقت لآخر، ثم اعتذرت لها واستدريت خارجاً من جنة أبي، عائداً إلى السيدة زينب التي ما أن وطئت بقدمي أرضها حتى استنشقت ملء رئتي هواءها الملوث بكل عشق، وأنا أضحك وألقي السلام على كل من أمر به، وأطلق الوعود بأنني يوماً سأتمكن من تحويل السيدة زينب إلى قصر كبير أفضل من قصر أبي، قصر ينعم بالعيش فيه كل أهل السيدة زينب.

كانت تجربة المظاهرة والحجز ولقائي الأول بك يا أحلام، أكبر تأكيد لي أنني أسير في الطريق الذي أريده، وبرغم سذاجة أحلامي حينها، إلا أنها كانت بالنسبة لي الدنيا وما فيها من بهجة وسعادة وحتى ألم أريد العبور خلاله، لقد تيقنت تناسب اختياري مع شخصيتي، وأخذت أرسم الأحلام العريضة وأنا قابع على سريري المتواضع في شقة جدتي، غير عابئ بكل ما قالته من ضرورة عودتي إلى والدي، مادامت لم تستطع هي حمايتي من الطريق الخطأ الذي مشيت فيه، لم أدخل في جدل معها رغباً في الاستغراق داخل أروقة حلمي، الذي كنت تزينينه أنت بنظرتك التائهة، وبديك المضطربتين داخل كفي، وصوتك الأَجَش الذي ألقى علي الاتهامات، وخطوك الخجول والمرتعش وأنت تولين متجهة نحو صديقتك.

بعد ساعة أو ساعتين لا أدري، أتى باسم معانفاً إياي بفرح غامر، ثم جلس معي يخبرني بآخر الأخبار، لقد أغلقوا الجامعة لأجل غير مسمى، وزملاؤنا المقبوض عليهم لا يعرف أحد عنهم شيئاً، ولكن

يتردد أنهم سيظلون داخل الحجز حتى تنتهي الحرب، والأمن منتشر حول الجامعة بكثافة مانعاً أي أحد من الدخول حتى الأساتذة، والجرائد القومية تكتب عنا أننا مشاغبون، وقمنا بتحطيم نوافذ الجامعة والمقاعد الدراسية، وتكرر تماماً احتجاج أي طالب! أما الجرائد الحزبية، خاصة الأهالي والوفد، فتشيد بالموقف الطلابي، وتطالب بخروج الطلاب المقبوض عليهم، وتطالب بعودة كتائبنا من العراق.. إذن فعلنا شيئاً حقيقياً، أحدثنا هزة ما في الشارع المصري، على الأقل أوصلنا صوتنا إلى العالم، ورفضنا بيع إخوتنا في العراق من أجل حفنة دولارات ألقتها إلينا أمريكا.

كان انتصاراً صغيراً يليق بأحلامنا الغضة، وبرغم أن كتائبنا لم تعد إلا بعد انتهاء الحرب، وبرغم أن زملائنا لم يخرجوا أيضاً إلا بعد انتهاء الحرب، وبرغم أننا فعلياً لم نحقق أي انتصار يذكر غير انتصار النباح بأعلى صوت لدينا، إلا أننا وفي اجتماعاتنا التالية أخذنا نشيد بالموقف الطلابي، ونؤكد أن ما حدث يعد صحوه طلابية تعيد مجد دور الجامعة في الأربعينات والسبعينات، ونضع الخطط لاستقطاب المزيد من الطلاب لتيارنا السياسي، لأن عدد الإسلاميين في المظاهرة أطلق صافرة تحذير بأننا فعلياً تضاعلنا بشكل مفرع، وأنه علينا أن نعود إلى أمجاد السابقين لنا، مع ملاحظة عدم ذكر رئيسنا أن جل السابقين تخلوا عن أفكارهم، وهزلوا تجاه الإسلاميين لتحقيق مكاسب مادية ومعنوية على أرض الواقع، بعد أن تأكدوا من رفض النظام تماماً لليسار بجميع أشكاله مفضلين اليمين.

بالطبع لم يمر الموقف مع أبي بسهولة، فبعد أن عاد إلى قصره وعلم من أمي أنني عدت إلى السيدة زينب، بعد هذيان طويل بكلام لم تفهمه أمي لكنه ذكرها بعبد الناصر وانقلاب ١٩٥٢، حضر إلى منزل جدتي بعاصفة سبقتة على الباب: (فين الولد ده يا ماما؟!..)

إنّتي إزاي تفتحيه الباب وتدخليه بعد اللي عمله؟! أعتقد مفروض إنك تساعدينى على تربيته مش تقويه عليا)، (طيب قول سلام عليكم إزيك يا أمي الأول.. وبعدين إنت كنت عايزني ما افتحلوش الباب؟!)، (أيوه ما تفتحلوش الباب وتقوليله يرجع لأبوه)، (ما أنا قلت الكلام ده، لكن ابنك مش عايز يرجعكم، شوف انتم عاملين فيه إيه مش مخليه عاوزكم؟!).

خرجت من حجرتي حيث كنت وباسم جالسين، انسل باسم في هدوء خارجاً، بينما بدأت أواجه أبي وأنا أحاول بقدر الإمكان التحكم في مشاعري، لكن أبي لم يكن آتياً من أجل التهاور معي، بل من أجل سحبى كالماشية نحو حظيرته الفخمة، (باللا يا زفت إنت لم هدموك وتعالى معايا على البيت)، (أنهي بيت؟! وبعدين هو أنا محتاج ألم هدومي عشان آجي معاك؟! الهدوم بتيجي في لمح البصر عندك؟!)، تمثلت إجابة أبي في صفعه حملت كل غضبه وحققه، نزلت على وجهي مصدرة صفيراً طن في أذني عالياً، حينها لم أتمكن من البقاء هادئاً فأخذت أصرخ في وجهه: (مش راجع معاك يا بابا إلا ما تقولي جبت فلوسك دي كلها منين؟!)، (يعني إيه يا كلب إنت فاكرنى حرامي?!)، (أنا عارف إنك ما مدتش إيدك في جيوب الناس ولا فتحت خزن ولا سرقت بنوك، لكن عارف برضه إنك كسبت فلوسك من السمسة على عرق الناس الغلابة، من بيع بلدك حتة حتة للأجانب، ومن المساهمة في انهيار الجنيه لصالح الدولار، من الغش والوساطة واللعب على كل الحبال)، حينها أعاد أبي مشهداً سابقاً، ولكن هذه المرة كان أكثر عنفاً، فلقد نزعت ورقة التوت التي يستر بها سوءته بمنتهى القسوة، أخذ يلطمني على وجهي ويدفع بي نحو الحائط ويلكمني في معدتي، بينما تتدافع ركلاته نحو جسدي الذي سقط على الأرض محدثاً دويّاً عالياً، لم أحاول إيقافه برغم أنه كان بإمكانه ذلك،

فقط قلت له: (صدقني إنت دلوقت ما تفرقش كثير عن الأمن المركزي وظباط الشرطة!)، ربما كانت كلماتي صاعقة بما يكفي لتوقفه، فأخذ يعدل هندامه بتوتر شديد وهو يلهث من كثرة ما ضريني، استدار متجهاً نحو الباب وهو يترنح ثم قال في ضعف شديد: (لو مت يبقى إنت السبب يا سعيد).

أحزنني كثيراً ضعف أبي وراودني حلم ساذج لحظتها، فلقد تخيلت أن ما حدث سوف يجعله يندم على اختياره طريقه هذا ويتبرع بثروته للفقراء، عائداً إلى جذوره في السيدة زينب.. لكن الواقع، هذا الذي لم أتعامل معه يوماً، يقول إن طعم المال مهما كان مصدره يسكر، ويمحو أشد المبادئ عتواً في التاريخ.. فقط الأغبياء مثلي هم الذين يختارون الفناء!

عدنا إلى مقاعدنا الدراسية بالجامعة بعد مرور شهر كامل، انتهت فيه الحرب على العراق ولتحرير الكويت(٩)!!.. عدت وأنا لا أملك الإجابة عن تساؤلات كثيرة داخلي أهمها: لماذا لا تسمع حكومتنا أصواتنا؟.. لماذا تنفذ فقط ما تريد دون أن تعبأ بما نريد نحن؟ برغم أنها نظرياً تمثلنا نحن ولا تمثل نفسها!.. كانت تلك هي تساؤلاتي عندما عدنا إلى اجتماعاتنا أيضاً في الساحة المقابلة لكلية الحقوق، كما اعتدنا أن نلتقي، لكن يبدو أننا جميعاً لا نملك الإجابة، فقط نملك الجدل والثرثرة والتظير الذي لا يؤدي إلى نتيجة.

لم أستطع إقناع نفسي بكل ما تم قوله عن فساد الحكومة، وتبنيها المنهج الرأسمالي في مقابل تخليها عن دورها تجاه تطوير المجتمع وبنائه، فلقد كان سؤالني دائماً: وأين نحن؟! إذا كانت الدولة قد تخلت عن دورها، فلماذا يبقينا الشعب مادامت لا تمثله وتعبّر عنه وتستجيب لاحتياجاته؟! بل على العكس، فالناس تتجاوب مع ما تقدمه الدولة، فيساهمون بأنفسهم في ضرب الصناعة الوطنية مثلاً، فإذا كانت الدولة قد سمحت بالاستيراد فهي لم تجبرنا على شراء المستورد ونبذ الوطني.. هناك مشكلة ما يا أحلام، مشكلة لا تكمن في الحكومة ولكن تكمن فينا نحن، هل تفهمين؟! وأنا الآن قد رحلت فهل يمكنك أنت أن تفعل شيئاً؟!.. أنت ومن معك من الأحياء.

طوال الشهر الذي منحونا إياه إجازة لمنتصف العام، أو إجازة لمنع التظاهر!.. سمها كما تشائين.. كان وجهك المستدير، وعيناك السوداوان الزائغتان في كل الاتجاهات بعيداً عن وجهي، وشفثاك المكتنزان في نعومة بالغة وتناسق ممتع مع أنفك المستقيم، تلح علي

في كل أوقاتي، حتى وأنا ذاهب إلى الفراش منهكاً من كثرة القراءة والنقاش مع باسم والمشى في الشوارع، فقد كنت تطاردينني بلا رحمة، حتى إنني كنت كثيراً ما أجلس متربعا في فراشي، مسنداً ذراعي إلى فخذي وحاملاً وجهي بكفي قائلاً لطيفك: (خلاص يا أحلام أنا مستسلم مش مهم أنا!).

بمجرد عودتنا إلى الجامعة صعدت إلى الدور الرابع من بناء كليتي حيث تستقر كليتك، سألت عن القاعة التي ينتظم فيها طلاب السنة الأولى، فأخبروني بأنه تم نقلكم إلى مبنى الامتحانات في آخر الجامعة، لأن الكلية ضاقت بطلابها من الصفوف الأربعة، توجهت إليك من فوري غير عابئ بمحاضراتي، وعندما وصلت إلى هناك وجدتكم داخل المحاضرة، كانت رغبتني في رؤيتكم تفوق احتمالي تأجيل لقائنا إلى اليوم التالي فقررت الانتظار، كان هناك بعض من الطلاب كالعادة لا يحضرون المحاضرة، ويجلسون على سلام المبنى يحتسون الشاي ويأكلون ويتسامرون، سألتهم عنكم فقالوا إنهم لا يعرفونك ولم يسمعوا الاسم من قبل، وقفت على باب قاعة المحاضرات أنتظر بصبر نافذ انفراجه في وجهي، بعد مرور ساعة ونصف تقريباً فتح الباب، حينها شهد قلبي أول خفقة قوية زلزلت صدري وهزت جسدي في عنف، لم أكن قد عثرت عليك بعد، لكن مجرد الشعور بأنني على وشك لقائك كان يهز خلاياي ويربك نبضات قلبي.. أخذت أنظر في كل الوجوه باحثاً عنك، ثم اختصرت الأمر في الوجوه الملفوفة بغطاء الرأس، وفي النهاية رأيت صديقتك منى حاكم، فاخرقت أجساد الطلاب المتداخلة حتى وصلت إليها.. (آنسة لو سمحت!)، (نعم.. حضرتك عايزني؟!)، (أيوه.. مش انتي صديقة أحلام السيد؟).. نظرت في منى بتمعن ثم قالت: (آآآآه! إنت بتاع المظاهرة مش كده؟!)، (أيوه)، (أحلام لسه جوه ممكن تدخلها).

تركناها دون حتى أن أوجه لها شكراً وذهبت باحثاً عن أحلامي، كنت جالسة على أحد المقاعد مستندة بمرفقك إلى الطاولة أمامك وتخطين شيئاً ما في دفترك، وجددتي أقترب منك بهدوء وأسألك: (بتعملي إيه؟!)، أجبت قبل أن تنتظري إلي: (باخرف على الورق)، وبمجرد أن وقعت عيناك علي نهضت مسرعة، فانطرح المقعد خلفك محدثاً جلبة جعلت بعض الطلاب الباقين في القاعة ينظرون إلينا، مما زاد من ارتباكنا وارتباكك، وجددتك تقولين لي وأنت تجمعين دفاترك وتلتقطين حقيبتك: (ياللا بعيد عن هنا بسرعة).. تبعتك وأنا أتعجب من جسارتك تلك في أن تدعيني للابتعاد، ربما إلى مكان ننفرد فيه معاً بعيداً عن الأعين، لكنني شطحت بخيالي بعيداً لكثرة أحلامي بك طوال الشهر الماضي، بمجرد أن خرجنا من مبنى الامتحانات توقفت ونظرت نحوي، وقلت وأنت تمدين يديك بسلام تعمدت برغم خطوك الحائر والمرتبك أمامي أن يكون رسمياً: (أهلاً وسهلاً يا سعيد)، (أهلاً يا أحلام).. أسلوبك جعلني أخترع في التوسيباً لحضوري إليك فوجددتي أقول: (الحقيقة شجاعتك في المظاهرات وانضمامك إلى صفوف اليسار في المظاهرة، رغم أنك مش منتمية فعلياً لينا، وكمان كلامك عن حبك لعبد الناصر، شجعني إني أحكي للمجموعة بتاعتنا عنك، وطلبوا مني إني آجي عشان أدعوك لحضور اجتماعاتنا، يمكن تعجبك أفكارنا وتبقى واحدة مننا)، (وانتم بقى بتقولوا إيه في الاجتماعات دي؟!)، (يعني بنتناقش في قضايا البلد، وتبادل الكتب والأفكار السياسية، ونعمل أنشطة طلابية لتوعية الطلاب بدورهم الوطني.. وحاجات تانية كتير).. برغم أنني كنت متيقناً وأنا أردد هذه الكلمات، التي لم أكن قد أعددت لها مسبقاً، من أنك سترفضين إلا أنك ابتسمت ابتسامة خلابة، ابتسامة مازلت أذكرها حتى الآن، ابتسامة خاصة بك وحدك لا ترتسم على أي وجه غير وجهك دون العالم كله، ثم قلت: (طبعاً طبعاً.. يا ريت يا سعيد، أنا من ساعة ما جيت الجامعة وأنا نفسي ألاقى مجموعة

أنضم إليها، ونعمل أنشطة زي اللي كنا بنعملها في المدرسة)، وانتم كنتم بتعملوا إيه؟!، (حاجات كتير.. الإذاعة المدرسية، والصحافة المدرسية، وأنشطة اتحاد الطلاب، ومجموعة أصدقاء المكتبة.. وحاجات كتير زي ما قلنا)، ابتسمت لسلاستك في إخراج الكلمات بعفوية لم أشهداها من قبل، فلقد كنت تتكلمين كطفلة ضائعة تبحث عن مأوى تنتمي إليه.. (هو الموضوع مش كده بالظبط.. بس يعني مشابه للي كنتي بتعمله في المدرسة، يعني احنا برضه بنعمل مجالات حائط وبنظم ندوات وبنبادل الكتب.. بس كل ده في اتجاه فكري معين)، (تقصد إيه؟!)، كنت خائفاً وأنا أقول لك ذلك، لكن كان علي أن أخبرك بطبيعة الأمور.. (يعني أقصد إن اتجاهنا يساري)، (يعني إيه?!)، (يعني شيوعي)، فأجبت بتساؤل طفولي بكر: (تقصد النظرية الشيوعية لماركس وإنجلز)، فوجئت بكونك تعرفين فسألتك: (إنت تعرفي ماركس وإنجلز?!)، (طبعاً أخذانهم في الفلسفة في الثانوية العامة)، (آآآه! طيب.. وإيه رأيك فيهم?!)، (الحقيقة ما فهمتش النظرية كويس قوي، لكن الحمد لله ما جتتش في الامتحان!)، (إنتي كنتي عايزاها تيجي في الامتحان?! ده كويس أوي إنهم درسوها لكم في المدرسة!)، (تقصد إيه?!)، (ولا حاجة.. المهم تقدري تيجي يوم التلات الجاي عند كافيتريا كلية الحقوق الساعة أربعة العصر؟)، (آه ممكن هأكون خلصت محاضرات)، (خلاص هاستناكي هناك مع الزملا.. إوعي ما تجيش)، (لا طبعاً هاجي).

ومضيت أعد الأيام حتى يوم الثلاثاء، مضى الوقت بطيئاً جداً، حاولت إشغاله بألف شيء، لكن شيئاً لم يستطع التغلب على حضورك داخل ذاتي، وجدتك قد تشعبت في خلاياي وأنسجتني أكثر، بتلك العفوية والبساطة والانطلاق النابض في الحديث، أنت لم تشاهدي نفسك وأنت تتحدثين يا أحلام، أنت تتحدثين وكأنك تقدمين رقصة

الحياة لكل المهزومين على الطرقات، نبرة صوتك القوية ورشاقة خطو
الكلمات على أثير الهواء، تحدثين ضجيجاً ممتعاً وكأنك تتفخين في
البوق لتحيي العظام من أجدائها! دائماً ما كنت أراك إيزيس.. إيزيس
التي تجمع العظام لتعيد خلق الحياة.

كان اجتماع الثلاثة هو البداية، حضرت يا أحلام، بالتأكيد مازلت تتذكرين، حضرت بريئك الدائم وسيمفونيتك الأبدية، برغم حيرتك البادية والخوف الطفولي الذي يتلبسك دائماً، وكأنك طفل ضائع من أمه في زحام السوق ومتاهاته، كنت شرهة إلى معرفة كل شيء، تطلبين الكتب وتلحين في الحصول عليها، تنكبين على قراءة كل سطر، وتحضرين إلي في كل الأوقات لتسألي عن كل ما لا تفهمينه، تساؤلات وتساؤلات ولا حب على الإطلاق، كان هذا الجبل من الأخلاقيات التي حملوك بها أهلك ومجتمعك الريفى حائلاً بيني وبينك، حتى وصلت إلى قرار الاكتفاء بحبك صامتاً داخلي دون البوح به أو حتى التعبير عنه، كنت أتعامل مع المعطيات التي تقدمينها، الاجتماعات والأسئلة والكتب المتبادلة، لا أنكر أنك كنت زميلة رائعة لنا جميعاً، لكن لا خصوصية لي أو لغيري على الإطلاق، ظللنا على هذا الحال حتى جاء الاشتباك العنيف مع أحمد حسني، كان دائماً يطلق النكات على غطاء رأسك، ويشير إليه دوماً بأنه حاجب للذكاء ودليل عبودية المرأة، وكنت باستمرار تستقبلين كلامه بصمت كاتمة غيظك، حتى جاء شهر رمضان وأتيت إلى موعد اجتماعنا الأسبوعي، وكان أحمد وبعض الزملاء يدخنون، فسألتني باستنكار شديد: (إيه ده هما مش صايمين ليه؟!)، شعرت حينها بأن أزمة ما ستحدث فقلت لك: (مالناش دعوة.. هما عموماً مش متدينين)، (عادي ما أنا مش متدينة بس باصلي وأصوم.. دي فروض ربنا وتأديتها مسألة لازم تكون طبيعية، بعدين أنا أفهم إن الإنسان ما يصليش كسل أو دلع أو أو.. لكن ما يصومش؟! دي أول مرة أشوفها. وبعدين يعني إذا بليتم فاستتروا، لو هو مش صاييم بلاش على الأقل يجهر بالبجاجة دي بعدم

صيامه، يا أخي دول المسيحيين بيحترموا مشاعرنا وبيرفضوا ياكلوا قصادنا، هو بقى المسلم مش قادر يمسك نفسه!)، ولأن صوتك كان مرتفعاً وصلت تعليقاتك إلى أحمد، فالتفت إليك وهو ينفث دخان سيجارته في وجهك متعمداً: (ومين قالك بقى إن أنا مسلم ولا حتى مسيحي ولا أساساً معترف برينا بتاعكم؟!).

كنت أعلم جيداً أن أحمد ملحد، لكني كنت أعتبر مثل كثيرين من الزملاء المنتمين إلى الشيوعية، أن هذا الأمر مسألة شخصية، لذا لم نتطرق لها أبداً في حديثنا، حتى ونحن في قمة نقدنا للدين واستخدامه من قبل الإقطاعيين والبرجوازيين، ليتحكموا في رقاب البروليتاريا ويخضعوهم لمصالحهم، وكنت أعلم أيضاً أن أحمد لا يتوانى لحظة عن إعلان إلحاده متحدياً كل المجتمع، وكنا دائماً نختلف معه في هذا الأمر، لكنه كان يعتبره مسألة شخصية، وكأنه نبي الإلحاد ويريد أن يجمع أنصاراً لدينه! ومن هنا جاء الاشتباك الضاري الذي تم بينك وبين أحمد، والذي استمر أكثر من شهرين، كان أحمد قد تمكن منك بالفعل، فبرغم تربيتك الدينية المتشددة ومعلوماتك الغزيرة عن الدين، إلا أنك كنت صغيرة بالنسبة لأحمد، الذي كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، يحترف الجدل وتكسير التابوهات دون رحمة.

ووصل الأمر إلى أن أقنعك تماماً بأن الله ليس موجوداً، وأن عليك تحطيم كل الرموز التي تمثله على الأرض، بداية من أنبيائه ونهاية بالحجاب الذي ترتدينه، كنت أراك برغم تسليمك وإذعانك الشديد له، في حالة شك وبلبل شديدتين، تدورين حول نفسك كدجاجة جزت رقبتها في التو، وكنت أحاول أن أساعدك وأنصحك بألا تتماذي في هذا الجدل مع أحمد.. أتذكرين عندما قلت لك: (يا أحلام لو انتي نفسياً مستريحة لفكرة إن الله موجود يبقى لازم يكون موجود، حتى لو كان في الحقيقة مش موجود! وعموماً الإنسان حتى لو لم يكن هناك

الله لأوجهه!). حينها نظرت إلي من صحراء شتاتك ومضيت مولية وكأنني لم أقل شيئاً، وعندما ابتعدت خطوات قليلة قال أحمد بصوت عال وكأنه يذكرك بشيء اتفقتما عليه: (ما تتسش بقى.. بكرة عايز أشوفك من غير القيد ده)، وأشار إلى رأسه.. كنتما قد اتفقتما على أن تنزعي غطاء شعرك، وبرغم أن غطاء شعرك لا يهمني في شيء، إلا أنني حزنت كثيراً لأنك اتخذت هذا القرار الذي لم ينبع قط من داخلك، كان أحمد قد استحوذ على عقلك تماماً، كنت أراك كقطعة عجين يعيد تشكيلها بين أصابعه، وكنت مكبلاً أمام كل شيء، لم أكن أدري ماذا أفعل لأنفدك من بين براثنه، فلقد كان أحمد برغم ثقافته الواسعة وقيادته لنا بالجامعة، لا يملك عاطفة إيجابية من أينا تجاهه، فلقد كان عنيفاً متغطرساً لأبعد حد يمكن الوصول إليه، وكنت أنت واقفة في عزلتك بعيداً، رافضة أي محاولة مني أعبر بها عن مشاعري تجاهك.

بالطبع كان من المفترض أن تأتي في اليوم التالي دون حجابك، لكنك ظهرت به، كنت تخطين نحونا بقوة وثقة، يشع من عينيك خيط ملتهب من التحدي، كنت تعلمين وجهتك فاتجهت إليها مباشرة، وقبل أن ينطق أحمد متسائلاً عن سبب ارتدائك الحجاب حتى الآن، قلت له بتحد: (ربنا موجود حتى لو ما قدرتش أثبتلك، أنا خلاص اتأكدت إنه موجود)، حينها نظر إليك أحمد بسخريته المعهودة قائلاً: (إيه بعنلك الوحي؟!)، وأثناء ضحكته التي دوت في أرجاء المكان أجبته بصدق: (أيوه بعنلي الوحي يا أحمد.. بعتهولي).

وأنت تستديرين ذاهبة جريت وراءك.. (أحلام استنتي.. إنتي رايحة فين؟!)، كنت تبكين يا حبيبتي وأنت تقولين كطفلة شاكية: (ماشية.. ماشية من هنا ومش هاجيلكم تاني ولا عايزة أعرفكم)، (طيب إهدي من فضلك بلاش انفعال)، (أنا مش عايزة أشوف أحمد ده تاني، ولا عايزة أشوفكم كلكم، أنا مش عايزة أعرف كفرة)، (كفرة؟! كبيرة

الكلمة دي يا أحلام، بلاش الأبيض والأسود اللي انتي عايشة بينهم دول، لازم تعرفي إن في ألوان تانية كتيرة في الدنيا، وكمان لازم تحترمي الاختلاف)، (هو اللي مش بيحترم الاختلاف، واللي ما يحترمنيش ما احترمهموش)، (طيب خلاص زي ما انتي عايزة.. ممكن طيب تطلعيني من الحسبة دي كلها، والله يا ستي أنا مؤمن بالله)، قلت لك هذه الجملة بنبرة مستعطفة، فنظرت إلي بشفافيتك الخلابة، وابتمت من بين دموعك وقلت لأول مرة بنعومة: (أنا من الأول وأنا مطلعاك من الحسبة!).

كان الرقص هو رد الفعل الطبيعي لما قلته، لكنني ضغطت على قلبي وقيدت أطرافي، وقلت من بين أسناني التي أكرها حتى لا تترك العنان لشفتي اللتين كانتا تختلجان ارتعاشاً: (إنتي هتعملي ايه في الشهر اللي فاضل على الامتحانات؟)، (هاروح البلد عشان أذاكر في بيتنا، أنا السنة دي ما ذاكرتش خالص أي حاجة في المنهج، كل اللي ذاكرته هو الشيوعية بتاعتكم دي!)، (هي خلاص مابقتش بتاعتك إنتي كمان؟!)، (لا بتاعتي ولا اعرفها)، (مش ممكن يا أحلام.. بعد كل تعبك وإيمانك بأفكارها تسيبها عشان اختلاف مع واحد، بالتأكيد مش هو اللي بيمثلها؟!)، (الإسلام أساساً بينادي بالعدالة الاجتماعية ومساعدة الفقراء والمساواة بين البشر، من قبل ما يطلع ماركس وإنجلز)، (بس إنتي عارفة إن الموضوع مش بس كده.. ده أكبر بكثير)، (أرجوك يا ريت تقفل موضوع الشيوعية ده معايا لو عايز صداقتنا تستمر)، حينها قلت ملهوفاً: (أنا في عرض النبي! طظ في ماركس وإنجلز وكل الشيوعيين لحد أحمد حسني، بس صداقتنا تستمر!)، وغرقنا في الضحك، أتذكرين؟ من هنا وبعد أن خلفت ورائي كل تلك الأيام، مازلت أذكر أحلى الأوقات التي أمضيها معاً، كان ذلك واحداً منها، فلقد اعترفنا ضمناً بمشاعرنا تجاه أحدهما الآخر، وكان

منحك لي رقم تليفون منزلك في البلد أكبر انتصار حققته في الحياة آنذاك.

وسافرت إلى البلد، غبت شهراً كاملاً عن عيني، وإن كنت أتصل بك دوماً وأتحدث معك طويلاً، حتى تصرخ جدتي: (يا ابني حرام عليك! ده انت بتتكلم مباشر.. يعني نموت من الجوع عشان سيادتك بتحب؟!)، فكنت أضطر إلى أن أنهي معك الكلام، الذي كان لا يمكن أن ينتهي أبداً، في كل مرة نجد جديداً لنحكيه، ولكن في كل مرة أخاف أن أقولها: (أحبك).. كيف من الممكن أن أقولها وسط خجلك الشديد، وصمتك أمام ثرثرتي التي لا تنتهي، وتغييرك مجرى الحديث عندما أنسى نفسي وأغازلك؟! كان كلانا يعرف أن الآخر يحبه، لكن ما من سبيل حتى نصرح بالحب، وظللنا على هذه الحال حتى عدت، لكنك عدت عند موعد بدء الامتحانات تماماً، فلم أستطع التحدث معك في أي شيء، سوى في أخبار المذاكرة وماذا فعلنا في الامتحانات، وانتهت الامتحانات ففوجئت بك في اليوم الأخير تخبريني بأنك عائدة في نفس اليوم إلى بلدتك، لم أجد شيئاً لأقوله، وسألتك عما إذا كنت ستحضرين إلى القاهرة خلال الإجازة، لكنك أجبتني بأنك لا تعلمين، ولكن أحياناً تزورين القاهرة في الإجازة الصيفية مع أمك وجدتك وأخيك الأكبر، لقضاء بضعة أيام عند أحد أحوالك، لكن بما أنك وأخاك بالفعل كنتما في القاهرة طوال العام الدراسي فغالباً لن تأتوا.

وبالفعل مرت الإجازة ولم أرك، وبرغم انشغالي في نشاطاتي السياسية لم أستطع التغلب على طيفك الزائر لعيني دوماً، واكتشفت أن المكالمات التليفونية لم تعد تكفي، لكن لم يكن بيدي أي حيلة سوى الانتظار، خاصة عندما رفضت تماماً فكرة زيارتي لك في بلدتك.

ومرت الإجازة، كل يوم فيها عبر كقرن علي، برغم كل ما كنت غارقاً فيه من أعمال ونشاطات سياسية، فقد كنا نسافر إلى كل البلاد في مصر حتى نعقد الاجتماعات مع رفاقنا القليلين جداً، المتبقين من فلول الشيوعيين القدامى، والذين قضت على وجودهم حكومتنا الغراء، حتى إنها أقامت مركزاً لمكافحة الشيوعية، تماماً مثلما أقامت مركزاً لمكافحة المخدرات! كان أهم ما نناقشه في اجتماعاتنا هو قلة عددنا وكيف يمكن إنعاش حركة اليسار بشكل عام في مصر من جديد، غير غافلين عن قوة التيار الديني المناهض لفكرنا، والذي ينظر إلينا على أننا حفنة من الكفار أعداء الله.. الصمت الذاهل كان هو رد فعلي الأول كلما تكشفت لي وجهة نظر البسطاء من البروليتاريا - التي نعمل على غلبتها وانتصارها لحقوقها في الحياة - إلى الشيوعية، فلقد كانت مرادفاً للإلحاد في نظرهم ليس إلا، كنت أتعجب من ذلك الشعب الضخم الذي كان بأسره في يوم من الأيام اشتراكياً مستتيراً، وكان في نفس الوقت مؤمناً بالله يتعبد له في الجامع والكنيسة على السواء، دون أن يفكر أبداً في أن الاشتراكية كفر.. الصمت الذاهل يا أحلام هو الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع فعله تجاه هذا الهجوم الضاري من قبل الجميع علينا، دون حتى أن يتساءلوا عما تقدمه لهم الشيوعية من حلول تقضي على عبوديتهم لملاك أدوات الإنتاج، الذين يسرقون عرقهم مقابل فتات يقيم أودهم بالكاد كرقيق الأرض.. الصمت الذاهل هو الرد الوحيد على هؤلاء الذين يفضلون العيش على حدود الحياة، منتظرين الفوز بالجنة عوضاً عما لاقوه على الأرض من جوع ومرض وجهل، وتجاهل حكوماتهم لهم وسرقتها أحلامهم ورغباتهم على بساطتها ورقة حالها، والعجب العجاب هو تلك الجملة التي يردون بها

علينا بآلية إذا ما ذكرنا لهم عبد الناصر كمثال مبسط لما نريد أن يعملوا معنا على تحقيقه: (يا عم ده عيشنا في فقر)، وهنا لا أجد سوى الصراخ الذاهل فأقول: (بالهوي آمال إنتم عايشين في إيه دلوقت؟!).

تجربة مريرة تلك التي مررت بها في ذلك الصيف، فمن السهل تصور الأمور، لكن من الصعب جداً أن نلمسها بأيدينا ونبصرها بأعيننا، تلك الغرف الرثة التي يتكلمون فيها ثم يطلقون عليها منازل، وإذا ما فاز أحدهم بمنزل غرفة وصالة فهو الآن بالنسبة لأقرانه يعيش في قصر، وذلك الحلم السرمدي الذي يجرون وراءه جميعاً ويتلخص في: (عقد عمل في الخليج)، غير مدركين حقيقة زوال ذلك الحلم وتبدده، وأن ما كان يأتي من الخليج ما عاد يمكن الحصول عليه، وأنه حتى لو عادوا من الخليج بالآلاف فستتضب البئر سريعاً ويعودون إلى ما كانوا عليه، يرفضون الاستغراق معنا في التفكير ولو لساعة واحدة، قليلون هم الذين ينتبهون لما نقول دقائق معدودة، ثم يعودون ليفيقوا من الغفلة ولا يعلقون سوى بـ(موت يا حمار!)، أو (ومين يعني اللي هيسمعنا)، أو (وهي الحكومة هتسيينا في حالنا؟!.. يا عم إحنا عايزين نربي العيال).

الأحلام انحصرت في جهاز تليفزيون يوضع فوق الفرن الطيني، والمروحة التي تقيهم حر الصيف، والفيديو لزوم السهر، والثلاجة لزوم تزيين حجرة الضيوف.. دائماً ما كنت أشاهد هذا في المسلسلات والأفلام والكتب التي ترصد تأثير الانفتاح وهجرة المصري إلى الخليج، لكنني لم أكن أتخيل أن الصورة بمثل تلك البشاعة، أصبح الفلاح في الأرض عيباً، ومن يملك قيراطاً يحلم بأن يدخل في كردون المباني حتى يبيعه ويكسب نقوداً كثيرة جداً، نقود هي في الحقيقة لا تتخطى حدود الفكة لدى أبي، لكن بالنسبة لهم هي ثروة طائلة، الحلم بالثراء دون عمل أو عرق أو معاناة، الحلم بطاقة القدر التي تفتح

(للمبخت) دون حساب، وطاقة القدر هذه قد تكون تجريف أرض أو عقد عمل أو أرضاً تدخل في كردون المباني، أو حتى العمل في ترويج المخدرات أو النصب ولعب الثلاث ورقات!

هؤلاء هم البروليتاريا الذين نحلم بهم ولهم يا أحلام.. هل تتخيلين ذلك؟ هؤلاء البروليتاريا التي تمكنوا من مسحها والقضاء عليها، بنزعها من جذورها تماماً ثم إلقتها في الرطوبة والعفن حتى تحللت وتآكلت، هؤلاء الذين نعمل على أن نكتلهم ليقوموا بثورة تقضي على البرجوازيين الجدد في مصر، البرجوازيين الذين أتوا على الأخضر واليابس، وما عادوا حتى يحتكرون أدوات الإنتاج لتقديم شيء ذي قيمة أو نفع، بل يقدمون لنا البيبسي والشيكولاتة واللبن!!

مرت الأيام وكأنها قرون تتوالى على قلبي بقسوة، كنت أحتاج إليك إلى جانبي في تلك الأيام لترى أشياء كثيرة لم تريها، لتعرفي أن مصر ليست ذلك الكيان الرومانسي الذي يداعب خيالك في مساءاتك.. مساءاتك التي تمضيها في شرفتك تخاطبين نجمتك الأثيرة التي تعطي سماءك، لتعرفي أن مصر ليست تلك الحضارة التي تمتد لآلاف السنين، والتي ننطق باسمها في خيال أمام السياح وعدسات كاميرا التليفزيون، وأن الزعماء الخالدين لم يفعلوا شيئاً حقيقياً لهؤلاء التعساء الذين يخطون على أرضها منذ آلاف السنين، يمضي زعيم ليأتي آخر يفكر في خلوده بشكل أو بآخر، غير عابئ بهؤلاء الكادحين منذ الأزل، والذين انفجروا أمام أول إطلالة لشبح المال، حتى ولو كان مجرد ظل غير حقيقي!!.. الناس جوعى يا أحلام يسكن أمعاءهم جوع مزمن، جوع مسن استقر في بطونهم منذ الأزل، الناس يا أحلام يسكنون الأرض ولا يملكونها، يرون الطعام ولا يتناولونه، يغرقون في أحلام تتبدد من فورها، فقرروا ألا يحلموا، الخير في أعينهم هو في الخروج من الأرض، تلك الأرض التي لم يخرج منها بشري منذ أن خلقها الله إلى

الآن، استطاعوا أن يجعلوا الخروج منها هدفاً وحلماً، وكما قال لي أحدهم ذات مرة: (يا ابني الناس في مصر مقسومين لنصابين، وناس عرفت تخرج منها، وناس بتحلم بالخروج وقاعدة لأنها مش عارفة).. كان رجلاً مسناً.. فلاح يجلس على رأس أرضه التي بلغت بعد سنين طويلة من المشقة فداناً.. فدان يحلم بأن يورثه أبناءه الستة حتى يعملوا فيه ويزيدوه، لكنه يعرف في قرارة نفسه أن أول ما سيفعلونه بعد مماته هو بيعه.. (يا ابني شباب اليومين دول ما عادش زينا.. كنا زمان الأرض عندنا زي العرض، اللي يفرط في أرضه تمام زي اللي يفرط في عرضه، دلوقت بقى ما عدتش عرض وعاد اللي يحافظ على أرضه عبيط وغاوي فقر!)، هذا الرجل الذي يتمنى أن يطول عمره فقط حتى يرد الله العقل إلى أحد أبنائه، فيتصدى لباقي إخوته حتى لا يبيعوا الأرض.

هل تعتقدين يا أحلام أن أبناء هذا الرجل أشرار؟ هم ليسوا أشراراً يا أحلام، هم جائعون في عالم ممثلي بالمشهيات، تعرض عليهم دون أن يحق لهم أن يمدوا أيديهم ليتناولوا ولو النذر اليسير منها.. هؤلاء هم نحن يا أحلام، هم المصريون الآن.. المصريون الذين نهبوا نهباً منظماً على مدار العصور، وعندما أفاقوا قرروا ألا يطالبوا بحقوقهم المنهوبة عنوة، بل قرروا التفریط في القليل، معتقدين أنهم بذلك سيحصلون على الكثير المشتهى!

مرت الأيام وكأنها قرون في بعدك، كنت أحلم بك إلى جوارى ونحن نزور العمال في مصانعهم، لتتواصل معهم ونكتب تقاريرنا عن الأحوال العمالية في مصر، هؤلاء الذين وعدوا بالجنة ولم يطالوها أبداً، فقط أصبح لهم تمثيل في مجلس الشعب والشورى، تمثيل ولكن ليس تعبيراً عن واقعهم، مجرد ممثل تمنحه السلطة دوراً عظيماً يؤديه بعنصرية في أروقة مجلسي الشورى والشعب، هؤلاء الذين يغرقون في أمراضهم

المهنية ولا منقذ لهم منها، يصابون بالصمم والشلل والعمى والسرطان والفشل الكلوي والعقم، مما يتعرضون إليه في مصانع الغزل والنسيج والأدوية والمبيدات الحشرية وغيرها، ولا يتوفر لهم حتى ما ينص عليه قانوننا الأخرس من توعية صحية وعلاج، تمص الآلة مع صاحبها دماءهم لآخر قطرة ثم يلقون على قارعة الطريق.

ليت الأمر توقف عند عمال مصر في الداخل فقط يا أحلام، بل عاملنا في الخارج الذين تؤخذ حقوقهم وتلاحقهم الشرطة، ويعودون إلينا في صناديق معبأة بجثثهم أو مكبلين بالقيود، دون حتى أن يحصلوا على النقود التي نلوا بها وانتزعت آدميتهم من أجلها.. ولا مجيب.. لا توجد رحمة لا من الداخل ولا من الخارج، فنحن مهذرة دماؤنا يا أحلام لا قيمة لنا ولا سعر، عندما قالت راقية إبراهيم في يوم ما في فيلم زينب: (اللي مالوش أهل الحكومة أهله)، بالتأكيد كانت تقصد حكومة سرمدية تداعب خيالها الفقير، أو خيال حسين هيكल الذي كتب قصتها!

لا يمكن لي أن أنسى تلك الدموع المتساقطة على وجنتي ذلك الشاب الذي فقد غضاضة وجهه وريان عمره، عندما حكى لنا عن مأساته في الداخل والخارج، كنا حينها في مدينة مغاغة بمحافظة المنيا، وقررنا أن نجلس في أحد المقاهي نحتسي قليلاً من الشاي بعد يوم من العمل المرهق، رأنا هذا الشاب الذي شاب قبل الأوان، اعتقد لفرط حاجته أننا نمثل جهة حكومية مهمة، ويمكننا أن نساعد في عودة حقه الضائع من إحدى الدول العربية التي سافر للعمل بها وعاد صفر اليدين، بعد أن نهبوا حقه ورحلوه إلى مصر في قيد متين، برغم أنه لم يفعل شيئاً سوى الثورة في وجه كفيله المستبد.. قال لنا بعد أن علم أننا لسنا حكوميين ولا مهمين: (باللا البركة فيكم برضه، أنا على فكرة مش جاهل ده أنا معايا ليسانس حقوق.. طول ما كنت بادرس في

الجامعة كنت باحلم باليوم اللي أخرج فيه عشان أشتغل وأشيل أبويا وأمي اللي تعبوا عشان يخرجوني من الجامعة، وبالمرة أساعد في مصاريف اخواتي، وعشان كده تعبت نفسي في المذاكرة لغاية ما خدت الليسانس بامتياز مع مرتبة الشرف، ورغم إنه من حقي أبقي معيد إلا إنهم ما خدونيش وخدوا ولاد الدكاترة!) ينظر باستكانة ويقول: (ياللا زي بعضه ما يجراش.. قلت يا واد قدم في القوى العاملة وادرب في مكتب محامي على ما يجيلك التعيين، وبالمناسبة برضه ما قبلونيش في النيابة، قال إيه أنا ابن عامل وهما بياخدوا الناس المأصلة بس.. مع إن مصر ما عاdash فيها حد مأصل كلنا ولاد ناس في الأصل غلابة.. هي مش الثورة قامت ولغت الباشوية برضه ولا أنا غلطان؟!)، ينظر إلينا بتساؤل وكأنه ليس متأكداً من المعلومة، فنهز رؤوسنا بالإيجاب وقلوبنا تنفطر لهذا الفتى الذي فقد عقله.. يكمل فيقول: (المهم نعمل إيه؟!.. لما الوظيفة ما جتش والمحامي اللي بادرب عنده بعد سنتين يا دوب صرفلي خمسين جنيه في الشهر مرتب، كان هالك بيهم بدني، فكرت أهج من البلد، بصراحة كنت طهقان ووصلت معايا لحد هنا)، مشيراً إلى حلقومه، (وصيت طوب الأرض على عقد عمل بره لغاية ما جالي عقد.. أُمي باعت الغويشتين اللي في إيديها وأبويا إداني تحويشة عمره عشان أجيب تذكرة الطائرة وأطلع الباسبور وألاقي قرش أصرف منه لغاية ما اقبض، أي نعم كنت مسافر على شغلانة جرسون في مطعم.. لكن أهو أي حاجة وخلاص أحسن من الخمسين جنيه العمي أخرة صبري وتفوقي في كلية الحقوق).. يمد يده ليأخذ أحد أكواب الشاي المتراصة أمامنا ليرشف منه رشفة ويعيده بعد ذلك أمامنا مرة أخرى، ثم يقول: (ياللا.. لما رحنت هناك اتعرضت لمعاملة زي الطين.. ولا مؤاخذه يعني يا اخوانا.. وضغوط شديدة من الكفيل كان بيكرهني لله في الله ما اعرفش ليه؟! مع إنه كان بيعامل باقي الناس اللي معايا من بلاد تانية غير مصر كويس.. المهم ضربته في الآخر فبلغ عني

الشرطة واتهمني إني سرقتة، وفضلت مرمي في السجن شهور طويلة.. السفارة المصرية مش راضية تسأل عني، لغاية ما رحلوني على مصر رغم إن براعتي ظهرت.. رحلوني على هنا من غير حتى ما آخذ فلوسي اللي شقيت بيها سنتين من الغربة والقهر.. ولما رجعت هنا اشتكيت لطوب الأرض عشان يرجعولي حقي، لكن ما حدش عبرني بالجزمة حتى!)، وينظر إلينا معتذراً في مذلة: (لا مؤاخذه يعني بس هاعمل إيه؟!.. ده من غلبي)، وعندما سأله أحدنا: (تفتكر مين السبب في اللي حصلك ده؟)، أجب في هياج شديد: (البلد دي طبعاً.. دي بلد بتاكل عيالها.. بتمصص عضامهم وترميها لكلاب السكك.. الله يلعن دي بلد.. الله يلعن دي بلد)، وأخذ يلعن البلد مولياً صارخاً بأعلى صوته، كان صراخه مبالغتاً لنا فرجعنا كلنا إلى الوراء، وتدلّت أذرعنا إلى جوارنا في يأس، محملقين في ذلك المدى الذي يبتلع هذا الشاب رويداً رويداً، إلى أن قطع علينا صمتنا نادل المقهى قائلاً: (إحنا آسفين يا بهوات.. بس برضه الحق عليكم إنتم.. ليه تسمحوا للمجنون ده يقعد معاكم؟! ده أصله مشهور في البلد، كل ما يلاقي حد غريب يمسك ودنه وهاتك يا شكاوي من اللي حصله).

مجنون يا أحلام! طالب الحقوق المتفوق أصبح مجنوناً يهيم على وجهه في الطرقات، لم يتخيل المسكين يوماً أن وطنه سيتخلى عنه مرتين، الأولى عندما سلبه حقه في العمل داخله، مغلقاً في وجهه جميع الأبواب، والثانية عندما تخلى عنه في الخارج، تاركاً الغرباء ينهشون لحمه ويسحقونه بنعالهم.

مرت الأيام علي دهرًا في ذلك الصيف وأنت بعيدة عني، مرت علي تجر ثوانيتها بثناقل أرهق قلبي في انتظار إطلالة شمسك، شمسك التي انتظرت إشراقها لتتير الظلمة التي عشتها طوال أشهر ثلاثة، رأيت فيها وجهاً جديداً من وجوه مصر المظلمة.

عندما عدنا إلى صفوفنا الدراسية، كانت إرهابات سقوط الاتحاد السوفيتي قد بلغت أشدها، مما أصاب أحمد حسني وباقي الأصدقاء بتوتر شديد، كنت لا أدري ما سبب هذا التوتر، فحتى لو سقط الاتحاد السوفيتي فهذا لا يعني أن الفكر الشيوعي نفسه سقط، هذا ما كنت أردده باستمرار لهم، لكنهم كانوا ينطلقون في الشرح والتظير بما يؤكد أننا منهارون أيضاً مع الاتحاد السوفيتي.. الغريب يا أحلام أنك لم ترحمني أيضاً، فلقد كنت تنتظرين إلي بتشف، وكأنك أنت التي سحقت الاتحاد السوفيتي ومعه الشيوعية.. (شفت.. سبحان الله.. ربنا ما يسيبش أبداً دولة قائمة على عصيانه وإنكاره!). كانت نبرة صوتك مؤلمة، وحديثك مغلفاً بكلام الإسلاميين، لم أكن أعلم آنذاك أنك انضمت إلى صفوفهم بكلية الإعلام، تصلين مع نسائهم، وتحضرين اجتماعاتهم، وتبكين على ذنوب لم تقترفيها! لكني لاحظت تغيرات شديدة في سلوكك معي، فلقد كنت تبتعدين عني قدر طاقتك، حتى جاء يوم أخبرني فيه أحمد حسني بأنك ترشحين نفسك في انتخابات كلية الإعلام كمقررة ثقافية ضمن قوائم أسرة النور الإسلامية، كانت صدمتي ليست في انضمامك إليهم، ولكن في أن تتضمني إليهم دون أن تخبريني أو حتى تناقشيني في الأمر، صحيح أننا لم نكن قد صرحنا بالقول أننا نحب بعضنا بعضاً، لكن قلوبنا كانا يفصحان في كل لحظة وكل دقيقة، كنت واثقاً بقلبك قدر ثقتي بقلبي، فلا يمكن لملاك شفيف مثلك أن يكون بارعاً في التمثيل بهذا الشكل، كان كل ما فيك يهمس لي بأنك تحبينني، وكنت أحترم خجلك وأسلوب تربيتك المحافظة، وألزم نفسي الصمت حتى لا أواجه برفضك لكلمة الحب.. نعم كنت سترفضيها لمجرد عدم اقتراف العيب كما رباك أهلك!

وسقط الاتحاد السوفيتي، تم إعلان ذلك في الشهر الثاني من بدء الدراسة، عمت الهستيريا الرؤوس، وكان الجميع في حالة انكسار وشعور عميق بالهزيمة، لقد كانت الصحف كلها تتحدث عن انهيار النظام الشيوعي، برغم أن الصين مثلاً مازالت تحكم به، لكن تفكك الاتحاد السوفيتي، والصراع الذي أخذ ينفجر في كل البلاد التي كانت تابعة له، إضافة إلى باقي الدول في أوربا الشرقية، وانفجار الحرب في البوسنة والهرسك، وتحويلها بقدرة قادر إلى حرب بين المسلمين والمسيحيين، متغاضين عن الصراع العرقي المزمع هناك، ساعد التيارات الإسلامية على أن تفرض سطوتها على الجامعة بتلك الأشرطة، التي كانوا يقيمون لها الخيام لعرضها داخل ساحة الجامعة دون موافقة الإدارة التي تغاضت بدورها عن وقفها، لا أدري لماذا؟! فلو كنا نحن الذين نقوم بمثل تلك النشاطات لتم قمعنا فوراً ومحاربتنا، كان التيار الديني يعلو صوته بعنف بين الطلاب، وهستيريا الحجاب اجتاحت الطالبات، أصبح من الصعب التحدث عن أي فكرة أخرى غير الإسلام هو الحل، وأن حروب المسلمين في كل مكان هي حروبنا، انتشرت الشائعات أيضاً عن تطوع الشباب للحرب في صفوف المسلمين في البوسنة، وزاد الكلام عن حروب الشيوعية ضد الإسلام في أفغانستان والدول المفككة من الاتحاد السوفيتي، كأن تسمع مثلاً أن روسيا كانت تحرق البيوت التي تحتوي على القرآن، وأن الناس هناك كانوا يخبئون سجادات الصلاة أسفل البلاط حتى لا يقتلوا على أيدي الشيوعيين الروس، لم يكن هناك أي حديث يدور عن سيطرة الإمبريالية الأمريكية، وتقشي الفكر الرأسمالي بانتصار دولته، لم يكن هناك من يفكر في عواقب كل ذلك على الطبقات الفقيرة والطبقات المتوسطة الدخل، لم يكن هناك من يفكر سوى في أن الإسلام هو الحل.. حل لماذا تحديداً؟! لم أستطع العثور على إجابة.. فلقد كان الإسلاميون لا يتحدثون سوى عن الحجاب وعفة المرأة ودورها في المنزل، وإعفاء

اللحية وقص الشارب، والصلاة بميقات معلوم والصوم وفضائله.. لم أجد واحداً يحدثني عن الثورة من أجل تحقيق العدل في توزيع الثروات، وامتلاك البروليتاريا أدوات الإنتاج حتى لا يتحكم في رقابهم أصحاب رؤوس الأموال. بدأت أشعر بارتباك شديد.. فأين هي الحقيقة؟! لقد انفض جميع الرفاق وأصابهم جميعاً يأس وإحباط شديدان، ولم أجد سوى باسم لأحدث إليه، ورغم أن باسم كان هو أيضاً ساقطاً في عماء اليأس الذي احتل قلوبنا جميعاً، إلا أنه كان متعلقاً في النظر إلى الأمور.. (أنا واثق من إن الشيوعية هي الحل الوحيد لتحقيق العدل في العالم، مش معنى إن الاتحاد السوفيتي سقط إن الفكر نفسه سقط)، وكنت أسأله: (أمال تفسر بإيه اللي حاصل ده كله؟!)، (بكرة الناس تفوق، بس ده محتاج وقت.. وإن كنت أعتقد إنه مش هيكون كتير)، (يعني كام سنة يعني؟!)، يضحك ويجيبني: (إيه يا ابني هو أنا دكتور هاوصفلك وصفة تاخدها على كام سنة؟! دي حركة مجتمعات.. السنين بتتحدد بناء على الحركة دي، والشعب المصري طول عمره بطيء وصبور بشكل يشل، لكن في النهاية أوضاع البلد الاقتصادية مش هتستحمل كتير وبالتالي الناس هتتفجر.. عشان كده لازم نكون جاهزين ومستعدين لوقت الانفجار ده)، (بس الشباب كلهم يائسين ومحبتين.. دول حتى مش عايزين يرجعوا للاجتماعات اللي كنا بنعملها)، (مسألة وقت يا سعيد مش أكثر، وبعدين الحالة دي طبيعية، أنا نفسي محبط ومش فايق لاجتماعات، لأن أساساً مفيش منها جدوى دلوقت.. الشيوعيين في مصر محتاجين وقت عشان يفوقوا من الضربة، وبعدين هيرجعوا يتلموا تاني)، (على ما يرجعوا يتلموا هيكون عددنا قل أكثر، ما احنا قليلين أساساً! وساعتها هنبدأ من الصفر)، (إحنا فعلاً محتاجين نبدأ من الصفر يا سعيد.. المهم سيبك من الكلام ده، وقولي أخبارك إيه مع أحلام.. مفيش جديد؟!)، (أحلام؟! أحلام خلاص يا باسم بعد ما انضمت للجماعات الإسلامية ما عادتش طايقة

تشوفني.. تخيل إنها لبست البتاع اللي بيقلوا عليه الخمار، ومش بتسلم على رجاله! ولما باروحها الكلية مش بتبصلي وهي بتكلمني، وبتكلمني بتجهم شديد.. الأول كانت معقولة لدرجة ممكن أتحملها، لكن بعد ما فازت في الانتخابات بتاعة كليتها وبقت مقررة ثقافية على دفعتها، شاغلة نفسها بتنظيم الندوات الدينية، وتوزيع كتب عذاب القبر وفضائل الحجاب والكلام الفاضي ده!)، يضحك ثم يقول: (هي دي أحلام! هتفضل طول عمرها ماعندهاش حل وسط.. يا ابيض يا اسود! ماتعرفش اللون الرمادي أبداً على رأي عادل إمام!)، أضحك بمرارة وأقول له: (طب والحل؟! أنا باحبها يا باسم)، (ما تقلقش هترجعك.. المهم انت ابعد عنها لغاية ما تجيلك بنفسها)، (تفكر إنها هتجيلي?!)، (مش أفكر أنا متأكد.. أولاً لأنني واثق إنها بتحبك، وأحلام من النوع اللي لو حب يحب بتطرف، مش قللتك ما تعرفش اللون الرمادي?!).. ثانياً وده المهم إنها مش هتستحمل كثير مع بتوع الجماعات الإسلامية.. عارف ليه?!، (ليه?!)، (لأن معدنها حر وأصيل ويرفض العبودية بجميع أشكالها، والإسلاميين هيقولوها المرأة تقرر في بيتها وتطيع زوجها والكلام الفاضي ده كله! يعني المرأة مواطن درجة ثانية!.. وعشان كده مش هتستحمل وهتسيبهم، ومش بس هتسيبهم، دي هتكون العدو الأولى لهم)، (زي ما بقت عدوتنا الأولى برضه!)، (مين قال الكلام ده؟! واللهي انت عبيط ومش فاهم شخصية البنت اللي بتحبها.. أحلام بتعشق الفكر الشيوعي، وأنا واثق إنها هترجع لنا تاني.. كل ما في الأمر إن أحمد حسني الحمار لعب معاها لعبة غلط، وانت عارفه غبي وفاكر نفسه إله.. واللي زي أحلام شخص رومانسي لا يمكن يستحمل مجرد التفكير في إن رينا مش موجود، ده بالإضافة إلى إنها شخص زي ما قللتك متطرف في مشاعره.. لما ترفض حاجة ترفض كل اللي حواليتها.. كل الموضوع إنها رفضت شخصية أحمد

اللي هزت قناعاتها، راحت رافضة كل اللي حوالين أحمد! وأكبر دليل على إنها بتحبك إنها قطعت علاقتها بينا كلنا إلا إنت).

وانتظرت يا أحلام.. انتظرت تحقق نبوءة باسم، ابتعدت عن كل شيء، ودفنت نفسي بين الكتب أستجديها أن تساعدني على إراحة صورتك قليلاً عن بقعة ضوئي، علي أهدأ من ذلك العشق الذي يعصف بضلوعي، لكنني برغم كل محاولاتني كنت أجد نفسي أتحوّل تدريجياً إلى راهب متبتل في عشقك، أقدم لحمي قطعة قطعة قرايين على مذبحك، وأنتظر رضاك عني، وهطول مطرك في ودياني العطشى التي ذبل أخضرها وتشقق يابسها، كنت أذبل وأنحف كقيس الذي هام بحب ليلي في الصحاري، وكانت جدتي تجلس إلى جوارني بطبق الطعام تطعمني بيديها وهي تنتهد قائلة: (ما صدقنا خلصنا من السياسة وبلاويها يطلعنا الحب.. يا ابني قوللي مين دي وأنا أروحها وأقولها)، (هي عارفة يا نينه إني بحبها)، (وسايباك كده؟!.. منها لله أم قلب حجر)، (لا يا نينه ما تقوليش عليها كده.. قلبها مش حجر، قلبها أخضر يانع)، (أمال إيه بس يا ابني؟!)، (ما تتعبيش نفسك يا نينه أنا كويس، وهي هترجعلي.. أنا واثق من كده).

وانتظرت يا أحلام.. كنت أذهب إلى معهد الإحصاء الذي كنتم تتلقون فيه محاضراتكم، أقف بعيداً، أبحث بعيني عنك حتى أجدك، كنت غارقة في ملابسك الفضفاضة وذلك الخمار الذي يخبئ بهاء وجهك، تتعثرين في ذيل جلبابك، وكعادتك تائهة زائغة النظرات، كنت أشعر بكل ما يحتوي عليه قلبك وعقلك من تششت وتيه كبيرة أوقعت نفسك داخلها، وأمني نفسي باليوم الذي تعودين فيه إلى صوابك، تاركة كل هذا العماء الذي لففت نفسك بخيوطه وتعثرت في شرنفته القاسية، لم أكن أدري كيف يمكن أن تتسحبي من هذا التيار، وكيف بعد أن رشحت نفسك على قوائمهم وفزت باسمهم ستعلنين بكل

سهولة أنك لست معهم، لكني فعلاً لم أقدرك حق قدرك، فأنت فعلاً قوية يا أحلام، وهذا ما جعلني أفارق الحياة وأنا لست قلقاً عليك، لأنني كنت واثقاً من أنك ستتهضين لتبدئي من جديد وتحبي من جديد.

وانتظرت يا أحلام.. انتظرت حتى تحققت النبوءة.. كنا في الشهر الثاني من النصف الثاني من العام الدراسي، أجلس على سلاسل باب كليتنا أتبادل النكات والضحكات مع الزملاء، عندما وجدتكم تخطرين، تخطرين ليس مثل فتيات الأحلام في الروايات الرومانسية، ولكن تخطرين بخطوك السريع الملتبس، والخجل الذي يزين عينيك فلا تتظرين حولك، وتختلسين نظرات من حين لآخر ترشدك فقط إلى الطريق، رأيته ولم أتخيل أنك آتية لي، برغم عودتك إلى مطهرك السابق ونزرك ذلك الخمار وتلك الملابس التي كنت تعبئين جسدك داخلها، كنت أحتاج إلى أن تصلي إلي وتفتحي أمامي وتتأديني باسمي حتى أتأكد من أنك آتية لي.. وحدث يا أحلام.. فهل تذكرين!؟

عندما أخذت تتقدمين نحوي حتى وقفت على أول درجات السلم التي كنت أجلس على آخرها، ثم رفعت ناظريك نحوي بارتعاشة شعرت معها بأن الله يبصرني وحدي على هذه الأرض، مرت تلك اللحظة علي وكأنها زمن طويل أعيش لذته وأرشف قطراته قطرة قطرة، حتى ناديت بصوت يخرج من بين أضلعك بعشق حقيقي: (سعيد.. ممكن دقيقة واحدة؟!).. كنت تائهاً في دنياك عنك، فأخذت برهة حتى أجبته وأنا أنتفض من مكاني: (طبعاً.. طبعاً يا أحلام!).

ومضي.. مضي.. مضي طويلاً ونحن صامتان، حتى خلفنا وراءنا مباني كلية التجارة وعرجنا على كلية العلوم ومنها حتى بلغنا مكتبة كليتك، وهناك قلت لي: (ممكن نقعد في أي حطة)، فأجبتهك ذاهلاً: (طبعاً طبعاً يا أحلام!)، حينها ولأول مرة مارست معي أول لعبة عشق، فلقد تركت جوارتي ووقفت أمامي، ثم وضعت يديك على خصرك، وقلت

وأنت تبترسمين في غنج رأيته منك لأول مرة: (هو انت ما عندكش غير
طبعاً طبعاً يا أحلام؟!)، لم أعرف حتى الآن كيف وانتتي الجرأة التي
قلت لك بها: (لا عندي طبعاً!)، (إيه بقى انشاء الله؟!)، (بحبك..
بحبك.. بحبك)، ولا أدري حتى الآن كيف خرج من بين شففتيك
المحافظتين هذا الكلام وأنت تشرقين بنظرة سماوية: (وانا كمان.. بحبك
بحبك بحبك!).

أصبح من حقي لأول مرة، بعد مرور أكثر من عام ونصف على عشقك، أن أتأمل عينيك في براح الكون دون أن أخاف، وأن أجلس إليك منفردين على أحد المقاعد المنثورة في باحة الجامعة بعيداً عن كليتي وكليتك، لأنك كنت مازلت مصرة على ألا يعرف أحد مشاعرنا، لم أعترض، فما حصلت عليه كان بالنسبة لآمالي في حبك فتحاً مبيناً، كان مشبعاً لي تماماً أن أصمت في محرابك وأصلي لقلبك الفريد، كان كافياً لي تماماً أن أتبادل معك الحديث حول كل شيء وأي شيء، أن أبثك همومي وأسمع همومك، أهذي وتهذين فنجمع هذياننا في جعبة واحدة ونفرغها في الفضاء، أن تبكي وتثني فأجاوبك الأنين، أن تشردي وتعبسي في وجه الحياة القاسي، فألملم كل ذلك وأضمه في صدري لأفرغ مثله في صدرك، كان كافياً يا ساحرة أن تلوحي بعصاك لتخلق عربة القرع العسلي، لنركبها متجاورين ونحلق في السماء!

ثرثنا كثيراً.. أذكرين؟! حكيت لك عن أبي الذي يمنع أمي وأخواتي من رؤيتي، وحكيت لك عن موقعي من أموال هذا الأب وحيي وكراهي له في نفس الوقت، وحكيت لي عن أبيك الذي هجر والدتك وأنت بعد جنين في رحمها، وحلمك الأزلي برؤيته ولو لمرة واحدة، تلمسين فيها جلده وتسمعين صوته، لتتأكدي فقط من أنه موجود، ومن أنك لست ابنة عذراء جديدة، حكينا عن أحلامنا العريضة وإحباطاتنا المتوالية بأهلنا، وكنت تستثنين أمك من كل الأهل وترددين: (ماما مسكينة بتتطح في الصخر عشاني أنا واخويا)، وكنت أحسبك بصوت عال على أمك، وكنت تقولين: (أنا لو اعرف أبويا فين لا يمكن أسيبه لأي سبب من الأسباب، حتى لو كان زي أبوك!).

حكينا كثيراً وطويلاً.. ومرت الأيام الباقية على السنة الدراسية سريعاً، لندخل في دوامة الامتحانات، ثم عودتك إلى بلدتك وتركى مرة أخرى وحيداً بعيداً عنك، ولكن هذه المرة بلا شيء حقيقي أفعله في الإجازة، فلقد توقف النشاط تماماً في الخلية التي كنت أنتمي إليها، واقتصرت لقاءاتنا على الثرثرة والبكاء على الاتحاد السوفيتي، مما جعلني أبتعد عنهم وأكتفي بباسم الذي كان صديقاً حقيقياً لي، لكنه بمجرد أن ظهرت النتيجة وحصل على ليسانس الحقوق، حتى بدأ خطواته الأولى في العمل، التحق بمكتب أحد المحامين اليسار للتدرب لديه، وأخذ يخفني تدريجياً حتى اقتصرت لقاءاتنا على أيام الجمعة. كان الأسبوع يمر علي كأنه دهر، وكانت القراءة لا تأخذ حيز الساعات التي تمر علي دهوراً، شعرت جدتي بتمللي الشديد، فاقترحت علي أن أذهب إلى والدي لأسترضيه، وأعود إلى العيش مع أسرتي من جديد، حيث إن حياتهم مليئة بالأحداث.. فهناك النادي، ورحلات الساحل الشمالي وشرم الشيخ، اللذين أقام فيهما والدي قريتين سياحيتين مؤخراً، والسفر إلى أوروبا.. وغير ذلك مما اعتادت أُمي وأخواتي القيام به للقضاء على ملل الساعات، رفضت بالطبع وأكدت لها أن حياتي اختلفت كثيراً عن حياتهم، وأني لم أعد أستطيع الانخراط في تلك المجتمعات التي ينتمون إليها، ولم أعد قادراً على استمرار العيش الرغد وأنا أعلم تماماً أنه على حساب الملايين الكادحة والمحرومة. بالطبع لم تستوعب جدتي كلامي، وأخبرتني بأنني لست نبياً ولست مسئولاً عن الكون بأسره، وأنه على الإنسان أن يراعي الفقراء بالتصدق عليهم ومراعاتهم من حين لآخر، ولأن الحوار بيننا لن ينتج عنه شيء آثرت الصمت وإنهاء الحديث بابتسامة وقبلة على جبهتها.

تركت المنزل وأخذت أمشي في الشوارع على غير هدى، حتى استوقفتني لوحة كبيرة معلقة على سور يحيط بمبان وملاعب صغيرة:

(مركز شباب السيدة زينب)، لا أدري لماذا استوقفتني تلك اللوحة، برغم أنني رأيتها كثيراً من قبل ولم تنثر داخلي أي شيء؟! ربما الفراغ الذي كنت أعيشه، دخلت وسألت عن النشاطات التي تقام في هذا المكان، وفوجئت بأنه يحتوي على نشاطات عديدة رياضية وثقافية، فقررت على الفور أن أشارك فيه، ولم يمر أسبوع حتى أصبحت عضواً.

ساعدني مركز شباب السيدة زينب على قتل فراغي بنجاح كبير، فلقد اشتركت في جميع النشاطات الممكنة، سواء رياضية أو ثقافية، لكنني تدريجياً اكتفيت بالمكتبة التي لم تكن تحتوي إلا على كتب دينية وأدبية وعلمية، لم يكن فيها كتاب سياسي واحد، أو حتى كتاب واحد يشرح النظريات الفلسفية، كان الأمر أشبه بمخطط مقصود لتفريغ عقول الشباب من أي وعي سياسي، حتى ولو كان لمجرد معرفة الدستور والقانون الذي يحكمهم! في البداية حاولت الانخراط في النشاط الثقافي بمحاولة اقتراح عناوين لندوات، واقتراح الأسماء التي ستحاضر فيها، وأعلنت قدرتي على الاتصال بهؤلاء الكتاب والناشطين السياسيين والحقوقيين لدعوتهم إليها، لكنهم كانوا يطالبونني بإرجاء أفكار لي حين الانتهاء من جدول الندوات التي أعدها مسبقاً، والتي كانت قاصرة على أمسيات الشعر لأسماء تجارية رخيصة، ومحاضرات دينية لمشايخ لا يتحدثون سوى عن الصلاة والصوم والحجاب والحسنات والسيئات، وعندما أعلنت موقف لي بكل بساطة من نوعية هذه الندوات وأنها لا تغني ولا تسمن من جوع، أعطوني التفسير المنطقي والوحيد لرفضهم أفكار لي وإرجائها لأجل غير مسمى: (يا ابني هو ده المسموح بيه لينا، أما الأفكار بتاعتك دي فلا يمكن الأمن يوافق عليها.. كمان المسؤولين في الوزارة لا يمكن يسيبونا نعملها!). أما الرياضة فاكشفت أن المدربين يعملون بقوة الدفع الذاتي، أي أنهم لا يتلقون أي دعم أو رواتب من الوزارة الراعية، فقط تسمح لهم بالدخول والتدريب في مراكزها، على أن

يعتمد المدرب على شطارته، وعدد الشباب الذين سيشترون في الرياضة التي يقوم بتدريبهم عليها ليدفعوا له فتاتاً يقيم به أوده!.. كان المدربون شباباً أيضاً، وكانوا ليسوا كأى شباب، فهم رياضيون ومتميزون، لكن الدولة لا تفكر في رعايتهم بأي طريقة، كنت أرى الإحباط والشعور باليأس يسيطران على نفوسهم، وبميتان أحلامهم المتبقية من سيل الأحلام الجارف، الذي قادهم للمضي في طريق تعلم هذه الرياضة أو تلك حتى حققوا فيها نجاحاً وتميزاً كبيراً، لكن لم يشفع لهم ذلك كي يحصدوا ما ظلوا يزرعونه يوماً بعد يوم منذ طفولتهم.

برغم أن هذه التجربة كانت محبطة ومريرة، إلا أنها ساعدتني على المضي قدماً في أيام الإجازة الطويلة الخالية منك، وتكاد تخلو من باسم، حتى قرعت السنة الدراسية الجديدة الأجراس، واستقبلتك في محطة المنيب مع حقائبك الكثيرة التي تحتوي على كل ما يلزمك طوال إقامتك بالمدينة الجامعية، لكنك فاجأتني عندما اعتذرت عن كثرة الحقائب، حيث إنك قررت ألا تعودني إلى البلدة في الإجازة القادمة، وتتوین الاستمرار في العمل الصحفي الذي بدأته خلال العام الدراسي الماضي، وإن كان مع الجرائد السعودية ومجلات الجماعات الإسلامية، بالطبع كان هذا الأمر يزعجني، فاستفسرت منك عن المكان الذي تتوین العمل أو التدريب به، فأخبرتني بأنك لا تتوین العودة إلى الجرائد والمجلات الإسلامية تلك، ولكن ستبحثين عن شيء آخر. كنت مفعمة بالأحلام والخطط التي تتوین القيام بها خلال هذا العام، ولم تتركي لي فرصة كي أحكي لك عما مررت به خلال الإجازة، فقط كنت تتكلمين وتشرحين خطبك بلا توقف، هل تذكرين ذلك الحلم الخاص بإنشاء أسرة في الكلية تضم جميع التيارات والأفكار بالجامعة؟! كنت تتحدثين بحماس قائلة: (ليه مانتحشد كلنا تحت مظلة واحدة؟! كل واحد بأفكاره وتياره السياسي المختلف، إحنا في النهاية كلنا

مصريين، وكلنا عايزين مصر تقوم وتشد حيلها وترجع ثاني منارة للكون كله.. وطالما الهدف واحد يبقى لازم كلنا نتجمع عشان الهدف ده، مهما كانت اختلافاتنا الفكرية)، حينها سألتك محاولاً تحريك فكرتك لتأخذ شكلاً واقعياً أكثر قائلاً: (الإسلاميين مش مؤمنين بالانتماء للوطن ولكن مؤمنين بالانتماء للدين، يعني هو مش مهموم بس بمصر، هو مهموم بأحوال المسلمين في باكستان والصين والهند والبوسنة والهرسك ووو.. مع إن مشاكل كل مسلم في كل بلد من دول ليست مشاكل دينية، ولكنها مشاكل خاصة بأوطانهم.. لكن الإسلاميين مصريين على إنها مشاكل أو قضايا إسلامية، وإن الإمبريالية الأمريكية تستهدف الدين الإسلامي وتابعيه، مش بتستهدف أوطان بعينها لأسباب سياسية أو اقتصادية، يعني هما حولوا القضية لدين مش لوطن.. تقدري بقى تقوليلي هتعلمي إيه مع الإسلاميين اللي انتي عايزاهم ينضموا للأسرة اللي بتحلمي بيها؟!)، وكعادتك عندما تواجهين بمشكلة تكسر جدار حلمك السابح في ملكوت السماوات غافلاً عن الأرض، هربت وقلت: (إنت بتتحامل على الإسلاميين مع إنهم مش وحشين أوي كده!)، (أنا مش باصنف البشر وحش وحلو يا أحلام، لكن أنا باحاول أخليكي تلمسي الأرض بإيدك، عشان تعرفي تتعامللي مع المعطيات بشكل حقيقي، وتعرفي إنتي ماشية رايحة على فين)، (أنا عارفة أنا رايحة على فين.. هدفي هو مصر.. عايزة أرجعها عروسة وحاضرة الدنيا بأسرها من جديد!)، (تقدري تقوليلي مين هي مصر دي اللي بتتكلمي عنها?!)، (مصر هي بلدنا.. هي النيل والأرض والزرع والسما الصافية والتاريخ والحضارة العظيمة)، كنت دائماً ما أصطدم بحائط الحلم الصد الذي بنيته بيديك، وتعيشين خلفه في نعيم لا يرى ما حوله من شقاء، كنت دائماً ما أحاول أن أوقظك لتري الواقع بعينيك، وتلمسي الحقيقة بيديك، وتدبي على الأرض بقدميك.. (لا يا أحلام.. مصر هي الناس الكادحة والمحرومة من الأزل.. مصر هي الحقوق المهدورة

لشعبها على إيد حكامها، واللي لازم ناخذها بالقوة.. مصر هي الزرع
اللي لوته الخونة لصالح شوية دولارات رماها لهم أعداءنا.. والسما
المغبرة بالدخان والتراب، والنيل اللي اتلوث بإيد قرارات حكامنا الحكيمة
وإهمال الناس لأنهم جهلة ومش مقدرين قيمة الميه اللي بتجري في
أرضهم.. مصر هي الأرض اللي بتتبور وبتتباع عيني عينك.. مصر
أولاً وأخيراً هي إحنا مش إحنا اللي هي!).

برغم أن هذا كان لقاءنا الأول بعد غياب ثلاثة أشهر كاملة،
إلا أننا افترقنا على باب المدينة الجامعية مبتسمين وفرحين بلقاءنا بعد
الغياب. وفي اليوم التالي تقابلنا في الجامعة، حيث استقرت دفعتك
أخيراً داخل مبنى كليتنا في الدور الرابع، بعد عامين من التنقل بين
مبنى الامتحانات ومعهد الإحصاء، وبالفعل بدأت إجراءات تكوين
أسرتك التي أطلقت عليها (بشاير)، أنت وصديقتك منى حاكم التي
تنتمي إلى التيار الإسلامي المعتدل، وتهيم على وجهها عشقاً لمصر
مثلك، كنت أشاهد دأبكما وإصراركما مع باقي أعضاء الأسرة، الذين
كان جلهم من الفتيات، على إعداد مجلات الحائط وتنظيم الندوات،
وحتى كتابة المنشورات وتوزيعها في الجامعة، كان نشاطكم يقدم أفكاراً
هجيئة تجمع اليسار باليمين في خلطة سحرية عجيبة لم أستطع أن
أفهمها أبداً، وكنت أحاول أن أوضح لك أن الأمور لا تأتي هكذا، وأنه
عليك التحدث بلسان واحد لتوضيح فكرتك، لكنك كنت تتهميني
بالشيوعية كغيرك من الجهلاء، فأصمت لأنني أعرف مدى عدائك
للشيوعيين بل الإسلاميين أيضاً. كنت مصرة مع صديقتك على أنكما
تقدمان فكراً جديداً وعظيماً، وأن ما كنتما تواجهانه على أيدي
الإسلاميين في الكلية، من عدا وتمرزق لمجلاتكم وإثارة الفوضى في
الندوات التي تقيمونها.. مجرد ردود فعل عادية على أي شيء جديد،
وعندما كنت أسألك لماذا لا يفعل معكم اليسار نفس الشيء؟! كنت

تتهربين من الإجابة أحياناً، وأحياناً تقولين: (وأين هم اليسار الآن؟! لقد انتهوا تقريباً بعد سقوط الاتحاد السوفيتي).

لم ينتهوا يا أحلام، هأنذا أمامك مازلت موجوداً ومازلت يسارياً.. هكذا كنت أقول لك، وكانت إجابتك الدائمة: (أعتقد إنك الوحيد اللي لسه مصر على موضوع الشيوعية ده!). كنت أعرف جيداً أنك عنيدة، وأنتك مادمت اتخذت موقفاً تجاه شيء لا تعودين عنه مهما تأكد لك خطؤك السابق، لكنني كنت أحبك ولم يكن هناك شيء يمكنه أن يززع حبك داخلي، لأنني أعرف جيداً ذلك القلب الذي تحملينه بين جوانحك، وأنا الوحيد الذي يرى سيفك الخشبي الذي لا يفارق كفك، تهومين به دوماً في الهواء مطاردة أشباحك، ورغبة في تحويل الكون إلى واحة خضراء ينعم فيها الجميع، لكنك لم تلتفتي أبداً إلى كون السيف خشبياً، وإلى أنك تطاردين به أشباحاً تتقاذز بين طواحين الهواء الدوارة!

انتهت تجربة الأسرة بإحباط شديد لك ولمنى، فلقد انفض عنكما الجميع بعد أن شعروا بأن في الأمر خطراً ما، عندما تكررت اعتداءات أعضاء أسرة النور على نشاطاتكما، وإنذار إدارة النشاط بالكلية لكما أكثر من مرة بالتوقف عن توزيع تلك المنشورات التي تعرض على إثارة الشغب في الكلية، وفي النهاية صدر قرار من الإدارة بإيقاف نشاط الأسرة، كان الأمر محزناً بالنسبة إليك، ولكنه ساعد على تطور علاقتنا، التي أخذت منحى جديداً في الأقصر وأسوان.

هل تذكرين؟! عندما تم إيقاف نشاط الأسرة، تم الإعلان في الجامعة عن رحلة طلابية تقوم بها أسرة آمون، التي أسستها وزارة الشباب والرياضة لتضرب بها التيار اليميني واليساري بالجامعة، وذلك بأن تجمع الطلاب حولها، وتلهيهم في الرحلات والنشاطات الخفيفة

المسلية بعيداً عن السياسة، كنت أعلم جيداً المغزى الحقيقي وراء هذه الأسرة، لكنني قررت الاستفادة بما تقدمه الدولة للشباب كرشوة، وبما أنه لم يعد هناك أي نشاط يذكر لليسار، حيث تخرج أحمد حسني أخيراً في الحقوق، هو وزملاؤه الذين كانوا يتزعمون الشيوعية في الجامعة، ولم يعد هناك أي كادر يستطيع أن يعيد لم شمل اليسار.. قررت اللجوء قليلاً بعيداً عن همومي، وأحبك بعيداً عن كل العيون التي كنت دوماً تخافينها.. وبالفعل وافقت لأنك أنت أيضاً كنت ترغبين في لملة جراحك بعد فشل تجربة الأسرة، وافقت واشتركنا في الرحلة، حالمين معاً بأسبوع ينعم فيه أحدهما بالآخر في ظل أرواح أجدادنا الفراعنة!.. هكذا قلت أنت بشاعريتك الجاهزة دوماً لكل المواقف.

عندما تجمعنا أسفل الساعة في محطة القطار برمسييس، كنا نعتقد أننا وحدنا اللذان اشتركنا في هذه الرحلة ممن نعرفهم، لكنك فوجئت بظهور أحمد فادي إلى جوارنا، مازلت أذكر ارتباكك ولجلجتك في الحديث معه، عندما أطلق صيحة مفاجأة بمجرد رؤيتك، كنت تحاولين تفسير سبب وجودك في هذا المكان واشتراكك في الرحلة، وتشيرين نحوي غير قادرة على تحديد المسمى الخاص بي بالنسبة إليك، حينها قال أحمد لك ببساطة: (أحلام.. مفيش مانع إنك تحبي وتتحي)، أجبته حينها برعب حقيقي قائلة: (لا.. إنت بنقول إيه؟!).. كنت صامتة تماماً إزاء تصرفاتك تلك، ولم أرد أن أتخذ أي خطوة أو أنطق أي حرف، فقط عقدت ذراعي على صدري منتظراً النتيجة لهذا الحديث بينكما، والذي أنهاه أحمد فادي بمقاطعته إياك قائلاً: (لأ في عينك! وماله الحب يا بت انتي.. الحب جميل.. وبعدين الرجل ده مش بنسمع عنه غير كل خير)، ثم نظر نحوي مبتسماً ومنهياً الموقف بكل بساطة، فاتحاً ذراعيه على اتساعهما وقائلاً: (ألف مبروك يا حبيبي)، بادلته العناق مريئاً على ظهره: (الله يبارك فيك)، بعدها نظر إليك ثم نظر نحوي وقال: (هي تبان عصبية وحنبلية حبتين.. بس خدها مني كلمة مش هتلاقي أحسن منها)، وأردت أن أنهي هذا الموقف شديد التكلف، بسبب رد فعلك عند رؤية أحمد، قائلاً بأداء تمثيلي رديء: (عارف يا حمايا وهاحطها في عينيه!).. يااااا يا أحلام! كم كانت أياماً سعيدة، كنا نرى فيها المستقبل فاتحاً أبوابه أمام وجوهنا على اتساعها، برغم كل تجاربنا الفاشلة في الجامعة لفعل شيء حقيقي، اعتدنا أن نخبر بعضنا بعضاً بأن الغد سيكون أفضل، وأنا بمجرد أن ننهي دراستنا الجامعية ستنتهي كل القيود، وتصبح أيدينا حرة من

أغلال الدراسة والجامعة وتحكم الأهل، لننطلق ونفعل كل ما نريد،
نغزل من خيط الأحلام ثوباً حقيقياً نرتديه، ونواجه العالم وآباءنا الذين
دمروا كل شيء، بعضهم بالعيش في الوهم، وبعضهم ببيع البلد،
وبعضهم بالتخلي عنا تماماً!

مرت دقائق وظهرت هالة، صديقتك في الكلية ورفيقتك في
غرفة المدينة الجامعية، كانت تلك هي المفاجأة التي تحدث أحمد عنها
قائلاً: (مش انتم بس اللي بتعملوا مفاجآت.. أنا كمان عاملكم مفاجأة)،
لم أكن أعلم أن هالة وأحمد على علاقة ببعضهما البعض، لكنك
أخبرتني بأنك تعلمين، وإن كانت هالة لم تخبرك بأنها قادمة للرحلة
بصحبة أحمد، برغم أن جميعنا لعب لعبة الأسرار، آملاً أن ينفرد
بخليله في تلك الرحلة التي تجمع الطلاب من كل الكليات بالجامعة،
معتقداً أنه لن يوجد غيره من كليته، إلا أنها كانت مفاجأة سارة، حيث
عاش كل منا لحظات نادرة، عندما أحسب الآن من برزخي عدد الأيام
التي عشتها بحق على الأرض.. لا أجد سوى هذا الأسبوع الذي
أمضيته بين الأقصر وأسوان!

بدأ الحلم يتحقق منذ لحظة صعودنا إلى القطار، حيث فوجئنا
بأن جميع الطلاب المشاركين في الرحلة منقسمون على اثنين! كل
واحد وحبيبته، كل واحد وحلمه الصغير الذي لم يكن يدري أنه لن
يتحقق أبداً، الحب الذي جمع القلوب في الجامعة لم يستطع أن يصمد
في وجه حقيقة الحياة بعدها، تلك المشكلة التي كنا نشاهدها في الأفلام
ونتهم البطلة والبطل بأنهما ضعيفان.. فرطاً في عشقهما من أجل
المال، واحد بالخضوع له وآخر بعدم القدرة على الحصول عليه. هكذا
كانت حياتنا على كثرة تعقيداتها آنذاك، إلا أنها كانت بسيطة ومختصرة
في جملة أو جملتين، دون تفاصيل تتدرج تحتها للشرح، نعشق الوطن
ومتأكدون أننا حتماً سنفعل شيئاً من أجله، ونعشق بعضنا بعضاً

ومتأكدون أننا حتماً سنجتمع في عش العشق بالزواج، لنعيش الحب حتى آخر لحظة في حياتنا.. جمل بلا تفاصيل أو شروح، هكذا كانت أفكارنا وآمالنا وتطلعاتنا.. هكذا كانت أوهامنا!

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أجلس فيها إليك وحدنا، لكنها كانت المرة الأولى التي ألمس فيها جلدك الدافئ النابض بالعشق المرتعش في قلبك الصغير، كنا نقف أمام أحد أبواب القطار، لم نكن في منأى عن العيون، لكن كانت كل العيون غير مشغولة بنا، كان القطار قد بدأ رحلته نحو الجنوب منذ خمس ساعات، كنا في الواحدة بعد منتصف الليل، لم تنامي ولم أنم، فمجرد شعوري بجوارك ألهب مخيلتي، وأشعل صوراً ورؤى لم تكن لتأتيني من قبل وأنت فيها، نعم يا أحلام.. تخيلي أنني لم أحلم قبل تلك الليلة بتقبيلك! كنت كل ما أتوق إليه هو الجلوس إليك لأسمع صوتك وتسمعيني، لأبتك ما يعتمل في صدري وأستقبل ما في صدرك.. فقط يا حبيبتي كان هذا هو كل ما أتوق إليه عند رؤيتك، لكنني في تلك الليلة اشتقت كثيراً إلى لمس وجهك ونحت ملامحك بفمي، لم أفكر قط في رد فعلك، بل لم يكن يهمني أن تجاوبيني أو تتفري مني، كل ما أردته أن أمرر أصابعي أولاً على وجنتيك الممتلئتين والمفعمتين باحمرار الخجل، ثم أنششم رائحتك التي تخيلني من بعيد منذ زمن.. رائحتك التي تشبه تفتح الزهر في أول الربيع، تلك الرائحة التي تهل علينا معلنة انتهاء الشتاء، تمر على جلدك فتنتقض حبيباته زهواً، وتطالبك بالنهوض وطرح كل الأغطية جانباً، واستقبال دفء الشمس ونورها الساطع، النور الذي يفتح عينيك إلى آخرهما لترى العالم وكأنك ترينه لأول مرة.

هذا هو ما تقى إليه وهذا ما فعلته، مددت كفي في هدوء الليل وأنس الصحاب، ومررت أصابعي على خدك بنعومة لم أكن أتخيلها في نفسي، لكنك منحتني ذلك بعينيك السابحتين في ملكوت اللاوجود

واللأرض، نعم أنت لست أرضية يا أحلام! أنت كتلك الآلهة
الأسطورية في عالمك الشفيف الذي لا يمر بين البشر بل يسبح فوقهم
باستعلاء، أنت تلك النسمات التي أخذتني لحظتها لأسبح بفمي على
صفحة وجهك، تستقبلين وجهي على وجهك ويدي على ذراعيك
النائمتين إلى جوارك، في ارتعاش لا يمكن أن أنساه حتى وأنا سابح
على ندف السحاب الحاني الآن!

عندما وصلنا إلى الأقصر، ركبنا الحافلات التي كانت تنتظرنا
أمام المحطة، وتوجهت بنا نحو نزل الشباب، لم تكن المرة الأولى لي
في تلك البلدة.. فلقد زرتها مراراً مع أسرتي وأنا صغير، لكنني شعرت
بأنني أبصرها لأول مرة معك، كنت أراها بعينيك المنبهرتين بالشوارع
وأطلال المعابد تخايلنا من بعيد، كان شعورك بالإثارة ورغبتك الملحة
في أن تركضي في اللحظة نحو جدران الأجداد وتماثيلهم، يراوداني
أيضاً، وأبادلك الرغبة في القفز من الحافلة، راكضين نحو آثار تحكي
حكايات قديمة لحضارة عظيمة كانت لنا يوماً. كنت أعرف تماماً ماذا
تشعرين، وما الذي يمور داخلك من أفكار.. أفكار بعيدة تماماً عن
كوننا في رحلة، وبين شباب يرغب في الضحك واللعب وقضاء أوقات
سعيدة، بغض النظر عن المكان وقيمه التاريخية، فلقد كنت في ذلك
الوقت على أبواب الانغماس في تاريخ مصر القديمة، وإعلان إيمانك
بأننا مصريون علينا الانتماء إلى كل ما هو مصري قديم، بعيداً عن
الفكر الإسلامي أو الأفكار اليسارية.. أتساءل الآن: هل مازلت مستمرة
في رحلة بحثك عن الحل؟! أو بمعنى أصح رحلة بحثك عن باب
للخروج من المأزق؟! تترددان على الأفكار والنظريات والتيارات
السياسية والفكرية، وبمجرد أن تكتشفي أنها لا تقدم حلاً سريعاً تتركينها
فوراً باحثة عن غيرها؟!!

بمجرد أن تم توزيعنا على الغرف، التي تم تقسيمها على جزء للشباب وآخر للفتيات، نزلت إلى فناء النزل، رأيتك من نافذة غرفتي، كنت عاقدة ذراعيك على صدرك وتنتظرين حولك في كل الاتجاهات، فهمت بالطبع أنك تفكرين في طريقة تذهب بك إلى معبد الكرنك، الذي أغرقت نفسك في القراءة عنه طوال الأسبوع الذي سبق موعد الرحلة، نزلت وأنا أضحك، ووصلت إليك وضحكتي قد خرجت من فمي لتعلو إلى أقصى درجة لم أكن أتخيلها في نفسي، استفزك ضحكي وسألتني متعجبة مغتاظة: (إنت بتضحك أوي كده ليه؟!)، حاولت التماسك والتوقف عن الضحك لكني لم أستطع، فقلت لك من بين قهقهاتي: (ياضحك عليكي طبعاً!.. كل الناس في الأوض بترتب حاجتها، وانتي نزلتي عشان مش قادرة تصبري وعايضة تجري على الكرنك!)، (طب وفيها إيه دي؟!)، حينها توقفت عن الضحك وقلت لك وأنا أنظر إلى عينيك بعشق حقيقي: (أحلام إنتي حتى ما افكرتتيش!.. نسييتيني عشان الكرنك يا أحلام!)، حينها نظرت نحو الأرض خجلة، وفككت عقدة ذراعيك قائلة: (أسفة يا سعيد.. بس الحكاية مش بس حكاية الكرنك.. الحكاية إني عايضة أشوف مصر بشكل ثاني.. أشوفها منتصرة وعظيمة).

مصر.. ذلك الاسم أو ذلك البلد الذي استعصت به عن الأب الغائب وافتقاد الأمان في عمرك كله، كانت مصر بالنسبة لك كائناً أسطورياً بعيداً تماماً عن الواقع والحقيقة، كانت ذلك الحلم الذي تدفين فيه كل واقعك المؤلم، كنت أعلم عشقك لليأس لها كآخر حل للخلاص من العجز الذي عشت به ومعه طوال حياتك، كنت أعلم أنك مؤمنة بعدم قدرتك على إدارة عقارب الساعة إلى الوراء، لتغيير واقعك واستعادة والدك المفقود، ذلك الأب الذي فقدت معه الاستقرار والقوة،

وكنـت أعلم أنه لا توجد قوة على الأرض تستطيع أن تقنـعك بأنك فعلاً قوية دون أب، وأنك بإمكانك خلق الاستقرار في حياتك من دونـه.

اصطحبتك إلى الكرنك، وهناك أخذت تتلمسين بأناملك الجدران وتدورين حول الأعمدة وكأنك تصلين صلاة لم تصلـيها من قبل، تتشممين الحـجارة وترددين: (من هنا عبروا.. هذه الحـجارة رصها أجدادي، أجدادنا كانوا عظماء يا سعيد، فلماذا فقـدنا من بعدهم العظمة؟!)، لم تكن لدي الإجابة، وكنـت لا أرغب في إفساد لحظاتك السحرية التي تعيشينها، لكن الآن أستطيع أن أقول لك يا أحلام إن الأجداد لم يكونوا بتلك العظمة التي تتصورينها، كان هناك حاكم مطلق يتحكم في المصائر، وكان هناك شعب مقهور يملك الفرعون رقبتـه.

مرت علينا الأيام الأولى في الأقصر ونحن نجوب المعابد ووادي الملوك والملكات صباحاً، وفي المساء نجلس في فناء المنزل نغني ونرقص مع باقي الطلاب، ونتعلم كيف يعشق أحـدنا الآخر بشكل لم نتطرق إليه من قبل، فجلـسنا لأول مرة ملتصقين وأكفنا تحتضن بعضها بعضاً، وتعلمنا كيف تلتف الأذرع حول الخصور، وكيف تتلامس الشفاه في ارتعاش يلهب العشق ويؤجج المشاعر. كانت اللحظات التي مرت علينا في الأقصر هي التجسيد الحقيقي لعشقنا، ومعها تفجرت مشاعرنا وظهرت في أعيننا بما لم نكن نتوقعه من قبل في علاقتنا.

عندما ذهبنا إلى أسوان، ونحن واقفان على صخرة مطلة على صفحة النيل في معبد فيلة تهزنا النسائم العليلـة، أمسكت يدك واحتضنتها بكفي على صدري وقلت لك: (أحلام.. أنا قلناك قبل كده بحبك كثير، لكن هنا أنا حاسس إنـي باحبك بشكل جديد.. بحبك وكأنـي لأول مرة باحس بالمشاعر دي تجاهك)، وعندما هممت بالكلام أشـرت إليك بالصمت وأكملت قائلاً: (أنا دلوقت متأكد إنك حبيبتي الأولى وإنك

برضه حبيبتي الأخيرة، أنا متأكد إنني مش هاحب حد غيرك، وإنني هاموت وأنا بحبك).. لا أدري من أين واتاني ذلك الإحساس المؤكد بأنك حبيبتي حتى النهاية، وإن كان هناك إحساس آخر أقبض صدري لم أستطع البوح لك به.. وهو أنك لن تكوني لي أبداً.

عدنا إلى القاهرة ونحن معبان بالذكريات الجميلة التي أضافت إلى عمرنا عمراً جديداً، استطاعت الرحلة أن تزيل كثيراً من الحواجز التي كانت قائمة بيننا، ودخلت علاقتنا منعطفاً أكثر عمقاً، فلقد أصبحنا نتعامل كأننا مخلوق واحد وليس اثنين، ذابت بيننا الحساسيات وأصبحنا أكثر انفتاحاً على بعضنا البعض.. لا يخشى الواحد منا أن يظهر أمام الآخر بكل عيوبه وكل حسناته، استطاعت الرحلة أن تعرنا أمام بعضنا البعض.. تعرنا لننفتح على كونينا دون قيود أو حواجز.

مرت الأيام الدراسية سريعاً، وانتهى العام الثالث لنا بالجامعة. وكما ذكرت لي لم تعودني بشكل كلي إلى بلدتك، فقط عدت لمدة أسبوعين حتى ظهرت النتيجة، ثم أتيت مرة أخرى إلى القاهرة لتبديني مشوارك العملي في جريدة الاتجاه العربي، تلك الجريدة المستقلة التي أصدرتها مجموعة من اليساريين القدامى في الصحافة المصرية، بالطبع كان باسم وراء ذهابك للعمل في هذه الجريدة، حيث أتى إلي بعرضين في جعبته خلال الأيام الأولى من الإجازة، العرض الأول لك في تلك الجريدة، والثاني لي في أحد مكاتب المستشارين الاقتصاديين الذين ينتمون إلى اليسار أيضاً، كانت فرصة جيدة لكنينا.. وبدأنا خوض غمار العمل لأول مرة بشكل جاد وحقيقي.

خوض تجربة العمل حتى وإن كان كمتدرب، منحني بعداً جديداً أضفته إلى أبعاد حياتي، فالدراسة برغم كثرة المواد التي ندرسها، وكثرة الفروض والواجبات التي كان الأساتذة يغمرونا بها، لم تكن بمثل أهمية العمل، فالدخول في غمار الحقيقة والتعامل معها يفتحان أبواباً كثيرة ومتعددة، تشرح الكثير من السطور التي كانت مستغلقة على الفهم، خاصة عندما أعمل في مكتب الدكتور طارق أبوالنور، أحد أهم الناشطين اليساريين في السبعينات، وواحد من الذين أمضوا فترات طويلة من حياتهم في السجن، لكنه وبرغم كل ما يتقدمه من تاريخ نضالي طويل ومهم، تخلص عن مشاركته في العمل السياسي، وقرر أن يكتفي بإيمانه داخله، لينقذ ما تبقى من عمره الذي ضاع في ردهات السياسة الملتفة، ويجمع بعضاً من المال الذي طالما سمع عنه ولم يقبض عليه بيديه!

طارق أبوالنور اكتفى من يساريته بتعيين اليساريين فقط في مكتبه، لكنه ومع ذلك لم يفكر لحظة في أنه يساهم في إفساد هؤلاء الشباب من اليسار، حيث إننا في مكتبه لا نقوم بحل مشاكل البروليتاريا الاقتصادية، ولكن نلعب دوراً مهماً في إيجاد حلول اقتصادية لمشاكل البرجوازيين الكبار أصحاب رؤوس الأموال في مصر، والذين ينتمي إلى صفوفهم أبي، فلقد اكتشفت أن والدي العزيز واحد من عملاء طارق أبوالنور، بل واحد من أهم عملائه!

عندما علم المستشار الاقتصادي اليساري ذو التاريخ السياسي المنير باسمي كاملاً، طلب مقابليتي برغم أنني مجرد متدرب لديه في المكتب، لكن بالطبع تكمن أهميتي في الاسم الذي يلي اسمي، سألني

إن كنت فعلاً ابن الرأسمالي الكبير مختار العزب، حينها ترددت كثيراً في الإيجاب بنعم، ولكنني في النهاية تيقنت أنني لن أستطيع إنكار أبي كثيراً، خصوصاً في مجال العمل، فقلت له نعم أنا ابنه، ولكنني أتبع إجابتي بشرح موجز لعلاقتي بوالدي، حيث أخبرته بأنني تركت منزل والدي منذ أكثر من ثلاثة أعوام، وأنني أقيم مع جدتي في السيدة زينب التي ينتمي إليها والدي في الأساس، حينها نظر إلي الرجل وأمارات التعجب والتساؤل تلوح على وجهه، وسألني: (لماذا؟!)، حينها أجبت قائلاً بشجاعة لم أكن أتخيلها في نفسي: (لأنني رافض رأسماليته وتحكمه في قوت الغلبة يا دكتور، ولا انت مش واخد بالك إن أبويا برجوازي ببستغل عمل وعرق البروليتاريا لمصلحته؟!)، حينها وعلى عكس ما توقعت انفجر طارق أبوالنور في الضحك، وعندما هداً من هستيريا ضحكاته التي أصابتنني بالدهشة الملتبسة قال: (اعذرنى يا ابني.. معلى أصل آخر حاجة كنت أتخيلها في حياتي إن مختار العزب يخلف ولد شيوعي)، ثم عاد إلى ضحكاته مرة أخرى، حينها وجدت نفسي مستاءً جداً من هذا الرجل، فقدفت في وجهه بتعجبي أنا أيضاً منه، حيث قلت له: (أنا كمان عمري ما كنت أتخيل إن دكتور في الاقتصاد.. رسالته كانت عن تنمية اقتصاد شعوب العالم الثالث ومصر نموذج للدراسة، ينتهي بيه الأمر لأنه يفتح مكتب يخدم بيه على إنعاش تحكم اللي زي مختار العزب في اقتصاد البلد ومص دم الناس!)، بعد ذلك ووسط نظرات دكتور طارق التي لم أستطع تحديد معناها، أدركت أنه لم يعد لي مكان في مكتبه فاستدرت خارجاً، لكنه استوقفني عند الباب صائحاً: (استنى يا ابن مختار.. تعالى هنا)، التفت نحوه لكنني لم أقرب، فأمرني بإغلاق الباب والاقتراب منه، مثلت لطلبه وعدت إليه.. حينها لاحظت هدوء نظراته التي تابعها بقوله: (عشان أشرحك أنا إزاي وصلت للحالة الزفت اللي أنا فيها دي محتاج وقت طويل أنا لا أملكه، لكن كل اللي أقدر أقوله لك إنني

باحاول أمسك العصاية من النص، باحاول أكسب عشان أعيش كويس في عالم بتحكمه المادة.. وفي نفس الوقت أكسب شباب ممكن من غير مكتبي ما يلاقوش شغلانه بعد ما يخلصوا دراستهم، وأظنك ملاحظ إن كل مكتبي من اليساريين المنتمين للطبقات الكادحة، إنت الوحيد اللي منتمي لطبقة الأغنياء حتى لو كنت رفستها برجليك.. المهم أنا مش عايزك تسيب المكتب، انسى حوارنا ده وكمل تدريبك معانا.. أنا عايزك واحد من الموظفين عندي بعد ما تتخرج، وكمان لما الدراسة تبدأ ما تتقطعش عن التدريب عندي، عشان تكون جاهز للشغل بعد التخرج فوراً).

لم أفهم سبب عرضه ذلك، وإن كان هناك ما تردد داخلي بأنه يريدني كورقة يلعب بها أبي في يوم من الأيام، لذلك قررت أن أوضح موقفي من البداية بأنني حتى وإن كنت ضد أبي، إلا أنني لن أكون ورقة ضده في لعبة السوق القذرة، ربما قرأ طارق في وجهي هذا الشك، حيث أشار إلي بالصمت عندما هممت بالتحدث قائلاً: (أرجو إنك ما تعتقدش للحظة إنني عايز ألاعب أبوك بيك.. أبوك عميل مهم في المكتب لكنه مجرد عميل.. كل المسألة إنك عجبتني وأعتقد إنك هتكون حاجة مهمة في المستقبل، وعايز أكون أول واحد يفتحك الباب على الطريق)، وأشار إلي بالانصراف منهياً حديثه، لكنني عندما وصلت إلى باب مكتبه قال: (على فكرة يا سعيد أنا مش مكتفي بس بتعيين اليساريين عندي، أنا لسه مستمر في أبحاثي الأكاديمية من أجل إصلاح الاقتصاد المصري، لكن للأسف ماعدش في أيدي غير الأبحاث أقدمها، يمكن في يوم من الأيام حد يستفيد بيها).. ابتسم لي ورددت عليه بالابتسام. كان حوار الدكتور طارق أبوالنور معي طاقة جديدة من النور انفتحت أمامي للحصول على أجوبة لبعض من أسألتي، أهمها كان تفسير السبب الذي من أجله انساق والذي في

طريق الثراء السريع على حساب الآخرين، فقد أيقنت أنه من حق كل انسان أن يحصل على سبل العيش الكريم فما بالك بالثراء، من منا لا يريد أن يكون غنياً يعيش حياة مرفهة؟! الفقر عيب يا أحلام.. نعم الفقر عيب، كذب الأجداد عندما ردوا أن الفقر ليس عيباً، في ذلك اليوم أدركت أنه لابد أن يكون هناك إقطاعي أو حاكم طاغية أشاع هذه القيمة بين شعبه، حتى يرضوا بالفقر في ظل غناه الفاحش ويصغروا له صامتين.

كان الاستمرار في العمل لدى الدكتور طارق هو الشيء الوحيد الذي أقوم به خلال الإجازة، إضافة إلى لقاءاتي بك، كلانا كان فرحاً بتجربته العملية البكر، خصوصاً أنت.. فلم يكن هناك ما ينغص عليك استمتاعك بالعمل في جريدة الاتجاه العربي، فلقد كانت جريدة قومية يسارية، تخدم مصالح الطبقات العاملة، وتعمل على كشف الفساد المستشري في أروقة الوزارات، والتتديد بالكيان الصهيوني والحصار الاقتصادي في العراق والإمبريالية الأمريكية، كنت فرحاً بسعادتك الغامرة، وأحلامك التي تخطفك بعيداً عني دوماً في كل لقاءاتنا، أحلام اسمك وأنت بالفعل كتلة متحركة من الأحلام، كنت دائماً أخاف عليك من وطأة تلك الأحلام على النفس عندما تتهاوى واحداً في إثر واحد، خاصة أنك تفتحين ذراعيك لكل العالم وكل البشر على اختلاف أهوائهم وميولهم. فمن الأشياء العجيبة التي كنت لا أجد لها تفسيراً، صداقتك مثلاً لذلك المدعي الأفاق الذي يدعى مأمون حربية، زميلك في الكلية الذي يلعب على كل الحبال ويتقافز بين كل التيارات، محاولاً الحصول على مصلحته الشخصية من أي إنسان بأي طريقة كانت، وكنت دائماً تدافعين عنه قائلة إنه لديه كل الحق في ما يفعله، وإننا لو مررنا بمثل الظروف التي مر بها لكنا نسلك نفس الطريق الذي يسلكه متحايلاً على العيش، ومحاولاً الخلاص من أسر

الفقر والمهانة المهلك.. كنت دائماً غريبة بالنسبة لي في أحكامك، فقد كنت لاتزالين ترفضين التحدث عن الفكر الشيوعي، وترفضين العودة إلى هذا التيار الذي كان قد بدأ العودة مرة أخرى ولملمة شتاته، كنت مازلت متأثرة بتجربتك السابقة، وبرغم إيمانك بكل الأفكار الشيوعية، إلا أنك كنت تصرين على أنك يسارية فقط ولكنك لست شيوعية! وعندما أسألك: وما الفرق؟! تقولين: لا! هناك فروق كثيرة، ثم تصمتين وتحولين دفة الحديث إلى أي شيء آخر.. نعم كنت دائماً ما أقع في دائرة الحيرة من فهم بعض من مكوناتك، لكني دوماً كنت مأسوراً داخل قصر عشقك، ولم أستطع قط الفرار من هيمنة قلبك على قلبي.

مر الصيف علينا بتجربتنا في العمل، الذي لم نتركه برغم بدء الدراسة، وعدت مرة أخرى إلى المدينة الجامعية، بعد أن أمضيت الإجازة لدى أحد أحوالك، لم يكن هناك شيء خاص في ذلك العام الدراسي الأخير لنا بالجامعة، فقط كنا قد اتفقنا على أن نركز في المذاكرة حتى ننتخرج بتقدير عال. لم يمارس أي منا أي نشاط في هذا العام، وإن كنا دائماً ما نتناقش ونتبادل الكتب بين أوقات العشق، الذي كان يغمرنا بشدة ويزداد يوماً بعد يوم.. تذكرين اليوم الذي اتفقنا فيه على الزواج؟! أنا مازلت أذكره، فلقد ذهبت واشتريت خاتمين فضيين، تقدمت بهما إليك وسألتك إن كانت والدتك ستوافق علي عندما أتقدم لخطبتك دون أبي وأمي، فأخبرتني فوراً وأنت تلنقطين الخاتم الخاص بي بخفة لتضعيه في إصبعي: (جذتك كفاية.. بعدين أنا ممكن أعيط وأبهدل الدنيا لو ماما ما وقفتش.. لغاية ما توافق!).

ربما كان ذلك آخر حديث عاشق جمع بيننا، فلقد فوجئت بعدها بوالدي يثق باب والدته بعد سنين من الاختفاء والتكر لها بسبب إيوائها لي، بالطبع لم تكن زيارته منزهة عن أغراض خفية، فلقد كان آتياً في مهمة رسمية، ألا وهي إعادة استقطابي للاستفادة من خبرتي

في المنطقة وحب الناس لي، حتى يتم انتخابه في انتخابات مجلس الشعب القادمة. جاء أبي مبكراً عن موعد الانتخابات بشهور طويلة، فهكذا نصحه الخبراء السياسيون الذين يغزلون الفساد في كل الأروقة، في مقابل فتات من هم مثل أبي، لكنه بالنسبة لهم ثروة حقيقية. جاء أبي ومعه مستشاره السياسي المخضرم، الذي يحمل الدكتوراه في العلوم السياسية، والذي سيقود حملته الانتخابية القادمة، ورغم كل ما بيننا كان أبي مؤمناً بأنني سأكون أول من يقف إلى جواره، لأنه أتى محملاً بجمل أملاها عليه المستشار العظيم حتى يستطيع استقطابي إلى صفه، وفي نفس الوقت استعداتي بعد طول غياب. الحقيقة.. التمسث العذر لوالدي، فمهما كان من أمر فأنا ابنه الوحيد، أمله في الخلود واستمرار مشروعاته وثروته، التي كان مرعوباً من انتقالها إلى الغرباء، أعني أعمامي وأزواج أخواتي البنات في المستقبل! لم يكن أبي يدرك تماماً حجم معتقداتي، وإلى أي مدى وصلت، فأنا لم أفكر يوماً في أن أخواتي أقل مني شأنًا في الأسرة، بل إنني كنت رافضاً تماماً أن أرث أكثر منهن، كما أن نظرتي إلى أعمامي كانت مختلفة، خاصة بعد أن تعرفت بهم بشكل جيد طوال إقامتي لدى جدي، فلقد كانوا يساهمون في مصاريف المنزل ومصاريفي أنا الشخصية، بمجرد أن علموا بموقف والدي مني بعد تركي منزله ورفضه الحياة معه.. علمت منذ اللحظة الأولى التي طرق فيها والدي الباب أن معركة جديدة سوف تنشب بيننا، خاصة عندما دخل علينا ومعه مستشاره المخضرم الذي يهرول خلفه كمهرج الملك، يلتقط آخر كلمة ينطق بها والدي ويكمل الجمل كتابع غبي له. في البداية قررت أن أحافظ على صمتي، وألا أنبس بكلمة واحدة حتى يذهب أبي من حيث أتى، حتى عندما ذكر أمر رغبته في الانضمام إلى مجلس الشعب كممثل للمنطقة، وبرغم أنني نيهته إلى أن خوض غمار الانتخابات في السيدة زينب أمر محكوم عليه بالفشل، لأن ممثل المنطقة من كبار الشخصيات السياسية

في البلد، ولن تتركه الحكومة يفشل أمامه بأي ثمن، إلا أنه لم يعر كلامي اهتماماً وقال: (هو مش أحسن مني في حاجة.. ده أنا صارف على الحكومة من جيبني من أول راس فيهم لآخر راس!)، عندما أجاب بهذا المنطق الساذج عدت إلى بقعتي الصامتة، لكنه أبى أن أظل على تلك الحالة، حيث قال إنه يرغب في ترشيح نفسه من أجل الفقراء واستعادة حقوق الناس في المنطقة وتحقيق كل احتياجاتهم، وأنه يريدني أن أساعده في حملته الانتخابية، لأنني أعرف هؤلاء الكادحين خيراً منه.. ثم أنهى حديثه قائلاً وكأنه يمنح ولده لعبة يرغب بشدة في الحصول عليها: (وأهو بكده يا سيدي تكون اشتغلت في السياسة زي ما انت عايز، وكمان مع الغلبة اللي انت بتحبهم).. لا أدري كيف وصلت فجأة إلى الثورة التي اجتاحت كل كياني في مقابل ما أخذ يردده أبي، لكن كل ما أعلمه أنني انفجرت فيه قائلاً: (اشتغلت في السياسة اللي انا بحبها؟!.. ليه يا بابا؟! هو انت فاكربي شيطان في لعبة؟! وبعدين أنا مش فاهم إنت ليه عايز ترشح نفسك في انتخابات مجلس الشعب؟! تقدر تقوللي إيه اللي ناقصك عايز تكمله؟! يا بابا أنا عارف إنك لا يهكم الغلبة ولا تهكم مصالحهم، وإن أكيد في لعبة ورا الموضوع ده.. أرجوك اتكلم معايا بصراحة، وبلاش محاورة ومداورة مالهمش فايده معايا.. أنا خلاص ما عدتش صغير).. كانت وطأة كلامي على أبي عنيفة بالطبع، ولكن داهيته السياسي امتص غضبه بإشارة من كفه، وأجابني هو بالنيابة عن والدي: (يا حبيبي أبوك عايز يرشح نفسه عشان يستفيد ويفيد برضه.. السياسة هات وخد يا سعيد ولا إيه؟!.. بابا عايز يكتسب قوة سياسية جنب قوته الاقتصادية، وده هيفيده في شغله بشكل إنت ما تتصوروش، وفي نفس الوقت برضه هيقدم خدمات كتيرة للمنطقة هنا.. يعني مثلاً من المشاريع اللي عايزين نعملها لأهل المنطقة مول كبير فيه كل حاجة الناس عايزينها.. ومش بس كده، في حاجات تانية كتير.. دي بس البداية).

يريد أبي أن يقيم مركزاً تجارياً حديثاً في السيدة زينب، يريد أن يمتص الأموال الضئيلة التي بحوزتهم من خلال مركزه التجاري، الذي لن يبيع سوى كل ما هو قابل للبيع وقابل لإخراج آخر قرش في جيوب الناس، أتى ليرشح نفسه لا ليمثلهم أمام الحكومة ويعبر عن مشاكلهم واحتياجاتهم وآرائهم، بل ليتاجر بهم وعليهم.. كان ذلك آخر ما يمكنني تصويره في والدي، فلقد كنت أعتقد أنه تنكر لأصله وناسه وحتى أمه من أجل المال فقط، لكنني لم أكن أتخيل أنه يتاجر بأحلام الناس من أجل السطوة والقوة، اللتين لم يكن في حاجة فعلية إليهما، فلقد امتلاكهما بامتلاكه الثروة الطائلة التي جمعها ببيع وطنه وأهله لمن يدفع أكثر.

كان ذلك آخر أمل انقطع في استرداد أبي، أو حتى التواصل معه فقط من أجل الدم الذي يربطنا، لكن مختار العزب قطع آخر وريد بيننا، وسفك الدم الواصل بين قلوبنا إلى آخر لحظة في عمري، شعرت بعد تلك الواقعة التي خرج منها أبي مقطوع الأمل تماماً في، ومتحدياً إياي في نفس الوقت بأنه سيفوز في الانتخابات برغم أنفي، بأنني لا أرغب في العيش طويلاً، فكيف لي أن أعيش في ظل أب مثله، لن أتمكن ما حييت أن أتكرر له مهما فعلت ومهما أخفيت على الناس!؟

ربما لم يشأ الله أن أعيش هذا العذاب يا أحلام، فمنحني الخلاص سريعاً، برغم أنني ما كنت أتوقع أنه سيأتي بهذه السرعة، فعلى الأقل كان لدي أشياء كثيرة أرغب في العيش من أجلها، كنت أنت أول هذه الأشياء، وكان العمل والاستمرار في الطريق الذي اخترته لنفسي بأن أكون خبيراً اقتصادياً يقدم دراسات خاصة ببلدنا، والعمل على تحسين الأوضاع الاقتصادية للعمال والفلاحين، وإخراج الشباب من أزماتهم الاقتصادية الطاحنة التي تآكل أحلامهم وتميت مستقبلهم قبل أن يبرز، كان ذلك أمراً مهماً أتوق إلى القيام به، لكن كانت أيادي الأمن المركزي أسرع من المستقبل الذي كان واقفاً على بابي، كانت

قنابلهم وهراواتهم أسبق في الوصول إلى رأسي المسكين، الذي شج بإحدى قنابلهم المسيلة للدموع.. فهل مازلت تتذكرين يا أحلام؟!

أنا آسف على أن أحضر إليك الآن لأذكرك بهذا اليوم، الذي أعلم جيداً أنه على بعده منك الآن مازال قريباً، مازال يسيطر على حياتك ويسحبك من غمار الدنيا ومتعة العيش، أعلم جيداً أن موتي كان أول موت لك على الأرض، وأعلم أنك بعد هذا الموت ستموتين ألف مرة يا حبيبتي، برغم أنني متأكد من قوتك وأنت مقاتلة عنيفة وضارية، إلا أنني أعلم أيضاً أن قتالك من أجل العيش في تلك الحياة سيكون سطحاً مزيفاً لحقيقتك الميتة داخلك.. أعلم أنك مت يا أحلام عندما رحلت أنا دون وداع.

كان يوماً عادياً من أيام شهر رمضان، مازلت أذكر تاريخه حتى الآن: ٢٥ فبراير ١٩٩٤، استيقظنا جميعاً على خبر مذبحة الحرم الإبراهيمي، التي قتل فيها اليهودي باروخ جولدشتاين الفلسطيني أثناء الصلاة داخل المسجد، ومساعدة الجيش اليهودي له في ذلك، كان خبراً مؤلماً بالفعل، فبرغم أن أخبار تساقط الفلسطينيين تصلنا كل يوم حتى كادت تكون ملحاً لخبزنا اليومي، إلا أن هذا الخبر أخذ منحي جديداً لم يسبق لنا التعاطي معه، أو على الأقل جيلنا الذي لم يتعرض إلى حادثة اعتداء على مصلين داخل دار عبادتهم. لم أرك صباحاً قبل بدء المحاضرات، لكنني فوجئت بك تفرعين باب القاعة أثناء المحاضرة، وببساطة شديدة وإن كان بتجهم طلبت من الدكتور أن يسمح لي بالخروج إليك، خرجت وأنا معتقد أن هناك خطباً ما وقع لك أنت، لكنك أخذت تحكين عن صديقتك سهام الفلسطينية وحرزها الشديد، وأنت سوف تصحبينها أنت ومنى إلى المظاهرة، التي كانت قد بدأت منذ قليل في الجامعة، كنت أسمع أصوات الهتافات، فلقد اتفق المتظاهرون أن يسيروا داخل الجامعة لجمع الطلاب من كل الكليات، أخبرتك بأن

الأمر يبدو لي غير منظم، حيث إن الحادثة وقعت فجر اليوم ولم يتمكن أحد حتى الآن من تنظيم أي مظاهرات، وأنه في ما يبدو أنها مظاهرات تقوم بها الجماعات الإسلامية وليس اليساريين بالجامعة، حينها انفجرت في وجهي قائلة: (يساريين.. يساريين.. يا أخي فلقنتي.. المهم الهدف اللي طالعين عشان، هما طالعين محتجين على اللي حصل في الخليل.. الناس بقت بتقتل في الجوامع وانت مش عايز تطلع في المظاهرة عشان اليساريين مش هما اللي منظمناها؟!)، حينها قمت بتهديتك، وطلبت منك دقيقة أحضر فيها أغراضي لأنزل معك وأشارك في المظاهرة، كان هناك شيء داخلي يحضني على العودة، ولكني لم أستطع أن أتركك وحدك، برغم أنك طلبت مني ألا أشارك إن كنت غير مقتنع، حينها قلت لك: (إنتي مش قلتي إن الهدف واحد؟!)، وخرجت معك إلى صالة الكلية فوجدت منى وسهام في انتظارنا، سلمت عليهما في اقتضاب، ثم هبطنا جميعاً لنلحق بالمظاهرة.

كانت المظاهرة في البداية هادئة، لا تجمع عدداً كبيراً من الطلاب، لكن لم تمض ساعة حتى بدأ الطلاب يتوافدون علينا بأعداد كبيرة، شاهدت تجمعاً كبيراً من الاتجاهات اليسارية بالجامعة، حينها وجدتك تهمسين في أذني: (هيه.. استريحتي؟! أهم اليسار انضموا.. مش قلتك الهدف واحد؟!)، كان لديك كل الحق يا أحلام.. نعم الهدف واحد بالنسبة لنا، والهدف واحد بالنسبة لقوات الأمن المركزي، فلقد كان هدفهم نحن جميعاً مهما كان التيار الذي ننتمي إليه، وبرغم أننا لم نهتف هذه المرة ضد حكومتنا، فقط طالبنا بأخذ موقف حاسم من إسرائيل التي عقدنا معها السلام، إلا أنها أرسلت قبضتها الحديدية لتضربنا، ولتكرر مرة أخرى نفس المشهد الذي حدث في عامنا الأول من الجامعة. طوق الأمن المركزي الأسوار، وبدأ إلقاء قنابله المسيلة للدموع علينا لتفرقتنا، وبالفعل فرقتنا واختلطنا في هستيريا ببعضنا

البعض، يتخبط أحدها في الآخر وهو معمي من الغازات الخانقة التي انفجرت بجوارنا، وفجأة وجدت شيئاً مديباً ينغرس في رأسي، ثم فقدت قدرتي الكاملة على الإبصار، لم يصلني سوى صراخك ممزوجاً بصرخات أخرى، كنت تولولين وتتادينني، تلعين الوطن الذي أخذني منك، وتحثيني على النهوض، مذكرة إياي بأحلامنا التي كنا نخطط لأن ننفذها معاً.. لأول مرة تكفرين بالوطن يا أحلام.. لأول مرة تلعين الوطن.. هل أدركت الآن أن الوطن ليس مجرد أرض وسماء ونيل؟!.. هل أدركت يا أحلام أن الوطن كثيراً ما يكون أداة للقتل؟!.. جنودنا ماتوا في النكسة وحتى في النصر، من أجل وطن باع دماءهم وصافح العدو الذي قتلهم يوماً.. هل هذا هو الوطن يا حبيبتي؟! هل هذا هو الأمل والبديل الذي اخترته سناً لك بعد ضياع أبيك؟!.. هل مازلت يا أحلام تبحثين عن الطريق للخلاص، ترمين نفسك في أحضان كل فكرة قليلاً، ثم تتركينها عندما ترين أنها ليست الحل السريع، لترمي نفسك في أحضان أخرى؟!.. هل تعلمين ما هو الحل يا أحلام لخلاص الوطن وخلصنا من مأساته؟!.. الخلاص في الموت يا أحلام.. نعم الخلاص في الانتهاء!..

آه من يوقف في رأسي الطواحين
ومن ينزع من قلبي السكاكين
ومن يقتل أطفال المساكين
لئلا يكبروا في الشقق المفروشة الحمراء خدامين؟!
آه من يقتل أطفال المساكين
لكيلا يصبحوا في الغد شحاذين
يستجدون أصحاب الدكاكين وأبواب المرائب
يبيعون لسيارات أصحاب الملايين الراحين
وفي المترو يبيعون الدبابيس وياسين
وينسلون في الليل يبيعون الجعارين
لأفواج الغزاة السائحين؟!
هذه الأرض التي ما وعد الله بها
من خرجوا من صلبها
وانغرسوا في تربها
وانطرحوا في حبها مستشهدين
فادخلوها بسلام آمنين!

أمل دنقل

مؤمن حرية

هذه هي الفتاة التي كنت أبحث عنها.. بالتأكيد عندما تعلم
علا بأنني خطبت ابنة سيد منصور أشهر محام في مصر كلها، وترى
كم تفوقها جمالاً ومالاً وحسباً، ستعوض شفيتها ندماً، ستلعن نفسها أمام
المرأة آلاف المرات، لأنها فرطت في بسهولة ولم تصبر وتؤمن بأنني
أنا مؤمن حريبة سأطول السماء في وقت قصير.. ستكره أباه صاحب
الأطيان التي لا تقارن بأموال سيد منصور، لأنه قال عني يوماً عندما
ذهبت لخطبتها: (ابن القمرتي وأخو الخمرجي).

نعم.. أنا ابن القمرتي الذي بدد أرضه وماله على طاولات
القمار، ومات حسرة على ما أضاعه بيديه، وأخو الخمرجي الذي لم
يتحمل مسئوليتي وأمي وأختي بعد وفاة والدنا وتركنا نعاني الفاقة،
وتركني وحدي أعاني ذل العمل كأجير منذ نعومة أظفاري.

نعم أنا هذا الرجل، لكن أنا أيضاً من تحمل المسؤولية في
العاشرة، وعمل في كل شيء وأي شيء، متحملاً مسؤولية أمي وأختي
وحتى أخي السكير، ولم أتوان لحظة عن إفناء نفسي في المذاكرة
لتكملة دراستي، حتى حصلت على الثانوية العامة بتفوق، وحققت
المركز الأول على محافظة المنوفية بأسرها.. أنا.. الفلاح الفقير ابن
القمرتي وأخو السكير.. أنا وليس غيري من التحقق بقمة من قمم
الكليات بجامعة القاهرة، حتى أصبحت صحفياً في جريدة الأيام،
وبلمسة واحدة من إصبعي الصغيرة سجد لي الرؤساء، وولوني مسؤولية
الإشراف على ديسك المحليات، أنا من تجاوز عمره الرابعة والعشرين
بأشهر قليلة سأتزوج ماهيتاب، خريجة الجامعة الأمريكية وابنة أشهر

محام في مصر، وفي يوم من الأيام سأكون رئيساً لتحرير الأيام، لا بل رئيساً لمجلس إدارتها.

لن يكون ذلك اليوم بعيداً، تماماً مثلما أخبرتك يا أحلام، وضحكت على أحلامي التي اعتبرت أوهاماً بعيدة المنال، أعلم أنك لم تتهكمي على أحلامي يوماً، وأنك الوحيدة التي آمنت بي كبشر في نهاية الأمر بكلية الإعلام، لم تحقدي على تفوقي العملي، أو تسميني بالنفاق والوصولية كالآخرين، ورغم أنني كذلك فعلاً!.. كنت تعلمين أنني مضطر إلى فعل ذلك، لأنه الطريق الوحيد ليعتدل المائل، ويستقيم طريق حياتي الذي لوى عنقه أبي ومن بعده أخي.. لهذا السبب لن أسمح لأحد بدخول مكنتي عندما أصبح رئيساً للتحرير سواك، أنت وحدك التي سيكون من حقها الدخول دون استئذان، بل فوق ذلك سأساعدك لتتخلصي من المر الذي تعيشين داخل ظلمته.. فقط لو تستجيبين لنصائحي يا أحلام، لطالما نصحتك عندما كنا طلاباً في الكلية، لكنك تهوين الشعارات وتعتقدين أنها حقيقية، ورغم كل الدلائل التي قدمت لك منذ لحظة ميلادك، إلا أنك لا تقتنعين وتصرين على الماضي قدماً في طريق الشقاء، في البداية تحبين مختلاً يترك ثروة أبيه ونعيمها ليموت من أجل لا شيء، ثم تتزوجين هذا الشاعر المعدم لمجرد أنه يتشدق بالشعارات التي تعشقينها.. انتهى الأمر وسبق السيف العذل.. أنت الآن حامل، تسيرين كدبة ضخمة تتغرس قدمك في الأرض وأنت تخطين!.. أنا فعلاً لا أريد رؤيتك قبل أن تلدي، فأنا لا أتحمل رؤيتك هكذا، لقد اعتدتك ماكينة لا تتوقف عن الدوران، تجرين وتقفزين من مكان إلى آخر دون كلل، لا أذكرك أبداً وأنت تسيرين مثل الفتيات بهدوء وتبختر، حتى إنني كنت أراك أحياناً رجلاً بعجلتين في قدميه!

آه لو لم تكوني فقيرة ومطحونة مثلي! لكنك تزوجتك فوراً،
ولكننا لا يمكن أن نكمل طريق الفاقة معاً، كنت غبية يا أحلام عندما
تزوجت ذلك المدرس الشاعر الذي لا يملك سوى وظيفته، لكني لن
أكون غيباً مثلك، فالمبادئ المعبأة في الكتب لا تأكل رأسي مثلك أنت
ومنى حاكم.. آه يا منى! أعلم أنك لا تحسدينني ولا تحسدين غيري،
لكنك أعظمتني عندما قلت لي ببرود شديد لا يخلو من احتقار:
(مبروك)، عندما أخبرتك بمنصبي الجديد، لأن دفعتنا لم تجد مكاناً
تعمل به بعد، ومازالوا يتخبطون في غابة الصحافة المتشابكة
المتشعبة، أصبح أنا أفقاً ومخادعاً وصاحب طرق ملتوية ومتسلقاً
ووو..؟!

نعم.. أنا كل ما سبق.. ولم لا؟! أنا أريد أن أعيش، أنا لم
أعش يوماً حقيقياً من قبل مثلك، لم يكن أبي موظفاً كبيراً في
التأمينات، ولا أُمي ناظرة في وزارة التربية والتعليم.. لم أعش في بيت
هادئ أنعم بدفء أسرتي المستقرة السعيدة، ولا أحمل همّاً لليوم الذي
أعيشه أو اليوم القادم.. أنا أحترمك يا منى ولكنك لا تبادليني هذا
الشعور.. منذ بداية التحاقنا بكلية الإعلام وأنت تتظرين إلي بإشفاق،
تشفقين علي من مبادئ الخاصة، وتؤمنين بأنها ستصل بي إلى
الضياح.. وهل أنا ضائع الآن يا عزيزتي؟! لم تفهميني مثل أحلام، لم
تحاولي الوقوف على سبب كوني كما تقولين (وصولياً).. أووه! فلتختف
من أمامي أنت وكل ثلة الجامعة، لا أريد تذكركم أو حتى معرفتكم بعد
اليوم، فقط أحلام هي التي ستدخل مكنتي دون استئذان، وسأفتح لها
باب شقتي التي تسلمتها من محافظ الجيزة نفسه.. لولا علاقاتي يا منى
ما كنت حصلت على هذه الشقة، ولكنك مثل باقي شباب دفعتنا أتخبط
في عمائي بين المكاتب الصحفية العربية، أبحث عن ينشر لي
موضوعاً، وأظل أنتظر مطلع كل شهر لأجمع غلتي، وفي آخر الليل

أعود في الحافلات المكدسة بالبشر المكودين الذين تفوح رائحة عرقهم المضنية في كل الأرجاء، لأنام بين جنث الرفاق المحشورة في إحدى الشقق الفقيرة في حي شعبي حقير .

لماذا لا أنساكم جميعاً؟ لماذا برغم هذا المقعد الوثير الذي أستريح عليه بمؤخرتي في صدر صالة الديسك المحلي، وأمامي رجال سبقوني في العمل الصحفي - لم يحققوا نصف ما وصلت إليه، وينظرون إلي بحقد مستتر أعياه جيداً وأشعر معه بلذة فائقة! - أتذكركم وأتوه في دروب ذكرياتنا؟ برغم نبذكم لي جميعاً، ونسيانكم علاقتنا الغضة الحميمة، التي تفتحت عليها أعيننا مع مشرق التحاقنا بكلية الإعلام، برغم نظراتكم المشفقة والمستريبة ووسمكم لي بالمنافق.. كنتم تقولونها في وجهي دون حياء! يا ليتكم كنتم ترددونها من وراء ظهري، دون أن تلقوا بها في وجهي وابتسامة ساخرة تلو وجوهكم، كنتم تصدقون ضحكي ولا مبالاتي، دون أن تشعروا ولو لمرة واحدة بأن هذه الكلمة تؤذيني وتجرحني مبالغة في الندبات التي تخلفها.

لا أستطيع أن أنسى ملامح وجهك يا سعيد وأنت تصرخ في وجهي: (النفاق مش هينفعك لما تتظاهر مع الجماعات الإسلامية من أجل قضية حقيقية لوطن مكلم، لمجرد إن رئيس أسرتهم فتحلك باب العمل في مكتب جريدة الإسلام السعودية، الشعارات اللي انت بتردها بدون وعي هتتذي قضيتنا من أجل الوطن، مش كل حاجة قابلة للتلاعب ولوي رقيتها عشان مصلحتنا الشخصية، إبعد بمبادئك الفاحشة عن الوطن، هو مش ناقصه أمثالك، الموضوع مش نكتة من نكتك السخيفة اللي بنتندر بيبها على سالام الكلية في آخر اليوم الدراسي!).

هديرك في وجهي ألمني كثيراً يا سعيد، كنت أعلم حزنك على انضمام أحلام إلى أسرة النور بعد أن كانت شيوعية مثلك، وكنت أعلم أنكما تعشقان بعضكما بعضاً، برغم كل الكلام الذي أنكرت به أحلام

علاقتها بك أمامي.. لكن كل هذا لا يعطيك الحق لتقول لي هذا الكلام. أعترف بأنني خرجت مصادفة في مظاهرة الجماعات الإسلامية، بعد عرضهم بإحدى الخيام التي نصبوها داخل الحرم فيلماً للأحداث في البوسنة والهرسك، لكن كان من الممكن ألا أسير في المظاهرة، وأعود أدراجي لأخرج من باب آخر نحو الشارع، لكنني سرت ونددت بالقتل والذبح للأبرياء من المسلمين هناك، وعندما تحولت المظاهرة إلى التنديد بإسرائيل وأمريكا وحتى حكومتنا، لم أخف أو أترجع بل أكملت معهم النظار.. لم أخطئ يا سعيد عندما جريت نحو مذبة القناة الفضائية العربية الجديدة، ونجحت في شق الكتل الجسدية حتى وصلت إليها، لأفوز بالظهور في التلفزيون، والتنديد علناً بممارسات أمريكا في العراق وإسرائيل في فلسطين، وحرق العلم الإسرائيلي والأمريكي أمام الكاميرا.. لقد آلمني كلامك كثيراً يا سعيد، فأنا أحب مصر مثلك تماماً، لكنني يجب أن أخلق من هذا الحب فائدة، فمصر لم تطعمني وأنا صغير جائع، ولم تدفني في ليالي أمشير الباردة، ولم تحافظ على غضاضة كفي الصغيرتين، وتحمهما من الأعمال الخسنة التي تكبرني بعشرات الأعوام.

أعلم تماماً أنني استفدت من هذه المظاهرة، عندما جاءني رئيس أسرة النور الإسلامية في الكلية، وأخبرني بأن صاحب القناة أعجب بي كثيراً وطلب منه أن يعرفني به، وبالفعل استفدت من العمل كمعد للبرامج في هذه القناة لفترة.. أنا لا أؤمن بفكر الجماعات الإسلامية ولا بفكرك أنت أيضاً، ولكن أنت وأمثالك لا تملكون الكثير لتقدموه لي، وبما أن كلاً منكما يتظاهر من أجل الوطن، فلأتظاهر مع من يملكون أولى!! أم أنك كنت تريد أن يكون مالي مثلك، أنا أريد أن أعيش وأقبض على الحياة بكل ما تحتوي عليه من نعم بكلتا يدي، نعم أنت نبذت المال وأدرت له ظهره، لكنك كنت تعلم جيداً ما هو المال

وقررت أن تزهد، أما أنا فلم أكن أعلم عنه أي شيء، لكنني عندما خبرته جيداً تأكدت أنك كنت حماراً يا سعيد!.. الآن وأنا أغوص في وهاد هذا المقعد الجلدي الوثير أكررها ألف مرة: (أنت حمار يا سعيد، بل أكبر حمار قابلته حتى الآن!).. لكن والله ما كنت أتمنى لك تلك النهاية، ومازلت حزيناً عليك حتى الآن، على الأقل من أجل أحلام، التي برغم كل ما تريد إظهاره لي.. ضائعة.. موتك أضاعها يا سعيد، ولكنني سأحاول ما استطعت إنقاذها، ربما تفيق يوماً من الأوهام التي قتلتك وحرمتها إياك.

لم يكن هيناً أن أذهب إلى الجامعة في أول يوم يستقبلني فيه حرمها، بكفين يطمس معالمهما السواد، سواد جاهدت ملياً في إزالته بشتى الطرق على مدار أسبوع كامل قبل بدء العام الدراسي.. ولكن دون فائدة، فخلال ثلاثة أشهر الإجازة الصيفية عملت ليلاً نهاراً لدى الأسطى محمود (أسترجي) مدينتنا (الشهدا)، حتى أتمكن من توفير مصاريف الجامعة ومصاريفي الشخصية طوال شهور السنة الدراسية الأولى.. تغلغت مادة (الأستر) في خلايا جلدي حتى تشربتها مسامي، بل صعدت فوق جلدي مكونة طبقة كقشر السمك، حتى إنني خلتها كذلك فعلاً فأخذت أحاول تقشيرها بالسكين! إلى أن أنجذتني أُمي التي صرخت عندما رأته أدمي يدي بحد السكين. لم يكن هيناً أن أذهب إلى الجامعة بهذه الملابس المهلهلة، التي على الرغم من كونها جديدة، إلا أنها لا ترقى إلى أن تأخذ لقب ملابس، فقط مجرد (هلاهيل)!!.. عندما دخلت إلى حرم الجامعة ورأيت ذلك العرض المفتوح للملابس، سواء الفتيات أو الفتیان، لم أستطع أن أكمل سيرتي مرفوع الهامة فرحاً بالنجاح العظيم الذي حققته، وتلك الصورة التي أحتفظ بها في دفترتي وتضمني مع محافظ المنوفية وهو يكرمني لتفوقي، فلا مجموعي ولا الصورة يمكنهما أن يعنيا العيون المتحلقة حولي عن ملاحظة بؤسي وشقائي الباديين للعيان. أخذت أسأل من حولي عن مقر كلية الإعلام، حتى وصلت إليها وصعدت الأدوار الأربعة لاهتاً، لا من التعب ولكن مما رأيت طوال رحلة صعودي، فقد مررت على كلية السياسة والاقتصاد المستقرة في الأدوار الثلاثة من المبنى، كانت رائحة العطور الفاخرة تتطاير في أرجاء المكان، والطلاب ذوو الملابس الفاخرة والنظارات المذهبة والأيدي الناعمة، التي لم تحمل يوماً واحداً سوى

القلم والأوراق، يخيلونني أينما نظرت.. كانت تلك المقدمة لعامي الدراسي الأول من السوء، لدرجة أنني أخذت أقسم مع كل خطوة أخطوها أو درجة أرتقيها أن أكون مثلهم وأكثر، وأن أملك يوماً كفين ناعمين، وملابس راقية وعطوراً تصل رائحتها إلى أسوان!

في الدور الرابع سألت عن المكان الذي يتجمع فيه طلاب السنة الأولى، فدلني معاون الكلية على المدرج الكبير، الذي اجتمعت فيه معنا عميدة الكلية، وأخذت تغازلنا لكوننا نمثل (كريمة) الثانوية العامة، بالطبع لم أكن أعرف (الكريمة) عملياً لكنني سمعت عنها كثيراً!.. عندما نظرت حولي اكتشفت أنني لست وحيداً في بؤسي وشقائي، فلقد رأيت الكثيرين والكثيرات يرتدون (الهلهل) مثلي، وأن نسبة الفلاحين من المنضمين إلى الكلية ليست بالقليلة.. أراحتني تلك الفكرة كثيراً، ومثلت دفعة قوية لي كي أذهب للتعرف بالطلاب والطالبات. وكانت أول طالبة أتعرف بها فتاة جميلة جداً ذات عينيْن ملونتين اسمها آمال رمضان من شبين الكوم، وكان كونها من المنوفية مثلي سبباً للتعرف بها، حيث التقطت أذناي كلامها مع واحدة من الفتيات قائلة: (أنا من شبين الكوم)، ومن خلال آمال تعرفت بعدد من الطلاب والطالبات، فلقد كانت فتاة ثرثرة معتدة بنفسها دون سبب غير كونها جميلة فعلاً. كانت أحلام واحدة من الطالبات اللاتي عرفنتي بهن آمال، وبرغم جمالها العادي وصمتها المتردد، إلا أنها الوحيدة التي جذبتني من بين جميع الفتيات، لا أدري لماذا شعرت داخلي بأن لديها قصة مأساوية شبيهة بقصتي، وربما هذا ما جعلها تصبح بمرور الأيام صديقتي الفريدة من نوعها داخل الكلية، وربما في القاهرة بأسرها، وإن كانت انشغلت عني وحتى عن الكلية بعد وقت قليل من بدئنا الدراسة، وتحديدًا بعد المظاهرات العاتية التي اجتاحت الكلية قبل منتصف العام بقليل بسبب حرب الكويت والعراق، حيث انضمت إلى فرقة من الشباب

الشيوعيين بالجامعة، وكانت تمضي جل وقتها معهم غير عابئة بالمحاضرات، المحاضرات التي لم أجد غيرها لشغل وقتي تماماً، حيث لم يحالفني الحظ حتى ذلك الوقت بالعثور على فرصة عمل في إحدى الجرائد أو المجلات، التي كان يتحدث عنها الطلاب الأكبر سناً منا، والتي كانوا يقومون بعمل الموضوعات لها وتقاضي أجر ولو صغير منها.. كان كل هدفي أن أعثر على طريقة تلحقني بإحدى هذه الجرائد، حتى لا أضطر إلى العودة إلى محال عصير القصب والأسترجية في الإجازة الصيفية لتوفير مصاريفي. لكن هؤلاء الطلاب كانوا يعتبرون وجودهم بتلك الجرائد ميزة كبيرة، تصنع لهم وضعاً مهماً في الكلية ولدى المعيدين والأساتذة، مما يجعلهم يعتبرونها سراً حربياً لا يمكن الإفشاء بطريق الوصول إليه، حتى لا يرتقي أحد غيرهم ويقف إلى جوارهم في نفس المكانة المهمة، أو التي بالطبع كانت مهمة بالنسبة للآخرين الذين يعيشون جميعاً على أمل الوصول إليها، والتحول إلى كتاب وصحفيين كبار مثل هؤلاء الذين نتابع كل كلمة يكتبونها بالجرائد.

كنت دائماً ما أتحدث إلى أحلام في الأوقات النادرة التي توجد فيها داخل الكلية عن هدفي هذا، بينما كانت دوماً تتحدث إلي عن الفكر الشيوعي وأهميته لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين كل البشر، مما يوفر على الأجيال القادمة ما عانيته أنا نفسي طوال حياتي، كنت وصلت إلى حد اليأس من إقناع أحلام بأنني لا أبحث عن وسيلة طويلة الأمد لحل مشكلتي، وأنني لا يعينني مستقبل الأجيال القادمة بقدر ما يعينني مستقبلي أنا، لكنها دائماً كانت تعود بي إلى نقطة البداية، وتحاول إقناعي بأنني يجب أن أكون أول من يقتنع بالفكر الشيوعي والالتحاق بالعمل السياسي من أجل الوطن والشعب.. هذا الكلام الذي دائماً كنت ومازلت أراه لا معنى له، حيث مكانه

الكتب والأحلام وليس الواقع الذي نعيشه، الواقع الذي يفرض مفهوماً واحداً، ألا وهو العثور فوراً على وسيلة بأي شكل من الأشكال للانعتاق من رهن الفقر لنفوسنا، والارتقاء في سلم الطبقات التي تملك دون غيرها.

بالطبع كانت منى حاكم الصديقة الحميمة لأحلام وصديقتي بالتبعية تقول نفس الكلام، وإن كانت منى تقوله بطريقة أخرى، فهي ترى أننا يجب علينا العودة إلى إسلامنا الصحيح، الذي يساوي بين الناس ولا يفرق بين فقير وغني، ويأخذ من الغني حق السائل والمحروم، لم أكن أدري كيف أفه

أنني لن أنتظر حتى يتم تطبيق الشيوعية أو إعادة الحكم بالقرآن حتى أحل مشاكلي، لذلك قررت أن أبحث بنفسي عن الطريقة التي سأنفذ منها نحو الباب الذي سيدخل منه المال، سواء كان هذا الباب شيوعياً أو إسلامياً أو أي شيء آخر، فأنا لا تهمني الوسيلة بقدر ما تهمني النتيجة.

بالطبع القلق الذي عم الجامعة بسبب حرب الكويت والعراق عطل مشروعاتي كثيراً، فبعد المظاهرات الهادرة التي استمرت أياماً طويلة في الجامعة، تم إغلاق الجامعة ومنحنا إجازة مفتوحة حتى انتهاء الحرب، وإن كنا بعد عودتنا إلى الجامعة وانتهاء المظاهرات، غرقنا في المناقشات المملة حول الدخول الأمريكي والأوروبي إلى الحرب، وكيف أن الكويت خائنة أم لا.. وبين متهمين للكويت بالخيانة ومؤيدين لموقفها ضاعت قضيتي أنا، ولم أعد أدري كيف السبيل إلى أي جريدة أياً كانت أحصل منها حتى ولو على قروش قليلة، تكون أكرم لي من العودة إلى صفوف العمال في محال عصير القصب والأسترجية.

ظل الأمر كذلك حتى اقتربت السنة من الانتهاء، لكن من خلال أحد الطلاب الذين يقيمون في المدينة الجامعية مثلي، علمت أن رئيس أسرة النور مؤنس المسيري، والطالب في السنة النهائية بقسم الصحافة، يساعد الطلاب الذين يلتحقون بأسرة النور، وهي أسرة تنتمي إلى التيار الإسلامي، على الالتحاق ببعض الجرائد والمجلات الإسلامية التي تصدر من السعودية ولها مكاتب في مصر، حينها قررت فوراً أن ألتقي مؤنس هذا واللتحاق فوراً بأسرة النور! وبالفعل لم أضيع وقتاً، فلقد أخذت أبحث عن مؤنس في اليوم التالي مباشرة حتى عثرت عليه، وذهبت إليه وأنا أضع على وجهي قناع التقى والإيمان، لم أكن أعرف تحديداً ما الذي ينبغي لي قوله له حتى يؤمن فعلاً بأنني أميل إلى التيار الإسلامي، لكن في النهاية كلنا مسلمون ونعرف المفردات الشائعة التي تبين المتدين من غيره، في البداية ألقى عليه السلام كاملاً غير منقوص، ثم سألته إذا كان يملك دقائق قليلة أجلس فيها معه للتحدث إليه، بالطبع رحب بي هاشماً باشاً فجلست إلى جواره وقلت له: (مش عارف أقولك إيه يا أخ مؤنس، بس الحقيقة أنا من أول ما دخلت كلية الإعلام وأنا معجب قوي بأسرة النور، وبالنشاط اللي بتقوموا بيه عشان توعونا على حقيقة ديننا، وكان نفسي أعرف إزاي أنضم ليكم، لكن إنت عارف إن وجودنا في مبنى الامتحانات مش مخلينا نعرف كل حاجة بتحصل في الكلية).. لم أعرف كيف قلت هذا الكلام، وكيف صغت هذه الجمل، وعلامات الهدى والتقى تكسو وجهي المطأطأ لأسفل في تواضع، تماماً مثلما يفعل الإسلاميون الذين يسيرون في الجامعة بملابسهم المميزة ولحاهم الطويلة بلا أي تذهيب! وبعد أن أنهيت كلامي ربت مؤنس على كتفي وابتسامة عريضة تحتل نصف وجهه، ثم قال: (الله أكبر الله أكبر.. أنا عارف إن مجهودنا إنشاء الله لن يذهب هباء، وإن الشباب يوم بعد يوم سوف يفيئوا إلى أمر الله، ويعرفوا إن الطريق الصحيح هو في الإسلام وحده والعودة

لأصوله.. أنا سعيد جداً بمعرفتك يا أخ مؤمن وبارح ببيك معانا). كنت أود لو أنهى الأمر فوراً، وأطلب منه أن يدلني على عمل بإحدى جرائدهم، لكنني أمسكت لساني في آخر لحظة، وسألته عن المطلوب مني حتى أشارك في الأسرة، فقال لي: (أبدأ ولا حاجة، إحنا هنسجل اسمك في قائمة أعضاء الأسرة والباقي عليك انت بقي، إما أن تكون عضو نشيط أو زي كثير من الأعضاء المكتفين بحضور الندوات بتاعتنا من غير ما يشتركوا في تنظيمها، وبيقروا مجالات الحائط بتاعتنا من غير ما يشتركوا في تحريرها)، (لا طبعاً أنا عاوز أكون عضو نشيط، بس انت قوللي إزاي وأنا أعمل فوراً!)، حينها طلب مني الانضمام إلى صفوف صلاة الجماعة التي تقام في مبنى الامتحانات بإمامة عباس شكري المسئول عن دفعتنا، والصلاة الأخرى التي يؤمها مؤنس نفسه في المدينة الجامعية، حيث يقيم فيها مثلي، وبالتالي حضور الدروس التي تقام عقب كل صلاة.

بالطبع كان هذا الأمر مهمة شاقة جداً، فأنا في الحقيقة لم أكن أصلي! حيث لم يعلمني أحد منذ طفولتي المواظبة على الصلاة، وفجأة يطلب مني أن أصلي الفرض والسنة وجميع النوافل في أوقات محددة بعينها! لكن لم يكن أمامي سوى الانصياع لما طلبه مني مؤنس، بل التقاني في تنفيذ هذا الطلب، فكما يقول المثل: (عشان الورد ينسقي العليق)!

لا أدري لماذا اجتاحتني نوبة من الزهو بنفسي بعد أن التحقت بأسرة النور؟! وذهبت إلى منى حاكم وأخبرتها بأنني أصبحت مثلها عضواً في هذه الأسرة، حينها فوجئت بمنى تقول لي إنها ليست عضواً فيها.. (إزاي يعني؟! ده انتي على طول بتتكلمي على الإسلام ونهضة المسلمين والعودة لطريق الله.. وفي الآخر مش عضوة معاهم؟!)، هكذا سألتها فأجابتنني بابتسامتها الهادئة: (يا مؤمن الإسلام مش قاصر على

أسرة النور.. كمان أنا ضد طريقة الجماعات الإسلامية في استغلال الدين من أجل تحقيق مكاسب سياسية، ضيف على ده كمان إني ضد موقفهم العام من المرأة.. الإسلام ساوى النساء بالرجال، في حين إن أسرة النور وأمثالها مش بتقول كده، وعازين الستات يرجعوا لبيوتهم زي ما كان حاصل زمان!

شعرت بأن منى كعادتها ستأخذني إلى موضوعاتها التي عادة لا أفقه منها شيئاً، فلقد كانت تتحدث دوماً عن أسماء لم أكن أعلم عنها شيئاً قبل أن تتحدث هي عنها، حتى أحلام نفسها لم تكن تعلم أي شيء عن أمل دنقل مثلاً أو نجيب سرور أو صلاح عبدالصبور، حتى صلاح جاهين لم تكن تعلم أنا وأحلام بأن له مواقف سياسية وغير ذلك، فقط نعلم أنه هو من كتب الفوايزر ويوجي وطمطم! كانت منى بالنسبة لكلينا مفتاحاً لأسرار لا نعلم عنها شيئاً، لكن في الوقت الذي كانت تسرع فيه أحلام إلى إحضار كتب هؤلاء لقراءتها ومعرفتهم عن قرب، كنت أكتفي أنا بالاستماع أو الهروب بعيداً عن وجع الدماغ، الذي غالباً ما يصيبني من محاضرات منى التعليمية، لذلك قررت ألا أكمل كلامي معها وأمضي إلى حال سبيلي، لكنها استوقفتني سائلة: (أحلام تعرف إنك انضميت لأسرة النور؟!)، لم أدر ما سبب السؤال فقلت لها: (ما شفتهاش عشان أقولها)، (طب من الأحسن إنك ما تقولهاش عشان ما تخسروش بعض)، (وهاخسرهما ليه يعني يا منى؟!)، (إنت نسيت إن أحلام شيوعية؟!)، (طب ودي فيها إيه دي؟!)، حينها ابتسمت منى قائلة: (مش ممكن يا مؤمن!.. إنت على أي أساس اشتركت في أسرة النور؟!)، حينها وجددتني أنطق بالحقيقة، فقلت لها مبتسماً بتهكم، ربما كنت أتهمك على نفسي: (اشتركت على أساس يلاقولي شغلانة في الجرايد بتاعتهم أكسب من وراها قرشين!)، حينها نظرت إلي منى بامتعاض قائلة: (نعم؟!.. إنت بتقول إيه يا مؤمن?!)،

(زي ما قلناك وسمعتي)، حينها نهضت وجمعت دفاترها وقالت لي بعد أن خطت خطوتين للأمام: (ربنا يوفقك وتوصل لهدفك.. بس برضه ما تقولش لأحلام). كنت حتى هذه اللحظة لا أدري لماذا لا أقول لأحلام، لكن لتقتي برجاحة عقل منى قررت ألا أخبرها، خاصة أن أحلام هي آخر من أفكر في خسارته.

مضت أيام لم أر فيها أحلام بعد اشتراكي في أسرة النور، كنت قد بدأت بالفعل الانتظام في صفوف المصلين في الكلية والمدينة الجامعية، حيث تقام جميع الصلوات في ميقاتها، تعقبها دروس طويلة يلقيها علينا مؤنس داخل المدينة، وأحياناً يأتي بنفسه إلى مبنى الامتحانات ليؤم أعضاء الأسرة من السنة الأولى، ليتقرب إلينا أكثر كزعيم للاتجاه الإسلامي في كلية الإعلام، عدا ذلك كان عباس شكري الطالب معنا في السنة الأولى هو الذي يؤمنا ويلقي الدروس علينا، لم يكن لدي اعتراض بأي شكل من الأشكال على محتوى الدروس، فلقد كانت كلها عن الفضائل التي يجب أن يتحلى بها المسلم، ووجوب إقامة الصلاة في ميقاتها والصوم وإطلاق اللحية.. وغيرها من الموضوعات المشابهة، في بعض الأحيان كان الدرس يتطرق إلى موضوعات سياسية لا تخص مصر وحدها، ولكن تخص العالم الإسلامي كله، وكيف يدبر الغرب المؤامرات ضد المسلمين في كل مكان، وكيف نتصدى لهم، كل هذه الموضوعات برغم أنها كانت تفتح عقلي على موضوعات كثيرة لم يكن لي بها علم، إلا أنها لم تكن تسير بي نحو هدفي الأساسي، مما جعلني أشعر سريعاً بالملل والرغبة في الفرار، فلم يكن لدي مزيد من الوقت كي أضيعه، فالسنة الدراسية شارفت على الانتهاء، ولم أخط خطوة واحدة إيجابية في مسألة التحاقني بعمل في إحدى الصحف.

ظل الأمر يؤرقني، فقد كنت متحيراً لا أدري ما الذي يمكن فعله.. هل أنسحب تدريجياً من الصلوات والدروس المتكررة بشكل منتظم كل يوم؟! أو أترك الأمر كله وأفر للبحث عن طريق آخر؟! وفي شدة حيرتي تلك ظهرت أحلام على السطح مرة أخرى، وفوجئت

بأنها تحضر المحاضرات بانتظام، وتوجد باستمرار في مبنى الامتحانات، مما جعلني أتساءل عن هذا التغيير المفاجئ، وأين ذهب هؤلاء الشيوعيون الذين كانت تمضي معهم كل وقتها؟! وفي يوم كنت أجلس فيه على سلم المبنى، أتت لتجلس إلى جوارى بعينين شاردين ونفس مثقلة بهموم تخرج بين الفينة والفينة على شكل زفرة عميقة وطويلة، فسألتها: (مالك يا أحلام شكلك مش مضبوط؟!)، (أبدأ مفيش)، (لأ في! وبعدين إيه التغيير المفاجئ ده؟!.. إنتي بقيتي بتحضري المحاضرات بانتظام.. تتحسدي!)، ابتسمت بوهن ثم قالت: (عايزة ألحق ألم اللي فاتني طول السنة.. ما اعتقدش أمي هتتبط لما أسقط في أول سنة في الكلية)، (وراحوا فين أصحابك الشيوعيين اللي كنت بتتكلمي عليهم باستمرار.. ببيذكروا هما كمان؟!)، ابتسمت مرة أخرى ونظرت إلي بسخرية قائلة: (إنت بتتريق؟!)، (بصراحة أيوه!.. بتتريق عليك عاليا!)، (وبتتريق على نفسك ليه بقي؟!)، (أبدأ أصلي عملت زيك، انضميت لأسرة النور عشان يساعدوني ألاقي شغل في جريدة من الجرايد الإسلامية، وطلع نقبي على شونة!)، (إنت انضميت لأسرة النور؟!)، (أيوه، وما قلناكش عشان خفت تقطعي صداقتك بيه)، (وليه يعني أقطع صداقتي بيك؟!)، (منى قالتلي إن الشيوعيين مش بيبحبوا الإسلاميين)، (مش بالظبط.. بس عندها حق)، (طيب يعني كويس إنني سمعت كلامها)، (طب وبتقولي ليه دلوقت؟!)، (عشان إنتي سيبتيهم)، فنظرت إلي دهشة وسألتني: (منى قالتلك؟!)، (لا بس باين عليك.. هو إيه اللي حصل؟!)، (أبدأ ما اتقنتش مع أفكارهم)، (مش كنتي بتقولي إن أفكارهم هي اللي هتتقذ الأجيال اللي جاية من إنها تعيش حياة زي اللي أنا وانت عشناها؟!)، (كنت فاكدة كده.. بس الحياة من غير ربنا مالهاش معنى)، (وايه اللي جاب سيرة ربنا في الموضوع؟!)، (هما بيقولوا مفيش ربنا)، عندما اخترقت أذني جملتها الأخيرة نهضت كالملسوع، وأنا أصرخ مستكراً في وجهها: (يا

ولاد المجانين.. هما بيقولوا كده؟!، نهضت أحلام مهدئة إياي، تجذبني كي أعود للجلوس إلى جوارها مرة أخرى قائلة: (اقعد اقعد بلاش فضايح! إنت عبيط ولا إيه؟!)، جلست وأنا أعيد سؤالي بصوت منخفض: (هما بيقولوا كده?!)، (مش بالظبط يا مؤمن.. عموماً أنا متأكدة إن الموضوع مش مهم بالنسبة لك.. قوللي بس إنت إيه مشكلتك مع بتوع أسرة النور?!)، (زي ما قلناك.. انضميت ليهم عشان يشغلوني، ولغاية دلوقت ما شغلونيش!)، (طيب وانت فتحت موضوع الشغل ده معاهم?!)، (لأ.. مش عارف أفتحه معاهم إزاي)، (أبدأ بسيطة.. روح قول لمؤنس إنك محتاج تشتغل عشان ما عندكش مورد رزق، وهو هيساعدك.. اللي أعرفه إنهم عندهم نوع من أنواع التكافل والتضامن بيساعدوا بيه بعضهم)، كان كلامها طاقة من الضوء فتحت أمام ناظري، فقلت لها متسائلاً ببله: (إنتي بتتكلمي بجد؟! يعني هما بالتكافل ده بيشغلوا بعضيهم?!)، ضحكت ثم قالت: (أيوه بالتكافل ده بيشغلوا بعضيهم!).

تركته فوراً دون أي مقدمات، وجريت ذاهباً إلى مؤنس في مقر الكلية بالدور الرابع من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، بحثت عنه حتى وجدته في المصلى يقرأ القرآن، فخلعت حذائي رامياً إياه بحماس شديد، وتوجهت نحوه كجائع عثر على رغيف، ثم جلست إلى جواره واضعاً يدي على المصحف قائلاً بخشوع: (صدق الله العظيم!) فوجئ مؤنس بوجودي وحركتي التي أنهيت بها قراءته للقرآن فقال لي: (في إيه يا أخ مؤمن؟! إيه اللي حصل?!)، ابتسمت باتساع شفتي متزلفاً، ثم قلت: (واللهي يا أخ مؤنس أنا جايلك في موضوع مهم، وباتمنى من ربنا إنك تقدر تساعدني)، (خير إنشاء الله).

وأخذت أشكو له الفاقة وأسرد عليه تفاصيل حياتي المؤلمة، وكيف تشردت منذ العاشرة من عمري، متقللاً بين محال عصير

القصبة والأسترجية، للحصول على قروش قليلة أسد بها رمقي وأمي وأختي، وأنني الآن أشعر بالإحراج من العودة إلى مثل تلك الأعمال بعد أن أصبحت طالباً في كلية الإعلام، التي جعلت أمي تذهب بخيالها بعيداً، وتتصور أنني سأكون رئيساً للتحريير بمجرد أن أدخل الكلية!.. في الحقيقة لم أكن أتخيل أن الأمر يسير هكذا، لأنني لو علمت لكنت أقدمت على هذه الخطوة بمجرد التحاقني بالأسرة، فقد أبدى مؤنس تعاطفاً شديداً معي، وقال إنه سوف يساعدني بقدر استطاعته وبتوفيق الله، ولم يمض على هذه الواقعة أسبوع، حتى أثنائي مؤنس لييشرنى بأنه بإمكانني عمل موضوعات لجريدة الإسلام السعودية، ثم اصطحبني إلى مدير مكتبها بالقاهرة.

لم يطلب مني الرجل سوى بعض الأفكار وتنفيذها، وبالفعل قدمت له الأفكار وبدأت من فوري التنفيذ، بالطبع كانت هناك صعوبة في البداية كي أحصل على المصادر الصحفية، لكنني جعلت كل وقتي للأمر ونسيت تماماً الكلية، فلقد كنت ذاكرت لسنين طويلة قادمة، وبالفعل قدمت أربعة موضوعات حصلت مقابلها في آخر الشهر على ثلاثمائة جنيه، كان الرقم كبيراً بالفعل، لدرجة أن يدي ارتعشت وأنا أتسلمه من المحاسب! وأخذت أسير مترقصاً في الشوارع، أكاد أخرج الجنيهات الثلاثمائة وألوح بها للمارة، مخرجاً لساني حتى آخره لأغيطهم جميعاً! فأنا مؤمن المعدم الذي كان يجمع ثلاثمائة جنيه في صيف كامل من التعب والعمل المضني، حصلت عليها في شهر واحد، لم يكلفني سوى كتابة أربعة موضوعات بلا قيمة!

وكما يقال لعبت معي البلية!.. فلقد استطعت بشطارتي أن أعرف شكل الموضوعات التي يريدونها، ومن هي المصادر التي تتحدث في هذه النوعية، وبالتالي استطعت في الشهور التالية أن أقدم بدلاً من أربعة موضوعات ستة وسبعة وعشرة.. لدرجة أن مدير مكتب

الجريدة بدأ يتعامل معي على أنني صحفي مخضرم وله تاريخ طويل في بلاط السلطة الرابعة! نعم.. إنها فعلاً سلطة، فهؤلاء المصادر الذين كنت أذهب إليهم للحصول على عشرة أسطر في جريدة، أصبحوا بقدراتي الخارقة أصدقاء، ومن شروط الصداقة أن يخدم الأصدقاء بعضهم بعضاً، وبذلك فتحت أمامي أبواب أخرى للعمل، مقابل تلك السطور التي كنت أنشرها لهم في الإسلام.

مر العام الأول حيث حضرت الامتحانات بإحساس طاغية صغير، لم أكن أفعل سوى إطلاق النكات وتوزيع الضحكات هنا وهناك، تماماً مثلما اعتدت منذ البداية، ولكني في هذه المرة لم أكن أطلق الضحكات والنكات مستجدياً الصداقات والمساعدات، ولكني كنت أطلقها ساخراً من هؤلاء الطلاب الذين يحملون الخوف على معالم وجوههم، متمنين أن يأتي الامتحان سهلاً، وليس لديهم أي شيء يفعلونه سوى المذاكرة، أما أنا فلقد أصبحت صحفياً يتقاضى المئات شهرياً، وتمتد حلقة معارفه لتتجاوز الطلاب الصغار نحو أسماء تمتلك المال والجاه.

لم يزعجني سوى أحلام التي لم تلاحظ هذا التطور الذي طرأ علي، فلقد كانت غارقة في بحر من الهموم التي لم أستطع إدراكها ولم تتحدث عنها بدورها، فقط اكتفت بالتعبير عن شعورها بالضيق والرغبة الدائمة في البكاء، وفي آخر يوم من الامتحانات قالت لي: (أنا ماليش طلبات كثير يا مؤمن.. ومع ذلك مفيش حلم واحد ليه بيتحقق؟!)، (طيب وانتي بتحلمي بإيه بس؟!)، (باحلم بمصر ترجع عروسة تاني وحاضرة الدنيا كلها)، حينها انفجرت فيها قائلاً: (مصر إيه وبتاع إيه يا شيخة، فكري في نفسك شوية.. أنا ممكن أساعدك يا أحلام بس إنتي اطلبي)، (أطلب إيه؟!.. أطلب شغل؟!)، (أيوه على الأقل تكسبي فلوس تساعدي بيها نفسك، وتقبي على وش الدنيا!)، حينها نظرت إلي بعينين

دامعتين وقالت بأسى طعنني في الصميم: (أنا مش عايزة أقب لوحدي
يا مؤمن على وش الدنيا.. أنا عايزة أقب مع مصر).

مصر.. مصر.. مصر.. هذا الوهم الذي عاشت فيه حتى
خنفها، ومازال يحكم قبضة كفيه حول رقبتها، دون أن تتذمر أو حتى
ترفع صوتها كي تستجير.. الحمد لله أنني لست مصاباً بهذه اللوثة، فما
يهمني أن أقب أنا أولاً وبعد ذلك فليكن ما يكون، يقب الآخرون أو
يغرقون، وإن كنت حقاً لا أرغب في أن يغرق البلد، لأنه لو غرق
سأغرق معه! كما أنني والله أحب بلدي، لكنني لا أرغب في الانتظار
حتى يعود ليكون حاضرة الدنيا، وبالتالي ينعم أحفاد أحفاد أحفادي
بالحياة!

مضت أيام الإجازة سريعاً، وقد استطعت أن أحصل على حجرة فوق أحد أسطح البنايات بجوار الجامعة في بين السرايات، كان يرافقني في الحجرة طالب بكلية دار العلوم ينتمي أيضاً إلى الجماعات الإسلامية، ويعمل في الصيف مثلي لسد احتياجاته كفتى فقير لا يملك أهله الإنفاق عليه بالجامعة، استطاع مؤنس أن يجمع بيننا في السكن الذي وفره لنا هو أيضاً، فلقد كان بحق زعيماً يستطيع رعاية تابعيه بجدارة! ومؤنس بالمناسبة كان يعمل في العديد من الصحف الإسلامية السعودية والمصرية التي يصدرها الإسلاميون بالقاهرة، كما أنه التحق بالعمل في إذاعة القرآن الكريم، التي كان يتدرب فيها طوال سني دراسته، كنت أنظر إليه كمثل يحتذى، وإن كنت داخلي أتمنى أن أتفوق عليه، فأنا لا يكفيني العمل كمعد للبرامج الدينية فقط في إذاعة القرآن الكريم، ولا حتى في البرنامج العام أو الشرق الأوسط الأكثر انتشاراً، فلقد كان حلمي يمتد أوسع من ذلك، فبداخلي كنت أتطلع لواحدة من الجرائد الكبرى بمصر، مثل الأيام أو الجماهير أو القاهرة اليوم، فإما واحدة من هذه الجرائد أو واحدة من القنوات الرئيسية الأولى أو الثانية.. هذا هو المستوى الذي كان من الممكن أن يرضيني، وكنت دائماً أردد داخلي: (إما واحدة من هؤلاء أو لا شيء على الإطلاق!).

وكما يقولون الشغل يجر بعضه بعضاً، فلقد نفذ بي العمل بجريدة الإسلام السعودية إلى مجلة منبر الإسلام الكويتية، ومنها إلى جريدة المجاهدون المصرية، وقفز دخلي إلى ألف جنيه شهرياً، بالطبع كان المبلغ بالنسبة لي خيالياً من الصعب التعامل معه كله، فبعد أن أغدقت على أُمِّي وأختي وحبيبتي علا الهدايا، بدأت أفكر في الادخار، ففتحت حساباً في البنك وأخذت أودع ما يتبقى معي في آخر كل

شهر، استهواني تراكم النقود فأخذت أعمد إلى الادخار، فاتحاً أمامي أبواباً من الأحلام التي تضم شققاً وسيارات وأراضي، وكلما زاد رقم النقود التي بحوزتي في البنك، ازدادت خطواتي ثقة وصلابة وأنا أخطو في تلك الشوارع التي كان يفزعني مجرد الخروج إليها كل صباح، فالسؤال الدائم الذي كنت أفنتح به صباحي هو: وماذا بعد؟ ما الذي سيحدث لي اليوم؟ كنت أخاف من أن أمرض حتى ولو بالأنفلونزا، فمن أين يمكنني توفير ثمن المضاد الحيوي؟! ولو كان معي النقود فكيف سأقتطعها من مبلغ محسوب حساب كل مليم فيه؟! إن للنقود فعل السحر، فهي تغير مصير الإنسان مائة وثمانين درجة، بإمكانها أن ترسم ابتسامة بعرض الوجه، وبإمكانها أن تغيبها فتتكشف الشفتان وتزلمان في ارتعاش.

مرت الإجازة سريعاً وكان لابد من العودة إلى مقاعد الدراسة من جديد، مما جعلني أغرق في البحث عن طريقة تعفيني من الحضور المنتظم في الكلية، وإيجاد وقت للمذاكرة، دون أن يطغى ذلك على حجم العمل الذي أقوم به كل شهر للجرائد والمجلات التي أتعاون معها. لم أذهب بالطبع إلى الجامعة في أول يوم دراسي، فلقد أخذت أؤجل ذهابي يوماً بعد يوم حتى مر شهر كامل، زارني بعده عباس شكري في غرفتي بالمدينة الجامعية التي عدت إليها مع أول يوم دراسي، سألني عن السبب الذي يجعلني أغيب عن محاضراتي، فأخبرته بأنني لا أستطيع أن أترك العمل لأنني في حاجة إلى كل قرش أحصل عليه، بالطبع رسمت على وجهي ملامح المسكنة والاحتياج، مما حدا به لأن يتطوع لتوفير جميع الدروس التي فانتنتي منذ أول يوم دراسي، لكنه طلب مني بدء الحضور والانتظام بقدر الإمكان، على أن يوفر لي كل ما سيفوتني مستقبلاً إذا ما استدعت حاجتي إلى العمل الغياب، كان عرضه مبهرًا بالنسبة لي، فلقد حل مشكلة كبيرة كنت

غارقاً في محاولة حلها، وتذكرت أحلام، فهذا هو التكافل الذي تحدثت عنه! أخبرني عباس أيضاً لما يعرفه عن صداقتي لأحلام بأنها انضمت إلى أسرة النور، وأنهم سوف يضعونها على قوائم الأسرة في انتخابات الكلية لهذا العام.. كان الخبر مفاجئاً، فلم أكن أتخيل أبداً أحلام تابعة لأسرة النور، لا لأنني أشك في درجة إيمانها بالله، فلقد تركت الشيوعيين لأنها مؤمنة حقاً، ولكن لأنني لم أتخيل أحلام في رداء الفتيات التابعات لأسرة النور، فهل يمكن أن ترتدي جلباباً واسعاً وخماراً منسدلاً من قمة رأسها حتى منتصف جسدها؟! بل هل يمكن أن يأخذها الحماس كعادتها دائماً وترتدي النقاب؟! لا أدري لماذا كرهت أن أراها في هذا اللباس؟! أنا لا أكره الفتيات اللاتي يفعلن ذلك، لكن أحلام غير كل هؤلاء الفتيات، دائماً ما كنت أراها هي ومنى حاكم بشكل مختلف عن باقي الفتيات، حتى عن علا التي أحبها فعلاً، هي وغيرها مجرد فتيات، ولكن أحلام ومنى فتاتان من نوع خاص، فتاتان من هؤلاء اللاتي نقرأ عنهن في التاريخ، كهدي شعراوي وأمينة السعيد وغيرهما.

كان هذا الخبر سبباً عجل بسرعة ذهابي إلى الكلية لأرى شكل أحلام الجديد، أحبس أنفاسي وأنا جالس في المدرج أنتظر دخولها إلى قاعة المحاضرات، لكنها عندما دخلت كانت ترتدي ملابسها العادية، مما أشاع داخلي بهجة عارمة، وقفزت أنزل سلم المدرج حتى وصلت إليها، كنت أريد ضمها إلى صدري، لكنني تحكمت في نفسي عند آخر درجتين نزلتهما متجهاً نحوها.. بمجرد أن رأيتي أهلت بأسلوبها الطفولي الذي أحبه، وأخذت تمطرني بالأسئلة عن سبب غيابي كل تلك المدة، أخذتها من يدها وخرجنا إلى حديقة معهد الإحصاء، الذي خصصته لنا إدارة الجامعة إلى أن ينتهوا من بناء مبنى كلية الإعلام الجديد، جلسنا على سياج النافورة التي تتوسط

الحديقة، وقبل أن تقول أي كلمة سألتها من فوري: (إنتي انضميتي لأسرة النور؟!)، فقالت مبتسمة: (أيوه بقينا زملا في الكلية والأسرة والاتجاه السياسي)، نظرت محبطاً إليها وقلت: (اتجاه سياسي إيه إنتي كمان؟! إنتي عارفة كويس إنني ماليش أي اتجاهات سياسية)، تبتسم بخبث وتتنظر إلى أسفل ثم تجيبني قائلة: (طب ما أنا عارفة، أنا كنت باتريق عليك!)، (طيب أنا وانضميت ليهم عشان ألاقي شغل وانقع من اتصالاتهم وإمكاناتهم.. إنتي بقى انضميتي ليهم ليه؟!.. بصراحة أنا حاسس إنهم مش لايقين عليكى خالص)، عندما قلت ذلك نظرت إلي بجدية شديدة وقالت: (لا يا مؤمن أنا لايقة عليهم وهما لايقين عليا، أنا مسلمة وبحب ديني وبحب ربنا، وطول عمري متربية على طاعة الله ورسوله.. يبقى أسرة النور هي الأنسب عشان أجاهد معاهم في سبيل الله والوطن).

كانت تهوى دائماً التقوه بشعارات رنانة، الله والوطن! لم أعرف كيف يمكن أن أجيها، فأنا لست مثقفاً مثلها، تقرأ كدودة شرهة، وتتصت بإمعان لكل معلومة أو فكرة تقال أمامها، وتدخل في مناقشات لا قبل لي بها، مستميتة ومدافعة عن فكرتها التي تتبناها، بالطبع هي دائماً تدخل في فتنات جديدة، ففي العام الأول من الدراسة كانت تستميت من أجل نصره الشيوعية، وفي العام الثاني استماتت من أجل الإسلاميين، حتى إن ما كرهته فعلته وارتدت الخمار والجلباب الواسع وكادت أن ترتدي النقاب! لكنها فجأة ودون مقدمات تركت أسرة النور تماماً، وعادت إلى حبيبها سعيد، بعد أن كانت قد تجاهلته أغلب شهور السنة الدراسية، أما في العام الثالث فقد سمعت أنها أسست أسرة خاصة بها مع منى حاكم، لكن إدارة النشاط في الكلية أغفلتها. والحقيقة لا أعلم التفاصيل التي غرقت فيها أحلام بعد ذلك، حتى سمعت عن موت سعيد في مظاهرة الحرم الإبراهيمي في الجامعة، واختفاء أحلام لمدة

شهر ثم عودتها مرة أخرى وكأن شيئاً لم يكن.. أنا لم أستطع يوماً فهم أحلام، وبرغم أن منى حاكم لديها أفكار مشابهة عن الوطن، وما إلى ذلك من الترهات التي تأكل رأس العديد من الطلاب! إلا أنها كانت أبسط وأهدأ كثيراً، ولم تسبب لي الشعور بالارتباك وأنا بجوارها، أما أحلام فهي كتلة من القلق والارتباك والأسئلة التي لا نهاية لها والتي لا إجابة لها أيضاً!

بعد ذلك اللقاء بجوار نافورة معهد الإحصاء لم أهتم كثيراً بما تفعله أحلام، وإن كنت ساعدتها على أن تعمل في جريدة الإسلام السعودية، عندما طلبت مني وسيلة تقوم من خلالها بالتأثير في الناس، وعندما حاولت أن أقنعها بأن تعمل فقط للحصول على المال، كانت تردد أنها لا تفكر في المال ولكن في الهدف الذي تسعى من أجل تحقيقه! بالطبع كان معظم الأفكار التي تقدمها لمدير مكتب الجريدة غير صالح للتنفيذ، مما جعلها لا تتقاضى شيئاً يذكر منها، حتى إنها لم تكن تذهب لأخذ نقودها، وكنت أضطر أنا إلى أن أحضرها لها.. دائماً ما كانت أحلام غبية! وحتى الآن تعيش سعيدة بغباها الذي ورطها في ذلك المعنوه الذي تزوجته.

لم أشغل بالي كثيراً بأحلام وأحلامها أو أوهامها، ومضيت قدماً في حياتي التي رسمتها لنفسى بدقة، كما أن الحظ حالفني في كل خطواتي، وأصبح لدي العديد من الموارد التي أحصل منها على الأموال، خاصة بعد أن بدأت العمل في تلك القناة العربية الجديدة التي افتتحت عالم الفضائيات العربية، فلقد كانوا يدفعون مبالغ كبيرة لكل حلقة أعدها لذلك البرنامج الديني الذي كنت أعده، أعترف بأنني أخذت الدين طريقاً للكسب، وكان ذلك لا يؤرقني إلا قليلاً جداً، فلقد كنت أقنع نفسي بأن الله يرزقني، لأنني أعمل على توعية المسلمين وعودتهم إلى الطريق القويم!

ظلت على هذه الحال بين الكلية وعملي، أو بمعنى أصح من عمل إلى عمل، وأحياناً أذهب لأرى الكلية وأحصل على المحاضرات التي فانتتي، أو أحضر بعض المحاضرات التي يجب حضورها، لم أكن أعرف أنني بهذا الذكاء، فلقد كنت أستطيع في ساعات قليلة أن ألم بكل المعلومات التي يدرسوننا إياها، ولم تعطني الدراسة لحظة عن عملي، حتى إن إخلاصي هذا في العمل أخذ يجلب لي المزيد من النجاح فيه، ففي يوم كنت أسهر مع مدير مكتب تلك القناة في القاهرة، وكان عدد من الصحفيين الكبار حاضرين أيضاً، وجدتني أخطو بتلقائية نحو عاطف مسعود رئيس قسم التحقيقات بجريدة الأيام القومية، وتسللت بمقعد جلسته من الطاولة المجاورة لطاولته، لأحشره بين مقعده والمقعد الذي على يمينه لأكون عن يمينه تماماً، لا يفصلنا سوى فضاء ضيق جداً. أخذت أتناول في الكلام رويداً رويداً، أخلق الضحكات والنكات التي أبرع في حياكتها، حتى التفتت نظرات كل المتحلقين حول الطاولة نحوي، بعدها بدأت ألعب دور المعجب بكل ما يكتبه الأستاذ، وكل من يجلس إلى جواره من أساتذة أيضاً! بالطبع أنا قارئ جيد لكل ما يكتب في الصحف، فأخذت أسرد على مسامعهم ما يكتبون، وأعبر عن إعجابي ببعض المقاطع في مقالاتهم، خاصة الأستاذ عاطف الذي خصصته بسيل جارف من التعليقات المبهورة بكل حرف يكتبه.. بعد قليل طرح علي الأستاذ السؤال الذي كنت أنتظره: (إنت صحفي؟!،) (يعني يا أفندم على قدي!)، (بتشتغل فين؟)، خفت أن أذكر تلك الجرائد والمجلات الإسلامية التي أتعاون معها، تحسباً لاحتمال أن يكون مناهضاً للفكر الإسلامي، فذكرت أنني أعمل في جرائد عربية بالقطعة، وأساهم في إعداد برنامج ديني في هذه القناة التي يسهر الجميع على شرفها، فوجئت به معجباً بالبرنامج، ورويداً رويداً تبدى لي اتجاهه الإسلامي العنيف، فقررت أن أغزوه بأفكاري الإسلامية المتعصبة، والتي أختزنها لأخرجها في الوقت المناسب

لكسب بعض النقاط. كنت في ذلك الوقت في السنة الثالثة وحفظت دروسي الإسلامية عن ظهر قلب، لكثرة التحاور مع شخصيات تنتمي إلى التيار الإسلامي في مصر، وكنت في ذلك الوقت أيضاً قد أدركت معاني المصطلحات التي كانت مستغلة علي، مثل الشيوعية والإمبريالية والرأسمالية والناصرية والقومية.. وغيرها من المصطلحات التي تتردد في كل مكان أينما ذهبت. أخذت أهل للتيار الإسلامي، وألفق جملة من هنا وجملة من هناك أعادي بها التيارات الأخرى في البلد، مما حدا بالأستاذ في آخر السهرة أن يمنحني بطاقة عمله، وطلب مني الاتصال به للقاءه في مقر جريدة الأيام.

كان هذا الحدث فتحاً مبيناً لي، فأخيراً سوف أتمكن من دخول مؤسسة الأيام الصحفية، أخيراً وجدت منفذاً لهذه المؤسسة التي يحلم بها كل طالب في قسم الصحافة في كلية الإعلام، دون واسطة أو أي شيء آخر، غير مهارتي في غزل شبكي حول الضحية لإيقاعها في حبالني! بالطبع لم أضيع وقتاً واتصلت به في اليوم التالي مباشرة، فطلب مني أن أحضر إليه من فوري.

في صالة الاستقبال بمبنى مؤسسة الأيام جلست على مقعد جلدي، في انتظار السماح لي بالصعود إلى مكتب الأستاذ عاطف مسعود.. لحظات ونادى موظف الأمن اسمي، طالباً بطاقتي الشخصية ليمنحني بطاقة أخرى مكتوباً عليها (زائر).. هكذا يتعاملون في المؤسسات الكبرى إذن!.. كانت كل خطوة في ذلك المبنى المهيّب تزيد من دقات قلبي دقة، حتى وصلت إلى مكتب عاطف مسعود وأنا ألهث، وكأنني خرجت لتوي من سباق عدو لمسافات طويلة! يبدو أيضاً أن دمائي قد هربت فظل وجهي لونه أصفر، حتى إن الأستاذ عندما رآني سألني إن كنت مريضاً! لم أشأ كعادتي أن أترك سؤاله يمر مروراً عابراً، حيث أجبته سريعاً: (لا يا أستاذ، بس الدخول لمكتب حضرتك

والقعاد معاك بشكل خاص مسألة كبيرة جداً صعب قلبي الغلبان يستحملها!)، ويبدو أن كلامي مس شيئاً ما داخل هذا الكاتب الصحفي المخضرم، الذي تقلب بجنبيه على جميع التيارات السياسية في مصر، بدءاً من الشيوعية وانتهاء بالإسلامية.

أشار إلي كي أجلس، وبدأ التحدث معي عن أحلامي وطموحاتي، وما الذي أريد عمله في حياتي.. حتى سألني في النهاية عما إذا كنت أرغب في التدريب بجريدة الأيام، حتى أنتهي من دراستي ثم يتم تعييني بها.. بالطبع كان سؤالاً غيبياً منه، فمن هو هذا الذي لا يرغب في ذلك؟! أجبته بحماس شديد أن نعم بالطبع، وبمجرد أن تلفظت بهاتين الكلمتين قال لي إنه سيقوم بالإجراءات الخاصة بذلك، ثم لمح لي بطريقة واضحة تماماً أنه سوف يسدي لي هذا المعروف الكبير، في مقابل أن أكون ساعده الأيمن في قسم التحقيقات، فوجدتني أجبته سريعاً دون أدنى تفكير: (درايك اليمين والشمال يا افندم، ولو عايز أبقى رجلك اليمين والشمال كمان!)، ضحك ضحكة رجت جدران مكتبه، ثم قال: (من بكرة تيجي بعد ما تخلص محاضراتك، أنا مش عايزك تهمل الكلية.. وسيبك من الجرايد اللي انت شغال فيها.. أنا عايزك تركز معايا، وأنا هاعرف أعوضك كويس عن المبالغ اللي بتأخذها من الأماكن دي). لم يكن الأمر يدعو إلى التفكير، فقد وافقت من فوري وبحماس شديد، وبالفعل بدأت الانتظام بقسم التحقيقات بدءاً من اليوم التالي لذلك اللقاء.

كان دوري كساعد أيمن لعاطف مسعود، لا يقتصر على نقل كل كلمة يقولها المحررون في القسم عنه، بل يمتد لتجهيز المادة الأسبوعية لتحقيقه الرئيسي، الذي يحتل صفحة كاملة من جريدة الأيام كل يوم أحد، والقيام بدور المتحدث باسمه في كل صفقاته الصحفية مع الأسماء الكبيرة، التي كان يهددها ببعض المعلومات التي جمعها

عنهم مع بعض الأدلة الورقية الصغيرة، فإما الدفع أو النشر، وبالطبع كان الكل يدفع صاغراً وخائفاً من اسمه الكبير، الذي يمتلك مصداقية لدى كل من القراء العاديين ورجال السلطة. كان عاطف مسعود الأستاذ الحقيقي الذي علمني بحق لعبة الصحافة، فلا هي الأشكال الصحفية التي كنا ندرسها في الكلية، ولا الأسئلة الخمسة التي يدور حولها أي موضوع صحفي، ولا هي خبر مقلوب أو معدول.. إنها فن مقايضة المعلومة بالمال، فن الفضيحة الهادفة إلى الجاه والقوة والجبروت.

مرت أعوام الدراسة بخير، في ما عدا حادثة وفاة سعيد مختار التي أزعجتنا جميعاً، أقسم بالله أنها أزعجتني، فأنا لم أتمن أبداً برغم كل ما فعله سعيد بي طوال سني الدراسة أن تكون هذه هي نهايته، خاصة ما فعلته تلك النهاية بأحلام، فلقد أصيبت بداء الصمت والسكون في ما تبقى من العام الدراسي الأخير من أشهر، ربما ساعدها هذا الصمت الذي أعقب وفاة سعيد على أن تذاكر لأول مرة في حياتها منذ التحقت بالكلية، وتحصل على تقدير امتياز في السنة الرابعة، مما أنقذ تقديرها النهائي لتتخرج بجيد، بينما تخرجت أنا بجيد جداً، كانت أيضاً تعمل في جريدة اسمها الاتجاه العربي، جريدة مستقلة يسارية، بينما منى لاتزال منتظمة في الذهاب للتدرب بمؤسسة القاهرة اليوم، أما باقي زملائنا فقد انقسموا على مجموعات، مجموعة ساعدها أهلها على النفاذ إلى داخل المؤسسات الكبرى والتلفزيون المصري، ومجموعة ساعدها الدكتور فاروق أبوحمدة رئيس قسم الصحافة على الدخول إلى نفس المؤسسات القومية والمجلات الرسمية، أما المجموعة الثالثة، والتي كان من الممكن أن أكون واحداً منها، فبدأت طريق التشرد والبحث عن فرص عمل في أي مكان.

بالطبع كان الجميع يحبون متلمسين الإرشاد في خطواتهم الأولى في الحياة العملية، في حين كنت قد قطعت شوطاً أنى لهم قطعه حتى لو عملوا في الصحافة عشر سنوات، فلقد تمكنت من كسب ثقة عاطف مسعود العمياء بي، وسمح لي بدخول عالمه بشكل أكثر عمقاً، كاشفاً لي جميع أوراق اللعبة التي يلعبها باحتراف منذ العام خمسة وسبعين، كما قال لي ذات مرة في لحظة من لحظات صدقه المعدودة! (عارف يا واد يا مؤمن.. النكسة دي كانت نكسة بصحيح

لكل الناس.. أنا نفسي ما كنتش أتخيل إن حالي هيبقى زي الزفت كده!)، (ليه يا أستاذ عاطف وانت مالك يعني؟! ما انت زي الفل أهوه)، (زي الفل إيه يا غبي إنت! أنا حرامي ونصاب مش أي حاجة تانية! بابيع البلد كل يوم حته حته.. أبقي زي الفل إزاي بقى؟!)، حينها أمسكت لساني عن الكلام والتفوه بأي كلمة، سواء موافقة أو معارضة لكونه نصاباً وحرامياً فعلاً، حتى لا يأخذها علي عندما يفيق من لحظة الصراحة النادرة تلك! لكن بالطبع كان يعلم في داخله أنني لا أراه سوى في هذه الصورة الحقيقية له، مجرد نصاب وحرامي يتاجر بالكلمة، ويبيع الحقيقة بأرخص الأثمان، لكنه كان يعلم أيضاً أنني لم أصبح ذراعه اليمنى إلا لأنني لا يهمني سوى المال، ولا تهمني الكلمة في مجتمع تحركه الكلمات الذنبية التي ترتدي ثوب حمل، لا تهمني الكلمة في مجتمع يأكل القوي فيه الضعيف، وينتهك الكبار حرمت الصغار وحقوقهم، كان يعلم جيداً أنني أريد الصعود والجلوس على مقعد مجاور له ولأمثاله، لأتحول من حمل إلى ذنب ينهش ولا يتعرض إلى النهش.

لم يمر عام على تخرجي حتى أتممت إجراءات تعييني في مؤسسة الأيام، حينها قررت أن أتخذ خطوات سريعة وحاسمة للحصول على شقة من شقق محافظة القاهرة المخصصة لسكن الشباب، والتقدم لخطبة علا، التي كانت تنتظر في البلد حتى أتم إجراءات التعيين ثم أتقدم لخطبتها. كان حبي لها قد تحول إلى مجرد رغبة في تحقيق كل ما حلمت به منذ طفولتي، أن أصبح شخصية مرموقة في البلد، وأتزوج واحدة من بنات العائلات الكبيرة فيها، وبذلك أكون قد هزمت نظرهم الأثرية إلي، نظرة الاحتقار لابن المقامر وأخي السكير، فطوال السنوات الخمس التي مضت منذ حصولي على الشهادة الثانوية، لم أكن أرى علا سوى في شرفة منزلها، عندما كنت أذهب لزيارة أمي كل شهر، وبعض المكالمات التليفونية التي أتحدث فيها عن أحلامي وما حققته

من نجاح، محاولاً بقدر الإمكان إبهارها بعالم الصحافة الذي لا تعلم عنه شيئاً، ولا يمكن أن تعرفه إلا من خلالي، فهي تعيش في منزل والدها، لا ترى سوى شوارع الشهدا وشبين الكوم التي تذهب إليها لتدرس بكلية التربية هناك. كنت بالنسبة لعلا بطلاً أسطورياً يفتح لها أبواباً لعوالم لا يمكن أن تقترب منها إلا من خلالي، وكنت أنا ألعب على هذا الوتر بحرفية شديدة، فلقد تحولت مشاعري الرومانسية المراهقة لها وأنا في الثانوية العامة، إلى رغبة عارمة في الاستحواذ على ابنة واحد من كبار الأعيان في البلد، فأهزمه وأهزم كل من ظلمني وأنا صغير لا أجد من يحميني من نير العمل منذ نعومة أظفاري. وبالفعل ذهبت لخطبة علا، كان لابد من أن أباغت والدها ولا أقوم بأي مقدمات تعلمه بزيارتي له وسببها، لم أصطحب أمي أو أياً من رجال عائلتي، عائلتي التي بدأت الاعتراف بي والتقرب من أمي وأختي، بعدما علموا أنني أصبحت صحفياً رسمياً بجريدة الأيام، لم أكن أرغب فيهم، خاصة بعدما اكتشفت حجمهم الحقيقي، والذي كان متضخماً في نظري سابقاً، هم مجرد كائنات بائسة تمتلك الفتات وتدعي أنه ثروة، مساكين.. فهم لم يروا حجم الثروات الحقيقية ولا الحياة الثرية من قبل.

أخذت معي باقة من الورد كثري قديم يعلم حدود اللياقة والذوق، واتصلت بعلا معلماً إياها بقدومي، على أن تحدد لي الميعاد الذي يوجد فيه والدها بالمنزل، وبهذه الطريقة أباغت الرجل بطلبي دون مقدمات سابقة تجعله يرفض مقابلتي أو النظر في أمري، دون أن يرى شكلي الجديد ومستوى تعاملاتي الحالي، والمكانة التي وصلت إليها والتي تعد حلماً حتى بالنسبة له، هو من يملك مائتي فدان في الشهدا ويعد من أغنى أغنيائها.

طرقت الباب حيث فتحت لي علا بنفسها، كانت أول مرة أراها
وجهاً لوجه منذ تخرجنا في الثانوية العامة، لم أشعر بشيء بينما بدا
ارتعاشها واضحاً تماماً، أشارت نحو حجرة الضيوف طالبة مني في
خفر شديد أن أتوجه إليها لحين إعلام والدها بقدومي.. لم تمر لحظات
حتى دخل والدها مرتدياً عباءته الفاخرة، التي يتخايل بها راكباً سيارته
وقاطعاً شوارع الشهدا طويلاً وعرضاً مسيلاً لعاب الجميع، كان ينظر إلي
بتساؤل فلقد نسي شكلي منذ كنت طالبةً صغيرةً في المدرسة التي يديرها
بنفسه، فلقد كان ناظراً للمدرسة الثانوية بالبلدة قبل أن يصل إلى سن
التقاعد، ذكرته بنفسه فلم يتذكر الحقير سوى والدي حيث قال: (آه!
إنت مؤمن ابن حربية الـ..)، كانت جملة طعنة وجهت إلى صدري
بعمق، فتلعثمت وفقدت كل الثقة التي كنت أتسلح بها وأنا قادم لخطبة
ابنته، فوجدتني أقول بصيغة دفاعية شديدة الدفاع: (أنا سيادتك
اتخرجت من كلية إعلام.. حضرتك عارف إني كنت الأول على
المحافظة في الثانوية العامة.. أنا دلوقت صحفي في مؤسسة الأيام
ودخلت نقابة الصحفيين.. أنا باكسب فلوس كتير قوي).. وفجأة
وجدتني خالي الوفاض من كلمات أخرى أتجمل بها أمام هذا الرجل
القاسي، الذي مازال يتذكرني بأني ابن القمري، الفتى الفقير الذي كان
يعمل بيديه الصغيرتين في ورشات الأسترجية بالبلد، ويسافر إلى
القاهرة للعمل في محال عصير القصب، هكذا كان يراني ولم يستطع
أن يراني بأي شكل آخر حاولت تقديمه له.

بعد أن انتهيت من تلعثمي سألني دون حتى أن يثني على
كفاحي الذي وصلت به إلى هذه المكانة: (طب وعازب إيه يا مؤمن؟!)،
سؤاله الذي خرج مغلفاً بازدياء شديد جعلني أنسى ما جئت من أجله،
فظللت صامتاً زمناً طويلاً حتى أعاد السؤال بصوت عال متأفف: (ما
قلتلش عازب إيه؟! .. محتاج توصية ولا حاجة تساعد بيها أمك؟!)، هنا

كان نصل خنجره قد شطر قلبي وكرامتي التي حاولت الحفاظ عليها أثناء لقائي به، لكنه استطاع أيضاً أن يشعل حقدي وكرهي له ولأمثاله ممن يعتقدون أنهم ملوك الدنيا، وأن من هم مثلي مهما فعلوا لن يستطيعوا الوصول إلى مكانتهم، فوجدت الشجاعة تواتيني كي أقول له: (أنا خلاص ما عدتش محتاج لحد ولا لأي حاجة.. وأمي كمان أنا أعرف إزاي أسد كل احتياجتها)، (أمال جاي ليه؟!)، (جاي عشان أطلب إيد بنتك علا!).

لم أكن أتخيل أبداً أن طلبي هذا سيحوّله إلى ثور هائج يطيح كل شيء أمامه، فلقد قام من مجلسه وصرخ في وجهي قائلاً باحتقار شديد، تمتلئ عيناه بنظرة اشمئزاز وكأنني بركة وحل سقط فيها: (إنت تطلب إيد علا بنتي أنا؟!.. إنت اتجننت؟!.. إنت باين عليك نسيت نفسك؟!.. إنت عايزني أنا أجوز بنتي لواحد زيك؟!.. طبعاً طلبك مرفوض.. أنا باستغرب الجراً دي جاتلك منين عشان تيجي وتطلب إيد بنتي أنا!)، كان كلامه مهيناً جداً، ولم أجد غير سلاح الحب كي أتسلح به، فقلت له متحدياً: (الجرأة جاتلي من حب علا ليا.. أنا وعلا بنحب بعض من أيام ما كنا في الثانوية العامة)، علا صوت هديره وأخذ يصرخ في وجهي طارداً إياي: (إطلع بره.. إطلع بره يا كلب يا حقير.. أنا هاعرف إزاي أربيك وأربيه لو كان كلامك حقيقي).

وخرجت.. لم أعد إلى منزل أُمي، ولكنني توجهت مباشرة إلى محطة سيارات الأجرة المتوجهة نحو القاهرة.. مر أسبوع وأنا أشعر بكرهي للعالم يزداد، ولم أكن أدري ما الذي يمكن أن أفعله كي أسترده كرامتي التي أهدرها والد علا على عتبات منزله، ذلك المنزل الذي ظلمت أحبه كل شهر، وأطوف حوله لرؤية علا في شرفتها، ذلك المنزل الذي كنت أمد بصري نحوه مُميّناً نفسي بغزوه في يوم من

الأيام، وأتى اليوم الذي اعتقدت أنني سأغزوه فيه فغزاني، ووجه لي طعنة بحجم قدر كتب علي حتى الممات.

بعد مرور أسبوع اتصلت بعلا، وعندما أجابتي سألتها ماذا سنفعل الآن، فما كان منها إلا أن قالت وهي تبكي: (إنساني يا مؤمن.. أنا مش هاقدر أرتبط بيك أبداً غصب عن أهلي.. بابا حبسني في البيت من ساعة ما اعترفته بحبي ليك.. طبعاً بعد ما ضربني.. لولا ماما حاشت عني كان زمني في المستشفى دلوقت)، (أبوكي ده متوحش، إزاي يعمل فيكي كده؟!)، (مانقولش على بابا كده يا مؤمن.. بابا عنده حق، أنا ما ينفعش أتجوزك مهما حققت من نجاح ومهما كنت بحبك)، (ليه بقى إنشاء الله؟!.. هتقولي عليا ابن القمرتي إنتي كمان؟!)، (لا يا مؤمن بس بابا عنده حق.. الناس مقامات برضه، والحب حاجة والجواز حاجة تانية.. ربنا يوفقك وتلاقي واحدة غيري تتسيك حبك ليا)، كان لكلماتها وقع طلاقات الرصاص التي نزلت على رأسي في وابل مخيف، ووجدتني أقول لها: (أنا نسيك خلاص يا علا مش لسه هاستنى واحدة تانية تتسيني حبك).

وهكذا ضاعت علا وضاع حلمي بأن أطول سقف أعيان بلدي، وأهزمهم بعد هزيمتهم لي طوال عمري، ظللت أترنج من هول الضربة التي وجهتها لي مع والدها مدة طويلة، حتى أتى بي عاطف مسعود إلى مكتبه وسألني: (إنت مالك بقالك شهر مش على بعضك.. في إيه؟!)، قصصت عليه قصتي مع علا، وبعد أن انتهيت قال لي بصراحة في منتهى القسوة: (إطلع من دول يا مؤمن!.. إنت مش حزين على حبك الضايع.. إنت حزين لأنك ما استولتش على البت بنت الأغنيا اللي في بلدك!)، ووجدتني أحييه بعصبية وأنا أدق على مكتبه بقبضتي: (أنا ما عملتش كل اللي عملته إلا عشان اهزم الكلاب اللي عذبوني طول عمري.. ودلوقت بعد كل اللي وصلت له، برضه لسه

بيصولي على إني ابن القمرتي)، فابتسم وقال: (وهيفضلوا يبصولك على إنك ابن القمرتي لغاية ما تموت.. حتى لو بقيت صاحب سلطة ومال هيضحكوا في وشك، وورا ضهرك هيشتموك ويقولوا شفتم ابن القمرتي وصل لإيه؟!.. هيحسدوك وهيكروها نجاحك.. حتى الفقرا والغلبة اللي انت منهم هيكروك حتى لو ادبتلهم كل اللي تملكه.. هي دي بلدنا وهما دول ناسها.. عشان كده عايزك تفوق، طول ما انت قوي ما حدش يقدر يفتح عينه فيك، لكن مع أول حالة ضعف توصلها هتلاقي الكل بينهش فيك.. فوق يا مؤمن.. ولو عاوز تتجوز واحدة بنت أكابر أنا هاجوزك لواحدة تضرب علا دي على عينها، وأبوها يدوس على أبو علا بجزمتة، وبكده تقهرها).

وهكذا استطعت أن أخطب ابنة سيد منصور أكبر محام في مصر، أو بكلام أصح أكبر حرامي في سلك المحاماة المصري!

ماهيتاب سيد منصور.. هذا هو اسمها، فتاة لا تتميز بأي شيء، حتى الجمال لم تصب منه سوى القليل، كل ما لديها من مقومات يقتصر على أنها ابنة سيد منصور، الذي يمتلك الكثير من القوة والمال، وطالبة الجامعة الأمريكية الشيك التي تأكل بالشوكة والسكين، وتعرف كيف تقول بابي ومامي وتتحدث بالإنجليزية!.. هذه هي ماهي التي خطبتها، والتي كنت أسير بجوارها في الشوارع كأبله، لا أعرف كيف أجاريها إلا بشراء كل ما تطلبه، لا يوجد أي حديث بيننا من أي نوع، ولا توجد مشاعر تحرك قلبينا عند اللقاء، تجلس إلى جاري في منزل والدها تشاهد التلفزيون، وتقلب قنوات الدش الذي رأيته لأول مرة في منزلهم.. ماهي التي وافقت على خطبتي لها، لأن بابي قال لها إنني عريس ممتاز، لأنني صحفي شاطر وقادر على كسب الكثير من المال، وأنني أذكره بشبابه.. فعلاً أنا أذكره بشبابه مع اختلاف يسير فهو محام وأنا صحفي.

مرت الأيام على خطبتي تلك الفتاة، لم تقع بيننا أي أحداث يمكن سردها، فقط تسلمت الشقة التي كنت أحلم بها في أكثر الأحياء رقياً بمدينة نصر، كل هذا بمساعدة سيد منصور، الذي استطاع أن يقتطع بصلاته في المحافظة تلك الشقة من حق شاب ينتظرها منذ سنين طويلة، كان يوم تسلمي الشقة أعظم بكثير من يوم خطبتي ماهي منصور، فقد كانت تقدم لي الكثير من المشاعر التي افقدتها عمري كله، كانت تمنحني دفء المأوى، دفء الضمة القوية التي نسيت أمني أن تضمنيها، مشغولة بالبحث عن فتات تسد به رمقي وأختي، دفء الجدران الأربعة التي تحوطني من هول كل ما هو في الخارج، بدءاً من الصراع على المركز وحتى الحصول على القرش بكل الوسائل

والطرق الشائنة. كانت هذه الشقة لي مثل واحة خضراء، أذهب إليها برغم خلوها من أي أثاث، كي أجلس على الأرض واضعاً حقيبتي السامسونيات أسفلي لأحملك في الفراغ، ذلك الفراغ الذي كان يضم جميع محتوياتي، فأنا مؤمن حربية المتشرد أصبح لديه مأوى في أكثر شوارع مدينة نصر رقيقاً، يجاورني كل أهل الطبقة القابضة على المال، ولا يسير في شارع البناية التي تحتويني سوى السيارات الفارهة، التي كنت أخطط للحصول على واحدة منها.

تمضي الأيام علي وأنا ماض في طريقي الذي رسمته لنفسي، لم يعد يهمني تذكر زملائي في الكلية، ولا حتى تذكر البلد وعلا وأبيها المتغطرس، لم أعد حتى أذهب لزيارة أُمي، فقط أكتفي بإرسال حوالات بريدية بالمال الذي تحتاج إليه هي وأختي، لا يهزني بكائها عبر الهاتف متوسلة أن أذهب إليها كي تراني، ولا أوافق على أن تأتي بنفسها إلى القاهرة، لا أرغب في أن تأتي بمظهرها الفقير برغم كل الأموال والملابس التي أغدقها عليها، فأُمي تجسد حال الفقير الذي لا يتغير أبداً مهما أعطيته من مال، الفقر يعيش في الخلايا ويمنع علامات الراحة من التسلل إلى الجسد، فهي تخاف أن تنفق كل النقود تحسباً لهول الأيام القادمة، لا توجد توقعات متفائلة لديها! فهي دائماً تتوقع المجاعة والعوز، تخاف أن ترتدي الأقمشة الغالية الثمن خوفاً عليها من أن تبلى، ولا تنفق الكثير على الطعام خوفاً من أن تعتاد معدتها الشبع! فلا تعرف كيف تواجه الجوع القادم حتماً في المستقبل!.. هذا هو ما فعله الفقر بأُمي، وهذا هو ما فعله بي.. فلقد أصبحت إنساناً بلا مضمون، فقط أجري وراء السلطة والمال، مهما كلفاني من قتل لمشاعري، وإلغاء لكل ملامح الإنسان داخلي. كنت لا أشعر بالحزن على حالي إلا عند ذهابي إلى شقتي، تلك الشقة التي تؤويني وسط أناس لا أنتمي إليهم، ولا ينتظم إيقاع قلبي مع قلوبهم.

أتذكر أحلام وكلامها، أتذكرها بألم، فلقد اختفت منذ شهرين ولم تعد تتصل بي.. أنا السبب، فلقد قلت لها إنني لا أريد رؤيتها وهي حامل!.. منى أيضاً اختفت منذ أن هنأتني بمنصبي الجديد في ديسك المحليات، هذا الكرسي الذي اختطفته من صحفي مخضرم في الخمسينات، بعد أن استغللت خطأ في العنوان الرئيسي لصفحة المحليات، وضخمت من حجمه وهولت أمره أمام الجميع، وعن طريق عاطف مسعود استطعنا أن نزيحه من على كرسيه، ليجلس في القسم كخيال المآتة! وأحضر أنا بقرار مباشر من رئيس التحرير، الذي أقنعه عاطف بأن القسم يريد دماء شابة تحركه! أجلس كل يوم إلى مكتبه الذي يتصدر صالة المحليات، وألمي أوامري عليه وعلى الجميع، كلهم أكبر مني سناً بكثير، وكلهم يكرهني، لكنهم يبتسمون في وجهي كل صباح متقربين إلي زلفى، أعلم كرههم لي، أراه في أعينهم وأتلفذ برؤيته، لكنني عندما أجلس على حقيبتى السامسونايت على أرض شقتى الفارغة أبكي، وينتابني الفزع من المجهول القادم.. هل يمكن أن ينتصر الخير في النهاية مثلما تؤمن منى وأحلام؟! وإذا انتصر ماذا سيكون مصيري؟!.. أأزن كثيراً عندما أدرك أنني يجب أن أدافع عن الخطيئة، وأعمل على إحيائها ونهضتها إلى الأبد، لكن لم يعد أمامي خيار آخر.. ثم إنني لم أوأس للخطيئة ولم أخلقها، لقد ابتدعها السابقون، وبسببها عشت محروماً ومغفلاً طوال سني حياتي، لو كنت فعلت مثل أحلام السيد ومنى حاكم وأحمد فادي وسعيد مختار، لكنت ظللت في مكاني لا أجد لقمة أسد بها رفق الجوع المحفور في أعماق أعماق روحي، ولكنك الآن متشرداً يستجدي عملاً في أي مكان وبأي ثمن.

أنا لم يكن أمامي خيار آخر، هم الذين فرضوا علي تلك الحياة، هم الذين سلبوني روحي وحرموني التمتع بالغضاضة والنعموة

في طفولتي، هم الذين سرقوا حلمي وبراءتي من عيني، هم الذين ارتكبوا إثم اغتيالي في كل يوم عشته منذ توفي والدي وحتى الآن.. يعتقد الجميع أنني سعيد بكل ما حققته من إنجازات مهنية، وكل ما كسبته من مال، وهذه الفتاة ذات العيون الزجاجية والقلب البارد والروح المسلعة التي خطبتها.. أنا لست سعيداً بكل هذا.. فقط هذه الشقة هي التي تمنحني الهدوء والسعادة، فيها أفرغ كل مكنوناتي الممزقة وأنشرها على البلاط أمامي، لأبكي في محاولة للتطهر، لكنني أعود إلى وساخاتي بمجرد أن أخرج من بابها نحو الشوارع الرمادية الباهتة، التي تمحو ألوان حياتنا وتسلبنا الزهو والبهجة يوماً بعد يوم.. أحلم بأن آتي إلى هذه الشقة ولا أخرج منها أبداً، أنا لا أريد أن تأتي ماهيتاب لتشاركني في أسراري التي عبأت غرف الشقة بها، لا أريدها أن تشاركني في الصمت الذي لا أجده إلا هنا، أنا لا أريدها ولا أريد ديسك المحليات، ولا أريد الأموال الطائلة، أريد فقط أن أرتاح.. أعيش في هدوء.. أنا أريد أن أنام.. أنا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!م!

منی حاکم

سافرت أحلام اليوم؟ هل ستعود؟ أو أنها ستختفي إلى الأبد مثلما يختفي الجميع؟ لا أدري لماذا أشعر بالوجع البالغ في روحي مع رحيل أحلام.. برغم أنها لم تختف بالموت مثلما اختفى مؤمن.. برغم أنها مسافرة إلى دبي كي تعمل هناك لا لتموت.. برغم أن موت مؤمن جاء فجأة وعلى صورة بشعة لا يمكن تصورها.. فسقوطه من شرفة شقته التي كان يعدها للزواج كان بالغ القسوة، بالغ الاستعصاء على الفهم والاستيعاب.. فكيف سقط؟ ولماذا يسقط وهو في قمة زهوهِ بانتصاره على الدنيا التي كان يخوض ضدها حرباً ضروساً، استخدم فيها كل ما لديه من أسلحة مشروعة وغير مشروعة؟!.. إلا أن موته لم يكن بقسوة فراق أحلام ورحيلها عن مصر، مع أنني لم أكن ألقاها كثيراً، فلقد انشغلت بعملها بعد أن حصلت على الطلاق، واستغرقت في العمل محاولة نسيان سنوات عمرها التي ضاع رمادها في مهب الرياح مع سالم.. لا أدري لماذا رحيلك قاس يا أحلام؟ ولماذا أشعر بأنني لن أراك بعد اليوم؟

الكل يتوه ويضيع في الزحام، الأصدقاء يتسربون من بين أصابعي واحداً وراء الآخر، برغم أنني أحاول بكل ما لدي من طاقة أن أضم أصابعي جيداً وبحرص حتى لا يقعوا! لكنهم يقعون واحداً بعد الآخر، إما بالموت أو بالرحيل عن البلد. لم يعد هناك كثيرون يرغبون في البقاء.. ربما لم يعد غيري، فأنا الوحيدة التي تبقي على البلد ولا تغادر.. ربما لا أغادر لأنني مثلما قالت أحلام أخادع نفسي بالإبقاء على البراءة في عالم لا يعرفها ولم يصادفها.. ربما لأنني مثلما اتهمني أخي أصر على مبادئ واهية لا تصلح للعصر، وأحافظ عليها بالهروب من الواقع والانسحاب إلى داخلي.. إلى داخلي.. إلى داخلي..

حتى لم أعد أحيا عملياً.. ربما أنا كذلك فعلاً، لكن ما الذي يجب علي أن أفعله؟ هل أطلق أظفاري في وجه الكون؟! هل أمضي في طريق لا يشبهني ولا أشبهه؟ هل أتجاهل عقلي ووجداني وأسفك دمي قريباً للواقع حتى يقبلني داخله؟!.. ما الذي يمكنني أن أفعله كي أكون فتاة طبيعية، ولا أظل محور تعجب الناس ونظراتهم المشفقة أحياناً والساخرة أحياناً أخرى؟!.. هل أنا فعلاً أصبحت خارج الكون؟ وهل لو أنا بالفعل أعيش في أوهام رافضة تلك الحقيقة، التي يتشدقون بها ويقررون العيش داخلها حتى يقبلهم الشارع ومكان العمل، ويصيحون بأعلى صوت أنهم ناجحون وسعداء، كانت تركت أحلام البلد ورحلت كما ذكرت لي في رحلة نسيان وتطهر؟!.. مم تريد التطهر إذا كانت راضية عن واقعيتها التي أغرقتها في عالم لا يمت لها بصلة.. عالم سحقها وقتل كل خلية نابضة بالحياة داخلها؟!

هأنذا أعود إلى نقطة الصفر، حيث أصبحت وحيدة بلا صديق يماثلني أو حتى يفهمني، كانت أحلام لزمن طويل من صداقتي لها تفهمني وتماثلني في الأحلام والطموحات، وإن كانت تمشي في طرق كثيرة ومتعددة، في الوقت الذي ثبت قلبي فيه على طريق واحد، طريق الله والامتثال لطاعته والعمل بأوامره.. الله الذي أخذت أحلام تهرب منه حتى وصلت إلى نقطة الهروب من ذاتها! ظلت أحلام صديقتي المقربة وشبه الوحيدة سنوات طويلة، برغم كل اختلافاتنا الفكرية وفي أسلوب حياتينا، إلا أننا كنا نحافظ دوماً على ما بيننا من حب، ونتجاهل كل ما يمكنه أن يفرق بيننا، كانت الوحيدة التي تقدر علاقتي بعمر وحيي لإنسان فاقد البصر، الوحيدة التي لم تستهجن رغبتني في الارتباط بشخص لا يرى، وفي الوقت الذي كنت أسمع فيه تعليقات كثيرة مؤذية، كانت أحلام تجلس قبالي تستمع إلى حكاياتي عنه، ولوعتي في البعد عنه، وعدم قدرتي على رؤيته أو الاستماع إلى

صوته، لم يكن لنا غيرنا، لكنها أخذت تبتعد رويداً رويداً، حتى تاهت
مني بين الدروب الملتفة، ثم اختفت بالرحيل.. فهل ستعود أحلام؟! أو
أنها ذهبت بلا رجعة؟!

أنا الآن أجلس وحيدة، بعيداً عن رفيقة دربي، وبعيداً عن
حبيبي.. أحاول البحث عن طريق أسير فيه، وأنسى كل همومي
ولوعتي على فقد الأصدقاء والحرمان من الحبيب، وبرغم أن المجتمع
الذي نحيا فيه هو السبب في كل ذلك، إلا أنني لا أستطيع أن أكرهه
أو أعاديه، فكيف أعادي وطني وأهلي مهما فعلوا، ولي في الرسول
عليه الصلاة والسلام أسوة؟!.. يكفي أنه لم يعاد مكة وهو راحل عنها
مجبوراً في هجرته إلى المدينة، بل وقف يبيكها ويدعوها بأنها أحب بلاد
الله إلى قلبه، وعندما عاد إلى مكة لم ينتقم من الذين عادوه وحقوقه
وأجبروه على الرحيل، لكنه برحمته البالغة قال لهم اذهبوا فأنتم
الطلقاء.. كيف أعادي وطني وأهلي برغم كل شيء ولي في حبيبي
رسول الله قدوة وأسوة؟!

لا.. لا يمكنني الرحيل، أو حتى الدخول في لعبة مخادعة
لكل من حولي، حتى ولو كان من أجل الحصول على حقي، فحقي
أخذه بالسير في الطريق الصحيح، لا وجود عندي للطرق الملتوية ولا
لعبة (المماينة)، التي لعبتها أحلام حتى قضت على أخضرها
ويابسها!.. أنا صامدة حتى لو كان مصيري التهميش أكثر في عملي
وحصول غيري على حقوقي، حتى لو ظل الناس يسخرون مني
متهمين إياي بأنني أعيش في عصر غير العصر، حتى لو ظل أبي
وأمي وأخي يققون ضدي ويرفضون زواجي بعمر، صارخين في
وجهي: (عايزة تعيشي مع واحد أعمى تسحبينه طول عمرك؟!).. يا لها
من قسوة! كيف قست قلوبهم إلى هذا الحد؟! كيف وصل الناس إلى
هذه المرحلة من اللاإنسانية؟!.. كيف وكيف وكيف؟!.. هل فعلاً كما

تقول أحلام أن توالي عصور الظلم وعدم انقطاعها، شوه نفوس الناس وجعلها على هذه الصورة؟! وأين الناس أنفسهم من ذواتهم؟! ألا يمكنهم أن يقاوموا السوء ويدفعوه عن أنفسهم؟! ألا يمكنهم أن يقاوموا الفساد ويقضوا عليه؟! ألم ينزل إليهم القرآن ليهديهم وفيه الحل لكل شيء؟! أم أنه مجرد كتاب يقرءونه دون الانتباه إلى سطر واحد من سطوره؟!

كنت أعلم أنني سوف أقبل بكلية الإعلام، فمجموعي في الثانوية العامة كان كبيراً، كنت أحلم بهذه الكلية دون غيرها، فلقد كنت أتخيل أنها الطريق الصحيح لتحقيق أحلامي، فانا أكتب الشعر وأحب الأدب، وأرى أنني بإمكانني مواجهة الفساد في بلادي بكشفه عن طريق الصحافة، أليست هي السلطة الرابعة كما يقولون؟! ربما كنت صغيرة بما يكفي لأحلم هذا الحلم، لكنه كان حلمي على كل حال، كان الهدف الذي أجري وراءه بكل ما لدي من طاقة لتحقيقه، وبرغم ثقتي وثقة عائلتي بأنني لا محالة سألتحق بالإعلام، إلا أنني ظللت في حالة من القلق والخوف أن يحدث أي شيء يعرقل طريقي نحو تلك الكلية، حتى أمسكت بكتلتا يدي بخطاب التنسيق الذي يعلن أنني قبلت بكلية الإعلام، حينها أخذت أقفز فرحة، أشير بالخطاب نحو أمي وأبي وأقول لهما: (خلاص هابقي صحفية هابقي صحفية!). كنت قد عاهدت نفسي أن أرتدي الحجاب في أول يوم لي بالدراسة الجامعية، وهذا ما فعلته، حيث وضعت الطرحة على رأسي ولففتها حول عنقي بسعادة بالغة، أنظر إلى وجهي الجديد وأبتسم، لما أضافته الطرحة على وجهي من جمال وإيمان أسعى دائماً إلى زيادته، ياااااااه كم أحبك يا الله! كم أحبك ولا أطلب سوى رضاك.

أوصلني أخي إلى باب جامعة القاهرة الرئيسي، وهو يلح أن يوصلني إلى الكلية ويبقى معي حتى أعرف مواعيد المحاضرات وقاعاتها، لكنني أصررت على أن يذهب ويتركني لأكتشف كل شيء بنفسني، كنت أشعر بأن هذا عالمي الجديد الذي يخصني وحدي، ولا أريد أن يتدخل في اكتشاف مكوناته معي أحد، كنت سعيدة جداً لا تسعني الدنيا، ولا تتحمل الأرض قفزاتي الفراشية عليها وأنا ذاهبة نحو

مبنى الكلية.. كم أتمنى أن أحصل على لحظة واحدة الآن شبيهة بتلك اللحظات التي عشتها في أول يوم لي بالجامعة.

يا ليتنا عشنا بنفس الروح والأمل اللذين عشنا بهما خلال أربع سنوات، كانت أجمل سنوات العمر، فلم تأت بعدها أيام بزهوها، ولم تعد الأحلام التي تخرجنا بها باقية في نفوسنا بمثل نضارتها التي كانت، فبعد التخرج أخذت الأحلام تتكسر يوماً بعد يوم، حتى لم يعد لدينا سوى حلم واحد بائس هو أن نظل قادرين على سحب النفس وإخراجه! برغم أن ذلك أيضاً أصبح أمراً شاقاً جداً!

كان لي أصدقاء كثيرون في الكلية، لكن أحلام كانت الأقرب إلى نفسي، فبرغم الاختلافات الكثيرة بين شخصيتنا، إلا أنها تشاركني في الكثير مما أحب، فهي تحمل هموم مصر بين جنباتها أينما ذهبت، وهي تحب التاريخ ومولعة بزيارة الآثار والشوارع القديمة مثلي، كما أنها تعشق الموسيقى والشعر والأدب، كان ذلك كافياً لأشكّل وأحلام ثنائياً متميزاً في الكلية، لطالما أخذتنا شوارع القاهرة القديمة بين حاراتها وأزقتها، فلقد كنا نذهب بشكل دوري إلى شارع الأزهر والحسين والقلعة ومحمد علي والدرب الأحمر وباب الخلق ومصر عتيقة، نتردد على الجوامع والكنائس القديمة، ونسير في الأسواق، ونجلس لنشرب الشاي الأخضر في قهوة الفيشاوي، ثم نجري لنلتهم طبق الأرز بلبن من عند السنوسي، كانت تعشق القشطة وتكره الزبيب وجوز الهند، بينما لا أطيق أنا القشطة، فنتناول الملعقة بمجرد ما يضع الرجل الطبقين أمامنا، ونظل ننقل القشطة والزبيب وجوز الهند من طبق إلى طبق! كنا نطلق على تلك العملية: (عملية اللحوسة)!!.. لطالما عشقت خروجنا وزياراتنا للمتاحف، وحضور عروض الأوبرا وندوات أتيليه القاهرة وجمعية محبي الفنون الجميلة.. كنا عندما نسمع عن ندوة أو محاضرة في أي مكان نذهب إليها فوراً، ونظل ندور حول أنفسنا في

الشوارع نبحت عن العنوان حتى نهتدي إليه، وبمجرد أن تخرج مظاهرة في الجامعة نكون أول الفتيات المشاركات فيها، كنا مؤمنتين بمبدأ التظاهر من أجل التظاهر! فمن الجميل أن نقول لا في أي شيء، فكلمة نعم كانت ملغاة تماماً من قاموسنا!

أذكر عندما حضرنا احتفالية الأوبرا بمرور مائة عام على ميلاد طه حسين، ورأينا لأول مرة الكاتب الصحفي الكبير كمال زهران، جرينا إليه وعرفناه بنفسينا، فخورتين بكوننا طالبتين في كلية الإعلام قسم صحافة، لم نعط للرجل فرصة كي يقبل أو يرفض الوقوف معنا، فلقد أخذنا نتسابق في الحديث إليه في كل شيء وأي شيء نعرفه، وأخذت تساؤلاتنا الكثيرة حول أحوال البلد وما يحدث في العراق وفلسطين تمطر فوق رأسه، حتى ضحك وقال: (جميل أوي إني أشوف نماذج من صحفيات الغد، برافو عليكم.. أنا فرحان بكم أوي يا بنات)، وعندما سألته وكأني أستدرك أمراً يؤرقني: (تفتكر يا أستاذ كمال هيقدر جيلنا يعمل حاجة لمصر؟)، قال متحمساً: (طبعاً إنتم الأمل في بكرة، إنتم اللي هتصلحوا كل الفساد اللي في البلد.. أنا أمل فيكم كبير)، يومها تركناه ونحن نتقافز من الفرحة، فمجرد الحديث إليه أكد لنا أننا سنعمل في الصحافة فعلاً، وأننا سنستطيع أن نحقق كل أحلامنا ونحارب الفساد لنبني مصر جديدة.. نعم مصر جديدة! هكذا كنا نردد دائماً ونحن سابحتان في عالمنا الخيالي.

لم يكن يخطر لنا على بال أننا سنصل إلى وقت نرى بأعيننا القيود تغل أيدينا وأعناقنا ولا نستطيع فكها، لم نكن نتخيل أن الطريق صعب إلى هذا الحد، وأن محاربة الفساد ليست فقط بالكتابة في الصحف أو كشف المسؤولين ورجال الأعمال الفاسدين، فالأمر كان أكبر منا، أكبر بكثير من أي جهود أو توضيحات يمكن بذلها، فعندما استطاع والدي من خلال صديقه الأستاذ عثمان أبو الخير، الذي يعمل

مديراً لقسم الإعلانات في مؤسسة القاهرة اليوم الصحفية، أن يوفر لي فرصة التدريب بالجريدة، وأنا في السنة الثالثة بكلية الإعلام قسم الصحافة، تسنى لي في وقت مبكر أن أرى الوجه الحقيقي للصحافة، تلك التي من المفترض أنها تحارب الفساد وتقف مع المظلومين في وجه الظالمين.

كنت في بداية السنة الثالثة بالكلية، حيث تخصصت في قسم الصحافة وبدأت أتلقى أول دروسي الأكاديمية فيها، لذا فقد كان التوقيت مناسباً تماماً لي، فبإمكاني كما قالت لي أحلام أن أعتبر ذهابي للتدريب في القاهرة اليوم محاضرات عملية في مادة التحرير الصحفي، وطلبت مني أن أحكي لها كل شيء يدور داخل الجريدة، وأن أشركها في تنفيذ الموضوعات التي سوف أقوم بعملها أثناء التدريب! كنا بالطبع غرتين بما يكفي لنعتقد أن هناك من سيعيرني انتباهاً ويهتم بتدريبي، فبمجرد ظهوري في قسم الحوادث - الذي ذهب بي العم عثمان إليه مؤكداً لوالدي، الذي أبدى قلقه من القسم، أنه المطبخ الحقيقي للصحافة، وأنني سأستفيد جداً في دراستي من العمل فيه كبداية لمشواري الصحفي - ووجهت بنظرات متسائلة، بل يمكنني أن أصفها بالمستكرة، وكأنني جئت لأستولي على مكان أحدهم وأتسبب بالاستغناء عنه، اكتشفت بعد ذلك أن سبب هذه النظرات هو أن معظم العاملين في القسم مازالوا ينتظرون صدور قرار تعيينهم، حيث يعملون بمسمى تحت التدريب منذ سنين قد تصل لدى أحدهم إلى خمس سنوات، ويتقاضى الواحد منهم جنيهاً قليلة، بينما يتحمل سوء المعاملة من رئيس القسم والصحفيين المعينين، على أمل أن يتم تعيينه يوماً، ليأتي عليه الدور كي يسيء إلى غير المعينين!

كان الجو العام متوتراً للغاية، وظللت شهراً كاملاً أذهب كل يوم بعد انتهاء محاضراتي، دون أن يكلفني أحد عمل أي شيء ولو

حتى نقل الأوراق بين المكاتب!.. بعد مرور الشهر الذي مر علي كدهر أبلغت والدي أنني لن أكمل في الجريدة، لأنني لا أفعل شيئاً بل لا ينتبه لوجودي أحد، لكنه أنبني لأنني لم أخبره، وقال لي إنه سيتحدث مع العم عثمان ليبلغه الأمر، حتى يرى ما السبب في هذا التجاهل لي، لم أخبر أبي بالسبب الذي عرفته خلال وجودي في قسم الحوادث، وانتظرت ربما استطاع أن يفعل العم عثمان شيئاً فعلاً، بالطبع كان لكلامه تأثير كبير، فلقد استقبلني رئيس القسم في اليوم التالي بترحاب شديد، نهض من على مقعده بمجرد أن دخلت، وناداني بصوته الجمهوري الذي ينكل بكل الصحفيين في القسم، لكن معي لم يخرج صوته منكلاً بل مرحباً وقال: (إيه يا ستي إحنا بس مضايقيك في إيه؟!)، تعجبت من كلامه فيا ليت هناك من انتبه لوجودي حتى بالمضايقة فأجبتة متعجبة: (ضايقتوني؟!)، (أيوه الأستاذ عثمان اتصل بيه، وقالي إنك زعلانة وبتشتكي منّا!)، (لا ما حصلش أنا ما قلتش إني زعلانة، أنا بس قلت إن أنا باجي من غير فائدة ومش باعمل أي حاجة)، فقال بسماجة حقيقية: (يعني ده جزاقتا عشان عايزين نزيحك؟!)، (ومين قال لحضرتك إني عايزة أستريح، أنا باجي هنا بعد محاضراتي كل يوم عشان أتعلم وأبقى صحفية في يوم من الأيام)، (خلاص يا ستي ولا يهملك)، ثم نادى أحد الصحفيين وقال: (يا جمال إدي منى شوية أخبار تكتبها)، ثم نظر إلي متسائلاً: (بتعرفي تكتبي أخبار؟!)، (أيوه أخذنا كتابة الخبر في الكلية)، وهنا انطلقت ضحكته مجلجلة في أرجاء صالة الحوادث وقال: (أول مرة أعرف إن الأخبار بتتاخذ في كليات!)، كان كلامه مهيناً للغاية، فهو يعرف أنني أدرس بكلية الإعلام في قسم صحافة، وبالتالي لا بد أن تكون دراستي قائمة على تعلم أساليب الكتابة الصحفية، لكنه بكلامه هذا أعلن وببساطة شديدة عدم اعترافه بكليتي وجدواها، وهذا ما تأكد لي عندما أعقب جملته تلك أخرى قائلاً: (الصحافة ما بتتدرسش.. دي موهبة وبعدين

تجربة عملية)، لم أرغب في فتح أي نقاش معه حول أهمية كليتي فأنا لا أحتاج اعترافه بها، لذلك قلت له: (أعتقد إنني أملك الموهبة، والتجربة العملية أنا جاية هنا عشانها!).. ربما كان كلامي كافياً لإحراج، فلقد تغيرت ملامحه فجأة، وتحولت نظرات عينيه المرحبة بي إلى نظرة عدائية لم أستطع تفسيرها، فانسحبت من أمامه بهدوء تاركة عينيه تنتظران إلى الفراغ، وذهبت إلى المكتب الخالي الذي اعتدت الجلوس إليه، حيث أخبروني بأنه لصحفية تدعى فاطمة سليم، تأتي مبكراً وتغادر في تمام الساعة الثانية ظهراً، لتلحق بأولادها وتجهز الطعام لزوجها! وكانت بالطبع فاطمة المثال العملي الأكبر بالنسبة لهم كي يقنعوني بأن المرأة لا تصلح للعمل في الصحافة، وبشكل خاص في قسم الحوادث.

لم يكن حلمي في تلك الأيام قابلاً للكسر، فلقد كان متيناً بمتانة ثقتي بالمستقبل، ورغبتني العارمة في فعل شيء مهم لبلدي عن طريق الصحافة، لذلك لم أتأثر بكلامهم ومحاولاتهم إشعاري بالعجز عن تعلم أو فعل أي شيء. ظللت على تلك الحال شهراً آخر.. أحضر إلى الجريدة بعد انتهاء المحاضرات لأجلس إلى مكتب فاطمة، أعيد صياغة أخبار تم نشرها بالفعل لأسلمها للأستاذ جمال، الذي لم يكن يعقب عليها أو يبدي أي اهتمام بها، فكانها الطبيعي بمجرد تسليمها له أن يضعها جانباً على مكتبه، دون أن يكلف نفسه مشقة إلقاء نظرة عليها! وعندما تجرأت ذات يوم وسألته إذا كانت صياغتي الأخبار جيدة أم لا، قال لي بعجلة شديدة ودون انتباه لي: (آه.. حلوة حلوة!)، ثم سلمني بعض الأخبار الأخرى لأكتبها.

كان من الصعب أن أذهب إلى والدي مرة أخرى شاكية طريقة المعاملة في القسم، ليتحدث إلى العم عثمان، ليتحدث بدوره إلى رئيس القسم مؤنباً، لاتحرك خطوة أخرى إلى الأمام، فلقد شعرت بأنني بذلك

أفرض نفسي عليهم بقوة الوساطة، التي لا أحب أبداً أن تكون وسيلتي لتحقيق طموحي، لذلك آثرت ألا أذهب إلى الجريدة دون أن أبلغ والدي.

عندما أخبرت أحلام بما حدث أنبتني كثيراً لأنني لم أعد أذهب، وقالت لي: (إنتي عبيطة! كان لازم تفضلي تروحي وتطلبي منهم باستمرار يدوكي شغل أكبر، وإنك تعملي شغل بنفسك من الأول كمان، لغاية ما يزهقوا منك ويعملوك اللي انتي عايزاه).. دائماً كانت أحلام عنيدة ولا تقبل الاستسلام أبداً، بينما أؤثر أنا العمل وتحقيق أهدافي بهدوء، بل أحب أيضاً أن أعمل مع أشخاص لا يحملون داخلهم كل هذا العداء للآخرين بلا مبرر، فطوال شهرين لم أشعر أبداً بأنني أوجد بين بشر يحملون السمات الطبيعية للإنسان، فمجرد تلاقي عيني بعيني أي واحد منهم كان يصيب جسدي بالقشعريرة والخوف، بل الفلق أيضاً! فكلهم يسيرون بقلق مزمن داخلهم، وينقلونه إلى أي إنسان يتعامل معهم. لكن يبدو أن الله قدر لي هذه الجريدة لتكون المكان الذي أعمل فيه حتى بعد التخرج، وأظل فيه حتى الآن، فقد علم العم عثمان من رئيس قسم الحوادث أنني ما عدت أحضر إلى الجريدة، وأنه ليس مسئولاً عن ذلك، لأنه كان يعاملني بلطف وأوصى الجميع بالتعامل معي بنفس الطريقة! وبالطبع اتصل بوالدي وسأله إن كنت مريضة ولم أتمكن لهذا من الذهاب إلى الجريدة طوال أسبوع، فأجابه والدي بأنني لا أعاني من أي شيء وأذهب إلى الكلية كل يوم، وإن كنت بالفعل أعود في وقت مبكر، فأخبره العم عثمان بأنني سأضيع بتخاذلي هذا فرصة جيدة للعمل في واحدة من كبريات الجرائد بالبلد، وأنه عليه أن يعنفني على ذلك.. بالطبع أتى بي والدي إلى حجرة الضيوف وأغلقها علينا، كما اعتاد دوماً عندما يحب أن يناقشني أنا أو أخي في خطأ ارتكبناه، وأخذ يتحدث عن أهمية الالتزام، وأنني لم ألتحق بكلية الإعلام

لأقبع في المنزل بعد تخرجي في انتظار العريس، وأنه ربانا على أهمية العمل واحترامه، وأن القاهرة اليوم فرصة لا تأتي لأحد بسهولة ووو.. انتظرتة حتى انتهى من كلامه، ولم أجد شيئاً أقوله له كمبرر لتغيبي هذا سوى الحقيقة، فأخبرته بكل ما أشعر به وكل ما يحدث لي في هذا القسم، حينها قال إنني مفرطة الحس، وإنه علي أن أتعلم الصبر، وأن تكون إرادتي قوية في سبيل تحقيق أهدافي. لم أتمكن من شرح الأمر له بالشكل الذي أراه، فأنا لا أعاني إرادة ضعيفة ولست مستهينة بقيمة الجريدة التي سمحت لي الظروف الجيدة بأن ألتحق بها، لكني لا أحب أن أنتمي إلى مجموعة من الناس لا يحملون مشاعر طيبة تجاه بعضهم البعض، يعانون جميعاً القلق ويسيطر على تصرفاتهم التوتر.

في نهاية حديث أبي معي قال لي إنه سيطلب من العم عثمان أن يوصيهم بالاهتمام بي أكثر وإسناد عمل أكبر إلي، لم تعجبني النتيجة فأنا لا أريد أن أحقق درجات إيجابية في أي شيء بناء على توصيات من أشخاص مهتمين بي، ولكني أريد تحقيقها بعلمي، وهؤلاء العاملون في قسم الحوادث لن يسمحوا لي أبداً ببذل أي مجهود يساعدني على الارتقاء في العمل بأي شكل من الأشكال، بل إنهم لن يعلموني أي شيء أستفيد به في مشواري المهني. لكني بالطبع صمت ونزلت على إرادة أبي والعم عثمان وعدت للذهاب إلى الجريدة، حيث بدأ رئيس القسم يوكل إلي بعض المهام، مثل النزول إلى أقسام الشرطة للحصول على أخبار الحوادث مع أحد المحررين بالقسم.

عندما بدأت النزول إلى أقسام الشرطة أصبح لدي ما أحكيه لأحلام، التي كانت شغفة بكل شيء أقصه عليها، فبرغم أنها بدأت قبلي العمل، إلا أنها كانت تقوم بعمل بعض الموضوعات للجرائد العربية ذات التوجه الإسلامي، ثم توقفت بعد أن تركت أسرة النور في الكلية وأسست معي أسرة بشاير، ولم يعد لديها ما تفعله سوى الدراسة

والتفرغ لنشاطات الأسرة، التي كانت تأخذ كل وقتنا تقريباً في أوقات الفراغ بين المحاضرات.. كنت أعلم أنها مشغوفة بالعمل في الصحافة وتنتظر حكاياتي أنا ومؤمن، الذي كان قد تعمق كثيراً في مسألة العمل هذه مهماً الحضور إلى الكلية تقريباً، لكنه بمجرد أن يظهر حتى تحته أحلام على أن يحكي لها كل ما يمر به أثناء العمل الصحفي، وطبيعة الموضوعات التي يقوم بها. كان مؤمن رحمه الله يحب التفاخر بعمله، وكانت أحلام مناسبة له تماماً لممارسة هذا التفاخر، بينما يطلق النكات علي لأنني أعمل في قسم الحوادث، ورغم أنني كنت معترضة على الأسلوب الذي يشق به مؤمن طريقه في العمل، ورغم أنني كنت أشعر بالضيق من سخريته من قسم الحوادث الذي أعمل فيه، إلا أنني كنت أتلقى كل نكاته بالصمت وأحياناً بالابتسام، بينما أحلام تغرق في الضحك، وتشعر بالإثارة من حكايات مؤمن عن المغامرات التي يقوم بها كي يحصل على خبر أو يجري تحقيقاً. لا أدري لماذا كنت أشعر بأن مؤمن يخلق كل هذه الحكايات؟! لكنني لم أتهمه في وجهه صراحة بالكذب، فلقد كنت أؤثر الصمت، لأنني أعلم جيداً مدى حاجته إلى الشعور بأهميته وسط الجميع.

لم يكن الذهاب إلى أقسام الشرطة بالأمر السهل على نفسي، فرؤية هذا الكم من اللصوص والأشقياء والشحاذين والنساء الشاكيات أزواجهن بل المتهمين بالقتل، لم يكن ليمر مرور الكرام علي، خاصة أنني صدمت بأسلوب تعامل ضباط الشرطة مع هؤلاء، فمد الأيدي بالصفعات والأرجل بالركلات أمر عادي، أما اللكمات والجلد بالأحزمة فهو أمر مطلوب في بعض الحالات! كان الصحفي الذي أذهب معه يضحك مني لفرط انزعاجي وتأثري، لدرجة أن لساني فلت مني ذات يوم وأنا أقول لأحد الضباط: (حرام عليك مش كده.. ده برضه إنسان)، فما كان من الضابط إلا أن ضحك بانفعال شديد، وقال لي وهو ينظر

إلى اللص باحتقار: (ده إنسان؟!)، ثم صفعه على قفاه وسأله بسادية والشر ينسكب من نظراته: (قال انت إنسان ياد؟!)، حينها أجابه اللص بعد أن سقط أرضاً من شدة الصفعة وهو يحامي بذراعيه عن وجهه: (لا يا باشا لا.. أنا حيوان ابن كلب!).. لم تمر تلك الواقعة علي بسهولة، وقررت ألا أحكيها لأحلام حتى لا أؤذي مشاعرها، واحتفظت بها داخلي حيث نبع سؤال حائر لم يكن ينتظر الإجابة من أحد: من الذي يحدد استحقاق البشر وصف إنسان؟!

لم أستطع الاستمرار في قسم الحوادث كثيراً، خاصة بعد حادثة القتل التي اتهمت فيها امرأة بقتل زوجها بمعاونة ابنتها، كان وقع الحكاية التي أتى بها المحرر عنيفاً على إدراكي، فكيف يمكن لامرأة أن تقتل زوجها بمعاونة ابنتها التي هي ابنته أيضاً؟! بالطبع كانت الحادثة لقمة عيش مغمسة بالشهد، كما وصفها المحرر نفسه الذي حصل على القصة، فقد جلس لكتابتها بأكثر من شكل وبيعها للعديد من الجرائد والمجلات العربية.. (امرأة تطعن زوجها بمساعدة ابنتهما).. عنوان رائع يسيل لعاب الجرائد والقراء في كل مكان في الوطن العربي، لإظهار مدى توحش النساء المصريات وغياب القيم والتعاليم الدينية عن عقلية الإنسان المصري!.. كان السيد المحرر يجلس وراء مكتبه رافعاً سماعة التليفون ليعقد اتفاقاته مع مكاتب الجرائد العربية، ويساومها على المبلغ المطلوب، حيث إنه كان له السبق في اكتشاف الحادثة منذ البداية، ولديه معلومات من مكان الحادث نفسه غير متوافرة لدى محرري الجرائد الأخرى المنافسة، المنافسة له وليس لجريدة القاهرة اليوم!.. أما رئيس القسم فكان يجلس قبالبته ليحدد له المبلغ المطلوب من كل مكتب، حسب خبرته في التعامل معها طوال سنين ماضية، ومعرفته بقدرات كل واحد المادية ليستغله إلى أبعد حد ممكن، وبالطبع لم يفعل ذلك إلا لأنه سيقاسمه ما سيحصل عليه من جنبيات، وإلا فلن يسمح له باستخدام تليفون المؤسسة وسيحوله إلى التحقيق لتعاونه مع جرائد منافسة!.. كان ذلك المشهد يدور أمامي، وكنا لا يخجلان من تأديته أمامي وأمام الآخرين في القسم، الذين ظلوا قابعين على مقاعدهم ينظرون إليهما بحقد دفين، فالأمر في نظر الجميع لم يتخط أبعاد (السبوبة).. نعم! سبوبة رزق لا أكثر ولا أقل، فالجميع

ليسوا معنيين ببكائيات ضياع القيم الدينية والإنسانية والسبب وراء ضياعها، وهم ليسوا معنيين أيضاً بصورة مصر أمام العالم العربي، ذلك العالم الذي ينظر إلى مصر بوصفها قائدة ورائدة للمنطقة، هم لا يهتمهم تحطيم تلك الصورة أو تشويهها، فكل ما يقر في وجدانهم: (الطريق الأمثل لاقتناص السبوبة، وعصرها لتقطر كل ما لديها حتى آخر قرش)! حتى إنهما لم يفكرا في متابعة تطورات الحادثة، ونشراها تماماً مثلما حصل عليها المحرر من مكان الجريمة، بينما نشرت الجرائد الأخرى في اليوم التالي الحقيقة التي اكتشفتها الشرطة أثناء التحقيق، فلقد شهدت الابنة، وإخوتها الخمسة معها، أن والدتهم كانت تدافع عنهم عندما أراد والدهم أن يقتلهم جميعاً بالسكين أمام عينيها، لأنها رفضت أن تعطيه نفقوداً كي يذهب ليسكر بها، وأثناء الشجار بينهما ومحاولاتها درء الأذى عن أولادها، استطاعت التقاط السكين من يد زوجها، الذي اندفع بقوة نحوها في محاولة لاسترداده، لكنه تعثر وانكفأ على المرأة التي كانت تشهر السكين فانغرس في قلبه.. هذه هي الحقيقة التي ظهرت في التحقيقات، والتي تعجل المحرر قبل ظهورها لتأمين السبوبة الكبيرة، وحجزها له وحده دون باقي محرري الحوادث في الجرائد الأخرى! لكن لم تكن فقط تلك هي الحقيقة، فالزوجة التي بكت موت زوجها كثيراً، قالت إن زوجها كان رجلاً عظيماً مراعيًا إياها وأولاده، حتى تم بيع مصنعه الذي كان يعمل به لمستثمرين أجانب، وقام هؤلاء المستثمرون بتسريح العمال جميعاً، الذين ضاعت حقوقهم ولم يحصلوا سوى على مكافآت زهيدة لنهاية خدمتهم.. بحث الرجل عن عمل، لكن كل المصانع أصبحت تستخدم آلات حديثة لا يعلم عنها شيئاً، ولا يوجد صاحب عمل مستعد لتضييع وقت معه لتدريبه على الآلات الجديدة.. لم تكن القضية قضية جريمة قتل قامت بها امرأة متوحشة، أو جريمة قتل خطأ تسبب بها رجل سكير عرييد.. القضية

كانت أكبر.. لقد كانت قضية وطن، لكنها انتهت لدى المحرر إلى قضية سبوية!

لم يكن من الممكن أن استمر في هذا المكان بعد الذي رأيته بعيني، حينها لم أكن أفكر في أن هذا هو الحال في كل الجرائد بكل أقسامها، وأن الصحفيين الشرفاء، الذين سيكون حال البلد ويحاولون عمل أي شيء لكشف الحقيقة للناس، ندرة ولا يتمتعون براحة البال في مكان عملهم، فهم ملاحقون دائماً من قبل الرؤساء الذين يحاربون وجودهم، من تعطيل نشر موضوعاتهم أو إلقاءها في صندوق الزباله، وحتى الوصول إلى تهميشهم داخل الجرائد وسحب كل الصلاحيات من أيديهم.. كل ما تخيلته في ذلك الوقت أن قسم الحوادث في جريدة القاهرة اليوم يعج بالفساد لأن رئيس القسم فاسد!

كانت المشكلة بالنسبة لي في كيفية الانسحاب من القسم دون إثارة غضب والدي والعم عثمان، ولكن أحلام قدمت لي الحل بعدما قصصت عليها ما حدث، فقد نصحتني بأن أذهب إلى والدي وأطلب منه أن يكلم العم عثمان حتى أنتقل إلى قسم آخر، لأنني تعلمت بما فيه الكفاية من قسم الحوادث، وأريد أن أكمل تدريبي في أقسام صحفية أخرى! وبذلك أكون مثلما ارتأت أحلام ضربت عصفورين بحجر واحد، فهكذا أكون قد تخلصت من قسم الحوادث بفساد رئيسه، وفي نفس الوقت لا أخسر فرصة التدريب واحتمال التعيين في المستقبل في واحدة من كبريات الجرائد في مصر. وبرغم أنني لم أفكر في الموضوع مثل أحلام، التي تتمتع بروح عملية أكثر مني، إلا أنني فعلت تماماً مثلما نصحتني، فلقد كان كل همي حينها أن أترك هذا القسم اللعين الذي أحبطني وشككني في مستقبلي كله.

وبالفعل حدث ما رغبت فيه، ولكننا كنا على أبواب الامتحانات، فأشار علي والدي أن أنفرغ للذاكرة الآن، وعندما تأتي

الإجازة الصيفية أعود للتدرب في القاهرة اليوم في أي قسم آخر.. الحقيقة استرحت كثيراً إلى هذا الحل، فعلى الأقل يمكنني أخذ فترة فاصلة بين الوقائع التي حدثت لي بقسم الحوادث والعودة مرة أخرى إلى الجريدة، حتى أعود إليها دون أي مشاعر كراهية، كالتى كنت مفعمة بها عقب تركي قسم الجريمة هذا!

كان أمامي شهران حتى انتهاء العام الدراسي، وتمنيت آنذاك أن يمضيا بسلام بعيداً عن أي مشاكل أو لغط، لكن النشاط الذي كنت أقوم به مع أحلام وباقي أعضاء أسرة بشاير جلب لي بل لنا جميعاً مشاكل كثيرة، فلقد كنت أسست وأحلام تلك الأسرة على أن تجمع تحت لوائها جميع التيارات السياسية في الكلية، وألا نصنفها تبعاً لأي تيار سياسي، سواء يساري أو إسلامي.. بالطبع لم ينضم إلينا أي من الطرفين، وكان جميع أعضاء الأسرة من أصدقائنا أصحاب الأفكار الجميلة فقط، وكنت أنا وأحلام اللتان تقودان دفة نشاطات الأسرة نحو الموضوعات السياسية، فبرغم أنني أنتمي إلى الفكر الإسلامي بعيداً عن أي تيارات معينة خاصة بهذا الاتجاه، وتنتمي أحلام إلى أي فكر معارض أياً كان! حيث إنها على مدار ثلاث سنوات في الكلية تقلبت بين جميع التيارات السياسية بالجامعة.. من إسلاميين وشيوعيين وناصريين ولا أدري من بعد! إلا أننا اتفقنا على الهدف من تأسيس هذه الأسرة، وكان على رأس أهدافنا المطالبة بإلغاء اللائحة الطلابية ٧٩ المشبوهة، والعمل على نشر فكرة القدرة على التعبير عن الرأي بحرية بين الطلاب في كليتنا. وبالطبع جاء اقتراح أحلام بإعداد منشورات عن اللائحة الطلابية، وتوزيعها على الطلاب في الكلية أو في الجامعة، أما فكرتي أنا فجاءت في صورة إعداد مجلة حائط فارغة تماماً، فقط نطلب من الطلاب أن يتحدثوا عن أي شيء وكل شيء بصراحة.

لم نكن ندري ونحن نقوم بخطواتنا في سبيل تنفيذ هاتين الفكرتين أننا بذلك نحكم على أسرتنا بالانتهاء، فبرغم ما تعرضنا إليه طوال العام من تمزيق المتأسلمين لمجلاتنا، وسبهم لنا علانية على هوامش المجلة الجانبية الفارغة، إلا أننا لم نتخيل أن الأمر قد يتصاعد حتى يصل إلى ما وصل إليه في النهاية، فقد وصلت المنشورات الخاصة برفضنا اللائحة الطلابية إلى إدارة النشاط في الكلية، وبالطبع عرفوا من الذي يوزعها، حيث إننا بسذاجة بالغة كتبنا اسم الأسرة عليها، في نفس الوقت الذي دارت فيه معركة بين أحد أفراد أسرة النور وواحد من الطلاب الناصريين في الكلية أمام المجلة الفارغة، التي دأبنا في تعليق واحدة جديدة كلما امتلأت السابقة، بلغت المشادة الاعتداء بالأيدي وانضم إليها أصدقاء كل طرف منهما، حتى امتلأت صالة كليتنا، التي لا تزيد عن دور واحد في مبنى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، بالمتعاركين، واضطرت إدارة الكلية إلى الاستعانة بأمن الجامعة لفضها، وبالبحث في سبب هذا الشجار اتضح للأمن أن كلاً منهما سب تيار الآخر السياسي عبر مجلتي الفارغة!.. وهكذا تحولت محاولتنا تعليم الطلاب ممارسة الحوار وإبداء الرأي بحرية عبر المجلة الفارغة، إلى محاولة إثارة الشغب في الكلية. تزامن وصول المنشورات مع هذه المشاجرة، ومعرفة أصل كل منهما - أسرة بشاير -، عصف بجلمننا في تأسيس أسرة يتجمع تحت اسمها جميع التيارات السياسية في الكلية، من أجل هدف واحد ألا وهو مصلحة وطننا، وتم تحويلي أنا وأحلام إلى التحقيق بإدارة الكلية، حيث كانت أحلام هي رئيسة الأسرة وأنا نائبتها، أكدنا في أول جلسة من التحقيق أننا المسئولتان عن الأسرة تماماً، حيث إن باقي الأعضاء لا يعدون سوى أسماء لتكملة العدد المطلوب لإشهار أسرة بشكل رسمي في الكلية، وأنهم لا يعلمون شيئاً عما نقوم به من نشاط.. كانت التهمة الموجهة إلينا بناء على منشور اللائحة الطلابية والمشاجرة هي: إثارة الشغب في الكلية ومخالفة لوائح

الجامعة! استمر التحقيق شهراً كاملاً كدنا نرفت على إثره من الكلية، لولا تدخل رئيس قسم الصحافة فاروق أبوحمد، الذي كان يهتم بأمري أنا وأحلام لأننا طالبتان متميزتان بقسم الصحافة، وطلب من إدارة الكلية الاكتفاء بحل الأسرة وحرماننا ممارسة أي نشاط في الكلية حتى التخرج.

عصف هذا القرار بكثير من أحلامنا داخل الكلية، وفي الوقت الذي قابلته أنا بحزن عميق ظاهر في كل خطوة أخطوها في حياتي، قابلته أحلام بالانقطاع عن المحاضرات والاختفاء التام، في ما عدا حضور محاضرات التحرير الصحفي التي كان يدرسنا إياها دكتور فاروق أبوحمد، والتي كانت أحلام مأسورة لشخصيته كثيراً، وتتبعه أينما ذهب لإلقاء محاضرات في المنتديات العامة. ظللت مدة طويلة وحتى حلول الامتحانات لا أرى أحلام إلا نادراً، بل لا أعلم عنها شيئاً أيضاً.. فمثلاً سافرت في رحلة الجامعة إلى الأقصر وأسوان، ولم تبلغني أنها حتى اشتركت في الرحلة ربما رافقتها إلى هناك.. لا أنكر أن تصرفاتها تلك أزعجتني، لكنني مثلما فعلت ومازلت أفعل أتلمس لها الأعذار، لأنني أعرف طبيعتها جيداً، فهي مندفة إلى أقصى حد وردود أفعالها شديدة وبنفس المستوى على أي موقف مهما كان صغيراً، حادة وتكره أي شيء يعرقل مسيرتها التي كما أعتقد لا تعرفها جيداً!

انتهى العام الدراسي وعدت إلى جريدة القاهرة اليوم، حيث قسم التحقيقات تحت رئاسة الصحفية اللمعة آمال أبو الفتوح، واحدة من ألمع الأسماء في القاهرة اليوم، مشهورة بتحقيقاتها الجريئة والتي تحارب بها الفساد الحكومي أينما كان، ولا يهمها الدخول في غمار أي قضية فساد مهما كان حجم الاسم المتورط في هذه القضية، بالطبع كان العمل معها فرصة عظيمة لي، خاصة أنها اهتمت بي منذ أول يوم لي للتدرب في القسم، وطلبت من إحدى الصحفيات الناشطات بالقسم أن تصحبني معها في كل التحقيقات التي تذهب لإعدادها، وتمدني بالمصادر اللازمة لمساعدتها في تلك التحقيقات. لا أستطيع إنكار أنني استفدت كثيراً بالعمل مع آمال أبو الفتوح، فلقد كانت تمتلك عقلاً صحفياً متميزاً، وفي جعبتها دائماً أفكار لأمعة للتحقيقات، كان يكفيني الاستماع إليها في الاجتماع الأسبوعي وهي تناقش الأفكار التي أتى بها المحررون، وكنت ألاحظ اهتمامها بكل صغيرة وكبيرة في العناصر المكونة لهذه الأفكار، بل إنها تنثرها بأفكار إضافية من عندها، وتفتح أبواباً متعددة لتجعل من أي فكرة صغيرة لتحقيق فكرة ضخمة، لابد أنها ستجذب القارئ وتهز جدران مبنى من مباني الوزارات الحكومية. وبرغم الأحاديث الجانبية بين المحررين بشكل سيئ عنها، إلا أنني لم أصدق للحظة ما يقولونه عن أنها مرتشية ومنفعة من المصادر، فما كنت أراه بعيني لا يثبت تلك الأقاويل، مما ساعني كثيراً. وبدأت أنظر إلى هؤلاء الصحفيين، الذين يتحدثون عنها بشكل سيئ، على أنهم فاشلون ويفعلون ذلك حقداً عليها، خاصة أن بعضهم كان يتهمها بأنها تسرق أفكارهم المتميزة، لتقوم بها بنفسها وتكتب اسمها عليها، لتضفي لمعاناً أكثر على اسمها، وأنها تكره أن يبرز أحدهم ويكون له اسم إلى

جوارها. في الوقت الذي كنت أشعر فيه باهتمامها الخاص بي، وفتح الأبواب أمامي للتعلم والبروز، برغم أنني مجرد طالبة تتدرب في القسم.

ظلت طوال الإجازة أعمل تحت إشراف آمال أبو الفتوح، التي جعلتني أشعر بسعادة حقيقية طوال الإجازة الصيفية، وأكدت داخلي حلمي بقدرتي على القضاء على الفساد من خلال الصحافة، بعد أن هزها رئيس قسم الحوادث. في ذلك الوقت كانت أحلام تتدرب في جريدة الاتجاه العربي اليسارية المستقلة، والتي أسستها مجموعة من الصحفيين اليساريين القدامى.. كنا نتقابل في نهاية الأسبوع، لنقوم بجولاتنا المعتادة في أنحاء القاهرة وآثارها وشوارعها الشعبية، أو لحضور حفلة في الأوبرا، أو أمسية ثقافية في أحد المنتديات، تأخذنا القصص التي نقصها على مسامع بعضنا البعض عن مغامراتنا في العمل، كنت سعيدة بتجربتي الجديدة في القاهرة اليوم، وكانت هي أيضاً سعيدة بتجربتها في الاتجاه العربي، وإن كنت بدأت ألاحظ أنها لم تعد تهتم كثيراً بالصلاة، بل تطلق علي النكات عندما أتوقف أمام أي جامع في الطريق لأدخل وأصلي الصلاة لوقتها. بدأت أشعر بأن علاقة أحلام بالدين التي لم تهتز أثناء علاقتها بالشيوعيين في الجامعة، بدأت الاختلال على يد العاملين في جريدة الاتجاه العربي، لكنني عندما فتحت معها الموضوع سوفت ودخلت معي الجامع لأداء الصلاة، ثم قالت لي وكأنها تحاول درء تهمة عنها: (يا بنتي أنا مفيش حاجة في الدنيا ممكن تأثر على علاقتي بربنا، وبعدين بطلي تفكري باستمرار إن اليسار كفر!).. حينها ربت على كتفها وقلت: (يا رب يا أحلام تكوني كده فعلاً)، لم ترد وسبقتني بخطواتها خارج الجامع.

الحقيقة هي أن أحلام فعلاً كانت قد بدأت مشواراً لم تنته منه حتى الآن، مشوار التفكير في الله وقدرته، حيث كانت في ذلك الوقت تنثر أسئلة غريبة جداً.. فذات يوم ونحن جالستان في الهناجر بدار

الأوبرا، سألتني وعيناها شبه زائغتين إلى لا شيء: (تفكري لو فعلاً الدين الإسلامي هو الدين الحق، وإننا الوحيدين على الأرض اللي صح والباقيين غلط، كان ربنا سابنا على الحال الطين اللي احنا فيه ده؟!).. لا أنكر أنها باغتتني بهذا السؤال، حيث كنا نتناقش في القضية الأزلية بين المثقفين: أيهما أفضل: صلاح جاهين أم فؤاد حداد؟!.. لكنني أجبته بسرعة: (يا أحلام لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، واحنا أيوه مسلمين والدين الإسلامي هو الحق، لكن إحنا بعيد جداً عن ديننا، واللي احنا فيه ده لأننا اتخلينا عن الإسلام وأحكامه.. يا أحلام دي حتى الصلاة بقت ثقيلة على ناس كتير منا)، لكنها أجابتي قائلة: (طيب ما انا وانتي بنصلي وأمي وأمك وابوكي وناس كتير بيصلوا، وكمان عدد المؤمنين والملتزمين بالدين كتر جداً اليومين دول.. ربنا ليه بقى مش بيساعدنا على إننا نقضي على الفساد وينصرنا على إسرائيل وأمريكا؟!)، (كلامك مش صحيح، فين الناس اللي ملتزمة بالدين دي؟! وبعدين حتى الملتزمين ملتزمين بشكليات الدين مش بجوهره، والملتزم بالجوهر هو اللي بيساعد على التغيير وإن ربنا ينصفنا)، (يعني تفكري الإلتزام بالشكليات مش مهم؟!)، (لا طبعاً كل شيء مهم، الشكل والجوهر)، حينها ابتسمت وقالت: (طيب والمسيحيين اللي في مصر واللي في العالم العربي نعمل فيهم إيه؟!.. ما هما كده هيعطلوا مسيرتنا من أجل إرضاء ربنا؟!)، نزلت كلماتها تلك على رأسي كالصاعقة، فأنا لم أفكر يوماً في أن المسيحيين في مصر كفار، وأنهم قد يقفون بيننا وبين إرضاء الله، ولم أكن مستعدة للتفكير في هذا الأمر، فالإسلام قائم على حرية العقيدة، ولم يطالبنا بتكفير الآخرين أو إجبارهم على الدخول في الإسلام، فما كان مني إلا أن قلت لها بغيط شديد: (لكم دينكم ولي دين يا أحلام.. ربنا قال كده في كتابه)، لكنها نظرت إلي نظرة سخرية واستهانة بما قلت وقالت: (برضه ما قلناش هنعلم فيهم إيه عشان ما يقفوش في طريقنا لإرضاء الله؟!)، حينها وجددتني أرد عليها محتدة:

(ومين اللي قالك إنهم واقفين بينا وبين إرضاء الله؟!)، فقالت لي وهي تبتمس: (الله! مش انتي بتقولي إن احنا لو التزمنا بجوهر الدين وشكله ربنا هينصرنا؟!.. طب هينصر مين بالضبط؟! إحنا ولا المسيحيين؟! واحنا الاتنين شعب واحد على أرض واحدة.. ما هو يا إما ينصر مصر كلها سواء التزمنا أو ما التزمناش، يا إما ينصر المسلمين لوحدهم، وفي الحالة دي هحتاج نلاقي صرفة نخفي بيها المسيحيين من البلد!)، لم أجد شيئاً أجيبها به في ذلك الوقت، فلقد رأيت في عينيها شرارة تحد لي شخصياً، فنهضت من مجلسي وسحبت حقيبتني، وقلت لها: (إنتي باين عليكي اتجننتي، لما تعقلي ابقِي كلميني!)، وخرجت مسرعة من الهناجر، لكنها لحقت بي وأمسكت بذراعي تستوقفني وهي تقول: (طيب ولو ما عقلتش هتبطلي تعرفيني يعني؟!)، (.....)، (إخص عليكي يا منى ده انتي صاحبتني الوحيدة اللي بتفهمني، عايزة تتخلي عني؟!)، نظرت إليها فوجدت في عينيها دموعاً، فلم يكن مني سوى أن احتضنتها وقلت لها: (بطلي جنان يا أحلام أرجوكي وارحمي عقلك شوية.. أنا عارفة إنك حزينة على حال بلدنا، ونفسك ترجعها في يوم و ليلة زي ما كانت واحسن، لكن مش كده.. مفيش حاجة بتحصل في لحظة، وأدينا بنحاول.. إنتي في جرنانك وأنا في جرناني، وأكيد ولادنا انشاء الله هيعيشوا في ظروف أحسن، وهيلاقوا مصر أحلى.. مصر جديدة زي ما احنا عايزين).

لم أكن أدرك أنني بهذا الكلام الذي طيبت به خاطر أحلام أهذي، فمصر الجديدة التي كنا ندأب في الحديث عنها ولا نتوقف عن الحلم بها، مجرد أوهام تداعب خيال فتاتين غرتين، كانت أحلام أكثر وعياً مني بالحقيقة، فبرغم أنها لم تكن تهدأ أبداً، وتعمل في أي اتجاه تعتقد أنه الطريق المؤدي إلى الوصول بمصر إلى بر الأمان، إلا أنها دائماً كانت حزينة ويأسية في كل كلامها عن المستقبل، على العكس

مني تماماً، فأنا لم أكن لأتوقف لحظة عن استبشار الخير في المستقبل، مهما حدث ومهما رأيت بعيني من مثبطات!

عدنا إلى الجامعة لنمضي السنة الدراسية الأخيرة لنا في كلية الإعلام، كانت أحاسيسنا متباينة، فهناك منا من يحلم باليوم الأخير للدراسة، حتى يضع نهاية لسته عشر عاماً من عمره قضاها بين دفتي كتاب وفي لجان الامتحانات والرعب من النتيجة، وهناك من يشعر بالحزن لأنه سيفارق مقاعد الدراسة والزملاء وأيام الجامعة المليئة بالمغامرات والأحداث المبهجة، وآخرون ينتظرون بصبر نافذ تحولهم من مجرد طلبة إعلام إلى إعلاميين وصحفيين حقيقيين، مثل هؤلاء الذين يرونهم في أروقة الصحف ومحطات التلفزيون التي يتدربون فيها، والبعض لا يدري ما الذي سيفعله بعد التخرج، حيث لم يصادف فرصة للتدرب في أي مكان خلال سنوات الدراسة الأربع.. كان شعوراً مريباً حقاً أن تكون على أعتاب نهاية لطريق اعتدت السير فيه منذ أن وعيت الدنيا وحتى صرت شاباً، حتى لو كنت مخطئاً لتلك البداية التي ستلج بوابتها بعد قليل. كادت تلك السنة الأخيرة لنا في كلية الإعلام أن تمر دون أية عواصف، من تلك التي اعتدناها طوال السنوات الثلاث الماضية، لكن القدر أبى أن تمر بسلام، فقدم لنا أول أكثر الأحداث عنفاً في طريقنا، ففي صباح ٢٥ فبراير ١٩٩٤ وقعت حادثة الحرم الإبراهيمي في الخليل، وثارت سهام زهران الفلسطينية لأول مرة، وقادت مظاهرة صغيرة أثناء محاضرة تاريخ الصحافة، انتهت بخروجها غاضبة من قاعة المحاضرات بعد أن سمعت أصوات تظاهر الطلاب داخل حرم الجامعة، فتبعته أنا وأحلام. وفي الدور الثالث من المبنى، حيث كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ذهبت أحلام لتخرج حبيبها سعيد مختار من محاضرتة لينضم إلينا، لم تمر المظاهرة بسلام، فلقد احتشد الطلاب بجميع تياراتهم السياسية، وتحول تظاهرها

إلى موجة عارمة من الهياج ضد كل شيء حتى حكومة مصر، مما أعاد مشهد مظاهرات عام ١٩٩١ إلى الجامعة مرة أخرى، واحتشدت صفوف الأمن المركزي حول أسوار الجامعة مغلقين علينا أبوابها، وبدعوا تفريقنا بالقنابل المسيلة للدموع التي كانت تتساقط علينا من كل الاتجاهات.

أغشى الدخان والدموع التي انبجست من مآقينا عيوننا، وتداخلت صفوف المتظاهرين فتتها عن بعضنا البعض، لا أدري ما الذي جعلني أشعر بأن هناك خطراً ما سوف يحيق بأحلام، فأخذت أبحث عنها إلى أن وجدت سهام تدور حول نفسها وتصرخ بكلام غير مفهوم، التقطت منه كلمة واحدة: (بابا)، لم تكن الظروف تسمح كي أسألها عن سبب ندائها أباه الآن، لكنني سألتها عن أحلام ثم صحبتها للبحث عنها، بعد قليل تسرب إلى أذني صوت صراخ آت من بعيد ميزت منه صوتها، فسحبت سهام التي كانت في حالة هذيان عجيبة وذهبت ناحية الصوت، وكانت المفاجأة التي أرعبتني، نعم أرعبتني.. مات سعيد مختار حبيب أحلام بين ذراعيها في قلب الحرم الجامعي، بعد أن شجت واحدة من قنابل الأمن المركزي المسيلة للدموع رأسه، ولم نجد من يسعفه حتى صفى دمه وصبغ رداء أحلام بالأحمر.. ذلك اللون الذي ظللت أراه صابغاً رداء أحلام حتى غادرت إلى دبي!

طوال شهر غابت فيه أحلام في بلدتها بعد وفاة سعيد المأساوية، كنت أتصل بها باستمرار، وأرسل إليها مع بعض فتيات المدينة الجامعية من نفس بلدتها المحاضرات التي فاتتها، وأحثها على أن تعود لتكمل دراستها، لكنها لم تكن تعطيني أي إجابة تشعرني بأنها على الأقل تستطيع العيش مرة أخرى، كما أن والدتها كانت منزعة كثيراً من فكرة أن أحلام تحب! لم تكن أمها تفكر في مأساوية موت الحبيب، بقدر ما تفكر في أن دخول أحلام في علاقة حب أمر شائن ومعيب!

كنت أشعر بضرورة تدخلتي بشكل أكثر إيجابية لأنقذ أحلام من هذه المصيبة التي أصابتها، فهي تتألم من فقد الحبيب بالموت، وفي نفس الوقت تواجه عادات وتقاليد بلدة صغيرة في صعيد مصر، وبالفعل قررت السفر إليها في نهاية الأسبوع وإحضارها بنفسني، متعهدة أمام والدتها أنني سأرعاها بنفسني، لكن أحلام لم تمهلني حتى نهاية الأسبوع، فلقد فوجئت بها في منتصف صالة الكلية والجميع يلتفون حولها، ثم فوجئت بسهام تحتضنها بقوة وتقول لها: (لدينا ثأر يا أحلام يجب أن نأخذه حتى تبرد دماء قتلانا)، لم أدر ماذا أفعل بعد ما سمعته من سهام، فيبدو أنها بعد ثلاث سنوات من الصمت ورفض مشاركتنا في أي نشاط يخص فلسطين، قررت فجأة أن تكون فدائية! فدائية بالكلام وعلى حساب أحلام المسكينة التي لا ينقصها سماع هذا الكلام، فطوال الشهر الذي مضى على غيابها كانت تبكي في التليفون عندما أهاتفها وتتساءل: (لماذا اختارتي فلسطين من بين كل المصريين لتأخذ حبيبي؟).. لماذا أصاب وحدي بلعنة الوطن فيأخذ حبيبي؟!.. كانت تلعن الوطن، وتسب مصر وفلسطين وكل الأوطان

التي تسلب أرواح أبنائها، ولم يكن في استطاعتي أن أحادثها عن التضحيات والخسائر التي يجب جميعاً أن نتقبلها في سبيل تحرر الأوطان، فكيف أطلب منها أن تتقبل ضياع حبيبها بهذه القسوة، في الوقت الذي لا أتخيل نفسي في موقفها؟!!

أعلم جيداً أن سهام فتاة طيبة بل مسكينة، فلقد ولدت من أب فلسطيني لم تره أبداً، وعاشت عمرها كله فلسطينية يتم التعامل معها كأجنبية في وطن لم تر أو تعرف غيره، لكنني بالفعل اغتظت منها في تلك اللحظة، حتى إنني انتزعت جسد أحلام الرخو من بين ذراعيها واحتضنتها بدوري سريعاً، ثم اصطحبته إلى مكان قصي بعيداً عن الجميع، كنت أتخيل أنني سوف أواجه زخات هائلة من الدموع والنحيب، ولكنها لم تفعل ذلك، بل وجدتها تقول في استسلام لم أعده فيها من قبل: (فانتني كثير وأنا غايبة؟!)، وبرغم مباغتتها لي بهذا السؤال الذي لم أتوقعه أبداً، أجبته في ذهول: (لا مش كثير.. مش كانت بتوصلك كل المحاضرات كل أسبوع؟!)، (أيوه وذاكرتها كلها.. في إيه تاني ناقصني?!)، (مفيش يا حبيبتي إحنا غطينا غيابك في الأبحاث الجماعية اللي مطلوبة منا، وأنا جهزتلك كل المراجع الخاصة بالبحث المطلوب منك لوحديك، وكنت ناوية آجيلك آخر الأسبوع وأجيلك كل حاجة، أو اخذك وارجع على هنا.. لكن أديك رجعتي الحمد لله)، فأجابتنني بتراخ شديد: (طيب يا ريت تديهالي عشان أخلص البحث في وقته.. خرينا نخلص من الجامعة بقى). قالت أحلام هذه الجملة، واضعة كل ثقل حزنها وكرهها للمكان الذي شهدت فيه مقتل حبيبها، ثم مضت تجر قدميها جرأً، فلحقت بها وأمسكت بذراعها متسائلة في قلق بالغ: (أحلام.. مالك؟! إنتي عيانة?!)، فابتسمت بوهن ونظرت بعينين ذابلتين تماماً، ثم قالت: (عيانة؟! لا أبداً أنا كويسة ما نتلقفش)، (أحلام أنا عارفة إن موت..)، لم تتركني أكمل الجملة، فقد

وضعت كفها بعنف على فمي مانعة إياي وصرخت: (إوعي تقتحي السيرة دي معايا ثاني!.. إنتي فاهمة؟!).

يبدو أن أحلام قررت محو يوم ٢٥ فبراير من حياتها، فمنذ ذلك اليوم وحتى غادرت إلى دبي لم تتحدث عنه أو حتى تلمح إليه، حتى إنها لم تمهل نفسها وقتاً لتحزن بما يكفي على سعيد، ففور تخرجنا فوجئت بها تعلمني بموعد خطبتها إلى سالم علوان.. لم أعرفه أو أراه معها أبداً، لكنها تعرفت به من خلال جريدة الاتجاه العربي، التي استمرت في العمل بها بعد تخرجنا، كان شاعراً ويكتب بعض المقالات في تلك الجريدة، أما وظيفته فكانت تدريس اللغة العربية، لا أدري لماذا لم أشعر بأنهما سيستمران معاً، برغم محاولات أحلام المستمينة أمامي لتأكيد عشقها لسالم، الذي أعاد إليها بهجة الحياة وثقتها بالغد مرة أخرى، وكأنها تكشف داخلي الذي يشكك في مشاعرها تلك، ويوقن أنها تستخدم كل الوسائل لتهرب من شبح سعيد وقسوة موته.

كنت قد عدت آنذاك إلى قسم التحقيقات بجريدة القاهرة اليوم، بعد انتهائي من الامتحانات مباشرة، حيث آمال أبو الفتوح التي استمرت معاملتها الطيبة وتشجيعها الدائم لي، وبدأت إجراء تحقيقات كاملة وحدي تكلفني إياها آمال، حيث قالت لي في أول يوم بعد عودتي: (خلاص إحنا كبرنا بقى وماعدناش طلبة ولازم تشتغلي بكامل طاقتك، وأنا واثقة إنك تقدري تعملي كتير).. حينها شعرت بسعادة غامرة، فلقد أحسست أنني أضع قدمي على أول درجة من سلم العمل الصحفي الجاد الذي أحلم به، وأنتني أخيراً سأبدأ تحقيق نبوءة الأستاذ كمال زهران، الذي قال إننا الجيل الذي سيستطيع محاربة الفساد والقضاء عليه! كنت أنقابل وأحلام كل يوم تقريباً، لحضور أمسية شعرية أو ندوة ثقافية أو حفلة في الأوبرا أو مسرحية، ثم نحكي أحياناً للآخر عما نقوم به من موضوعات، وبرغم أنني كنت أعمل في جريدة قومية مستقرة

ومضمونة كما هو معروف، بينما تعمل هي في جريدة مستقلة لا تملك الاستقرار المادي المطلوب، إلا أنني كنت أعبط أحلام على عملها في هذه الصحيفة، فهي تجري تحقيقات جريئة تحارب الفساد فعلاً، أما أنا فبرغم كل جرأة آمال أبو الفتوح في الموضوعات التي تسندها إلينا، إلا أننا لا نصل إلى مستوى جرأة جريدة الاتجاه العربي. لكن حرية التعبير عن الرأي وحق الاعتراض في مصر لم يستطيعا تحمل جريدة الاتجاه العربي، التي تعرضت - منذ نشأتها على أيدي يساريين مصريين - إلى حرب شرسة من قبل الجهات الرسمية، لكن في ما يبدو أنها تركت الجريدة بعض الوقت، في محاولة لوضع بعض رتوش تجميلية لصورة الديمقراطية التي تحاول الدولة رسمها لنفسها منذ أن بدأت، لكن اللوحة لم تحتل ضربات الفرشاة الثقيلة، فقررت كسرهما! وبالطبع لم تغلقها بأمر رسمي، فدائماً ما تعتمد الجهات الرسمية إلى استخدام الأبواب الخفية التي تدخلها متسللة بوقاحة، فقد أصدرت الجهات الرسمية العليا في الدولة أوامرها غير الرسمية إلى جميع الجهات المعلنة، وطلبت منها عدم إعطاء جريدة الاتجاه العربي أي إعلانات لنقطع عنها أهم مورد مالي، فالتوزيع برغم ارتفاعه لا يمكن أن يتحمل تكاليف إصدار جريدة أسبوعية ومرتببات العاملين فيها. أخذ أصحاب الاتجاه العربي يقاومون ثلاثة أشهر، لكنهم لم يستطيعوا الصمود فلقد صرفوا كل ملهم في جيوبهم، وبرغم إعلان الصحفيين بالجريدة أنهم لا يريدون رواتب شهرية، وأنهم مستعدون للعمل دون مقابل، إلا أن الجريدة لم تستطع البقاء على هذا الحال كثيراً، وخرجت ذات صباح تعلن على قرائها أن هذا هو العدد الأخير، حتى يتمكنوا من الوقوف على أقدامهم مرة أخرى، ونشروا كل تفاصيل ما تعرضوا إليه طوال عامين تقريباً كي يرفعوا الراية البيضاء إلى أن رفعوها، لأنهم كما قالوا لم يصبحوا أقوياء بما فيه الكفاية للصمود أمام قوى باطشة لا تتهاون مع أعدائها، وتستخدم كل الأساليب القذرة للقضاء عليهم.

كان توقف الاتجاه العربي عن الصدور صفة قوية قرعت خد أحلام في قسوة، ففي الوقت الذي تحاول فيه التعافي على يدي سالم علوان كي تتسنى فاجعة غياب سعيد، قضي على حلمها في الاتجاه العربي، فلقد كانت تعمل فيها وكأنها جريدتها الخاصة، وكانت تبني أحلاماً عريضة على ما يمكن تحقيقه عبر هذه الجريدة، لآخر لحظة كانت تؤكد لي أن أزمة الإعلانات مجرد أزمة مثل المئات التي تعرضوا إليها، منذ أن بدأت الجريدة منذ عامين، وأنها ستمر بسلام، مادام القارئون والعاملون في الجريدة مصرين على بقائها، لكن توقعات أو أحلام أحلام خابت تلك المرة، مثلما خابت وتخبى جميع أحلامنا، وتتساقط كأوراق الشجر الخريفية واحدة وراء أخرى، بعد أن تكون الريح قد امتصت كل رحيقها وتركتها صفراء عليلة.

جاءت إلى مقر القاهرة اليوم، كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً، ووجدتها تتصل بي من قسم الاستقبال على بوابة الجريدة، طلبت منها الصعود لكنها رفضت وطلبت مني أن نذهب إلى الهناجر، فهو مكاننا الأثير الذي نتقابل فيه دائماً منذ أن التحقنا بالجامعة وحتى غادرت إلى دبي، نزلت إليها بالفعل وتوجهنا ملفوفتين بعباءة صممتها المخيف، فلقد كان جبينها منعقداً وعيناها تلمعان وتطل منهما شراسة لم ألمحها فيهما منذ عرفتھا. كنت متيقنة تماماً أن أحلام في أزمة، لكنني لم أتخيل أبداً أنها قد تصل إلى أن تتخذ تلك القرارات العجيبة التي أعلنتها علي في ذلك اليوم.

بمجرد أن جلسنا إلى الطاولة في مقهى الهناجر، قالت لي أحلام وكانت قد تزوجت سالم منذ شهرين: (أنا حامل يا منى)، قالت لي الخبر وكأن الأمر لا يمثل لها أي سعادة من أي نوع، لكنني تجاهلت أسلوبها هذا ونهضت لأقبلها وأعلن فرحتي بهذا الخبر السعيد، وبعد أن هدأت هوجة تبريكاتي قالت: (أنا كنت باشتغل على موضوع

مهم قبل ما تتقفل الاتجاه العربي، وعندي كل الأوراق الثبوتية لكل الاتهامات اللي مفروض هونوجهها للشخص المسئول اللي متورط في قضية الفساد دي)، لم أجد ما أجيب به، وأنقذتني هي حيث أكملت قائلة: (ماعنديش حد في الدنيا أثق فيه وأتمنه على الشغل ده غيرك، أنا جايبالك كل الورق وتفاصيل الموضوع، وما عليكي غير إنك تكتبه وتنشره في القاهرة اليوم).

بعد أن سلمتني الأوراق وقبل حتى أن ألقى نظرة على أي منها قالت: (أنا خلاص قررت ما اشتغلش، أو على الأقل مش هاشتغل في مجال التحقيقات السياسية)، (لا يا أحلام ما تقوليش إنك مش هتشتغلي)، حينها ابتسمت في مرارة وقالت: (يعني يا منى الجرايد بتترمي عليا وأنا اللي بارفض! أديني قاعدة لغاية ما ألاقي جرنان أشغل فيه، لكن خلاص أنا قررت ما اشتغلش في المجال السياسي.. أنا خلاص زهقت)، (زهقتي؟ بسرعة كده.. هو ده كلامنا عن الصمود و..)، لم تمهلني حتى أكمل كلامي وقالت ببأس شديد: (صمود؟! صمود قصاد إيه بالظبط؟! صمود قصاد الموت ولا الألاعيب القذرة اللي أكبر مني ومنك؟!..). كنت أدرك تماماً أن أحلام تكمل هروبها من موت سعيد، فبعد زواجها بسالم وإغلاق الجريدة التي كان سعيد وراء عملها فيها، تقطعت كل الخيوط التي كانت تذكرها بالذي غاب، فقررت الغياب التام عن كل ما له صلة به حتى الأهداف الوطنية، فلم أجد غير أن أسألها: (يعني هتشتغلي في أي مجال يا أحلام؟!..)، (ممكن الصحافة الثقافية أو الفنية، أهم برضه لهم علاقة باهتماماتي)، ثم وضعت كفها على كفي وقالت مؤكدة علي: (المهم يا منى لو كنتي بتحبينني فعلاً اكتبني الموضوع اللي في إيدك ده وانشره في القاهرة اليوم)، لم أكن أعلم إمكانية نشر الموضوع في القاهرة اليوم، خاصة لو كان يمس إحدى الشخصيات المسئولة الكبيرة، وإن كنت عقدت الأمل

على حماس آمال أبو الفتوح فقلت لها: (هاعمل كل اللي أقدر عليه)،
(المهم تاخدي بالك من الورق أنا مش معايا نسخة ثانية)، (ما تخافيش
يا أحلام).

كان الموضوع يمس نعيم القاضي، عضو مجلس الشعب
الشهير، صاحب مصانع منتجات الألبان، وأحد أبرز الوجوه في الحزب
الوطني، وكانت الأوراق تحمل اتهامات له بالتعاون التجاري مع
إسرائيل، حيث يستورد مادة الفورمالين منها، وبالطبع تأتي هذه المادة
حاملة مكونات مسرطنة، وهو على علم تام بذلك. كان الموضوع خطيراً
بحق، فتحمست له بشدة، وكتبت الموضوع ملحقة به الأوراق الثبوتية،
وذهبت به إلى آمال أبو الفتوح في اليوم التالي.. كنت واثقة تماماً من
أنها لو لم تستطع نشر التحقيق، فسوف توجهني إلى المكان الصحيح
لنشره في إحدى الجرائد الحزبية، أو على الأقل تتصحني بالابتعاد عن
هذه المنطقة الخطيرة والصمت، لكنها لم تفعل أيّاً مما سبق، فلقد رحبت
تماماً بالتحقيق، وأمسكت به وكأنه صيد ثمين وقع في حبرها دون أن
تبذل أي مجهود في اصطیاده، وقالت لي بعد أن قرأته: (اذهبي الآن يا
منى، وغداً سأخبرك إذا كنا سننشر الموضوع كما هو أم سنحتاج إلى
بعض الإضافات). تركت مكتبها وأنا أطيّر من فرط سعادتي، واتصلت
بأحلام لأخبرها ربما تشعر ببعض السعادة وسط الكآبات التي تسجنها
داخلها، وبالفعل جاءني صوتها عبر الهاتف منتشياً وقالت لي: (الحمد
لله، على الأقل أكون عملت حاجة مهمة في حياتي)، (ما تقوليش كده
يا أحلام، المستقبل لسه قصادنا وأكد هنعمل حاجات مهمة كتير!).

يا الله! كم كنا صغيرتين لدرجة الجهل، فهذا العالم الذي يحيط
بنا لا يحتوي على أي بصيص من نور يضيء دروبنا السديمية، بينما
نواصل السير بأقدام لينة لم نخشوشن بعد من الأشواك المنثورة على
طول هذه الدروب، لكن موضوع نعيم القاضي كان أول شوكة تنغرس

على الأقل في قلمي أنا، فأحلام كان لديها بالفعل شوكتان غليظتان، أما أنا فلا يمكنني أن أحسب تجربتي مع قسم الحوادث شوكة منغرسه، بل مجرد شوكة شاكتني شوكاً مؤلماً، لكنها اخنقت ولم تبق.

ذهبت في اليوم التالي متأهبة في حماس لسماع قرار آمال بخصوص التحقيق، ولكنها تأخرت كثيراً عن الموعد المعتاد لحضورها فسألت أحد الزملاء في القسم عنها، وفوجئت بالإجابة التي أطاحت وعيي للحظات، فقد قال لي: (عندها ميعاد مهم مع نعيم القاضي في مكتبه.. زمانها جاية بس انتي عارفة إن المصنع بتاعه في سته أكتوبر، يعني على ما تروح وتقعدها معاه وترجع مش قبل واحدة أو اتنين بعد الضهر).. نعيم القاضي!.. لماذا تذهب إليه في مكتبه؟ أحتاج الموضوع إلى أخذ رأيه فيه؟!.. ربما ذهبت تأخذ رده على الاتهامات المنسوبة إليه في التحقيق؟ وربما.. وهنا تذكرت ما كان يقوله الزملاء عنها، أنها تستفيد من المصادر وتأخذ منهم رشاً، لإيقاف تحقیقات تمسهم أو تمحو أسماءهم منها، لكنني بعد لحظات من الذهول والتساؤلات العديدة قررت الانتظار لأرى ما الذي سيحدث.

حضرت آمال أبو الفتوح في النهاية ورفضت مقابلي، متعللة بأنها مشغولة وليس لديها وقت كي تحدثني، وعندما سألتها عن الموضوع قالت في سرعة واقتضاب: (بعدين يا منى بعدين.. قلنا مشغولة).. في اليوم التالي، وعلى مساحة صفحة كاملة، نشر حوار مع المستثمر الوطني الكبير الذي يساهم في نهضة الاقتصاد المصري، ورجل السياسة العظيم.. نعيم القاضي!

باعنتي آمال أبو الفتوح أنا وأحلام وكل الشعب المصري بعشرين ألف جنيه، هذا ما علمته بعد ذلك، وقالت لي، عندما اقتحمت مكتبها المغلق دون استئذان لمواجهتها بدناعتها، إنني وأحلام (شوية عيال)، وإن الأوراق التي أحضرناها مزورة، وكنا سوف نتسبب لها

بكارثة تعصف بمستقبلها المهني، وتضع مصداقية جريدة القاهرة اليوم
في موقف حرج!

هكذا أصبحت أنا وأحلام في لحظة أعداء للوطن، نعمل على
هدمه وذبح رجاله الأوفياء بسكين بارد!.. في لحظة واحدة تحولنا نحن
إلى الذئب بينما آمال ونعيم هما الحمل!!

لم يكن من الممكن أن أتجاوز أزمة آمال أبوالفتوح هكذا بين إغماض جفن وفتحته، بل استلزم الأمر شهرين كاملين، أعاني في الأول الحمى التي حار في سببها الأطباء، حتى طلبوا من والدي في النهاية عرضي على أخصائي نفسي، لم يجد أمامه حلاً بعد شهر كامل من الجلسات، التي تتكرر مرتين في الأسبوع، سوى منحي حبة سحرية لتهدئة أعصابي وتخفيف حدة توتري.. فبعد أن تم وضع حد لارتفاع الحرارة المتكرر، لم يستطع وضع حد للقلق الذي سيطر على كل خلية من خلايا جسدي، وأصبحت شخصاً قلقاً يخاف الآخرين حتى لو كانوا مجرد مارة في الشارع.. في النهاية خط بقلمه اسماً لدواء، وقال موجهاً كلامه لوالدتي: (دي حبوب مهدئة للأعصاب.. يا ريت تاخذ حباية كل يوم قبل ما تنام)، ربما كان وقع تعاملتي مع طبيب نفسي شديداً على أمي، ولذلك سألت الطبيب بفرع حقيقي: (دي حبوب منومة يا دكتور؟!)، فأجابها وكأنه يدرأ تهمة سيئة السمعة عنه: (لا أبداً واللهي.. دي حبوب مهدئة عشان تساعدنا على التخلص من الأرق والتوتر).

كان حل الحبة السحرية ممتازاً جداً بالنسبة لي، فقد كنت أخذها كل يوم مساء قبل النوم كما نصح الطبيب، لتمد إلي كفين نديتين تسحبانني داخل طراوتهما إلى عالم من السحب الهشة، التي أظل أتقلب عليها طوال الليل وأنا بين النوم واليقظة، لا أفكر في شيء، ولا أرى سوى كوناً من البياض الناصع الذي لا تشوبه أي نقاط تحمل ألواناً أخرى.. وعندما تأتي ساعة الاستيقاظ أخرج لأذهب إلى الجريدة، التي أصر والدي على أن أعود إليها، ولكن هذه المرة إلى قسم الترجمة، الذي ارتأى مع العم عثمان أنه المكان الأنسب لواحدة مثلي

رقيقة الحس!.. نعم.. لقد كان تفسيرهما لما أصابني أنني فتاة حساسة وكفى، لم يشغلا بالهما أو ربما خافا أن يبصرا الحقيقة التي أبصرتها وأنا أخط استهلال حياتي العملية.

ربما ساعدني أيضاً ذلك الهدوء الذي يعم قسم الترجمة على الغوص أكثر في عالمي الأبيض السحابي، وبدأت ألملم أغراضي من الشارع والبيت والعمل وأجمعها حولي، حتى لا أضطر إلى التعامل معها، حتى أحلام قررت أن أبتعد عنها، وبرغم زياراتها المتكررة لي في وقت مرضي، وتأكيدها أنها لا تكثرث لما أضعته، وأن كل ما يهمها صحتي وسلامتي أنا، إلا أنني آثرت الابتعاد عنها تماماً.. أعترف أنها لم تستسلم وكانت تصر على اختلاق أسباب للخروج معاً، لكن حملها ألزمها البيت في النهاية، خاصة أنها بعدما أنجبت ابنتها لم يعد لديها وقت لتمضيه بعيداً عن دائرة العمل والمنزل، كما أن حادث وفاة مؤمن أيضاً ساهم بقوة في أن نبتعد عن بعضنا البعض أكثر.

توفي مؤمن في نفس اليوم الذي وضعت فيه أحلام مولودتها، لم يكن أمامي في ذلك اليوم خيار سوى الذهاب إلى أحلام في المستشفى، فقد طلبت من سالم أن يخبرني عندما تلد.. جاء هاتف سالم قبل وصول نبأ وفاة مؤمن إلى الجريدة، فلقد حدث ارتباك مفاجئ في القسم، وبدأت تنهدات وحسرات على شباب مؤمن الذي راح هدرًا من الزميلات الأربعينيات في القسم، لم أسمع الاسم في البداية، ولكن لفت انتباهي أنهم يتحدثون عن صحفي شاب بجريدة الأيام، لم يكن يهمني معرفة الاسم كثيراً، ولكن بعد أن قلن إنه سقط من شرفة شقته الجديدة التي تسلمها مؤخراً للزواج فيها، داخلني إحساس لا أدري مصدره أن الشخص المقصود هو مؤمن.. مازلت أحمد الله أنني كنت في تلك اللحظة أعيش تحت تأثير الحبة السحرية، وإلا كنت سقطت من وقع الصدمة.

فقد كان كل ما فعلته عندما أخبرني باسم المتوفى، أن أدت
لهن ظهري في حركة آلية، وتوجهت نحو مكتبي لأسحب حقيبتى في
هدوء، وأغادر الجريدة متجهة نحو المستشفى الذي تلد فيه أحلام..
كانت والدتها وسالم زوجها يدوران على عقيبهما خارج غرفة الولادة،
بينما أخذ سالم يتمتم بصوت مسموع تقريباً: (يا رب يطلع ولد.. يا رب
يطلع ولد!)، لا أدري لماذا ضاع تأثير الحبة السحرية فجأة وبدأت
أرتبك وأتوتر، ثم انتابتنى هستيريا من البكاء المتواصل الذي أثار
حفيظة والدة أحلام، فهي لم تر في بكائي سوى فأل شؤم على ابنتها،
فوجدتها تقول لي: (ليه يا بنتي كده حرام عليكى.. استبشري خير)،
اتجه نحوى سالم في هدوء وقال: (لا يمكن تكونى بتعيطى على
أحلام.. فى إيه يا منى؟!)، لم أدر بنفسى وأنا أتمتم فى عصبية
هستيرية: (مؤمن مات.. مؤمن مات.. مؤمن مات!)، (مؤمن مين اللي
مات؟!)، (مؤمن حربية مات.. مؤمن حربية مات!)، (مين مؤمن حربية
يا منى انطقي?!)، لا أدري كيف قلت ذلك، ولكننى فوجئت بنفسى أقول
لسالم بنبرة عدائية، لم أدر كيف تحملت أبحالي الصوتية خروجها دفعة
واحدة: (وانت هتقتل أحلام.. أيوه انت هتقتلها!).. هذا كل ما أتذكره،
لكنى أعرف جيداً أنني تركت المستشفى، وعدت إلى المنزل وأنا فى
حالة هستيرية استلزمت إحضار الطبيب فوراً، ولم أعرف بعد أن أفقت
من هلوستى الهستيرية ماذا حدث مع أحلام.

فضلت ألا أتصل بها بعد ما قلته لزوجها، فكيف أقول مثل
هذا الخرف لزوجها وهي تلد؟! لكن بعد مرور أسبوع تقريباً اتصلت بي
أحلام ووجدتها تسألنى: (هو مؤمن بيتعالج فى أنهى مستشفى؟)..
فهمت بعد ذلك أن زوجها سألها، بعد أن وضعت ابنتها وعادت إلى
المنزل، إن كانت تعرف شخصاً اسمه مؤمن حربية، وعندما أجابته أنه
صديقها الحميم لم يخبرها الحقيقة، ولكنه لم يستطع ألا يخبرها بشيء

على الإطلاق، فقال لها إنه تعرض إلى حادث وهو خارج من مبنى مؤسسة الأيام، وصدمة سيارة تاكسي كسرت له ساقه وذراعه وهو الآن في المستشفى، وأن هذا هو سبب عدم تمكني من حضور ولادتها. لا أدري لماذا أخذت على عاتقي إخبارها، فقد كان من الممكن أن أستمّر في الكذب، وأقول لها إنه خرج من المستشفى وهو في بيته الآن، ولا أحد يعرف عنوان منزله وليس لديه تليفون.. وكانت ستصدق، لأن هذه هي الحقيقة، نحن لا نعرف عنوان مؤمن وهو لا يمتلك تليفوناً في منزله.. لكنني وجدت نفسي أخبرها بالحقيقة، لأغرق بعد ذلك في البكاء. ربما كان وقع الخبر على أحلام أشد منه علي، فلقد وجدتتها تتهمني والعالم كله بأننا ظلمنا مؤمن، وأنه ترك لنا العالم كله علنا نستريح، ثم أغلقت سماعة التليفون قبل أن تمهلني أي وقت للرد، أو حتى محاولة تهدئتها.

عام كامل لم أر فيه أحلام بعد هذه الواقعة، لا أنكر أنني استرحت كثيراً إلى فكرة عدم رؤيتها، وربما استرحت هي أيضاً إلى نفس الشيء.. عام دخلت فيه كل واحدة منا إلى عالم منفصل عن الأخرى، فلقد انشغلت هي بابتنتها، وبدأت أنا غزل ونسج دنيائي الجديدة، تلك الدنيا التي مثلت الحل الناجع للقضاء على كل آلامي، دنيا صافية وراقية ورائقة بعيداً عن عكر الأيام، دنيا بلا صراع على السطوة والسلطة والمال، دنيا قدمت لي البديل العملي للحبة السحرية، ومثلت العلبة الساحرة التي دخلتها وأغلقتها على نفسي، غير عابئة تماماً بكل ما خارجها ودخلها، كما قابلت عمر الذي غلف عمري بقوس قزح يلف سمائي ليهبط مغلقاً علي أرضي!

لم يرق لي في قسم الترجمة سوى الأستاذة ناهد، نموذج حقيقي للمرأة المصرية المتعلمة جيداً والعاملة والمتروجة والأم، كانت تحمل داخلها ألف حلم تم اختزالها في حياة واحدة يتيمة لا تحتوي على أي إثارة، وربما لأنها احتاجت بشدة إلى شيء جديد ينوع إيقاع أيامها الرتيب، توصلت بشكل أو بآخر إلى السير في طريق الأعمال الخيرية، كانت تدأب شهرياً في جمع نقود من العاملين بالمؤسسة، حيث تجوب أدوار المبنى العشرة على قدميها المتورمتين، بسبب الدوالي وثقل جسدها الضخم، في أول يوم من الشهر لتجمع النقود، مرة باسم أنقذوا أطفال الشوارع، ومرة باسم تبرعوا لمرضى السرطان، ومرة ساعدوا شباب مصر على التخلص من الإدمان.. ومرة.. ومرة.. فقد كانت في كل مرة تأتي إلينا بعنوان ضخم لحملة تبرعات.. لم يشك أحد في الأستاذة ناهد، لأنها نموذج للمرأة الطيبة السليمة النوايا، ولأن الجميع يحلم بالجنة ويعمل على تكفير ذنوبه بتقديم رشاوى منتظمة لله! دون هدف أو رغبة حقيقية في مساعدة أحد بقدر مساعدة نفسه.

كانت الأستاذة ناهد هي أول الخيط بالنسبة لي، فمن خلالها عرفت طريق مستشفى القلب ومستشفى الأورام ومستشفيات العلاج من الإدمان وملاجئ الأيتام واللقطاء، وخطوة خطوة توسع نشاطي ليشمل المحتاجين في بيوتهم، وأطفال الشوارع أسفل الكباري وفي أركان الأزقة.. ومن عملية خيرية إلى أخرى زادت علاقتي بالخيريين أمثال الأستاذة ناهد وغيرها، ممن يتخذون من هذا السبيل وسيلة للنضال السلمي، لإنقاذ البلد من الفقر والجهل والمرض، فقد كانت هناك حملات لإقامة فصول محو أمية، وأخرى لإنشاء زوايا دينية، وغيرها لإنشاء وحدات صحية أهلية و..و.. عالم قائم بذاته اكتشفته عندما

أخذتني موجة العطاء تلك، التي شغلت أيامي تماماً وأشعرتني بقيمتي في الحياة. لم يكن الأمر قاصراً على أن أشعر بقيمتي في الحياة فقط، فلقد كان أكبر من ذلك، ألا وهو أن أجد الطريق الصحيح للنضال، بعيداً عن الأفاقين والمتشدين بحب الوطن والأدعياء وسמסرة الشعارات والقيم الوطنية والكلام المنثور في وجه الريح!

ربما كان هذا الطريق، أو هذه الدنيا التي انفتحت أبوابها في وجهي، هي السبب الرئيسي في إنقاذي من الذبول التدريجي حتى الزوال، فأزمتي في عالم الصحافة الذي أضعت فيه عمراً بأكمله، منذ نعومة أظفاري وحتى لحظة حادثة آمال أبو الفتوح الشهيرة، كادت أن تعصف بي، أو أنها بالفعل كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في سبيل إنهائي وتحويلي إلى قشة تذروها الرياح في أي مكان تتجه إليه.. هذه الدنيا أحييت داخلي الأمل من جديد في الوطن الذي حلمنا به وله كثيراً، وضللنا كل السبل للوصول إلى مفتاح لبوابته المنغلقة أمام وجوهنا جميعاً، فعلى الأقل نحن ننقذ أعداداً كبيرة من البشر من الضياع والانتهاه، لحين حدوث ما لم أستطع أو يستطع أحد القيام به لإنقاذ وطن بأكمله.

عام كامل أخذتني فيه تلك النشاطات بعيداً عن كل من عرفت، ولم أفكر لحظة في الاتصال بأي منهم، حتى أحلام صديقتي الصدوقة، التي أمضيت معها سني حلمنا الأخضر قبل أن يذبل ويسقط مع الخريف الذي هب علينا مبكراً.. لكني لا أدري لم فكرت فيها وحدها دون غيرها عندما قابلته.. عمر راضي.. هذا الذي أقبل بربيع جديد كامل لا ينقصه أو يشوبه شيء لعمرى كله، هذا الذي يحمل على وجهه ابتسامة لا تقدمها شفتاه فقط، بل كل قسّمات وجهه حتى عيناها اللتان لا تريان.. نعم عمر لا يرى، فلقد ولد ضريباً ولم يبصر يوماً نور الدنيا، لكنه يسير بنور حوله يضيء ظلام أكوام بكاملها. كنا في واحدة

من الحفلات التي ننظمها لملاجئ الأيتام للترفيه عن الأطفال، وقامت الأستاذة ناهد بترشيح اسمه كي يحيي الحفل بمعزوفاته الرقيقة التي ألفها للأطفال فقط، سألتها حينها عن يكون هذا، وكيف لم أسمع به وأنا أهتم كثيراً بكل التجارب الموسيقية المثقفة الموجودة على الساحة وأتبعها أينما كانت، فأخبرتني بأنه عاش زمناً طويلاً في ألمانيا يدرس الموسيقى، وأنه عاد مؤخراً إلى مصر وفي جعبته الكثير.

لم نخبرنا ناهد بأنه فاقد البصر، فقط تحدثت بحماس شديد عن ذكائه ونبوغه الموسيقي منذ طفولته ورعاية أهله الشديدة له، كانت ناهد صديقة حميمة لوالدته، وأعتقد أنها فضلت ألا نخبرنا بمسألة بصره لفرط إحساسها تجاهه وحبها له. في يوم الحفل أتى عمر بريعه المزهري، لم يلحظ أي منا أنه لا يرانا، فلقد كانت عيناه مبتسمتين ومعبرتين للغاية، لدرجة أنني لم أستطع أن أكبح نظراتي المنصبة عليه طوال عزفه على كمانه، الذي يحتضنه بحنو بالغ ويتفاعل معه بشاعرية مفرطة وكأنه معشوقته.. وفي ذروة تفاعلي مع مقطوعاته الموسيقية التي ألفها للأطفال، تذكرت أحلام التي كانت قد انتقلت منذ وقت للعمل في القسم الثقافي والفني بجريدة الجماهير، وتخصصت في الكتابة عن الفنون الرفيعة والفن التشكيلي، وقررت أن أتصل بها برغم انقطاعنا عن بعضنا البعض، والذي وصل إلى عامين كاملين لم أكلمها حتى للسؤال عن ابنتها، لكنني بالفعل لم أجد أي حرج داخلي للاتصال بها، والطلب منها أن تكتب عن عمر.

بعد أن انتهى عمر من فقرته التي أسعدت الجميع، لدرجة أن الأطفال أخذوا يتمايلون ويصفقون ويتقافزون فرحاً بموسيقاه الشفافة، جريت نحوه وأنا لا أدري ما الذي يمكنني قوله له، كان من الطبيعي أن أثني على فنه، لكنني بالفعل خلال الثواني التي مرت على عبوري من مقعدي إلى مكانه - الذي اتخذته مسرحاً بين الأطفال - تشتت عقلي

تماماً، وشعرت بعاطفة جامحة تزلزل وعيي وتطيح كل تركيز داخلي، حتى إن قلبي كان يرج عظام صدري وكأنه يحطمها بمعاول رقيقة، ليقفز إلى الخارج نحو عمر يلفه بكل الدفء النائر الذي انتابه.

عندما وصلت إليه لم يكن في داخلي كلام، بقدر ما كانت هناك خلايا مرتعشة وندى يبيل جسدي بحنو لطيف لم أعرفه من قبل، ظلمت أمامه لحظات لكنه لم يبد أي رد فعل على وقوفي أمامه، إلا عندما أتت ناهد وصوتها يسبقها: (برافو يا عمر برافو.. رفعت راسي يا حبيبي)، حينها فقط نهض من مقعده وابتسم موجهاً كلامه لها دون أن ينظر إلي نهائياً، أفقت من هيامي وبدأت أنظر إلى ناهد متسائلة، فلم تجد المسكينة وسط ارتباكها لأنها لم تخبر أحداً بأمره، وهي التي راعت منذ حضوره ألا يلحظ أحد شيئاً، سوى أن قالت: (أعرفك يا عمر بأنشط بنت معانا)، ثم سحبت كفه لتضعها في كفي مكملة التعارف: (منى حاكم زميلتي في الجرنال، وعلى فكرة هي بتحب الموسيقى أوي)، لم أستطع أن أنفوه بأي كلمة، ولكنه قال بعذوبة: (أهلاً يا آنسة منى تشرفنا.. يا رب أكون عجبك)، كان لابد حينها أن أنطق مهما كانت حالتي فقلت: (أهلاً بيبك يا أستاذ عمر، إنت كنت عظيم جداً والموسيقى بتاعتك ساحرة.. إزاي أنا ما اعرفكش قبل كده؟!)، فقالت ناهد: (ما أنا قللتكم يا منى إن عمر لسه راجع من ألمانيا.. كان بيتعلم الموسيقى هناك وكمان اشتغل فترة، ولسه راجع مصر ما بقالوش شهرين)، وأخيراً فكت عقدة لساني، فبدأت أتحدث معه بسلاسة ربما كان حضوره المطمئن هو الذي وهبها لي، فقلت: (إنت بقالك قد إيه في ألمانيا؟)، (خمستاشر سنة)، (ياااااه كل ده؟! وإيه اللي فكرت ترجع مصر؟!)، ضحك برزانة شديدة وقال: (واللهي مش عارف.. يمكن هفني الشوق، أو يمكن خبطتني حاجة في نافوخي!)، عندها ضحكنا كلنا، ووجدتني أطلب منه رقم تليفونه حتى أعطيه لأحلام لتجري معه

حواراً لجريدتها، فشكرني كثيراً وقال: (تحت أمرك نمرّة التليفون، ولكن أفضل إن صاحبك تسمع شغلي الأول قبل ما تكتب عني أي حاجة).. أخذت رقم تليفونه، وطلبت منه موعد حفلته القادمة التي كانت في المسرح الصغير في الأوبرا.

مثلما أعاد إلي عمر رونق الحياة أعاد إلي أحلام، ففي المستشفى الذي أقامه مع عازفة البيانو الشهيرة منال حلمي بالمسرح الصغير في الأوبرا، والذي عزف فيه أعمالاً له وأخرى عالمية، عاد التحامي بأحلام برغم انزعاجي الذي راعيت إخفائه جيداً من نزعها غطاء شعرها، ووجدنا يدينا تتسللان لتتشابكا وتهترا على وقع النغمات، تماماً مثلما اعتدنا في أيامنا الأولى، لننسى كل الآلام التي فرقنا دون أن ترتكب أي منا ذنباً في حق الأخرى. كانت التجارب الطاحنة التي مررنا بها أقوى من رقة قلبينا، لكن عمر استطاع برقة ارتعاش قوسه على أوتار كمانه ورنين البيانو المصاحب، أن يجمع أشلاءنا المتألمة من على قارعة الزمن ويلحمها في براءة، لتسقط دموعنا وتغسل حرقة الوجد وتمحو غصة الحلق، وتعيدنا إلى رغبة كل منا في البقاء أصدقاء..

لم أكن وحدي التي شعرت بأن تلك الموسيقى التي خرجت من بين أصابع عمر هي التي أيقظت صداقتنا من سباتها الطويل، فلقد فوجئت بأحلام تقول له ذلك في غرفته بكواليس المسرح، بعد أن انتهى المستشفى وذهبنا إليه كي نهنئه على نجاح الحفل، ولتحدد أحلام معه موعداً لإجراء حوار لجريدتها: (إنت كنت عظيم يا أستاذ عمر، أنا مش عارفة أقولك إيه بس؟! أنا لازم أشكرك مش لأنك متعتني بموسيقاك لأ لأنك رجعتلي منى)، حينها ابتسم وقال: (مش فاهم! رجعتالك يعني إيه؟!)، نظرت إلي والدموع في عينيها تتأزر مع دموعي التي تسبح فيها مقلتا، ثم قالت: (أبدأ بس صداقتي أنا ومنى

كانت بتمر بفترة عصيبة.. وأعتقد إنك قضيت على الفترة دي من غير ما تحس). لا أدري إن كان عمر استغل هذا الكلام كي يزيد من زمن وجودي معه، أم أنه فعلاً تعاطف معي وأحلام وقرر الاحتفال بعودتنا إلى بعضنا البعض، فقد قال بهدوء وثقة بالغين: (خلاص.. يبقى لازم أكمل مهمة الموسيقى بتاعتي وأحتفل ببيكم بشكل خاص)، فسألته بدهشة: (إزاي يعني؟!)، (يعني إنتم الاثنين معزومين على العشا)، (لا لا ما ينفعش! أنا بابا وماما لا يمكن يوافقوا إني أتأخر أكثر من كده، وأحلام عندها بنتها وجوزها)، لكني فوجئت بأحلام تقول: (مالكش انتي دعوة بجوزي وبنتي أنا هاعرف أتصرف معاهم إزاي.. أما بخصوص والدك ووالدتك أنا هاتصل بيهم وأستسمحهم يسيبوكي النهارده.. خلاص؟!).

وبالفعل ذهبنا نحن الثلاثة إلى مطعم برستيج في المهندسين مع عمر في سيارته، حيث جلس هو إلى جوار السائق، بينما أخذت أنا أعائب أحلام في المقعد الخلفي بصوت خفيض لأنها ورطتني في تلك الدعوة، وهي تعرف جيداً أنني لا أقدم على مثل هذه الأشياء أبداً، لكن يبدو أن أحلام بطبيعة الحال كانت قد كشفت دواخلي، حيث قالت وهي تربت على كفي وتغمز بعينها: (بكرة تفنكريلي الموقف ده وتدعيلي)، لم أستطع أن أطلب منها تفسيراً، فلقد لحقنا عمر قبل أن نسترسل في الكلام، الذي كنا نعتقد أنه يخرج منا خفيضاً لا يسمعه غيرنا، وقال: (معلومة على الماشي.. حاسة السمع عند الضرير بتكون قوية جداً، ويا سلام بقى لو كان الضرير ده موسيقي.. تبقى حاسة السمع عنده أقوى بمراحل!)، غرقت أحلام في الضحك عقب ما قاله عمر، وشاركها هو أيضاً في الضحكات، بينما غصت في خللي أتمنى أن ينشق المقعد ويبتلعني! وربما أكون قد حمدت الله أن عمر لا

يرى، لأنني بالتأكيد لم أكن لأستطيع مواجهته بوجهي الذي تحول إلى كرة من النار المشتعلة!

في المطعم جلس ثلاثتنا على طاولة تتسع لأربعة، كان عمر قد استدعى أحد أصدقائه ليكون رابعنا ويشغل أحلام عنا، لم أكن عشت أياً من تلك الحالات من قبل، بل إن الحقيقة هي أنني لي تحفظاتي على مثل تلك العلاقات، فلقد كنت أوّمن بالحب ولكن بشكل شرعي ومقنن اجتماعياً، وربما كان هذا هو ما عزلني طوال سني الجامعة وما بعدها عن أي علاقة حب.. فلقد كان الشباب لا يؤمنون بالحب إلا بالهمسات والنظرات والتحام الأكف ببعضها البعض والمقابلات في الكازينوهات والمطاعم، مما لا يمكنني القيام به أبداً، ولا أدري أي قوة في الأرض جعلتني أقبل بهذه الدعوة المفاجئة، والتي كانت أحلام هي السبب الرئيسي في إكمالها إلى النهاية. بعد دقائق من وصولنا إلى المطعم حضر عارف منصور، الأديب العراقي الذي كان رفيقاً لعمر في ألمانيا، والذي أتى معه ليستقر في القاهرة بعد أن سئم الحياة بعيداً عن دفء البلاد العربية، ولأنه لا يستطيع العودة إلى العراق لخلافاته السياسية مع النظام هناك. تدريجياً وبعد أن تم التعارف بين الجميع، انقسمت الجلسة نصفاً لي وعمر والنصف الآخر لأحلام وعارف، اللذين تآلفا سريعاً وبدأ يتحدثان بصوت خفيض ومنفصل، مما اضطرني برغم حرجي الشديد إلى أن أتواصل مع عمر بشكل خاص لا أنكر أنني أحببته، لكنني في نفس الوقت كنت أشعر بتأنيب ضمير شديد، لأن والدي لا يعلم أنني في جلسة من هذا النوع، بل كل ما يعلمانه أنني مع أحلام في دعوة إلى عشاء مع ثلثة من الأصدقاء.

في ذلك المساء أخذت مشاعري وعمر في التبلور بشكل جاد نحو الحب والرغبة في الالتقاء إلى النهاية، فلقد وجدته يحادثني عن فشله العاطفي طوال السنين الماضية، وأنه برغم نجاحه الفني الشديد

وما حققه في عالم الموسيقى في أوروبا، إلا أنه لم يجد المرأة التي يرتاح إليها بشكل كامل دون أن يتذكر مشكلة بصره، فلقد كان دائماً يصطدم بما تحمله المرأة التي يرتبط بها داخلها من شعور بالتفضل عليه لأنها منحته حبها برغم أنه ضرير، مما كان يجعله ينهي العلاقة فوراً.. لم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل استرسل عمر أكثر في كلامه لي قائلاً إنه برغم لقائنا القصير في دار الأيتام واليوم، إلا أنه ارتاح إلي كثيراً ولم يشعر تجاهي بأي إحساس أنني أنظر إليه كضرير، لم أجد قدرة داخلي على قول شيء، فقد كنت مرتبكة من حجم المشاعر التي تفيض داخلي، فأخذت أغغم بكلام غير مفهوم حتى لي! فقال: (مالك يا منى ليه مش بتتكلمي؟!) أنا.. أنا..)، (إنتي إيه؟!) أنا مش عارفة أقول حاجة ولا أعمل حاجة.. أنا بابا وماما ما يعرفوش إني قاعدة القاعدة دي)، (وانتي مش مبسوفة من القاعدة؟!)، (ما هي المشكلة إني سعيدة ببيها جداً.. بس أنا ما اقدرش أعمل حاجة غلط)، (وايه الغلط في اللي احنا بنعمله?!)، (إنك يمكن حياتك في أوروبا نستك شوية حاجات خاصة بمصر)، (لا أبداً أنا ما نستش حاجة.. بس أنا عابز أتأكد إن كنت أنا فاهم صح)، حتى الآن لا أدري أي قوة على الأرض جعلتني أقول هذا الكلام ولكني قلته: (لا إنك فاهم صح جداً، بس أنا ليا طريقة في الحياة وقناعات ما اقدرش أتنازل عنها مهما كنت فاهم صح وأنا فاهمة صح)، حينها ابتسم ووجهه وجهه ناحية أحلام وعارف قائلاً: (خلاص يا جماعة القاعدة خلصت.. ياللا يا عارف عشان نوصل منى وأحلام).

في اليوم التالي اتصلت بي أحلام حتى تستفسر عن سبب إنهاء عمر الجلسة بهذه الصورة، فحكيت لها ما دار بيننا، وفور أن أنهيت كلامي انطلقت من على الجانب الآخر للهاتف تصرخ قائلة: (يخرب عقلك هتطيريه من إيديكي بعبطك ده!.. في حد يعمل كده مع

واحد بيعترف بحبه بشياكة وذوق كده؟!.. هو انتي فاكدة إن في حد في مصر لسه بيحب بطريقتك بتاعة القرن التسعناشر دي؟! حرام عليكي يا منى إنتي بالشكل ده لا هتحيي ولا هتتجوزي أبداً!)، (مش مهم.. اللي عايز يحبني يحبني بطريقي أنا مش بتاعة مطاعم وكازينوهات.. وبعدين ربنا حط طريقة للناس عشان تحب بعضها وتتجوز، المسألة مش عقدة أوي كده زي ما انتي بتحاولي تفهميني!)، (يا سلام! وربنا كمان حط طريقة للناس عشان يحبوا بيها بعضهم؟! واللهم إنتي هتجيبيلي جنان مستعجل!)، (أيوه ربنا حط طريقة.. وهي إنه طالما أعجب بيا يبجي يطلبني من أبويا، ويبقى يزورنا بعد كده في بيتنا عشان التعارف يتم ويس.. هو ده اللي انا أفهمه)، (بس إنتي يا بنت الحلال ما اديتلوش فرصة إنه يفهم إن كنتي فعلاً معجبة بيه وعمايزاه عشان يبجي يتقدملك.. وبعدين هو يعرف عنوانك منين عشان يبجي لأبوكي يطلبك؟!))، (هي معضلة يا أحلام! ما هو ممكن عن طريقك بعد ما تعملي معاه الحوار.. ده لو فعلاً حبني.. يسأل على رقم تليفوني وعنواني ويبجي يطلبني)، (لا يا شيخة! كده من الباب للطاق؟! مش قلناك هتجننيني!).

انتهت مكالمتي مع أحلام ولم أدر بما قامت به، إلا بعد ما اتصل عمر بي في المنزل، وفوجئت بوالدتي تخبرني بأن هناك شخصاً يدعى عمر راضي يرغب في محادثتي، ثم تابعت متسائلة: (مين عمر راضي ده؟!).. الارتباك الذي اعترى جسدي كله وعقد لساني لم يجعلني أستطيع الرد على سؤال أمي، وجريت نحو التليفون لأرد على عمر، وإن كنت في الحقيقة لم أقل شيئاً! فقد كان هو الذي يتكلم: (إزيك يا منى؟!))، (الـ.. الـ.. حمـ.. دـ.. للـ.. هـ)، (مالك بس؟!)) (هه؟!.. مفـ.. شـ.. مفيش.. في حاجة يا عمر؟!))، (أنا أخذت نمرك من أحلام وهي فهمتني على كل حاجة).. صاعقة هبطت من السماء على

رأسي فجأة، حاولت على إثرها ألا يخرج كلامي صرخاً حتى لا أثير حفيظة أُمي، التي كانت جالسة على مقعد السفرة تتسمع المكالمة.. (وإيه هو اللي فهمتهولك أحلام؟!)، خدرتني ضحكته التي سألت في أذني بنعومة، ثم قال: (ما تتخضيش، أنا بس باتصل بيكي عشان أطلب منك تحديلي ميعاد مع والدك.. كل الموضوع إنني قررت أزورك أنا ووالدتي ووالدي.. عندك مانع؟!).. لا أدري هل فرحت أو قلقت لأنني لم أعرف كيف أخبر أبي بالأمر، لكنني أجبتة: (حاضر هاقول لبابا وهابلغك)، (تصبحي على خير)، (وانت من أهله).

تحت وطأة الحزن أحيا أيامي بين هزائم تكباني وتعوق حركتي، وأحلام تموت قبل أن تتعم ولو بشعاع نهاري واحد، دموعي لا تترك لشفتي فرصة الابتسام حتى ولو بوهن، لا أكاد أنتسم عبير فرحة حتى تخنقني الأحزان، ولا أكاد أنعم بقلب مرتاح حتى تقبضه حوادث لا أدرك منبعها.

هكذا تسير حياتي منذ أن خطوت بقدمي أولى خطواتي في الحياة الحقيقية، بعيداً عن كنف أبي وأمي الذي حماني كثيراً وطويلاً، حتى إنني ظننت أن الحياة بنفس دفء ونعومة كنفهما، ربما لو لم يقدم لي هذه الرعاية لكان حالي أفضل الآن، وأنا أشاهد كل شيء يتكسر أمام عيني وأنا عاجزة تماماً عن فعل شيء، حتى والداي انضما إلى الصفوف التي تتكتل ضدي، وتنزع ريشي حتى أظل راقدة على أرضهم اليباب، بلا أمل ولا قدرة على الحلم بلمس أول خيط من شعاع الشمس.

كنت ساذجة ربما.. لا أفهم الدنيا جيداً ربما.. غبية ربما.. لكنني بالتأكيد لم أكن مدركة أبعاد طرح عمر كرجل مقترح للاقتراح بي.. لا أدري لماذا لم يريا فيه سوى عينيهِ اللتين لا تبصران؟!.. هل لم يريا الشعاع الذي يبرز من عينيهِ برغم انطفاء النور فيهما؟! هل لم يريا روحه الشفافة وشخصيته القائدة ونبوغه في فنه؟!.. لقد اكتشفت أنه حتى أبي وأمي لا يريان سوى الغلاف الخارجي فقط مثل باقي الناس.. باقي العامة كما تسميهم أحلام عندما تتأفف من ردود أفعالهم السطحية تجاه حوادث عظيمة.. نعم يا أحلام كان معك حق عندما كنت تلفظين هذا الوصف: (العامة والغوغاء والدهماء)، ثم تطلقين ضحكة هستيرية

تحمل كل مشاعر القرف التي تمر داخلك وتغلي تجاههم، كنت أقول لك إنهم لا ذنب لهم في ذلك، فهم لم يجدوا أحداً يعلمهم أو يبصرهم بحقيقة الأمور، وكنت ترفضين ما أقول وتقولين: (أليسوا على الفطرة التي خلقهم الله عليها؟!.. بالفطرة وحدها يمكنهم أن يفعلوا الكثير). الآن اقتنعت، فأبي وأمي ليسا على الفطرة فقط، بل نالا من التعليم والثقافة والوعي ما يكفي لنلا يقدمنا سبب رفضهما القاطع لشخص عمر بجملة واحدة، حملت كل ما في داخلهما من قسوة غير مبررة، ولا أعرف حتى الآن من أين أتيا بها: (عايزة تتجوزي واحد أعمى تعيشي طول عمرك تسحبينه؟!).. هذا هو ملخص رؤيتهما لعمر راضي الموسيقار وصوليست الكمان العالمي.. من يمكنه تخيل أن عمر راضي ينتظرني كي أسحبه العمر كله؟!.. لم يدرك والداي أنني احتجت إليه هو كي يسحب عمري كله نحو شاطئ الأمان والهدوء، لم يعيا مدى حاجتي إليه كي ينقذني من جبل الآلام الذي تكوم فوق صدري، حتى لم أعد قادرة على التنفس، لم يدركا أنني أنا الضريبة التي لم تعد قادرة على رؤية طريقها، وتنتظر من يمد لها يداً ترشدها إلى الطريق.

لا أدري من أين تولد القسوة في قلوب الناس؟! كيف تتغرس الكراهية غير المبررة داخل قلوب من عهدناهم محبين ورحماء؟! لقد عشت عمري كله مع هذين الوالدين، ولم أر منهما ما ينبئ بموقفهما ذلك من عمر، فلقد رفضا حتى مقابلته.. رفضا أن يجلسا معه ويتعرفا به عن قرب، لبيتنا الأمر بشكل صحيح.. رفضا رؤيته من الأساس، ولم يكن منهما سوى أن بدأ في مسلسل طويل لا ينتهي من استجلاب العرسان كي يضعا حداً لما أسمياه: (مهزلتك مع الأعمى)!

الآن وبعد مرور خمسة أعوام على لقائي بعمر لم تنته مهزليتي معه، ومازلت أحيًا من أجل لحظة أراه فيها، برغم أن فرصة لقائي به

لا تتكرر كثيراً، فمن حين لآخر يقيم حفلة هنا أو حفلة هناك فأذهب كي أسمع وأراه، أو ألتقيه في واحدة من الزيارات إلى دور الأيتام.. أعيش حرمانه لحظات عمري التي تمر بثقل لا يمكن وصفه، وأستقبل نور الصباح الذي يتكرر كل يوم بلا معنى أو هدف دونه، بينما تنقض على الأمسيات بليلها الطويل وأنا مسهدة يأكلني أرق البعد عنه.

فرار!!!!!!!!!!!!!!غ!.. فراغ حولي.. فراغ يأكلني وأنا صامته لا أصرخ، ولا أطلب العون سوى من الله، فهو حبيبي الذي يعلم أنني في مأزق ولابد أن ينقذني.. ربما أنقذني بالموت، فجواره رحمة بعيداً عن القلوب القاسية، التي تغل أيامي المتسربة بلا قيمة حقيقية.. فشل كامل يقيم حيث أقيم، فأنا نفضت ידי من النضال لأجل الوطن، فالوطن ليس لنا، ونفضت ידי من الأصدقاء، فالأصدقاء ابتعدوا كثيراً، وضاعوا في متاهات جحش التي نصبوها في كل الشوارع والأزقة.. وأنا نفضت ידי من الطموح في العمل، أجلس إلى مكتب خشبي قديم جلس إليه فاشلون كثيرون قبلي، أحمل فشلهم بين أصابع يميناى مع القلم، لأخط كلاماً مترجماً لا يعنيني ولا يعبر عني ولا يسير نحو أهدافي التي قربت منذ سنين.. وأنا أعيش على فتات أخبار تطمئننى على حبيبي، وفتات لقاءات سريعة مع حبيبي، وفتات أحلام وأدوفا قبل أن تولد.. وأنا أعيش فتات حياة!! أكملت الثلاثين من عمري ولم أفعل شيئاً، أعيش هزائمي وأتابع هزائم الأصدقاء، فما هو سعيد يموت قبل أن تشرق أيامه، وهذا هو مؤمن يزهد وراءه قبل أن ينعم ولو قليلاً بانتقامه من الحرمان الذي عاشه منذ نعومة أظفاره، وما هي أحلام تكفر بكل شيء وتنتهي زواجها وتترك ابنتها، لتعيش حياة بلا ملاح واضحة تنتهيها برحلة للتطهر، وما هو أحمد فاذا بعد طريق طويل من الانهماك يخلف كل شيء وراءه ويهاجر.. وهأنذا أحياء على مخلفات الزمن!

سہام زہران

من أنا؟! هذا السؤال الذي لم أعرف له إجابة قط.. وسط كل التعريفات التي لاحقتني منذ الطفولة.. هل أنا سهام زهران أو سهام فؤاد؟!.. هل أنا مصرية أو فلسطينية؟!.. هل أرض مصر هي حدودي؟! أو أنني أنتمي إلى هؤلاء المشتتين في بقاع الأرض ومحاصرون بالقتل والاعتقال والنفي في الضفة وغزة؟!.. هل لهجتي هي المصرية أو الفلسطينية التي لا أكاد أفهمها ويسقط من مفرداتها الكثير قبل أن يبلغ حدود وعيي؟!!

من أنا؟! هل أنا سهام الحية أو سهام الميتة؟!!

ربما أكون في المستشفى الآن.. لا أدري! لكن أصواتاً بعيدة جداً تصل إلى أذني وكأنها قادمة من وادٍ سحيق، تؤكد أن حالتي خطيرة وأ أنني فقدت جنيني.. يا إلهي فقدت جنيني؟! كم كنت سعيدة بهذا الحمل، لأن طفلي سوف يسجل في شهادة ميلاده هذه المرة من أب وأم مصريين، بعدما سجلوا ابني الأول من أب مصري وأم فلسطينية.. أم فلسطينية؟! لطالما حاولت جاهدة أن أعيش كفلسطينية لكنني لم أستطع، كنت دائماً أتعاطف مع قضية فلسطين كمصرية، لم يأخذني يوماً الشعور بالشتات ولا التهديد بالقتل والتشريد كأبي فلسطيني على وجه الأرض.. نعم كانت أُمي تعاني كل عام مع بداية الدراسة كي تدفع مصاريفي كأجنبية للمدارس والجامعة، لكنني كنت مع زملائي منذ الطفولة مصرية، أتحدث وألعب وأمرح وأحلم كمصرية، أستقبل أخبار فلسطين بحزن مصري ورغبة أكيدة في الوقوف معهم، لكنني لم ينتبني الإحساس مرة بأنني أحلم بالعودة إلى أرضي، فأرضي دائماً كانت مصر بكل ربوعها، أنتمي إلى النيل وهذه الأرض السمراء المزدهمة

بأهلها، أثار ضد الغلاء، وأتألم لرؤية أطفال الشوارع المشردين، وأكتب بقلمى عن طموحاتنا المهيضة وخيرنا المنهوب.. أحببت بزهو أن أكون ابنة الفراعنة العظام، وذاكرت بحماس ثورة عرابي وسعد زغلول وكفاحنا ضد الإنجليز، عشقت عبد الناصر كأى مصري فخور بأن أرضه أنجبت هذا الزعيم العربي، وأحببت حرب أكتوبر لأنها طهرت سيناء من اليهود، وصفقت مع أمى وإخوتي يوم رفع العلم المصري على آخر أرض مصرية محتلة.. أنا مصرية ولا أدري لماذا أصر الجميع على كونى فلسطينية؟! لا أتكرر لفلسطين، لكنى لم أشعر يوماً أنها وطنى.

عندما تزوجت على كنت فرحة لأننى أخيراً سوف أتمكن من الحصول على الجنسية المصرية، أخذت أعد الأيام، وكلما أسقطت ورقة من نتيجة الحائط أبتمس لأن الأيام تقربنى من الهدف، ونسيت عدم قبول جريدة الجماهير تعيينى لأننى لست مصرية، وقللت من شأن انتظاري عاماً كاملاً حتى أتمكن من جمع الدولارات، التى تطلبها الجامعة لتمنحني شهادة تخرجي في كلية الإعلام، فقط لأنى لا أحمل تلك الوثيقة التى تقر بمصريتي، كنت أنتظر عبور السنين الخمس لأمسك بيدي ورقة تقر بحقي في هذه الأرض، التى ولدت عليها من أم مصرية ولم أبتعد خارج حدودها يوماً.

عشت عمري كله بجسد يتأرجح في الفراغ، أقاوم إيقاع الحياة الضاري الذى يزعق في وجهي: (أنت لست مصرية)، فأصمت وأحلم وأنتظر اليوم الذى أتمكن من الرد عليه بنفس نبرة الصوت القوية: (لا.. أنا مصرية ولست غير ذلك).

ثلاثون عاماً هي عمري، لم أعش فيها سوى أشهر قليلة كمصرية رسمياً، وأعمل في الجريدة كمحررة حقيقية ولست تحت التمرين، وكأن المران ليس له نهاية، لكن يبدو أنى لن أشهد أياماً أخرى بهذه الصفة.. فساعات حياتي الآن تتنفس بصعوبة، وأشعر بالريح

تتساب بين فخذي آخذه روعي، حيث لا طفل يؤنس وحشة رحمي، ولا أنفاس تتساب بين جوانحي .. في الحقيقة أنا لا أدري إن كنت مت فعلاً أم في طريقي إلى الموت؟! ففي أحشائي يسكن الصمت ولا أرى وهجاً لضوء شمس ينير غداً، فقط عمر عبر بي في هذا الزمان يتدافع بكل لحظاته على عقلي، ولا أستطيع حتى رفع صوتي بالاستغاثة أو طلب يد تنتشلني من هذا الفراغ.

أنا أموت أو مت .. النتيجة واحدة! أنا لن أكون إلى جوار ابني وزوجي بعد تلك اللحظة، أنا ذاهبة وإن كنت لا أريد الذهاب، فالموت ينيخ على صدري بثقله المهيّب، ويمحو الحلم من عيني المحققتين، ولا يترك لي سوى رؤى شبحية بدماعي المخدر.. علي أن أطلق إيسار نفسي وأرحل بهدوء.. فلا جدوى من المقاومة، فأنا من قاومت كل صروف الحياة التي انتظرت على باب رحم أمي لتتلقاني بابتسامة عريضة وهدوء، أشعر أنه لا حيلة لي في مقاومة الموت.. على الأقل سأتوقف عن الابتسام الذي زان شفتي طوال حياتي في استقبال الأفراح والأتراح، ولأعبس اليوم قليلاً في وجه الموت، فعلى الأقل عليه أن يعي أنه جاء مبكراً جداً!

عندما كنت أصحب أختي الصغيرة أمل، وأنا أقبض على الخمسة القروش التي أعطتني إياها أُمي لنشتري الحلوى من عم أبو محمود، صاحب البقالة التي تحتل الدور الأرضي لبنايتنا، فنندرج كلعبتين على السلام، بينما أجتهد في حفظ توازن أختي التي لم تتجاوز الثالثة بعد، والتي تبذل جهداً مضنياً للوصول بساقها القصيرة إلى الدرجة السفلية، كان صوت الحاجة زينب - جارتنا العجوز التي زوجت أبناءها جميعاً لتخلو عليها دارها، لتتخذ من كوة الباب منفذاً لها على العالم حتى لا تضيق في متاهات الوحدة - يخرج عالياً متعرجاً (رايحين فين يا بنات فؤاد؟!)، فأنظر إلى أعلى حتى أصل بنظري إلى فتحة الكوة وأرى وجهها المتغضن في طيبة وأقول: (رايحين نشترى حلاوة يا حاجة زينب)، (طيب ما ترحوش كده ولا كده لأمكم تقلق عليكم)، (حاضر).

بنات فؤاد! هكذا كنت أعلم.. فأبي هو فؤاد، فمن أين أتى زهران هذا الذي نادوني به في أول يوم لي بالمدرسة الابتدائية؟!

عندما بلغت السادسة من عمري دببت في بيتنا حركة غريبة، جديدة ومنعشة وممتلئة بالغبطة، أبي وأُمي زادا من جرعة الحب والمداعبة، فهما يحتفلان بأول ابنة لهما تذهب إلى المدرسة، شعرت بأنني مميزة عن شقيقي التي تصغرني بثلاثة أعوام وشقيقي الذي يصغرني بأربعة، أنا الكبيرة وأنا التي ستذهب أولاً إلى المدرسة، سأعرف كيف أقرأ الجرائد مثل أبي كل صباح، وأخط أشكالا ملتوية على نفسها مثل أُمي التي تصحح كراسات تلاميذها كل مساء.. سأدخل عالم الكبار الذين يعرفون كثيراً ويفعلون أشياء غير مسموح لي

بها، وبالتأكيد ستطول قامتي مثلهم وأستطيع تقبيل بابا فؤاد دون أن
ينحني أو يرفعني بين ذراعيه!

نمت وفي حضني يرقد حذائي الملمع وجوري الشديد البياض
وحقيبتتي الجلدية السوداء الصغيرة، بعدما أفنعتني أُمي بعد مشقة بأُنني
(سأكرمش) مريّلتني إذا ما احتضنتها هي الأُخرى!.. وفي الصباح
صحوت لأول مرة دون أن تتاديني أُمي كي أَسْتَيْقِظ، بل ذهبت إليها
في فراشها وهزّزتها بكفي الصغيرة: (ماما ياللا عشان أروح المدرسة)،
استيقظت أُمي ولاح في عينيها قليل من الاضطراب، واستيقظ أُمي
بدوره يشوب نظره إلى قلق، لم أَسْأَل كثيراً عما اعتراهما فجأة بعد
الفرح الذي كان يكلهما أينما حاما حولي خلال الأيام الماضية، ونحن
نشترى مستلزمات المدرسة، وفي صالة منزلنا وأنا أَتَقَافِز بين أخوي
اللذين استيقظا ليشاركاني في لحظاتي المدرسية الأولى، تردد على
مسامعي كلام منقطع ينساب من المطبخ، فقد كانت أُمي تقول لأُمي:
(لازم نقولها بدل ما تتفاجئ في المدرسة)، فيرد بصوت كسير لم أعْهده
في أُمي قط: (قوليلها إنتي إن قدرتي.. أما أنا فعارف كويس إنني مش
هاقدر).

لم يأت أُمي معي وأُمي إلى المدرسة، وعندما سأَلته حزينه عن
السبب قال لي والدموع تملأ عيني: (هاتأخر على ميعاد الشغل)، ثم
صمت قليلاً دون أن يسرحني من بين ذراعيه ونظر ملياً إلى عيني
وقال: (سهام أنا بابا مش كده؟!)، (طبعاً إنت بابا!)، (إوعي تنسي ده
أبداً مهما حصل).. أفلتتني سريعاً ومضى بخطوات مكروبة نحو غرفة
نومه، ولم يخرج منها حتى انتهت أُمي من إعدادي للذهاب.. ونحن
ندلف إلى الخارج نظرت خلفي نحو حجرته، وشعرت بأن هناك شيئاً
غريباً سوف يحدث لي.

وقفت ممسكة يد أمي بقوة في ذلك الفناء الواسع، الذي احتشد فيه عدد كبير من الأطفال الذين تتفاوت أطوال قاماتهم، وبعد أن انصرف الأطول مني ومن مجموعة كبيرة أخرى تجاوزني، يتشبث كل واحد بيد أمه أو طرف ثوبها مثلي، خرج رجل وأمسك بميكروفون ويده الأخرى دفتر، ثم انطلق في مناداة أسماء غريبة ويقول (أولى أول)، وكلما يتفوه باسم تتسحب أم طفل وتتجه إلى باب مبنى كبير، فسألت أمي: إلى أين يذهبون؟! ردت بابتسامة واهنة: (للفصل.. ولما ينادي اسمك هنروح زيهم).. أصخت سمعي لنداء الرجل حتى ألنقط اسمي، وبرغم أنني لم أسمعته فوجئت بأمي تقول: (ياللا يا سهام!) هو لم يناد اسمي، نعم قال سهام، ولكن سهام أخرى أبوها اسمه زهران وأنا أبي اسمه فؤاد!.. عندما ثبت قدمي بعناد على الأرض معلنة احتجاجي على أمي التي تصر على أنني سهام زهران، أخذتني بين ذراعيها وقالت والدموع تغرق مقلتيها: (ما انتي يا حبيبتي اسمك سهام زهران.. والدك اسمه زهران)، (انتي مش عارفة إسم بابا؟!.. بابا إسمه فؤاد)، (بابا فؤاد هو أبوكي اللي رباكي، ولكن أبوكي اللي خلفك إسمه زهران)!

كيف استطاعت أن تقول لي هذه الحقيقة بتلك الكلمات اليسيرة؟!.. أبي الذي رباني وأبي الذي أنجبني؟!.. أليس الأب الذي ينبج هو الذي يربي؟!.. أبي هو فؤاد وإن لم يكن كذلك فأين هو زهران هذا؟!.. بكيت وألصقت قدمي في الأرض، وأنا أتهم أمي بالكذب وأطالبها بأن تذهب إلى هذا الرجل لتجعله ينادي اسمي الحقيقي.. سهام فؤاد.. سهام فؤاد.. انقلبت المدرسة رأساً على عقب، والتف حولي عدد من أولئك الرجال والنساء الطوال يحاولون تهدئتي وإغرائني بشراء الحلوى حتى أصمت، لكنني لم أفعل وقررت ألا أتحرك قبل إعلان الحقيقة!

لم يصلح معي أي من المحاولات، ولم يجدوا أمامهم سوى رفعي من فوق الأرض بالقوة، مستسلمين لركلاتي وسبابي وبصقي في وجوههم.. ذهبوا بي إلى حجرة عرفت بعد ذلك أنها حجرة الناظر، وانصرف الجميع بعد أن أغلقوا علي وأمي الباب.. جاهدت المسكينة كي أهدأ لتسرد علي تفاصيل حقيقتي!.. حقيقتي التي لم أستسغها يوماً، ولن أستسغها حتى في قبري!

بعد قليل جاء الناظر وطلب من أمي أن تخبره ما الأمر، كنت قد تعبت من الصراخ، وحزنت على مريّتي التي اتسخت، وحذائي اللذين غبرهما تراب الفناء، وجوريي اللذين فقدوا بهاءهما من كثرة تمرغي على الأرض، في مقاومة الأذرع التي حاولت رفعي عنها.. أنصت لأمي رغماً عني وبرغم رفضي لكل ما قالت.

في كلية الآداب تعرفت أمي بزهران سميح البناء، الذي أتى من غزة بمنحة من الحكومة المصرية ليدرس في جامعة القاهرة، بعد عام واحد وقعت النكسة ولم يستطع العودة إلى أهله، فمكث في القاهرة حتى أنهى دراسته وتزوج أمي، لكنه لم يستطع أبداً أن يتفاهم مع انتكاس العرب وعزله عن أهله وأرضه. وبعد أن حملت أمي بي خرج ولم يعد إلى البيت، وتسلمت أمي ورقة تعلن طلاقها!.. جاء فؤاد صديقهما في الجامعة، وأكد لها أنه يحبها منذ زمن لكنه صمت أمام حبها لزهران، ولكن بعد أن اختفى لم يستطع أن يتركها في كriebها، وقرر أن يعلن ذلك الحب الصامت.. أنا لست مصرية بل فلسطينية، برغم أنني يومها لم أع ماذا تعني مصرية أو فلسطينية، لكنني عرفت جيداً أنني مختلفة، فأبي ليس أبي وبيتي لا يقع في شارع داخل حدودي المفترضة.

صمت.. ومن يومها والصمت يكللني أينما رحلت أو جئت، يصفونني بالعاقلة والرزينة فأصمت.. ورسمت على شفتي ابتسامة لا تغادرني أبداً، فأحبني الجميع لابتسامي الدائم.. لم يعلم أحد أبداً أنني

لم أجد أي سلاح للمقاومة، فصمت وابتسمت وأخمدت براكيني، حيث
لا مدى أمامي يمكنني قذف حممي إليه!

عشت فلسطينية في بيت كله مصريون، لا أعرف ما الذي علي فعله لأكون كما أرادوا.. كل يوم يمر علي تتكشف لي حقيقة أن أكون فلسطينية، أشاهد أخبار بني جلدتي في نشرة التاسعة على القناة الأولى التي أدمنتها، أرى وأعرف ما يحدث على أرضي التي سلبها اليهود من أبي وجدي، وسلبني أبي تعلم الشعور بها حتى ولو عن بعد، وعلمت أن هناك لهجة مختلفة يحكيها الفلسطينيون ولا يعرف لساني الطريق إليها.. أنصت بكل سمعي لأي مسئول فلسطيني يظهر على شاشة التلفزيون، أحاول التقاط كلمة أو اثنتين، لأسرع بعد ذلك إلى حجرتي وأقف أمام المرأة أحاول أن أكون جملة من الكلمات التي خزنتها في ذاكرتي.. أحاول.. أحاول.. لكنها لا تخرج إلا مصرية، أعطش الجيم نعم، لكن أهل الصعيد يعطشون الجيم أيضاً! فأضحك بمرارة وأعود إلى عبادة صمتي التي دثرت نفسي بها جيداً.

كان عمري عشرة أعوام عندما وقعت مجزرة صبرا وشاتيلا، حاولت أُمي أن تبعدني عن شاشة التلفزيون يومها، برغم أن نشرة المساء غلبت الكلام على الصور، لكن اللقطات السريعة التي بثتها كانت كافية لأعلم مدى قسوة أن أكون فلسطينية، كافية لأعلم أنني منذورة للموت بقسوة.. عشت أياماً أخاف من كل شيء، أخاف من وضع فيشة الكهرباء في كبس النور، أخاف أن أشعل البوتوجاز وأنا أساعد أُمي في المطبخ، أخاف من المرور عبر الطريق.. أخاف من الموت.. ظلمت على هذه الحال حتى شعرت أُمي بأن هناك أمراً أَلَم بي، خلت بي في حجرتها وسألتني عنه.. (أنا فلسطينية)، تنهدت أُمي بحزن عميق ثم قالت: (وايه يعني لما تكوني فلسطينية؟!)، (كل فلسطيني لازم يموت!)، (مين قال كده؟! في فلسطينيين كثير في الدنيا

وماماتوش إلا وهم كبار في السن)، نظرت إليها باستنكار وقلت: (إزاي؟! إنتي ماشفتهمش وهم مدبوحين ومرميين في الشوارع؟!)، ويبدو أن أمي لم تدر ماذا تقول، لكنها احتضنتني بين ذراعيها وقالت: (حتى لو كان الموضوع زي ما بقولي، إنتي عايشة في مصر .. وبعدين إنتي فلسطينية في الورق الرسمي بس، إنتي مصرية يا حبيبتي لأنك بنتي أنا.. وأنا أمك مامتش ومش هاموت قبل ما أشيل ولادك ولادك ولادك كمان).

استرحت قليلاً مما قالته أمي، لكنني لم أستطع أن أطرد الصوت الذي يتردد في داخلي بخفوت واهن: (إن كنت ابنة أمك المصرية، فأنت ابنة أبيك الفلسطيني أيضاً، وأبوك مات بالتأكيد.. مات بدليل أنه لم يسأل عنك حتى الآن). تمضي أيامي وأنا لا أعلم ماذا أريد، وإن أردت شيئاً لا أعلم كيف أنفذه.. كان أبي فؤاد يلفت نظري دائماً إلى أن أسلوبني في الكتابة جزل ومعبر، خصوصاً في موضوعات الإنشاء ويقول لي: (إنني لازم تكوني صحفية أو أدبية في يوم من الأيام)، فأسأله كيف؟ فيجيب: (بالمذاكرة والقراءة الكثير، ولما تكبري وتخلصي الثانوية العامة تدخلني كلية إعلام وبعدين تشتغلي صحفية)، (وهاعمل إيه لما أكون صحفية؟!)، (تكتبي عن هموم الناس ومشاكلها وتكافحي الظلم في كل مكان)، (ممكن أكتب عن الظلم اللي في بلدي فلسطين؟!)، فتلمع في عينيه سحابة ماء، ويقول مدافعاً عن أبوته الكسيرة لي: (الإنسان مش محتاج يكون فلسطيني عشان يكتب أو يدافع عن قضية فلسطين، فلسطين دي قضية العرب كلهم).

تطاردني فلسطين في كل مكان، تتنازع مع الشارع الذي أسكنه والناس الذين يحيطون بي في البيت والمدرسة، تنقل على صدري كل يوم وأنا أنقلب في فراشي محاولة نفضها.. لا أعلم لها معنى محدداً، لا أعلم لها شكلاً.. لا أعلم سوى ما ترده نشره المساء وتخطه الصحف

التي يقرأها أبي كل صباح. حتى عندما درست تاريخها في الثانوية العامة، وحفظت عن ظهر قلب تاريخ وعد بلفور والكتب السوداء الكثيرة التي أطلقوها، واندحار العرب في حرب ثمانية وأربعين، ومشروعات التقسيم.. لم تلم بي مشاعر مغايرة عن زميلاتي في الفصل.. كلهن منفعلات وكلهن حزينات على ضياعها، وكلهن يحلمن بتحريرها.. ماذا تبقى لي إذن؟! تبقى لي اسم أبي الذي يعقب اسمي وخانة الهوية في شهادة ميلادي؟!.. وأبتسم بهدوء فيعشقني المدرسون والمدرسات ويلقبونني بالعاقلة الرزينة، لكنهم لم يفكروا يوماً في سؤالي، ولم يجشمو أنفسهم عناء الإجابة.. من أنا؟!

كنت أعلم أن طرح سؤالي في المنزل سيصيب الجميع بالبلبله والاضطراب، فكتمته في داخلي، وعشت مصرية ناقصة الأهلية بين أمي وأبي الذي يربيني وأختي وأخي المصريين، أشهد قلق أمي وأبي كل عام وهما يدوران حول نفسيهما في محاولة جمع الدولارات لدفع مصاريف مدرستي، وكثيراً ما تأخرت عن الالتحاق بالصف منذ أول يوم في الدراسة، لأن أبي وأمي لم يتمكننا بعد من تدبير المبلغ الكبير.. أصمت وأبتسم.. فلن يجيب أحد سؤالي، ولن ينصت لي أحد إذا ما حاولت التدخل لتهدئة روعهم، وهم يرونني قابضة في المنزل وحدي في انتظار فتح أبواب المدرسة، بينما ينفضون كل يوم من حولي كل إلى عمله أو إلى صفه الدراسي، وبمجرد أن يبتلع درج مدير الحسابات بالمدرسة نقود كفالتني، ينفك أسري وأسرهم جميعاً معي من أصفاد وصف هويتي، المخطوط بحبر رديء وخط متعرج في شهادة ميلادي!

أخفيتُها داخلي عن كل العيون وتركتها تعذبني وحدي، فهذا قدر الفلسطينيين.. أليس ذلك ما تقرأه شاشات التلفزيون والأصوات المنبعثة من الراديو وأخبار الصحف؟! نسي الجميع الأمر حتى في المدرسة، فما كان يهمهم هو النقود.. وبقيت أواجه ذاكرتي وحيدة،

ذاكرة لا تعي شيئاً سوى أنني مصرية ناقصة وفلسطينية أكثر نقصاً!
وتركت وحدي أتسكع عبر أيامي الكئيبة، أوطر وجهي بابتسامة، وأتدثر
بلحاف الصمت الرصين!

تمكنت بعد الثانوية العامة من الالتحاق بكلية الإعلام، ضموا
اسمي وأوراقى الثبوتية إلى ملف الطلاب العرب والأجانب، وازدردت
خزانتهم دولارات أبي وأمي المسكينين. وككل عام لم ألتحق بالدراسة من
اليوم الأول، وإنما بعد مرور شهرين، لكنني كنت مغتربة أواجه عالمي
الآخذ في التبدل نحو شيء جديد تماماً، براقاً وإن كانت ملامحه لم
تتحدد بعد، ولأول مرة أبتسم بصدق وأخرج من دثار صمتي الذي أثقله
الزمان، فأزичه قليلاً لأخرج رأسي على الأقل، وأنظر إلى عيون مشبعة
بالحلم والزهو بالالتحاق بواحدة من أفضل الكليات، والتي لا يدخلها إلا
المتفوقون فقط. بدأت أشعر بهوية جديدة، هوية التميز عن آلاف
الطلاب الذين يدخلون معي كل صباح من باب الجامعة، فأنا فتاة لا
يشبهني إلا قليلون.. قليلون فقط تفوقوا ودخلوا تلك الكلية المشعة
بالنجومية. وقررت أن أخفي تماماً أمر هويتي الممزقة، ويرغم أن الكلية
كانت تحتوي على طلبة من جميع الأقطار العربية منها فلسطين، إلا
أنني آثرت الختم على الحقيقة.. كان ذلك هو الطريق الأسلم، خاصة
بعد أن قادتني المصادفة إلى التعرف بفتاة فلسطينية بالسنة الثالثة،
كانت فلسطينية حقيقية، شعرت أمامها بالخجل من إفشاء سري، فأنا لا
أشبهها في شيء، ولم أعثر في داخلي على توقد وحماس للقضية مثل
الذي رأيته في عينيها حتى دون أن تتكلم.

أجلس في الصف الأول من مدرج قاعة المحاضرات، أنصت
وأسجل كل كلمة يتفوه بها الأساتذة، كنت أعرف جيداً أن امتياز
الجلوس في الصفوف الأولى أمر يتطلب مجهوداً كبيراً، لكن في
الجامعة اختلف الأمر، فالطلاب يؤثرون الجلوس في الصفوف الخلفية،

بينما تجلس فئة قليلة معي في الأمام، وفوجئت بأن لقبنا هو (المناشير) أو (الأمواس)! فحن فقط من نسجل في دفاترنا ما يقال في المحاضرات، لنعود إلى المنازل فنبوضه في دفاتر نظيفة منمقة، ليأتي إلينا بعد ذلك القابعون في الخلف ليأخذوا تلك الدفاتر النظيفة، ويقوموا بتصويرها في المكتبات المترصة أمام سور الحرم الجامعي. ظللت في العام الدراسي الأول أختلس النظر إلى الخلف، وأتخيل انضمامي إلى هؤلاء الخلفيين، لكنني لم أجروء على الانضمام إليهم، فلقد كانوا منقسمين على فئات لم أستطع تصور نفسي منضمة إلى واحدة منها.. فئة الشباب (الروش) الذي يخلق النكات ويتبادل (الإفبهات) ويضحك كل من الآخر، وفئة الإسلاميين الذين لا يضيعون وقتهم في كتابة المحاضرات، لكنهم ينصتون جيداً لكل كلمة تقال ليرفعوا أيديهم بين الحين والآخر، ومن ثم يدخلون في جدال محتدم مع الدكتور ومع الفئة الثالثة حول شرعية كل كلمة تقال إسلامياً، أما الفئة الثالثة وهي فئة الناصريين ويندرج معهم الشيوعيون، فقد كانوا يتسمون بالصمت والنظرات الثاقبة، ولا يتدخلون في نقاش إلا ليحسموه.

كانت هناك فئة أخرى تنقسم على قسمين، وهي فئة الفتيات اللاتي لا يعنيهن من أمر الكلية برمتها شيء، تتوزع تلك الفئة على فتيات المدينة الجامعية القادمات من الريف، والفتيات المنتميات إلى طبقة الأغنياء، واللاتي تسبقهن عطورهن أينما حللن، بينما يقدمن عرضاً مبهرًا للأزياء يتجدد كل يوم! أما أنا فكنت أنتمي إلى فئة الأمواس، والتي تجمع تحت عبايتها ممثلاً لكل ما سبق، لذا كنت أحلم بالعودة إلى وراء لأضع حداً لهويتي على الأقل في الكلية، لكنني كنت تائهة لا أعلم إلى أيهم أنتمي.

مر العام الأول في هدوء شديد اقتصر أمري فيه على المذاكرة والمشاهدة، لم أخرج بصديقة أو صديق حقيقي، وإن كنت أمضيت أيام

العام كلها مع فرقة المناشير، لكن المناشير لا يعرفون سوى مضغ الأوراق الدراسية وبصق كل ما يعلق معها بين الأسنان بسهولة! فبمجرد انتهاء الامتحانات اختفى الجميع، لأمضي الإجازة بين أخوي وصديقات المدرسة الثانوية، اللاتي عدن إلى الظهور مع اشتداد موجة الحر الصيفية.

ظلت أحلم بالعودة إلى أروقة الكلية وأرسم لنفسي مستقبلاً مختلفاً فيها، فمرة أنتمي إلى فئة الشباب الروش وأخرى للإسلاميين وأخيراً مع الناصريين، لأعاود المرور عليهم برمتهم من جديد، إلى أن دق ناقوس العودة وأنا لم أحسم أمري بعد!

بمجرد أن وطئت قدماي عتبات الكلية حتى تلقفتي الأمواس من فورها، فأصابني الإحساس بالإحباط والرغبة في الانسحاب، لكنني عندما أدت وجهي حولي لم أجد من أعرفه بشكل حميم حتى أذهب إليه، إلى أن أطلت كل من أحلام السيد ومنى حاكم بوجهيهما الميشرين، ووفقاً مرحبتين بي وبفتيات فرقة الأمواس، وبعد السلامة والتبريكات على نجاحنا المذهل، فاجأتني منى حاكم بقولها: (ما كنتش أتخيل أبداً يا سهام إنك فلسطينية!).. انقض سؤالها صاعقاً على رأسي، وشعرت بأطرافي تبرد وتتعرق في آن واحد، بينما ضاقت مسام جلدي وانتفضت، ونظرت إليها بعينين زائغتين غارقة في لجة صمتي، لتعود بسمتي الرزينة على شفتي دون أن تنبسا بكلمة واحدة.

منى: (يا حبيبتي يا سهام.. ضحكك جميلة جداً، أنا من السنة اللي فانت وأنا نفسي نبقي أصحاب).

أحلام: (الحقيقة أنا كمان، بس للأسف السنة اللي فانت ما كنتش متوفرة في الكلية كثير!).

تنظر إليها منى بعتاب وتقول: (الحمد لله ربنا تاب عليك!).

أحلام مشاغبة: (ليه يا بنتي هو انا كنت في السجن؟!).

تضحكان بينما أنا منحشرة في ثلاثتي أتجمد رعباً من أن تنتشرا الخبر، وفي نفس الوقت أتحرق لمعرفة كيف وصلت إليهما تلك المعلومة، لكنهما وفرتا علي الكثير، فقد سألتني منى عن سبب تحدثي باللهجة المصرية، في حين خمنت أحلام أنني مؤكدة عشت كثيراً في مصر، ولم أجد بداً من أن أصحح لهما المعلومة، وفي نفس الوقت أصل إلى مبتغاي، (الحقيقة أنا أمني مصرية وكمان اتولدت واتربيت في مصر).. أزيد من حيز ابتسامتي على شفتي ثم أسأل: (لكن إزاي عرفتو؟!).

أحلام مبتسمة : (تامر سوسو قال لنا!).

تلكزها منى بينما تعلو ابتسامة حيية شفتيها وتقول: (قصدها تامر زكي، بس هي أحلام مسمياه سوسو عشان يعني مش ناشف زي الرجالة!).

(وهو عرف منين?!).

أحلام: (ما هو كمان فلسطيني من أم مصرية وعاش عمره كله في مصر، وهو بيدفع المصاريف بتاعة الكلية شاف اسمك في خانة الطلاب العرب وجنبه الجنسية فلسطينية، فقال لأصحابه وبعدين إحنا عرفنا).

تساقطت مفردات جملة أحلام كرصاصات على أذني، أفرغت كل محتوي من الحماسة التي جئت بها صباحاً لأبدأ عاماً دراسياً مختلفاً، وأيقنت أن الاختلاف الذي نشدته سيتحقق ولكن بشكل آخر تماماً.. فلقد كان الفلسطينيون في الكلية مطالبين دائماً بتحديد موقفهم من القضية، فعلياً أن نعيش كل لحظات حياتنا في حالة جهاد.. ها ها جهاد؟! جهاد طلابي عقيم!.. مناقشات ثم مناقشات ثم مناقشات،

ليعودوا ليتناقشوا من جديد!.. أحياناً يكسرون ملل النقاش بعرض فيلم عن الانتفاضة المباركة.. نعم مباركة! هكذا كانت الجماعات الإسلامية تلقبها، وأحياناً يقومون بمظاهرة تعقب حدثاً ما في الأرض المحتلة، وما أكثر الأحداث هناك ليتظاهر الجميع.. ثم يعودون إلى النقاش والجدل، ثم النقاش والجدل!

لو كان الأمر نقاشاً وجدلاً ومشاهدة أفلام وتظاهراً فقط لهان الأمر، حيث على الفلسطيني وكل من يتحمس للقضية أن يحدد الراية التي يهتف من أسفلها.. فلسطين إسلامية أم وبكل بساطة فلسطين عربية؟!.. لم أكن أشعر بالانتماء إلى كل هذه التثرات، فأنا لا يهمني أن تكون فلسطين حرة وإسلامية أو حرة وعربية، كل ما كان يهمني أن تكون حرة وكفى! وأنى لكل هؤلاء بكل نقاشهم ومظاهراتهم وفضحهم وحشية الإسرائيليين - كما يقولون - بعرض أفلام للاغتيالات والتدمير والاعتقالات، أن يحولوا فلسطين إلى حرة؟! لم أحب يوماً أن أدخل إلى هذا العالم لأسباب كثيرة، أهمها أنهم سيدخلونني إياه من باب الفلسطينية المشردة والممزقة، وأنا لم يشردني أحد يوماً أو أشعر بأي تهديد في حياتي، كما أنني لم أشعر بالغرابة منذ أن ولدت في مصر، تتنازع مصريتي فلسطينيتي وتتصر عليهما دوماً، ولا أدري مع نزاعهما الدائم والدائب، منذ أن علمت حقيقتي غير الحقيقية في أول يوم لي بالمدرسة الابتدائية، من أنا؟!

كان الأمر أكبر بكثير من مجرد التسليم بأني فلسطينية، ولم أكن أدري كيف أشرح الأمر لأحلام ومنى عندما سألتاني: (ليه ما قولتيش إنك فلسطينية يا سهام؟!)، كان الصمت جوابي، وكان الذهول وربما الاستكار رد فعلهما، خاصة أنهما من المتحمسات والمالثات فضاء الجامعة ضمن جموع الطلاب بالهتافات لكل القضايا، مرة فلسطين ومرة العراق ومرة البوسنة والهرسك.. أتذكر جيداً في عامنا

الأول في الكلية عندما ملأ الطلاب ساحة الجامعة، رافضين دخول الجيش الأمريكي الأراضي العربية، وانضمام بعض الجيوش العربية إليه لإخراج العراق من الكويت، كانتا في أوائل الصفوف، بينما كنت أحاول ومعى البعض العثور على باب مفتوح من أبواب الجامعة للخروج والعودة إلى المنزل!.. كيف لي وأنا الفلسطينية رسمياً الاعتراف أمامهما بأنني لا أحب الانضمام إلى مظاهراتهم وتحرير فلسطين بالصراخ؟! بالطبع سوف يكون لقبى هذه المرة سهام توتو، لأنضم إلى قائمة تامر سوسو ومن هم على شاكلته!

كيف لي أن أقول إنني أحب فلسطين.. (والله أحبها وأحلم بيوم تحررها وعودتها لأهلها)، نعم أهلها المشتتون في بقاع الأرض، وأهلها المكتون بنار فقدتها في الداخل.. لكني لا أدري من أنا؟! هل أنا مصرية تحلم بعودة الأرض المقدسة، أو فلسطينية تحلم بالعودة؟ العودة إلى أين؟! وإن عدت كيف أحادث قومي بلهجتى المصرية؟! وإلى أي بيت سأعود وأبي غادرنى من قبل أن يعرف حتى أنني نطفة في رحم أمي؟! دائماً ما يردد أي فلسطيني على وجه الأرض، حتى وإن لم ير فلسطين يوماً: أنا من بيت فلان في قرية أو مدينة كذا، وأنا لا أدري سوى أن أبي أتى إلى القاهرة من غزة، لكن أمي لم تكن تعرف هل هو من غزة فعلاً، أو أن عائلته نزحت إلى غزة أثناء حرب ثمانية وأربعين، وإن كان من غزة فإلى أي مكان منها ينتمي؟ من أنا؟! سؤالى العتيد الذي لا إجابة له تحت سماء ربي، وأين أبي ليخبرني؟! سؤال آخر يحتاج عمراً إلى عمري في بحث مستميت حتى أصل إلى إجابته!

انصرفت كل من أحلام ومنى، وتركنا غارقة في سديم الإجابة العائمة بين أمواجي التي لم تهدأ منذ زمن طويل، زمن لم أكن أدرك حجمه، لأنني لم أعد يوماً بالساعات والأيام والشهور والسنين، كنت أعده بحجم كل لحظة تمر علي في شوارع القاهرة، التي لم أع

مدينة غيرها في حياتي، وبين عائلة يحملون جميعاً أوراق هوية مصرية
إلا أنا!

مر العامان الثاني والثالث بهدوء في الكلية، وإن كنت قد حوصرت بفلسطينيتي، فلم تتركني كل من منى وأحلام بعدما علمتا وعلمت الكلية بأسرها بحقيقة هويتي الرسمية، في كل مرة يقام احتفال من أجل فلسطين يطرقون بابي، فتنقلص بسمتي ويتصبب عرق بارد على وجهي الذي يشحب فجأة، فلا أترك لهما سوى أن تتسحبا في هدوء من أمامي، لكنهما لم تفقدا الأمل أبداً حتى وصلنا إلى العام الرابع في الكلية، وفي هذا العام قدمت أوصلو مبرراً قوياً للتظاهر باستمرار، فقد كان إعلان رفض معاهدة أوصلو، التي كانت تسلك طريقها في درب المحافل الدولية ونحن في بداية استهلالنا عامنا الدراسي، شغلهم الشاغل، كان من المفترض أن الاجتماعات بين الوفود الفلسطينية والوفود الإسرائيلية تحدث سراً، ولكن أجهزة الإعلام العالمية سربت الأخبار، وبدأت الجرائد العربية والأجنبية تتناول موضوع السلام مقابل الأرض، الذي تم طرحه لأول مرة على الساحة العربية، بعد أن رفضوه مراراً وتكراراً، وقاطعوا السادات ومصر كلها بعد معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، كانوا يقولون إن ما حدث بين الكويت والعراق، وتدخل القوى العالمية في حل هذه الأزمة، ساعداً كثيراً على طرح هذا المبدأ.. ما أجمل الشعار: (الأرض في مقابل السلام)! لكن الطلاب رفضوا المبدأ، وعجت الكلية بمظاهرات سلمية خفيفة ترفع شعار: (لا للسلام مع إسرائيل)، مطالبين بالجهاد لتحرير الأرض في فلسطين والجولان وجنوب لبنان، كما أنهم كانوا يعلنون رفضهم اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية، ويزعمون بكل عزمهم: (لا للتطبيع مع إسرائيل)! كنت بعيدة تماماً عن كل ذلك ولا أدري ما الذي يمكن أن أفعله.. هل علي أن أخرج لأصرخ مثلهم في ذلك الفضاء السماوي، الذي يبتلع

صراخهم ويبدده مع الريح ليندثر دون أن يصل إلى أي مكان أو يستقر في أي أذن، وإن وصل إلى آذان الآلاف من الرسميين والحكام لن يولوه أدنى اهتمام؟! أو كان علي كـفلسطينية بحكم الأوراق أن أبكي على أرضي السليبية، وأحمل سلاحاً لا أعرف شكله لأذهب إلى الحدود المصرية الفلسطينية وأدخل لأدافع عن وطني؟!.. هاهاهاها أدخل!.. أين أدخل؟! فأوراقي التي تعلن بوضوح أنني فلسطينية هي نفسها الأوراق التي ستمنعني بقوة من الدخول، بينما لو كنت أحمل أوراقاً مصرية لكنت تمكنت من أن أخطو بقدمي مسافة لا تزيد عن بضعة كيلومترات إلى بلدي.. الذي لا أعلم كيف يكون!

أصرت منى وأحلام على أن أشاركهما في مظاهراتهما ومحافلهما الطلابية، التي كانت مهددة باستمرار بتدخل أمن الجامعة لفضها، وكنت لا أدري بماذا أجيبهما.. أذكر أنني قلت لهما ذات مرة: (لماذا لا تنتظرون لتروا نتيجة أوصلو هذه؟.. من يدري ربما صلح الحال وعادت الضفة وغزة للفلسطينيين؟!).

أجابت أحلام والتي كان لها تاريخ حافل في الحركة السياسية الطلابية، وإن كانت لم تستقر على حال، فمرة مع الشيوعيين ومرة مع الإسلاميين ومرة مع نفسها! حيث أطلقت أسرة تحمل فكرها الخاص الذي لم أستطع فهمه يوماً، وأخيراً تقف في العراق بعد أن حلت إدارة الكلية أسرتها، وتعرضت إلى الرفت هي ومنى بسبب نشاطهما في تلك الأسرة.. (لا حول ولا قوة إلا بالله!.. يا سهام فلسطين ليست غزة والضفة فقط، فلسطين هي كل تلك الأرض التي سلبها اليهود منا.. فلسطين هي تلك التي استردها صلاح الدين مع الجيوش الإسلامية من الصليبيين في الماضي، وهي تلك فلسطين التي نعمل على عودتها لكل العرب.. يا سهام أنا أعلم أنك لست فتاة تافهة، أشعر بذلك في قرارة نفسي ولا أدري لماذا تتبعدين عنا؟! لماذا لا يكون لك دور في

قضية تهم كل عربي وبالأحرى تهمك أنت الفلسطينية؟!.. ربنا يعينك على اللي انتي فيه!).

مرة أخرى أنا الفلسطينية!.. أنا الفلسطينية التي تشك في هويتها ولا تدري من هي.. لم أستطع الانضمام إليهم، لم أكن أعرف كيف أنضم إليهم.. حتى لو سلمت بالثرثرة وفائدتها ماذا سأقول؟! أنا فلسطينية وأرجوكم حرروا بلدي حتى أعود إليها من أرض الشتات؟!.. هل مصر أرض شتاتي؟! هل أنا مشتتة في دفاء منزلي العامر بأنفاس أُمي الدافئة وحب أبي ورعايته لي وولع أخي وأختي بي؟!.. أرجوكم جاهدوا في سبيل تفريقي عن أُمي وأبي وأخوي؟!.. بماذا أثر؟! كما أنني كنت أنظر إلى تلك المعاهدة التي يخططون من أجلها على أنها بصيص من أمل قد يأتي بشيء.. الأرض في مقابل السلام. منذ عام ثمانية وأربعين والدماء تسيل في مقابل الأرض، والأرض شرهة تنتشد المزيد والمزيد من الدماء، تسقيها دماء الأطفال، والأمهات المبقورة بطونهن، والشيوخ الذين لا حول لهم ولا قوة، والشباب الذي لا يتجاوز مرحلة الشباب أبداً، واقفاً عند حدود طفولته الغضة وشبابه الريان أسفل الأرض، التي تأكل الأجداث وتشرب الدماء ولا يشبع نهما أبداً.

ربما أنت أوسلو بحل لقضيتي أنا، فمعها يمكن أن أذهب إلى غزة لأبحث عن أبي وأسأله عن هويتي المفقودة معه.. لكن أحلام لم تكن لتفهم حتى نظراتي الزائغة، فقط تنظر إلي بنفاد صبر وتمضي، بينما تقف منى بهدوئها وحلمها لتحضنني، وتقابل بسمتي المرتعشة بابتسامة مرتخية عذبة.. أسأله: (إنتم بتكرهوني يا منى؟!)، (أبداً إحنا بنحبك جداً.. ما تتزعجيش من أحلام.. أحلام شخص حماسي زيادة عن اللزوم، هي أيضاً مشنتة مش عارفة أنهي طريق تمشي فيه، انضمت للشيعيين في سنة أولى وبعدين للإسلاميين في سنة ثانية،

والسنة اللي فاتت زي ما انتي عارفة عملنا أسرتنا الخاصة ومارسنا فيها نشاط بعيد عن أي إطار أيّدولوجي سياسي.. وبرغم كده اتحاربنا وفشلنا، وطبعاً أحلام متغاظة وهتتجن لأنها مش بتقدر تقابل الأزمات بالصبر، دايماً مستعجلة ومش عارفة تعمل إيه ولا إيه!.. لكن هي في النهاية إنسان جميل، وهي بتحبك ونفسها إنك تحددتي موقفك وتقومي بعمل إيجابي، خصوصاً وإننا شايفين إنك مختلفة عن تامر، لأنك من عيلة متوسطة ومتقفة وجادة، لكن هو أبوه تاجر غني وعاش الحياة بشكل ذاتي بس، ولا يهمه لا فلسطين ولا مصر ولا أي شيء!.

لم أدر بماذا أجبها لكني قلت: (منى عندي سؤال مهم جداً في حياتي، لما ألقى الإجابة عليه هاحدد موقعي)، (وايه هو السؤال؟!)، (أنا مين؟!).

وضعت مني كفها على كتفي وربتت عليها بحنو، ثم أخذتني في حضنها وبكت.. نعم بكت! فوجدتني أبكي معها وأغوص في رائحتها التي نفذت إلى خلاياي، تلك الرائحة الرطبة التي تبلى حريق النفس فتخمد حممه بنعومة طاغية.

في اليوم العاشر من سبتمبر عام ١٩٩٣ قام الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي بتوقيع اعتراف متبادل بينهما، بحق إسرائيل في الوجود، وبأن منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني، وبعدها بثلاثة أيام تم إعلان المبادئ لتحقيق السلام، ووقعوه رسمياً في واشنطن، ونص على انسحاب تدريجي لإسرائيل من الضفة وغزة، وتشكيل سلطة فلسطينية منتخبة ذات صلاحيات محدودة، على أن يبحثوا القضايا العالقة، مثل المستوطنات واللاجئين وغيرها، في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات.

نعم كان الاتفاق مجحفاً للجانب الفلسطيني، ولكني فرحت..
فمع هذا الاتفاق يمكنني الذهاب إلى غزة لأسأل عن والدي. وبالفعل
سألت أمي على استحياء إن كانت هذه المعاهدة ستسمح لمن هم مثلي
بالدخول إلى أرض غزة؟ لم تكن لدى أمي إجابة محددة، لكنها قالت
والدموع تسيل على خديها: (طبعاً في احتمال كبير.. ولكن.. ولكن ليه
يا حبيبتي بتفكري في الموضوع ده؟!)، (ماما أنا نفسي ألاقى أبويا
الحقيقي)، (وايه اللي عمله فيكي أبوكي فؤاد عشان تدوري على
زهران؟!)، (ماما أنا باحب بابا فؤاد، لكن أنا عايزة أعرف أبويا اللي
خلفني.. عايزة أعرف عيلتي اللي بانتمي ليها.. على الأقل أشوف
الأرض اللي أنا شايفة هويتها).

بكت وحبست نفسها طوال اليوم في حجرة نومها، وتعرضت
إلى لوم أخي وأختي وتقريعهما على فعلتي الدنيئة! فكيف أهدد ماما
بأنني سوف أتركها؟! وكيف أرح بابا في أبوته التي لم تشبها شائبة
منذ ولدت؟!!

كان من الصعب أن يفهمني أحد، وكان من الصعب أن
أفهمهم أنني لا أجد كفاحهم المتواصل من أجلي منذ ولدت، خاصة
ذلك الماراثون السنوي العنيف الذي يدخله أبي وأمي لتدبير مصاريفي
المدرسية والآن مصاريفي الجامعية، التي فاقت بضراوة تلك التي كانت
تدفع في المدارس.. أنا لم أجد أحداً، لكني كنت أبحث عن نفسي
الضائعة بين هويتين، واحدة لا تعترف بي والثانية لا تعلم بوجودي
على الأرض من الأساس!

لم أعد أذكر كيف نسيت أمي أو تناسلت ما ذكرته لها عن
رغبتني في الذهاب إلى غزة للبحث عن أبي.. فقط عاد كل شيء إلى
طبيعته، وآثرت جبل شفتي على الابتسام وعيني على النظر الهادئ،
حتى لا تقوم عواصف أنا ومن حولي في غنى عنها. مرت الأيام وأنا

أسير وحدي كعادتي في دربي الخاوي المظلم، أشهد في صمت أسرتي تتعاطى الحياة في ظل مناخ رقيق مترع بالدفع، بينما أضغط بكل ثقل أصابعي على زناد عاطفتي حتى تتطلق فلا يصفني أحد بالجادة أو الباردة، وفي الكلية أواجه الحياة بشهوة منطفئة، وأنا مجبرة على التزام حدود الأمواس، حيث لا حدود أخرى يمكنني الانتقال إليها! بينما يتجول الجميع بعيون تفيض بالحلم، وتسبح في تيار المستقبل ببسمة تحنل الوجوه بإشراق، وكل فترة تقبل علي منى حاكم بأحاسيسها الغضة لتلمس روحي بكفها الندية الحنون، وتتبادل معي جملاً لا تصرح شيئاً أكثر من مجرد رغبتها في التواصل، تظهر معها من حين لآخر أحلام السيد بعينيها المثقلتين بالقلق، وخديها المتذبذبين بارتعاش الدوران في متاهات لم أعلم يوماً سببها، فقد ظلت علاقتي بأحلام، المتحولة بسرعة البرق من حال إلى حال، واقفة دائماً عند حدود الحب غير المبرر! لكني لا أنكر أنني كسبت بعض الشهرة بين زملائي من خلال علاقتي بأحلام ومنى، فقد كانتا من الشخصيات الشهيرة في الكلية والتي يجمع عليها الكل، وارتبطت بعلاقات غير عميقة مع الزملاء، لكن يؤطرها الابتسام وتبادل الجمل والحوارات الخفيفة خلال الدقائق التي تفصل محاضرة عن أخرى، وإن كنت لم أتمكن أبداً من التمتع بالأحاديث الصاخبة التي تغلف جلسات الطلاب على سلال المدرج الكبير، حتى وقعت مذبحه الخليل التي تمكنت من كتابة شهادة ميلاد حقيقية لي في الكلية، حتى وإن كنا في ذلك الوقت نقضي أيامنا الأخيرة بالجامعة، ونستعد للخروج إلى عالم العمل.

استيقظت صباح يوم ٢٥ فبراير عام ١٩٩٤ وأنا أستقبل يوماً عادياً جديداً من أيام شهر رمضان، صليت الصبح وقرأت قليلاً من القرآن، ثم ارتديت ملابس مسرعة لألحق بالمحاضرة الأولى، لكني لاحظت أن أبي مازال جالساً على أريكته الأثيرة، دافئاً رأسه في

الصحيفة المشرعة إلى آخرها بعرض ذراعيه وأمام عينيه الغارتين في السطور، سألته مداعبة: (إيه ده؟! إنت هتكسل بقى وتقول أنا صايم ومش قادر أنزل الشغل ولا إيه يا سي بابا؟!)، التفت إلي بعينين مغرقتين بالدمع وقال: (لا أبداً أنا قايم ألبس أهوه)، طوى الصحيفة وخلفها في إهمال على الأريكة، ثم نهض صامتاً دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلي مرة أخرى، شعرت بأن هناك أمراً غير عادي، فما الذي يمكنه أن يغرق عيني أبي بالدمع داخل تلك الصحيفة؟ جلست على الأريكة وسحبت الجريدة، وفي الحقيقة لم أبذل جهداً في البحث عن الأمر الجلل، فقد كان الحدث يتوج الصفحة الأولى بالبنط العريض.. (باروخ جولدشتاين).. واحد من مستوطني قرية كريات أربع في الخليل، يقتحم الحرم الإبراهيمي في أثناء صلاة الفجر، ويطلق النار عشوائياً على المصلين فيقتل تسعة وعشرين مصلياً ويجرح العشرات، من بين خمسمائة مصل، لم يدروا كيف يتحاشون الطلقات النارية الهوجاء، أو كيف يدافعون عن أنفسهم، أو كيف يتمكنون من الفرار، وقد أكد شهود العيان أن جنود الجيش الإسرائيلي كانوا يمدونه بالذخيرة ولم يتركوه وحده لحظة واحدة، إلى أن تمكن المصلون من الانقضاض عليه وقتله.

انسلت الجريدة من يدي مستقرة على الأرض، وتجددت تلك اللحظات التي مرت على المصلين وهم يستهلون منتصف رمضان بصلاة الفجر في جامع الحرم الإبراهيمي المقدس، يشرعون أبواب أعينهم على الحلم بالحرية، متوسمين قبول الله دعاءهم ليحصلوا على الخلاص، لكن الخلاص لا يأتي إلا في صورة الانتهاء! كانت تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها من داخلي بأنني فلسطينية، وأن هؤلاء الذين ذبحوا على سجادة الصلاة هم أهلي، بل انتابني يقين بأنه لا بد أنه كان هناك من بينهم واحد من أبناء عمومتي، وزاد اضطرابي

هاجس بأنني قد أكون فقدت الأمل في لقاء أبي مع ذلك الحادث، شعرت بأننا الفلسطينيين جميعاً أراض خصبة يتم تبويرها واحدة تلو أخرى، شعرت داخلي ببوار وأن كل ما حولي أجساد عجاف، لم أبك.. فقط تناولت حقيبتتي ومضيت.. إلى أين؟! لم أكن أعلم تحديداً، لكنني انتهيت إلى المحاضرة الأولى في الكلية.

جلست كعادتي في الصف الأول مع الأمواس، لكنني لأول مرة - منذ خطوت بقدمي إلى أبواب الكلية - لم أنتاول القلم لأخط شيئاً مما كانت تنفوه به الدكتورة في المحاضرة، شعرت بأن كلامها يتداخل في هوس مخترقاً حجري، وأن هناك أزيزاً يطن وتعلو نبرته في أذني، ظلمت أقاوم الرغبة في الصراخ، حاولت سد أذني علّ الطنين يهدأ، لكنه ظل يرتفع ويرتفع، رأيت دماء تسيل على أرض قاعة المحاضرات وتتزايد في جنون وترحف نحوي، وعندما اقتربت لتلامس أصابعي انتفضت من مقعدي وصرخت (كفى)!!.. نظرت إلي الدكتورة في تعجب، وقالت بقلق بالغ: (مالك يا سهام؟!)، وفوجئت بنفسي لأول مرة ألقي خطبة عصماء في الدفاع عن فلسطين:

كفى استسلاماً.. ماذا أفعل هنا بين هذه الحيطان الأربعة؟! أستمع إلى الدرس وأحلم بمستقبل رائع ينتظرني بين أروقة الصحافة، بينما يموت أهلي في فلسطين، يموتون وهم يصلون وصائمون، يموتون بينما أنتظر أنا بصبر نافذ أذان المغرب لأملأ معدتي بصنوف الطعام الشهوي! ماذا أفعل أو تفعلون أنتم من أجل أن تحافظوا على هؤلاء الذين ترحل حيواتهم مخلفة مواتاً يجثم على الصدور والأركان؟! ماذا تفعلون أنتم لهؤلاء الذين يقبلون الشمس كل يوم قبلة وداع أخيرة، حيث الموت يتربص بهم في المنازل والأزقة والمدارس حتى في المساجد؟!.. ماذا تفعلون؟!

كان صوتي قد تهدج وشعرت بالاختناق، وفوجئت بوجهي مبللاً بزخات دمع انسكبت على خدي وانسالت حتى عنقي، فصمت حيث لم أجد في داخلي كلاماً آخر لأقوله، دعت الدكتورة الطلاب بعد أن ضمتني إلى صدرها للوقوف دقيقة حداد على أرواح الشهداء في الحرم الإبراهيمي، وبينما وقف الجميع متمماً بالفاتحة حداداً، تسللت إلى مسامعي بواذر مظاهرة في ساحة الجامعة.. (خير خير يا يهود.. جيش محمد سوف يعود.. فين الجيش العربي فين!)، ولم أدر إلا وأنا أسحب حقيبتني من فوق طاولة الدرس، وأخترق الصف الذي أجلس في منتصفه متجهة نحو الباب، ودون أن أستأذن الدكتورة خرجت.. خرجت وأنا عازمة على الانضمام إلى المتظاهرين، لأصرخ بكل ما جمعته داخلي طوال سني حياتي من فقدان للهوية.

لم أكد أصل إلى درج الكلية حتى لحقت بي كل من منى وأحلام، لم تتفوها بكلمة واحدة، فقط أمسكت كل واحدة كفي بكفها من جهة، وعندما هبطنا إلى الدور الثالث حيث كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، استأذنتنا أحلام وطلبت منا الانتظار دقيقة، وبعد دقيقة بالفعل خرجت ومعها شاب من طلاب كلية الاقتصاد، لم تعرفنا به، لكنني عرفته بعد أن مات بين ذراعي أحلام في أثناء المظاهرة، التي انقلبت إلى عاصفة رجت أسوار الجامعة، ودعت جنود الأمن المركزي وعربات الشرطة للتحلق حول الحرم، محاولة تفريقنا بالقنابل المسيلة للدموع والرصاصات المطاطية.

عندما نزلنا إلى ساحة الجامعة كنت ومنى وأحلام ملتحمات، حتى عندما انخرطنا وسط جموع الطلاب حافظنا على تثبيت أكفنا ببعضها البعض، لكن عندما بدأت القنابل المسيلة للدموع تلقى من الخارج عبر الأسوار لتتفت سمها في وجوهنا، وبدعوا يطلقون الرصاصات المطاطية أصيبت الصفوف المتظاهرة بالبلبل، وبدأ

الجميع يجرون في كل اتجاه، تختلط صرخاتهم وهتافاتهم التي لم تعد موحدة، حيث بدأ كل واحد يقول ما يعن له في اللحظة، ووجدت نفسي أصرخ بينما لا أرى شيئاً أمامي ودموعي تتسابق على وجهي: (بابا زهران إنت فييييين ارجعلييي.. تعالى يا بابا!!!!!!.. خذني على فلسطين أو خذ فلسطين وسيلي مصر!)، (إنت فييييين يا بابا؟! إنت فييييين!؟).

وبينما أصرخ في هستيريا حقيقية لم أمر بها من قبل في حياتي، وجدت من تمسك بذراعي وتقول بصوت مختنق: (شفتي أحلام يا سهام؟!)، أفقت على صوتها وحاولت تدارك ما أفعله فنظرت إليها مرتعشة، فضمتني بين ذراعيها وقالت لي: (لازم نلاقي أحلام.. أحلام متهورة وممكن يحصلها حاجة في المصيبة اللي إحنا فيها دي).

أخذتني من يدي وحاولت أن تعبر بي عبر الأجساد المتداخلة في زعر لا عهد لي به من قبل، كنت كطفلة مرعوبة تتلمس في كف أمها بعضاً من الطمأنينة.. ظللنا هكذا أكثر من ساعة في محاولة البحث عن أحلام، حتى وصل إلى مسامعنا صراخ ميزته منى بأنه صراخ أحلام.. اقتربنا أكثر نحو الصوت المفجوع: (مش ممكن ده يحصل! مش ممكن تموت.. ليه تموت؟!.. يعني إيه تموت؟! إنت قلت إنك مش هتسييني أبداً.. لا يا سعيد لا! إوعى ترجع في كلامك!.. لا يمكن تموت في مظاهرة.. مجرد مظاهرة!.. لا يمكن تموت دلوقت!.. لسه فاضل أيام كتيرة لازم نعيشها سوا.. إزاي ممكن تطلع الشمس بكرة من غيرك؟!.. داحنا خلاص هنتخرج بعد ثلث شهور بس.. ثلث شهور بس يا سعيد ونبدأ نحقق حلمنا.. سعيد رد عليا!.. إوعى تموت يا سعيد!.. إوعى تموت!).

كانت أحلام تحتضن سعيد مختار.. حبيبها.. هكذا عرفت بعد ذلك.. تحوطه بذراعيها بينما يرقد هو في ثبات مقطوع الأنفاس تسيل

من رأسه الدماء.. سقطت على رأسه واحدة من القنابل المسيلة للدموع
قبل أن تستقر فوق الأرض لتعمينا بغازها.. تركوه ينزف حتى مات..
عندما وصلنا إليها نظرت نحو منى، كانت مدماة العينين تهذي: (سعيد
مات يا منى.. حبيبي قتله الوطن.. حبيبي قتله الوطن اللي كان
بيعشقه!.. حبيبي راح.. راح، الله يلعنك يا وطن! الله يلعنك يا وطن!..
أنا عايزة سعيد.. أنا عايزة سعيد يا منى.. قوم يا سعيد قوم! ما
تسيبهمش يسرقوا حياتك وحياتي.. قوم.. قوم!).

وكأنه لابد أن يفنى البشر من أجل فلسطين!.. حينما كنت
صغيرة وعقب كل مشاهدة لي لنشرة التاسعة، وبعد أن أرى جثة أو
اثنتين في صورة لخبر عن فلسطين، أتخيلها وحشاً يلتهم أبناءه ولا
يترك وراءه إنساناً يتنفس.. يومها انتابني نفس الإحساس، لكن في هذه
المرّة تيقنت أنك لا تحتاج إلى أن تكون فلسطينياً كي تموت.. فقط
عليك ذكر اسمها!

لم يكن موت سعيد مختار سهلاً علينا جميعاً، برغم أنني لم أره سوى مرة واحدة قبل وفاته، عندما ذهبت أحلام لتخرجه من محاضرتة لينضم إلينا في المظاهرة، علمت بعد ذلك أنه واحد من الطلاب الكثيرين الحالمين بوطن حقيقي نعيش فيه لنحقق أحلامنا بثبات وهدوء، لكنه مات هدرأً، نعم مات هدرأً.. مات في مظاهرة في بلد لا يعيش حالة حرب، ولكنه عقد سلاماً مع عدوه منذ سنين طويلة.. هذا السلام الذي لم يحقق دماء سعيد وغيره الكثيرين، هؤلاء الذين يموتون هدرأً من أجل الحرية في وطن من المفترض أنه حر!

اختفت أحلام شهراً كاملاً، أخبرتني منى بأنها عادت إلى بلديتها، وأنها تمر بحالة نفسية صعبة، كنت أشعر بالذنب تجاهها، ففي المرة الأولى التي أنهض فيها من سباتي وأعلن احتجاجي وأصرخ مدافعة عن هويتي الرسمية، أتسبب بقتل إنسان!.. قتل حبيب زميلتي التي كانت تسعى دائبة لتخرجني من دائرة صمتي، لم أكن أعرف ما الذي يمكن أن أفعله لها، حتى عادت فجأة وشاهدتها في صالة الكلية بين يدي منى، لم تكن تبكي، لكنني ودون وعي التقطت جسدها الذي نحل كثيراً من بين يدي منى، ووجدتني أقول لها دون وعي: (لدينا ثأر يا أحلام يجب أن نأخذه حتى تبرد دماء قتلانا)!

ثأر؟! ممن؟! ممن سنأخذ ثأرنا؟! يا لها من عبارة هزلية في عالم يضج بالكوميديا السوداء!.. أنا نفسي لم أفعل شيئاً بعد تلك اللحظة لكي آخذ الثأر.. فأنا حتى لم أكن أعرف حدوداً واضحة أحصر فيها عدوي كي أثار منه، كما أنني أحياناً ما كنت أقع فريسة إحساسي بأنني أول عدو لي في الحياة!

عدت مرة أخرى إلى حياتي السابقة.. عدت إلى مقاعد الأمواس! ولكن من قلب هوة سقطت فيها ولم يعبر أحد إلى جوارها ليمد لي يده فينتشلني، كنت مشتتة بين سؤالي الذي لم أكن قد وجدت إجابة له حتى بعد انتفاضتي السريعة من أجل فلسطين، وبين مشكلتي الواضحة جداً، وهي أن أمي وأبي لم يستطيعا تدبير دولارات عامي الدراسي الرابع في الكلية، ولكن إدارة الكلية سمحت لي بالانتظام في صفوف الدراسة حتى أتمكن من تسديد المصاريف خلال العام، للأسف اقتربت الامتحانات ولم أتمكن من تسديد المصاريف.. كنت تائهة ومرعوبة ألا أتمكن من دخول الامتحانات، أقوم بزيارات مكوكية شبه يومية إلى مبنى إدارة كلية الإعلام القابع في آخر حرم الجامعة، حتى أحصل على موافقة على حضوري الامتحانات على أن أسدد المصاريف قبل ظهور النتيجة.. أذاكر كالمحمومة كأني أدافع عن وليدي المحتضر أمامي دون حيلة مني لإنقاذه!

مرت الأيام وغاب الجميع عن الكلية ليذاكر كل في منزله استعداداً لامتحانات البكالوريوس إلا أنا، فقد ظللت أذهب إلى الجامعة ليس لحضور محاضرات، ولكن لأعرف نتيجة التماسي ومصيري.. هل سيسمحون لي بحضور الامتحانات أو لا؟

أخيراً، وقبل يومين من بدء الامتحانات، تمت الموافقة على التماسي وتسلمت رقم الجلوس.. عدت إلى المنزل متعبة وغير قادرة على فتح أي كتاب، فنمت ولم أستيقظ إلا على موعد أول امتحان، ذهبت وأنا مهتزة من الداخل لا أعلم ما الذي يمكن أن أفعله مع ورقة الأسئلة، لكن كل شيء مر بسلام، وإن كنت لم أستطع التأكد من سلامة إجاباتي في أي من الامتحانات التي خضتها.

لم تتمكن أمي وأبي من توفير المبلغ المطلوب حتى بعد ظهور النتيجة، كل دفعتي عرفت نتيجتها إلا أنا، فقد تم حجبها حتى

أسدد المصاريف!.. مكثت في المنزل لا أعلم ما الذي يمكن أن أفعله، وأنا ليس أمامي أي خطوة واضحة يمكنني خطوها، فقد انتهيت من دراستي ولم أنته في نفس الوقت!.. كل زملائي بدعوا البحث عن صحف ومحطات تليفزيونية وإذاعية، لينتظموا في العمل بها حتى يتمكنوا من التعيين في النهاية، أما أنا فليس لدي شهادة أتحرّك بها.. لم يكن أمامي سوى الابتسام والصمت.. سلاحاي الأثيران ورفيقا عمري كله.. وبينما أنا مطفأة تماماً أمام جهاز التليفزيون أدفع عني السأم وحرارة شهر أغسطس، وجدت بابا فؤاد يدخل علي فرحاً، ويبشّرنى بأنه استطاع أن يجد لي فرصة للتمرّن في صحيفة الجماهير، حيث صديق له في الإعلانات هناك أخبره بأنني يمكنني العمل تحت التمرين دون شهادة.. لم يكن الأمر مبهجاً لي كثيراً، فلم أستطع أن أنعش قلبي الخامد الذي يبدو أنه اعتاد الصمت إلى الأبد.

وأنا في طريقي إلى جريدة الجماهير أحمل في جعبتي قلباً كبيراً ونفساً خامدة وعينين زائغتين، لم أكن أعلم أنني سألمس شغاف قلب غض، وأجذب عينين شفيقتين تحملان حباً جماً غير مبرر للعالم بأجمعه.. علي إسماعيل، هذا هو اسمه، أما صفته الوظيفية فهي صحفي بقسم التحقيقات، نفس القسم الذي استطاع صديق أبي أن يضعني فيه من خلال صديقه رئيس القسم. قابلني محمد وهدان رئيس القسم بابتسامة تملأ وجهه، خلّتها واحدة من ابتساماتي التي لا تحمل معنى حقيقياً يدعو إلى الابتسام! لكنه على الأقل رحب بي، ثم نادى علي وسلمه إياي ليتولى تدريبي، باعتباره أهم وأنشط صحفي في القسم، أو كما قال محمد وهدان: (علي إسماعيل هو دينامو القسم.. من غيره لا يمكن نحصل على انفرادات تميزنا عن الجرائد الثانية.. تقدرني تعتمد علي عليه تماماً في فتح أبواب لموضوعات ومصادر تساعدك على إجراء تحقيقات جادة.. المهم إن يكون عندك الرغبة في

كده والحس الصحفي اللي يوجهك، أما الباقي بخصوص كيفية الكتابة والالتزام بسياسة الجريدة فده علي هيعرفهولك كويس.. وبالمناسبة علي مش من الصحفيين الأنانيين وعشان إنتي متوصي عليكي جامد سلمتك له).

لم تكن لدي أي كلمات مثل: (إنشاء الله هكون عند حسن ظنكم)، أو (أنا باحب الصحافة جداً وح اتقانى في عملي)!!.. فقد كنت خاوية تماماً من أي رغبة، خاصة أنه لا يوجد أمامي أمل في أن أكون صحفية بشكل رسمي، فأولاً أنا لم أتمكن من الحصول على شهادتي، ولا أدري متى سأستطيع تسديد المصاريف ليفكوا أسر النتيجة والشهادة، ثانياً أنا فلسطينية، ولذا لا يمكن تعييني في أي مكان، ولا يمكن أن تقبلني نقابة الصحفيين عضواً عاملاً بها.. لم يكن هناك أي أمل أمامي في الحياة غير أن أحاول العثور على طريقة أذهب بها إلى غزة للبحث عن أبي، والانخراط معه في الحياة الفلسطينية مهما كانت تلك الحياة، أما الدخول في معترك العمل الصحفي في الجرائد المصرية، فكان مجرد محاولة للعثور على سبب أخرج من أجله، وأفعل شيئاً لكسر حدود السأم والملل اللذين عشت داخلهما منذ أن انتهيت من امتحاناتي.

كان علي متحفظاً معي في البداية.. يعطيني أفكاراً لتنفيذها، ويمدني بالمصادر اللازمة لإجراء التحقيق، ثم يعيد كتابة ما قدمته له، وقبل أن يسلمه لرئيس القسم يجلس معي ليعرفني التغييرات التي أجراها ولماذا قام بها، ويطلب مني أن أراعي تلك النقاط في التحقيق القادم. كنت أحب التعامل معه جداً، فلقد كانت شخصيته قريبة من شخصيتي، حيث الهدوء والصمت العاقل، وإن كان عقله وهدوءه نابعين من رضا وامتلاء حقيقيين داخل نفسه، وليس مجرد غطاء خارجي لكتم غليان وقلق نافذ في محتوى روحي! ظل التعامل بيننا مدة محدوداً

بالرسميات وحدود الزمالة المتحفظة، ربما أنا السبب فيها.. فلقد كنت متشددة حيال صمتي وخمودي، عازفة بقصد متعنت عن البحث عن هدف للحياة داخل حدود مصر.. كنت أشعر بأن جميع أبوابها أوصدت أمام وجهي، مقلية إياي خارج أبوابها العتيقة، لم أكن أرى سوى هدف واحد لم يدعني لحظة للبهجة، وهو أن أمضي نحو غزة بكل ما يحمله هذا الهدف من ضبابية، حيث لا شيء واضح ومؤكد هناك، وفي نفس الوقت هو هدف لا أعرف له طريقاً لأمضي فيه نحوه.

ربما شعر علي بهذا الصراع الذي يمور داخلي، أو ربما أعجبه وجهي المبتسم أبداً وفي المكلل بالصمت إلا بنذر يسير من الكلمات مثل: (حاضر.. تحت أمرك.. إنشاء الله المرة الجاية هآخذ بالي.. إلخ). وذات مرة بعدما سلمته واحداً من التحقيقات التي كان يعطيني أفكارها وأرقام هواتف مصادرها، قال لي: (هيه.. هتعملي إيه المرة الجاية؟!)، كانت المرة الأولى التي يسألني فيها هذا السؤال، فلقد كانت العادة أن يتسلم تحقيقاً ليسلمني بدوره فكرة جديدة لتنفيذها.. نظرت إليه في حيرة وقلت: (مش عارفة.. إنت عاوزني أعمل إيه؟!)، (لا يا آنسة سهام! خلاص إنتي تجاوزتي المرحلة دي، وأعتقد إنك دلوقت عرفتي سياسة الجريدة، وأصبح عندك قائمة من المصادر ممكن تعتمد عليها في تنفيذ أي فكرة.. كمان أعتقد إنك دخلت عجلة الشغل، وبسهولة من خلال متابعة الأحداث على الساحة تقدري عملي تحقيق من أفكارك إنتي.. مش كده ولا إيه؟!)، لم تكن لدي إجابة، نظرت إليه يعتريني شعور كامل بالخل والبلبل، ولم أجد كلمات سوى: (الحقيقة أنا ماكنتش متوقعة إنني هادخل المرحلة دي بسرعة، وبالتالي ماجهزتش فكرة أقترحها عليك)، (خلاص عندك لحد بكرة.. فكري وقدميلي تلت أفكار نخtar منها واحدة.. اتفقنا؟!)، (اتفقنا!)، وقبل

أن أمشي قال لي: (على فكرة أنا عندي إحساس إنك واحدة تانية خالص غير سهام اللي قصادي دلوقت!)، جاء كلامه مباغتاً لي، وكاشفاً شعوراً يعتمل في صدري لا أعلم كنهه.. تلجلج لساني وتقصد العرق من خلاياي ونظرت إلى الأسفل بينما كفاي تعركان بعضهما بعضاً، وقبل أن أتمكن من التفوه بكلمة واحدة ابتسم صافياً تماماً وقال: (هاستاكي بكرة).

كان لكلمة (هاستاكي) وقع موعد غرامي على أذني، لكني لم أشعر بأي نفور، وإنما انتظرت الغد بصبر نافذ، وأنا عاكفة على أوراقى أخط أفكاراً لتحقيقات جاهدة أن تتال إعجابه.

لم يضيع علي الوقت في مناقشة أفكاره، وخلال ربع ساعة تقريباً كنا قد اتفقنا على الفكرة التي سأنفذها بعد بعض إضافات من عنده، نظرت إليه وأنا لا أتخيل أن الأمر انتهى على هذا الحال، نظرت إليه متوسلة جملة أو جملتين أخريين بعيداً عن عالم التحقيقات الصحفية، لكنه اكتفى بنظرة هادئة تعلن انتهاء الكلام، سحبت أوراقه من على مكتبه، ومشيت محبطة إلى المكان الذي أجلس فيه إلى طرف أحد المكاتب المعبأة بها الصالة، لم تكن لدي أي رغبة في العمل، فلقد أفرغني علي من إحساس دافئ ملأ نفسي طوال الليلة السابقة، وجعلني أستيقظ سعيدة ومستبشرة لأول مرة منذ شهور طويلة، تحديداً منذ مقتل سعيد مختار.. نهضت بعد أقل من ساعة جامعة أغراضه في حقيبتني، ومللمة الأوراق التي بعثرتها دون وعي وأنا أحاول التشاغل بأي شيء يأخذني بعيداً عن خذلاني، عندما تأكدت أن اليوم تم إفساده تماماً، ولن أتمكن من الخلاص مما اجتاحني بقوة بعد معاملة علي العادية جداً التي أردتني، محولة إياي إلى جسد بارد دون رعشة روح.

مضيت لا ألوي على شيء وأنا لا أدري لماذا اجتاحتني تلك المشاعر، عندما وصلت إلى المنزل دفنت نفسي بين أغطيتي، ورفضت أن أكل أو أجيب تساؤلات أمي المنزعجة: (مالك يا بنتي في إيه؟! حد عملك حاجة في الجرنال؟!)، لم أكن أدري ما الذي أفعله وما الذي دفعني إلى كل هذا الحزن الذي غمر روحي.. علي لم يلح لي بأي شكل أنه يحبني، فقط يتعامل بهدوء وحنان، تماماً مثلما يتعامل مع الجميع، لم أسمع له صوتاً عالياً منذ أن انخرطت في العمل داخل تلك الجريدة، دائماً بشوش، متواضع برغم تفوقه في العمل، ولا يتوانى لحظة عن مد يد العون لأي كان، لماذا فسرت كلمة (هاستاكي) على أنها

شيفرة عاطفية؟! كنت بالفعل تعيسة وحزينة على نفسي، وفكرت في أنني لابد أشعر بضياح كامل ووحد، مما جعلني أتخيل أشياء ليس لها وجود.

في المساء تسرب إلى أذني حديث أمي في التلفون، كانت تقول: (أنتم عملتم فيها إيه النهارده؟!.. دي رجعت حزينة ومكتئبة ورافضة تكلم حد حتى أنا)، تصمت قليلاً ثم تقول: (سهام حساسة جداً، وعندها ظروف خاصة بتخليها تزعل بسرعة وتتطوي على نفسها)، تصمت مرة أخرى ثم تقول: (رينا يخليك يا ابني.. حاضر هاشوفها إذا كانت صاحبة ولا نايمة)، بعد أقل من دقيقة كانت أمامي تتحني نحوي وتقول: (قومي يا حبيبتي أستاذ علي بيتصل عشان يتأسفلك.. قومي يا ماما عشان خاطري ماتعمليش في نفسك كده).. علي يريد أن يعتذر إلي؟!.. عن ماذا؟! بوغت بكلمات أمي ولم أستطع أن أفهم، لكن شيئاً ما في داخلي دفعني للنهوض سريعاً نحو التلفون، التقطت السماعة وأنا ألهث كأنتي ركضت أميلاً طويلاً! حتى إن علي لاحظ ذلك فوجدته يقول لي: (يااااه هو البيت عندكم كبير قوي كده؟!)، (يعني إيه؟!)، ضحك عالياً ثم قال: (أصلك بتهجي كأنتك جاية جري من مكان بعيد!)، اعتراني خجل لم أشعر بمثله من قبل، ووجدت خدي يسخان بشدة، تلعثمت ولم أستطع تكوين جملة مفيدة واحدة أنطق بها، لكن علي أنقذني وأعفاني من حرج الكلام، وقال لي: (أنا آسف إنني خذلتك النهارده.. أنا عارف إنك كنتي منتظرة أكثر من مجرد مناقشة أفكار تحقيقات، أنا كمان كنت منتظر أقدر أقولك أكثر من مجرد كلام في الشغل، لكن الصالة كانت مليانة ناس وما كانش ينفع أقول أي حاجة، ما كنتش متصور إنك قد كده حساسة ورقيقة.. عموماً أنا هاعوضلك اللي حصل النهارده، بس ده متوقف على موافقتك!)، لم أجب فلقد اجتاحتني كلماته وعصفت بما تبقى لي من قدرة على

التركيز، اختلطت علي مشاعري بين الحزن والفرح، بين النشاط والخمود، بين الشعور بازدياد القيد حول معصمي والخلاص من كل قيود الماضي.. أخذت أتلعثم مرة أخرى في حين من المفترض أن أنطق بأي كلمة، أي كلمة تعني أي شيء، لكنني لم أتمكن من العثور على هذه الكلمة ووضعها على لساني.. أنقذني علي في النهاية وقال: (خلاص مش عايز منك أي كلام غير أيوه أو لأ على اللي هاطلبه منك دلوقت.. بكرة الساعة خمسة بعد ما نخلص شغلنا نتقابل في جروبي اللي في شارع طلعت حرب.. عارفاه؟!)، وجدت نفسي أجيب بسعادة طفلة لم تتجاوز السادسة بمشروع ذهاب إلى الملاهي يقترحه عليها والدها: (آه عارفاه!)، (هتكوني هناك الساعة خمسة؟!)، (أيوه هكون هناك).. وهكذا تحول جروبي طلعت حرب إلى مقرنا الرسمي، حيث أصبح علينا في ما بعد تحديد الموعد فقط.. أما المكان فقد نقش عميقاً في قلوبنا.

امتألت جلساتنا في البداية بكثير من الحلم وأقل القليل من الواقع، لم نحتاج إلى ترديد كلمة أحبك على مسامع كل منا، فلقد كانت عيوننا وأيدينا وتهدج صوتينا تعلنها بأعلى صوت ممكن في العالم، حتى إنني نسيت أن أقص عليه قصتي ومشكلتي الأزلية مع الهوية، إلى أن جاء اليوم الذي تمكن فيه أبي فؤاد من جمع دولارات الكلية، وسلمها لي فخوراً بنفسه، ومعلنًا خلاصه من ذنبي إلى الأبد، لم أذهب إلى الجريدة إذ توجهت إلى الكلية لأدفع المصاريف، وأفك أسر نتيجتي المحجوبة منذ عام تقريباً آنذاك، اتصل علي بالبيت ليستفسر عن سبب تغيبني المفاجئ، فأخبرته أختي التي أجابت مكالمته بأنني ذهبت إلى الكلية لأسدد المصاريف، وعندما سأل متعجباً ألم تنته سهام من دراستها بعد؟! قالت أختي ببلاهة شديدة: (طبعاً.. بس النتيجة كانت محجوبة لغاية ما تدفع المصاريف)، لم يطل علي الاستفسار وفضل أن

يعرف الأمر مني في ما بعد. في اليوم التالي ذهبت وشعور عميق بالانعقاد يجتاحني، يومها أبصرت ضوء الشمس مخالفاً لما اعتدته، كان ضوءاً رائعاً مسترسلاً من قلب السماء، ينام بخفة على جسدي، ويضفي توهجاً على نظرة عيني ولوناً وردياً ناعماً على خدي، كانت شهيتي كبيرة للأكل والكلام والعمل، وبمجرد أن وصلت إلى الجريدة أشرت إلى علي بشيفرتنا، التي اتفقنا عليها عبر الأشهر الماضية لتبادل الحديث الخاص وسط زملاء، بأن يتبعني فوراً إلى جروبي، لم يعترض أو يؤجل الموعد كما اعتدت في السابق لانشغاله دائماً بالعمل، بل لملم أغراضه بسرعة ودسها داخل درج مكتبه وسبقني إلى هناك.. لم أشعر بشيء غير عادي، فقط فسرت الأمر بأنه اشتياق عقب تغيبني في اليوم الماضي، لكن بمجرد أن وصلت إلى جروبي وانضمت إليه على طاولتنا الأثيرة التي لا تتسع سوى لاثنتين، أعادني علي بسؤاله إلى حدود شتاتي، ليقفز سؤالي العتيد على السطح مرة أخرى: (من أنا؟!).

(لما سألت عنك امبارح أختك قالتلي كلام غريب ما قدرتش أفهمه.. قالتلي إنك رحتي الكلية تدفعي المصاريف عشان تعرفي نتيجتك اللي كانت الكلية حباها عنك.. يعني إيه؟! أنا مش فاهم حاجة!).

أجبتة ولكن من خلال بسمتي الشهيرة، التي تزين وجهاً أعتم منذ يوم التحاقني بالسنة الأولى الابتدائية: (أيوه ما انا ما كنتش قادرة أسدد مصاريف سنة رابعة في الكلية!)، نظر إلي علي ساخراً وسألني في تهكم شديد الوضوح: (يااااااه! أهلك ماكنوش قادرين يدفعوا أربعين جنيه مصاريف الجامعة؟!)، أجبتة بنفس النبوة الساخرة: (لا الحقيقة هو المبلغ أكثر شوية من أربعين جنيه.. يعني حوالي ثلثتلاف دولار!)، عاد علي بظهره إلى الخلف وازدادت حدقتا عينيه اتساعاً، ثم صرخ مبهوراً في وجهي: (نعم؟! ثلثتلاف دولار؟! ليه يا بنتي هو انتي أجنبية؟!).

أجنبية!.. يا لها من كلمة مزقتني بمجرد أن خرجت من فم علي.. نعم أنا سهام زهران سميح البناء، المولودة في القاهرة عام ١٩٧٢ من أم مصرية، ولم أخط بقدمي متراً واحداً خارج حدود مصر، ولا أعرف أي شيء عن أي بلد سواها.. أجنبية.. ماذا أقول بعد؟!.. نعم أنا أجنبية هكذا جاوبت علي ثم نهضت مسرعة من أمامه لا أعلم إلى أي الحدود أمضي، تمنيت لحظتها أن أغمض عيني وأفتحها لأجد نفسي مع أبي، الذي لا أعرف له شكلاً ولا تدرك أذني له نبرات صوت، معه هناك.. هناك حيث يكون فوق الأرض أو تحتها، فقط لأبتعد تماماً عن محيط هويتي المفقودة، وسؤالي الذي يحاصرني أينما ذهبت.. من أنا؟! من أنا؟! من أنا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

تبعني علي بعد دقائق قليلة، ووجدته يقبض علي ذراعي ويسألني عما ألم بي، قال كلاماً كثيراً.. منه ما العيب في أن تكوني أي شيء غير مصرية؟! لماذا انزعجت بهذا الشكل؟! ووووو.. وضعت كفي على أذني وقلت له: (أرجوك يا علي بطل أسئلة، أنا ماعنديش إجابة لأي شيء.. سيبي في حالي أرجوك).

لم يتركني، ظل معي حتى هدأت نفسي قليلاً، كنا قد درنا في شوارع وسط البلد من طلعت حرب إلى عبدالخالق ثروت وشارع عدلي، حتى قال علي أخيراً من خلال ابتسامة هادئة أشعت داخل روحي: (يا بنتي ارحميني! رجلي اتكسرت.. داحنا لفينا وسط البلد كله مية مرة!.. تعالي نقعد في حطة تلمنا!))، سألته من بين دموعي: (ترجع جروبي؟!))، (لا وحياة النبي كفاية فضايح! الناس أكيد هناك بتلعن سلسفيل اللي جابوني، وبيقولوا عليا إني أكيد ضحكت عليك! وخذعتك!))، ضحكت وتناولت من بين أصابعه المنديل الورقي الذي عرضه علي لأمسح دموعي، ثم قلت: (أمال هنروح فين؟!))، (أرض الله واسعة! ووسط البلد مليون قهاوي وغرز!))، بعد هذه الجملة لم أتمالك نفسي فغرقت في

الضحك، حينها أراح كفه على ذراعي ودفعني بحنان للأمام، وقال من بين شفتين ضاحكتين: (تعالى يا ختي تعالى!).

جلسنا في إكسليسيور، وبمجرد أن جلست انزعجت من تصميمه الذي يكشف كل الجالسين في داخله للعابرين بجواره في الخارج، حيث النوافذ الزجاجية التي تستدير معه على جانب الرصيف الذي يحتله.. قلت له وأنا أنظر حولي: (كده أكيد ممكن حد من الجنرال يشوفنا)، نظر إلي مبتسماً وقال: (ما يشوفنا! أنا خلاص هاتجوزك.. مفيش قصادي حل ثاني بعد فضيحة جروبي!)، غرقنا في الضحك، وبدأنا لأول مرة منذ لقائنا الأول في جروبي نحكي قصة حياة كل منا على مسامع الآخر.

لم يكن لعلی قصة غير عادية، فلقد نشأ في منزل لأب وأم عاملين ينتميان إلى طبقة عبد الناصر المتوسطة، له أخت واحدة لا غير تخرجت في كلية الطب، وتعمل الآن في مستشفى قصر العيني، تمضي سنة الامتياز قبل أن تتخصص في طب الأطفال كما تتمنى، أعقب علي ذلك بقوله: (عموماً كويس كده، ضمنا ما نصرفش كتير على الدكاترة لما ولادنا يعيوا!)، ابتسمت وأنا أنتظر رد فعله على قصتي المؤلمة.. ظلت أنظر إليه بتساؤل، حينها قال لي: (إيه عايزاني أقول إيه؟!.. يا حرام إنتي عشتي مأساة وربنا يكون في عونك؟!.. قصتك عادية وفي منها كتبيبيير قوي.. أنا شخصياً أعرف اتنين زيك وكمان رجاله، يعني مفيش قصادهم أي فرصة يعدلوا بيها وضعهم، لكن انتي عندك الحل)، سألته بلهفة: (إزاي؟!)، ابتسم ونظر إلي بخجل أراه لأول مرة في عينيه: (أبدأ اتجوزيني وانتي تستريحي.. وبعد خمس سنين هتاخدي الجنسية المصرية).

لم تكن الجنسية المصرية هي الحل، لكني سعدت بعرض علي الزواج بي، الذي تكرر في أكثر من صيغة على مسامعي في

ذلك اليوم، شعرت بأني أحبه فعلاً، وأني أرغب في البقاء معه إلى آخر يوم من عمري، حتى وإن لم أحصل على الجنسية المصرية، كان بالنسبة لي حلاً حقيقياً لكل مشاكل النفسية، وليس حلاً لتعديل وضعي في الأوراق الرسمية، فمعه شعرت لأول مرة بهويتي الحقيقية.. هوية سهام زوجة علي إسماعيل، وربة منزله العامر بالحب، وأم أولاده الذين رأيتهم قبل أن يولدوا أجمل أطفال في الكون.

في حفل صغير بمنزلنا تمت خطبتي إلى علي إسماعيل، لم يحضر سوى والديه وأخته وعائلتي، المكونة من أبي فؤاد وأمي وأختي وأخي.. برغم سعادة الجميع وتلك النظرة المنتصرة في عيني أبي، التي تعلن أنه أخيراً تمكن من أداء واجبه ناحيتي على أكمل وجه، وزهو أمي لأنني تمكنت من العثور على زوج مصري، حيث كان يؤرقها الخوف من فكرة زواجي فلسطينياً لا تعلم إلى أين سيأخذني بعيداً عنها.. برغم كل ذلك كنت أحاول قدر استطاعتي إخفاء الأسى الذي كان يمرر لساني، ويغرق قلبي بدموع لم تجد سبيلاً للخروج ففاضت داخلي.. هأنذا أقبل على آخر خطوة مصيرية في حياتي، أبدأ بعدها عالماً جديداً تماماً ومغائراً لكل ما كان قبله، دون أبي الحقيقي، فهذا الذي يضع يده في يد العم إسماعيل والد علي ليقرأ الفاتحة ليس أبي، وبالتأكيد سيكون هو وكيلني عند عقد القران، زاغت عيني بين اليدين المتصافحتين، وسقطت دون إرادة مني دموعان سرتا على صفحتي خدي، تاركتين خطين لامعين جليين للعيان، هبت على إثرهما أمي لتحتضنني بين ذراعيها قائلة: (كده كده العرايس يعيطوا ليلة فرحهم؟!)، تنبه الجميع على قول أمي، فأخذ كل واحد يعقب بكلمة: (دي دموع الفرح!)، (ده من الكسوف!)، (إخص عليك يا سهام! حد يعيط وجنبه عريس زي القمر كده؟!...) لم يتفوه واحد منهم بجملة تعلن السبب الحقيقي للدمعتين، وابتلعت بدوري دموعي التي تركت غصة في حلقي، وبداية جرح جديد يضاف إلى جراحي الغائرة منذ أمد بعيد.

بعد انتهاء الحفل وذهاب كل إلى طريقه حتى علي، التفت داخل جسدي الذي تكور أسفل الغطاء، وذرفت دمعاً غزيراً لم يره أحد هذه المرة، وكتمت نحيبي داخل صدري، كنت أبكي لشعوري بالخيانة..

نعم خيانة نفسي، فهأنذا أتخلى عن حلمي السرمدي بالبحث عن أبي، هأنذا أستسلم لإجراءات تقضي في النهاية إلى حل مشكلتي على الورق، تغيير خانة الهوية بعد خمس سنوات من زواجي بعلي، لكن السؤال الذي ألهب خلايا عقلي ونفض مسام جلدي هو: (هل سأشعر بالفعل بأنني أصبحت مصرية، وأتمكن من إلقاء تلك الهوية التي لازمتني عمري - الذي ولى في كل خطوة خطوتها في الحياة - وراء ظهري؟!.. لازمتني حتى وأنا أنكرها وأخفيها عن زملائي في الجامعة.. لازمتني وأنا ألعنّها وأعلن تبرئي منها، بينما أتجول في شوارع القاهرة التي لم أر مدينة غيرها في حياتي). لقد وضعني خاتم علي الذي زين يدي اليمنى أمام نفسي بقسوة، وعاد سؤالي العتيد ليقفز أمام عيني: (من أنا؟!)، هل يجب أن أترك لعلي الإجابة عن هذا السؤال؟ أو أنه سؤال طرح علي وحدي وعلي وحدي العثور على إجابته؟ لم أكن أدري تحديداً الذي أريده، لكنني علمت جيداً أنني لن أتخلص من الألم الساكن في أنسجتي منذ يومي الأول في المدرسة الابتدائية، إلا بطرد جميع شياطيني التي تتلبسني وتسري في شراييني، لكن كيف لي التخلص منها وأنا متخبطة في عمائي لا أدري أي الدروب أسلك؟! وإذا سلكت درباً هل سيؤدي بي إلى متاهة لا أخرج منها أبداً؟ أو سينتهي بي إلى الإجابة التي أبحث عنها منذ الأزل؟

بالطبع طويت كل هواجسي بعناية وأودعتها خزانة روحي العلية، ونهضت من نومي كما يجب أن تنهض عروس المستقبل بابتسامة عريضة، راعيت أن تبدو مختلفة تماماً عن ابتسامتي المعتادة، وعينين مستبشرتين بالغد، أعطيت أمي وأبي ما رغبا فيه ومنحتهما ضحكات ونكات وحركة مرحة عبأت البيت كله، كم كان ذلك ثقيلاً على نفسي! لكن لم يكن أمامي غيره فأديته كما أعتقد ببراعة، كما أنني لم أنس الإعلان عن قلقي لتأخر علي في الاتصال بي، فنصحتني

أمي بأن أكون ثقيلة حتى لا يشعر علي بأنني (مدلوقه عليه)!.. أقسم
أنني أحب علي، لكنني كنت أرغب في أن يكون قلبي خالصاً له دون
تلك الحوائط الصلبة القائمة بيني وبين كل شيء في الحياة، كانت في
داخلي رغبة عارمة في اختراق كل الحجب التي تمنعني عن الوصول
إلى حقيقتي، رغبة عارمة في بدء رحلة تطهر وخلص، حتى أسلم
نفسي صافية رقراقة تنساب بعذوبة لعلي، فهو لا يستحق أي زيف مهما
كان.

عدت إلى الجريدة وأنا أحمل خاتم علي في إصبعي، قوبلت
بموجة من التبريكات والتهنئات والدعوات بأن يتم الله علينا فرحنا،
أخذتني تلك الموجة في غمارها وابتعدت بي عن دروبي المظلمة،
داخل دروب أكثر رحابة وبهجة أمضيت معها أياماً طويلة تلفني
السعادة مع علي، الذي كان يفعل كل شيء ليرضيني ويبهجني.. إلى
أن قابلت أحلام مصادفة في مصعد الجريدة، أخذتني المفاجأة حقاً،
ولكنها بعد أن أخذتني بين يديها فرحة بقلائي بعد مرور أكثر من عام
على تخرجنا، لاحظت انتفاخاً يسيراً في بطنها فنظرت متسائلة فقالت
ضاحكة: (أنا اتجوزت وحامل في الشهر الثالث). باغتتني كلماتها، فقد
كانت فجيعتها بموت سعيد لا تشي بأنها سوف تتجاوز أزمة رحيله بهذه
السرعة، لكنني داريت دهشتي وسألته السؤال الروتيني المعتاد:
(تزوجت من؟)، (لا أعتقد أنك تعرفينه، عموماً هو شاعر اسمه سالم
علوان)، ثم أكملت وكأنها تدافع عن نفسها: (سالم عنده ديوانين وأنشاء
الله ديوانه الثالث هيصدر قريب.. هو بيشغل مدرس لغة عربية، بس
بيكتب مقالات نقدية مهمة في الدوريات الأدبية وله تجارب في الكتابة
الصحفية)، لم يكن أمامي سوى أن أبارك لها متظاهرة بالفرح، وإمعاناً
في إنهاء ذلك الموقف المضطرب أظهرت لها خاتم خطبتي قائلة: (أنا

كمان اتخطبت لصحفي زميلي هنا في الجريدة اسمه علي اسماعيل،
نائب رئيس قسم التحقيقات).

كنا قد غادرنا المصعد فسألته، بعد أن باركت لي بفرحة
حقيقية ملأت عينيها وصوتها، (إنتي جاية هنا ليه؟!)، (أبدأ بعد ما
قفلوا جريدة الاتجاه العربي جت لي فرصة عن طريق الدكتور فاروق
أبوحمدة رئيس قسم الصحافة في كليتنا أشتغل هنا في القسم الثقافي)،
(واللهي؟! ده جميل جداً.. كده أقدر أشوفك كل يوم.. بس انتي راضية
بالشغل في القسم الثقافي؟! أصل أنا عارفة إنك غاوية سياسة!)،
نظرت إلي بعينين طفا عليهما الحزن وقالت: (لا ده كان زمان، أنا
عقلت خلاص! والقسم الثقافي أقرب لي من أي شيء ثاني، إنتي
عارفة إن ليا اهتمامات أدبية وبالتالي القسم الثقافي هيكون مناسب
ليا)، (عموماً ألف مبروك يا أحلام أنا موجودة في قسم التحقيقات أي
وقت إبقى عدي عليا نرغي شوية.. صحيح أخبار منى إيه؟!)، (منى
بتشتغل في جريدة القاهرة اليوم زي ما هي، فضلت تنتقل من قسم لقسم
وأخيراً استقرت في قسم الترجمة!)، (يا ريت تسلميلي عليها لما تشوفها
ولو جت فرصة خرينا نقابل)، (خلاص يا ستي.. ياللا بقى لحسن احنا
كده رغبنا كتير!). ابتسمت رداً على ابتسامتها ومضيت إلى صالة
التحقيقات، ألقني ذلك البركان الخامد داخل أحلام، والذي رأيته
بوضوح برغم غلاف الرضا الذي لفت به وجهها بعناية، لا أدري لماذا
ساعد ظهور أحلام في ذلك اليوم على تسرب هواجسي لتطفو على
السطح مرة أخرى، وأخذت أسأل نفسي وأنا أنظر إلى علي الجالس إلى
مكتبه يخط بيديه تحقيقاً ما (وماذا بعد؟!.. هل الأمر انتهى عند ذلك
الحد.. الزواج بعلي والانخراط داخل حياتي الزوجية؟! إلى متى
سأتجاهل ذلك النداء في داخلي بأن أبحث عن أبي.. أو بالأحرى
أبحث عن نفسي?!). كنت أشعر بأن ظهور أحلام سيؤدي إلى تغيير

ما في حياتي، لكني لم أكن أعلم بالتحديد شكل هذا التغيير وإلى أين سيذهب بي، حتى فوجئت ذات يوم بأحلام تقف على باب صالة التحقيقات وتشير إلي بأن أخرج إليها، ابتسمت ونهضت لألقاها، انتحت بي جانباً وسألتني بنبرتها الحماسية المعتادة: (لسه واخدة موقف من المشاركة في أي شيء خاص بفلسطين؟!)، كنت أعلم أن أحلام لن تتركني في حالي، وأنها لا يمكن أن تعتزل الطريق الذي اختارته لنفسها منذ طفولتها - على ما أعتقد! - كما ادعت، (يا أحلام أنا مش واخدة موقف ولا حاجة، إنتي عارفة إني مش مؤمنة بفايدة التظاهر والحاجات اللي زي دي)، (يا ستي أنا مش جاية أدعوك لمظاهرة، وبعدين خلاص ما عرفات رجع لفلسطين بقاله سنة ونص وانتخبوه في يناير اللي فات أول رئيس للسلطة الوطنية الفلسطينية.. يعني الأمور ماشية بالشكل اللي انتي بتحبيه)، تفوهت بهذه الكلمات بنبرة عالية السخرية قلقلت من استقرارني النفسي، الذي أصمه بعناية منذ أن خطبت إلى علي، فقلت لها وأنا أزفر ضيقي: (إنتي عايزة إيه بالظبط يا أحلام؟! ومن غير تريقة وحية ابوكي!)، ابتسمت وقالت: (ما ترعيلش مني يا سهام إنتي عارفة إني باحبك جداً.. عموماً يا ستي المركز الثقافي الفلسطيني عامل احتفالية في المسرح الصغير في دار الأوبرا بمناسبة انتخاب عرفات رئيس للسلطة، وبما إني محررة ثقافية قد الدنيا عرفت وهاروح أعطي الاحتفالية، وقلت إنك ممكن تحبي (تحضري). راقنتي الفكرة، بل كانت وسيلة سهلة غير مكلفة للتعبير عن تمسكي بهويتي، وإثبات أنني لم أرتبط بعلي لأحل مشكلة الجنسية، نظرت إلى أحلام نظرة مشاكسة وقلت: (أول مرة تقترحي حاجة عدلة!)، ضحكت وقالت: (طيب كويس! برغم إني متغاضة إن المركز الثقافي الفلسطيني هيجنقل بعرفات ونسي تماماً تأبين يحيى عياش)، (مين يحيى عياش ده؟!)، بمرارة شديدة قالت: (أبدأ يا ستي ده حته مهندس فلسطيني على ما تفرج جنن إسرائيل بقدرته على صناعة

المتفجرات من أبسط الأدوات لمدة ست سنين، ومن سخرية القدر إن إسرائيل تتجح في اغتياله قبل انتخاب عرفات بأربعين!)، كانت لهجتها التهكمية على جهلي كل ما يخص بلدي قد بلغت ذروتها، ولم أكن أدري بماذا أجيبها، كل ما فعلته حينها أني لعنت دكتور أبوحمدة الذي مكنها من الالتحاق بجريدة الجماهير، حتى تظل شوكة عالقة في حلقي كلما قادتني مصادفة حمقاء لمقابلتها في أروقة الجريدة، أو كلما أتت لي بدعوة من دعواتها المعروفة مسبقاً، والتي لا تخرج عن نطاق فلسطين أو العراق أو مناهضة الهيمنة الأمريكية أو أو أو!.. وددت فعلاً حينها أن أمد يدي لأدفعها من أمامي أو أصرخ في وجهها: انسيني وانسي أنني كنت يوماً زميلتك في الجامعة، لكني لم أستطع فعل أي من ذلك، فقط قلت لها من بين أسناني: (اللي في داء ما يبطلوش يا أحلام.. عموماً أنا هأحاول آجي الاحتفال)، واستدريت مبتعدة عنها فقالت بصوت عال قليلاً: (الحفلة يوم الخميس الساعة سابعة مساءً، ابقى جيبني خطيبك معاك)، لم ألتفت مرة أخرى إليها وأكملت طريقي نحو المقعد الذي أجلس عليه في طرف أحد المكاتب بالصالة، حيث تظاهرت بانغماسي في الكتابة، لكني كنت شبه غائبة عن الوعي أطرق أبواب غيظي المكتوم داخلي منذ سنين، ألعن اليوم الذي ولدت فيه، وألعن أُمي وزهران سميح البنا الذي ألقى بذرته في رحم أُمي ومضى.. دون التفاتة واحدة منه إلى الوراثة.

ترددت كثيراً قبل أن أقرر الذهاب إلى احتفالية المركز الثقافي الفلسطيني، ولذلك لم أتمكن من إبلاغ علي كي يضبط مواعيده ليتمكن من الحضور معي، لا أدري ربما فعلت ذلك عن رغبة خفية داخل دهايلزي المعتمة التي لا أعلم شيئاً عنها.. عندما وصلت إلى هناك كانت الحفلة لم تبدأ بعد، بينما تجمع عدد كبير من الناس في الصالة المؤدية إلى المسرح، وقفت على بابها الذي وضعوا عليه باباً إلكترونياً ليكشف من يحمل معه أي شيء معدني.. تساءلت إن كان ذلك إجراء أمنياً معتاداً أم لأن الاحتفال هذه المرة من أجل فلسطين؟! بعد أن دخلت من الباب أذهلني ذلك العدد من الكوفيات الفلسطينية الشهيرة، والتي اعتاد الناصريون والشيوعيون في الجامعة طرحها على أكتافهم، وتساءلت مرة أخرى إن كان كل الحاضرين من الناصريين والشيوعيين، بل إنني ربطت على الفور بين دعوة أحلام لي وانتمائها السابق إلى الشيوعيين بالجامعة، وقلت لنفسي ربما عادت إليهم مرة أخرى.. تساؤلاتي كانت كثيرة يومها.. فهل هؤلاء الحاضرون مصريون أو بينهم فلسطينيون؟ ولماذا هذا الحضور الكثيف الذي لا تشهده دار الأوبرا عادة؟! ومن هؤلاء الذين يرتدون البزات الرسمية؟! وهؤلاء اللاتي يرتدين الجلباب الفلسطيني المطرز؟!.. يا إلهي كم كنت ضائعة ووحيدة في عالم أنفذ إليه لأول مرة في حياتي!.. بعد قليل ظهرت أحلام تلف كتفها بالكوفية الفلسطينية أيضاً، توجهت إليها مستتجدة برغم حنقي عليها، استقبلتني بابتسامة واسعة وذراعين مفتوحتين إلى آخرهما حتى خلعتها تلعب دوراً ما على خشبة المسرح القومي! بعد السلامة والقبلات الزائدة عن الحد، سألتني أين علي فقلت لها إنه مشغول ولم يتمكن من مصاحبتي، كان لابد أن ألقي عليها نفس السؤال عن

زوجها، فقالت وهي تشيح بوجهها: (سالم معترض على عرفات من الأساس ولا يعترف بيه قائد لفلسطين، ومؤمن بأنه خاين وباع القضية الفلسطينية)، دهشت وسألتها: (ليه كده؟!)، (أبدأ عشان عرفات رفض معاهدة السلام بتاعة السادات، ومع ذلك بمجرد ما ساب بيروت أثناء الحصار الاسرائيلي ليها سنة ٨٢ وراح على تونس بدأ في مفاوضات سرية مع إسرائيل لغاية ما اتفقوا على أوصلو، يعني باع مصر عشان في الآخر يحصل على أقل بكثير من اللي كان ممكن الشعب الفلسطيني ياخده لو قعد على طاولة المفاوضات مع السادات وكارتر.. وبينني وبينك سالم عنده حق، وإن كنت أنا شخصياً رافضة معاهدة السلام المصرية واتفاقية أوصلو، ورافضة أي شيء يخلينا نخط إيدينا في إيدين اليهود). دائماً ما كانت أحلام تقول أشياء لا ترد على خاطري ولا أفكر فيها، رغم أنني اكتشفت بعد ذلك أن مثل هذه العبارات تكتب في مقالات بالجرائد، لكن المشكلة أنني لم أكن أهتم بقراءة هذه الأشياء، فقد كنت منشغلة دائماً بقضيتي الخاصة.

بعد قليل ظهرت مني حاكم التي أقبلت بوجهها الطيب الذي أحبه كثيراً، احتضنتها بشوق حقيقي وتبادلت معها عبارات الترحيب التقليدية، ثم وجدنتي أقول لها: (أحلام عايزة تقنعني إنها عقلت وسابت السياسة لمجرد إنها اشتغلت في القسم الثقافي، ومع ذلك يوم ما جت تغطي حدث ثقافي كان برضه على فلسطين، وقبل ما تيجي كانت عمالة تديني درس في السياسة برضه!)، أجابت مني ضاحكة: (أحلام تموت لو ما عملتش حاجتين.. تتكلم في السياسة وتشتتم!)، وضحكنا كلنا ومعنا أحلام التي أعقبت ذلك بسؤال: (مش عايزة تتعرفي على أهلك؟!)، (أهلي مين؟!)، (أهلك الفلسطينيين يا بنتي!)، (واللهي! هو في حد هنا فلسطيني؟!)، ضحكت مني ونظرت إلي قائلة: (يا خير! أمال كل اللي ماليين المسرح دول إيه؟!)، أجبتها ببلاهة: (الحقيقة أنا

حسبتهم ناصريين أو شيوعيين زي بتوع الجامعة عشان الشال الفلسطيني اللي حاطينه)، فقالت: (الأمر لا يخلو منهم برضه، لكن طبعاً في فلسطينيين كتار وكلهم يلبسوا الشال الفلسطيني، الأمر لا يقتصر على الإخوة الشيوعيين)، وضحكت عالياً فشاركتها في الضحك، لكن أحلام عبت في وجهينا وقالت: (يا سلام يا اختي انتي وهي! وما لهم الشيوعيين بقي؟!)، نظرت إلى أحلام متسائلة: (إنتي رجعتلهم تاني ولا إيه؟!)، (لا بس أنا باحترمهم جداً رغم اختلافي معاهم في بعض الأمور، على الأقل مش جهلة ومتخلفين زي الإسلاميين دول)، هنا ردت عليها منى التي تميل إلى الفكر الإسلامي: (وبعدين بقي! مش قللتك ميت مرة ما تقوليش عليهم إسلاميين دول متأسلمين مش إسلاميين)، (خلاص ما تزعليش المتأسلمين دول!).

بدأ الاحتفال فتمت دعوتنا للدخول إلى قاعة المسرح، بعد الكلمات الحماسية التي ألقاها رئيس المركز وعدد لا بأس به من الشخصيات الفلسطينية البارزة التي تعيش في القاهرة، بدأ الحفل وامتألت القاعة بالأغاني والأهازيج الفلسطينية، التي كانت منى وأحلام ترددانها وتصفقان لها جذلتين، بينما تقبض كل واحدة منهما بين الحين والآخر على يد الأخرى بحميمية شديدة افتقدتها في صديقة طوال حياتي، كم شعرت بالغيرة منهما لأنهما تحفظان عن ظهر قلب أغاني بلدي، وتنتقان اللهجة الفلسطينية بسهولة ويسر، وتعرفان الكثير عن القضية التي يجب أن تكون قضيتي أنا قبلهما، وجدت رغبة عارمة تتقد داخلني في أن أبدأ منذ تلك اللحظة رحلتي نحو بلادي، ليس بالضرورة أن أذهب إليها وأعيش بين ربوعها، ولكن علي أن أستحضرها داخلي، تماماً مثل أحلام ومنى اللتين تتنفسانها برغم أنهما ليستا فلسطينيتين مثلي. بعد انتهاء الحفل طلبت من أحلام أن تعرفني ببعض

الشخصيات الفلسطينية الحاضرة، فسأقتني مباشرة إلى الدكتور مسعود مفلح نواره، كاتب سياسي مشهور ومتخصص في الشؤون العربية الإسرائيلية، كانت أحلام تتحدث معه كصديق حميم لها، بينما سرت رعدة قوية في أوصالي وأنا أمد يدي إليه لأصافحه، بعد أن عرفتنا أحلام ببعضنا البعض منهيّة كلامها للدكتور مسعود بهذه الجملة: (على فكرة سهام هي صاحبتني الفلسطينية اللي حكيتك عنها كثير قبل كده)، فhez رأسه ناظراً إليّ بتمعن وقال: (واللهي؟! ده شيء عظيم جداً)، فسألته وأنا أشعر بالغیظ من أحلام التي لا أدري تحديداً ما الذي قالت له عني: (هو إيه اللي عظيم جداً؟!))، وقبل أن يجيب استأذنتني أحلام في أن تذهب إلى منى حتى لا تتركها وحدها، وسلمت على مسعود وبسرعة البرق اختفت من أمامي، شعرت بارتباك حقيقي وأنا واقفة أمام مسعود مفلح، لاحظته بالتأكيد وعاد إلى إجابة سؤالي الاعتراضي قائلاً: (العظيم يا ستي إني أقابلك، أحلام حكّت لي كثير عنك.. وهي بالمناسبة بتحكك وعارفة إن جواكي حاجات كثير غير اللي انتي بتظهرها، كمان حكّت لي على قيادتك لمظاهرة كبيرة في الجامعة يوم حادثة الحرم الإبراهيمي)، (ماقدتش أي مظاهرات.. أحلام بتحب تهول)، تجاهل كلامي وقال: (على فكرة أنا كمان عايش في القاهرة من سنين طويلة جداً وإن كنت مش من أم مصرية، لكن في النهاية أنا زيك لا أعرف أي شيء عن فلسطين، كل اللي أعرفه هو مصر، عايش فيها ومش باعرف أتكلم باللهجة الفلسطينية والموضوع ده مش مضايقتي، الانتماء لوطن مش محتاج مكان ولهجة بقدر ما هو محتاج ينمو داخلنا، بإننا نعرف بلدنا كويس ونحاول نعمل أي شيء عشانها حتى لو من بعيد، حتى لو كان مجرد غنا.. المهم إنها تكون متيقظة جwana). أخذني كلامه وعذوبة صوته، ووجدتني أشعر بارتخاء في جفوني، وأنظر إليه مستحثة إياه على أن يكمل مد يديه لي كي ينتشلني من متاهتي، لكنه فجأة نظر إلى الأمام وقال: (بيدو إني

لازم أسيبك دلوقت.. إنتي عارفة فين مقر المركز الثقافي الفلسطيني؟!، (لأ!)، (في شارع كمال حسني المتفرع من القصر العيني، أما توصلي هناك أسألني أي حد على العمارة وهو يدلك، هو مجرد شقة في عمارة في الدور الأول.. أنا هاكون هناك يوم الحد الساعة حذاشر صباحاً.. تعالي عشان نقعد نتكلم ونشوف إيه اللي انتي محتاجاه، وإيه اللي عايزة تعرفيه بالضبط)، ثم ربت على كتفي سريعاً ومضى، أصابني إحساس مبهم بالانتماء إلى هذا الرجل، ربما شعرت بأنه مشروع لأب بديل آخر ولكنه هذه المرة يتميز بكونه فلسطينياً!

عدت إلى المنزل لأجد علي قد اتصل بي مرتين، وأبلغته أمي تماماً مثلما أبلغتها أنني في موعد عمل وأني قد تأخر قليلاً، بالطبع علي يدرك تماماً أن طبيعة عملنا في قسم التحقيقات لا تتطلب مقابلة المصادر ليلاً، لكنه بطبيعة الحال لم يذكر ذلك لأمي، حملت الهاتف وانتحيت به جانباً قصياً في الصالة لا يمكن أحداً من سماع صوتي المنخفض، واتصلت بعلي الذي تحدث معي بهدوء المعتاد، فحكيت له عن كل ما حدث وعن ترددي في إبلاغه كي يصحبني إلى هناك، وعن مسعود مفلح ودعوته لي يوم الأحد القادم، وبعد أن أنهيت اعترافي سألني إن كنت أريد بالفعل الدخول إلى هذا العالم، فأجبت به حماس لم أعهده في نفسي من قبل: (أيوه يا علي نفسي.. نفسي قوي)، فقال بصوت مستسلم لأمر لا يرضى به: (اللي تشوفيه، بس كل اللي أنا عايزه منك إنك ماتخليش الموضوع ده يبعدنا عن بعض).

كان علي يتمتع ببصيرة قوية، فلقد رأى ما لم أتمكن أنا من رؤيته في خضم شهوتي العطشى تجاه كل شيء فلسطيني، خاصة أن الأحداث التي تلاحقت على القضية الفلسطينية آنذاك ساعدت على تأجج مشاعري تجاه تلك الهوية، التي بدأت أتلصص خطاي نحوها بجدية لأول مرة منذ أن علمت بانتمائي البيولوجي إليها، فلقد عقدت قمة

عربية أمريكية أوربية في شرم الشيخ، تجمع فيها القادة والسياسيون من جميع أنحاء العالم وحضرها كلينتون رئيس الولايات المتحدة، تحت شعار (مؤتمر مكافحة الإرهاب)، وأقرت القمة بما يسمى حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها، مما دفع شيمون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى استغلال ذلك الإقرار على الفور، وارتكاب مجزرة قانا التي راح ضحيتها أكثر من مائة شهيد فلسطيني ولبناني. كانت تلك الحادثة فاجعة أصابت الجميع، أذكر إلى اليوم وجه مسعود مفلح وكل الذين تعرفت بهم من خلال المركز، غمامة سوداء تسبح على وجوههم التي تغضنت فجأة، وزادت من أعمار كل واحد منهم عشر سنوات على الأقل، وأحلام التي أخذت تبكي متشنجة لاعنة حملها الذي لا يمكنها من المشاركة في المظاهرات التي اكتسحت القاهرة بادئة بالجامع الأزهر، وواصلت إلى جميع النقابات بما فيها نقابة الصحفيين. كانت المرة الأولى التي تفصح فيها أحلام عن عدم اتفاقها مع زوجها، فقد قالت لي: (غاوي يتشدق بالمبادئ والمثل العليا والحكايات المملة المكررة عن نضاله ومواقفه السياسية، وفي الآخر يقولي إياكي تشتركي في أي مظاهرة من المظاهرات دي، تغور فلسطين.. انشالله كل الفلسطينيين يموتوا لكن ابني ما يجرالوش حاجة)، ثم ضربت بكفها بطنها بعنف والدموع تتسابق على خديها، حينها فرعت وخطفت كفها رافعة إياها لأعلى قائلة: (حرام عليكي يا أحلام ماتعمليش كده، سالم عنده حق إنتي حالك ما تسمحش إنك تشاركي في بهدلة المظاهرات، وبعدين كفاية مشاعرك)، (مشاعري؟! إيه فايده المشاعر والبكا والناس بتموت زي الحشرات بمنتهى السهولة؟! إيه فايده إني أجيب طفل للعالم والأطفال روسهم بتنفصل عن أجسادهم بقنابل بيريز العنقودية؟! يا سهام إحنا لازم نعمل حاجة حقيقية.. لازم نعمل حاجة أقوى من التظاهر).

(إيه فايده المشاعر؟!).. أثار تساؤل أحلام في نفسي ثورة عارمة على نفسي، أربعة وعشرون عاماً في هذه الدنيا هربت فيها من هويتي، حتى صرت جاهلة تماماً كل شيء يقع على أرضها، وعندما أفقت وبدأت العودة إليها اكتفيت بقراءة بعض الكتب التي أعطانها مسعود مفلح، كتب عن المجازر والتجهير وحرب ثمانية وأربعين والمقاومة الفلسطينية في لبنان وووو.. كلها كتب تحكي عن ماض وتاريخ طويل من الكفاح والألم، لكنها لم تستطع أن تجعلني أعيش هويتي أو أشعر باستردادي لها، فقط كانت المشاعر المتدفقة حزناً على كل ما ضاع من أرض وأنفس بريئة، مشاعر فقط.. وإيه فايده المشاعر كما قالت أحلام؟! وتولدت داخلي دون أن ألحظ رغبة جارفة في ترك كل ما أحياء ورأيت لأعيش حياة فلسطينية حقيقية فاعلة، اتصلت بسعيد مفلح وأخبرته برغبتني وأني لا أعرف ماذا أفعل كي أعيش هذه الحياة، فقدم لي للتو إجابة عن سؤالتي: (إحنا محتاجين في المركز مسئولة إعلامية بعد ما سافرت اللي كانت موجودة لرام الله، إيه رأيك تيجي تشتغلي مكانها؟! خاصة وإنك خريجة إعلام ووجودك في جريدة الجماهير مجرد تضييع وقت، لأنهم لا يمكن يعينوكي عندهم طالما مابتمليش الجنسية المصرية). وافقت على الفور دون أدنى تفكير أو حتى استشارة علي في الأمر، الذي خرج عن هدوئه لأول مرة منذ أن قابلته قائلاً لي: (أول الغيث يا هانم، دلوقت سيبتي الجرنال وبكرة تسبيني وتروحي تتجوزي واحد فلسطيني، عشان حياتك كلها تبقى فلسطينية زي ما انتي عايزة!)، (إنت ليه بتربط نفسك بالجريدة؟! إنت مش شغل إنت خطيبي وحبيبي وما فيش علاقة بينك وبين الجرنال بالنسبة لي)، أنهى حوار المتوتر معي بقوله إني حرة، وإن الأيام سوف تثبت لي كلامه، وتركني ليختفي عني شهراً كاملاً، انغمست فيه داخل عملي الجديد، والذي وضعني في قلب فلسطين دون أن أذهب إليها، فكل شيء يحيط بي فلسطيني، الزملاء والكتب والندوات التي أشرف

على تنظيمها، المراسلات بين المركز والسلطة الفلسطينية في رام الله، والوفود الفلسطينية التي تأتي لزيارة القاهرة في مباحثات سياسية، والمتقنون والأدباء والفنانون الذين يأتون إلى القاهرة من جميع بقاع الأرض، أو كما يطلقون هم عليها أرض الشتات، كي يقيموا نشاطات ثقافية تذكر بتراث فلسطين، وتحييه حتى لا يمحي من الذاكرة. وبرغم انشغالي الشديد وعدم عودتي إلى المنزل إلا للنوم كل مساء، إلا أن أمي لم تمل يوماً من تقريعي لتركي جريدة الجماهير وإهمالي خطيبي الذي أنعمت السماء به علي، كانت لا تدري أنها بذلك تتفربي من علي الذي حصرته في مجرد طوق للنجاة من تعاسة هويتي التي أنخطب بعبء حملها طوال حياتي، مما كان يؤجج عنادي ورفض المتعمد لإجراء مكالمات تليفونية له لأسأله عن غيابه، كنت أعلم أن علي لا يرفض حماسي لفلسطين، ولكنه يخاف علي من طريق لا فائدة ترجى منه، ويخاف أن يبعثني هذا الطريق عنه، لكني لا أدري ما الذي جعلني أمعن في عنادي ولا أتصل به، في حين كنت أنتظر اتصاله بي مع كل رنة لجرس الهاتف، إلى أن اتصل أخيراً وتحدث معي بصوت معاتب لتجاهلي له طوال هذه الفترة، فوجدتني أدعوه إلى زيارتنا في المنزل، لأنني اشتقت إليه كثيراً، لم تمر ساعة حتى حضر علي وجلسنا للتصافى، أخبرته بأن عملي بالمركز أصقل شخصيتي وأشعري بأن لي دوراً مهماً في الحياة، في حين كنت ضائعة طوال حياتي أبحث عن نفسي وهويتها، وأن اقترابي من المجتمع الفلسطيني داخل القاهرة منحني الإحساس لأول مرة بعدم افتقادي أبي وغيابه عني. كنت أقول له هذا الكلام وأنا نفسي لا أصدق، فبرغم التغيرات التي طرأت على شخصيتي منذ أن عملت في المركز، إلا أنني لم أعتز على إجابة لسؤالي التاريخي: (من أنا؟!)، فمسعود مفلح الذي منحني مشاعر أبوة جارفة واهتم كثيراً بتنقيفي وفتح لي باباً واسعاً على فلسطين، فنقل إلي الشعور بأنني أعيش داخلها في داخلي، لم يستطع

برغم نقاشاته الطويلة معي أن يجيب عن سؤالي بالطريقة التي
ترضيّني، فأنا لم أستطع أن أقضي على إحساسي بكوني مصرية
أيضاً، ولم أستطع التخلي عن رغبتني في العثور على أبي لأعلمه على
الأقل بأن له ابنة في الدنيا اسمها سهام.

في النهاية استطعت، سواء كنت صادقة أو كاذبة في ما قلته
لعلي، أن أعيده إلي، وأنهى أي خلاف بيننا لنعود كما كنا، وإن كان
ابتعادي عنه في العمل قلل من فرص لقائنا التي كانت تمتد يوماً
بطوله، أما وأنا أعمل في المركز فقد كنا ننتظر نهاية الأسبوع حتى
نمضي إجازتنا الأسبوعية معاً.

كانت أُمي في ذلك الوقت مشغولة بتجهيزي، وعلي أيضاً
مشغول بتجهيز منزل الزوجية، بينما أقع أنا في دائرة الحيرة أيهما
أختار، الانشغال بتجهيزات زواجي أم بعلمي الذي شكل بمرور الوقت
جزءاً من هويتي؟ كان الأمر محيراً بالفعل، إلى أن وضعتني الأقدار
أمام نفسي لأقرر ماذا أريد، لأتوقف عن الحراك المتذبذب بين
الطرفين، وأختار واحداً مرة واحدة وإلى النهاية دون العودة إلى السابق
مرة أخرى.

ذات يوم اتصلت والدة علي صباحاً بوالدتي، وأخبرتها بأنها
ستأتي مع علي ووالده اليوم لزيارتنا، تتبأت أُمي أن سبب هذه الزيارة
هو تحديد موعد الزواج، كانت سعيدة جداً وهي تقول لي ذلك، في حين
ارتعشت ابتسامة على شفتي، مضيت على أثرها مسرعة نحو عملي
وأنا أسأل نفسي لماذا لم أفرح بهذا النبأ؟!.. في العمل وجدت مسعود
مفلح في انتظاري، وبمجرد أن لقيني أخذني بين يديه معلناً عن مفاجأة
استلزمت منه اتصالات وتحضيرات طويلة طوال الشهرين الماضيين..
كنا في بداية شهر أغسطس، حيث قيظ الشمس يشعل النار في
الجدران ويطبق على أنفاسنا، سألته وأنا أمسح عرقي (إيه هي

المفاجأة؟)، فقال: (في فلسطين الجو مش حر أوي كده زي مصر!)، تعجبت من كلامه فلا توجد مناسبة لهذا الكلام، ولكنني قلت له ساخرة: (عرفت إزاي بقى وانت عمرك ما رحتها من ساعة ما سابها أبوك وأمك وانت عندك سنتين؟!)، (أبويا وأمي قالولي، وكمان خلاص إحنا هانعرف بنفسنا!).. لم أفهم ما وراء هذه الجملة، ولم يخطر على بالي قط أن مسعود أتى لي بعرض كان مجرد رغبة سبيلها الوحيد للتحقق هو الحلم، أخبرني مسعود بأن السلطة الفلسطينية تقوم منذ مدة بالعمل على إعادة بعض الشخصيات البارزة من الفلسطينيين إلى غزة وأريحا، ليساهموا في بناء الدولة الفلسطينية الموعود بها دولياً، وأن اسمه وضع في قائمة تلك الشخصيات البارزة، أخيراً سيذهب ليرى فلسطين لأول مرة في حياته، بعد أن نزع أهله إلى القاهرة هرباً من مجازر العصابات الصهيونية حينها، وإن كانت سعادته لن تكتمل لأنه لن يتمكن من زيارة قريته أبوزريق، التي كانت تقع في جنوب شرق مدينة حيفا، والتي أزلتها عصابات الاحتلال من على وجه الأرض تماماً عام ثمانية وأربعين. لم أكن أدري ما علاقتي بهذا، خاصة أنه تحدث بصيغة الجمع في بداية حديثه، وقلت لنفسي بعد أن أبديت السعادة لأجله، إنه بالتأكيد كان يقصد أنه ومعه عدد من الفلسطينيين الذين يعيشون في القاهرة سوف يذهبون إلى رام الله، لم أتخيل أبداً أنه تمكن من الحصول على موافقة من السلطة بذهابي معه لزيارة البلد لمدة شهرين، وأنه سيحاول بمجرد تسلم عمله في أحد المراكز الثقافية أو الإعلامية هناك إيجاد طريقة يستبقيني بها، لأقيم في وطني وأبحث كما أشاء عن أبي أو عن أبناء عومتي.

هكذا وبكل سهولة تم تقديم إمكانية تحقيق حلمي لي على طبق من ذهب، أدارت مفاجأة مسعود عقلي، ونسيت تماماً علي وزيارته المرتقبة مساء مع عائلته لتحديد موعد الزواج، لكنني عندما

عدت مساء قابلتني أمي بعاصفة من السباب لتأخري، وأمرتني بالدخول فوراً لأخذ حمام والتزين لمقابلة أهل زوج المستقبل بشكل لائق ومحترم، دخلت من فوري لتنفيذ أوامر أمي وأنا أتمرغ في جبي اللزج الذي ألقيت داخله على حين غرة، ودون أدنى استعداد مسبق لمواجهة دبق حوائطه، التي لا يمكن تسلقها دون الانزلاق إلى أعماقه مرة أخرى مترنحة من أثر السقوط!.. ماذا أفعل الآن؟ أختار علي وأدفن حلمي الوحيد الذي عشت به متيقنة أنه سيجيب عن سؤالي المحير إلى الأبد؟ أم أختار السفر إلى فلسطين وأحاول العثور على أبي، الذي لا يوجد أي شيء يؤكد أنني من الممكن أن أعثر عليه هناك، بل لا يوجد حتى ما يؤكد أنه مازال على قيد الحياة، وأترك علي حبيبي ورائي إلى الأبد أيضاً؟

كان الاختيار صعباً، بل يكاد يقترب من حدود المستحيل، لكنني حاولت الفوز بكليهما ودخلت في مفاوضات مع علي، كي يمنحني فرصة السفر لمدة شهرين ويؤجل زواجنا قليلاً حتى أعود، لكنه أكد لي أنني لن أعود، وأن علي أن أختار إما هو وإما وهم العثور على أبي.. فاخترت الوهم!

كل ما في غزة غير منطقي إلا العنف، فهو الأمر الوحيد المنطقي فيها، فغزة حالة استثنائية على كل المستويات، استثنائية بسبب ما صنعه التاريخ وحتى الجغرافيا فيها، وبالطبع بسبب ما صنعه الاحتلال، استثنائية بما أفرزته عقود من الاحتلال والمقاومة وكثافة سكانية عبثية، قابلها شح لا يتخيله بشر في الموارد، لا يمكن لأحد أن يدرك تلك المأساة المعروفة بقطاع غزة، إلا إذا قدم إليها وألقى نظرة عميقة مطولة، حينها لن يملك سوى الوقوف مذهولاً أمام واقع مر، لا يمكن وصفه سوى بالكارثة، بينما يدهش لكيفية استمرار الحياة فيها.

دائماً ما كنت أقرأ وصف إسرائيل غزة بأنها قنبلة موقوتة، لم أتيقن دقة الوصف إلا عندما بدأت رحلة البحث عن أبي، بعد مرور أسبوع من حط رحالنا في رام الله، وتسلم مسعود مفلق نورة رئاسة تحرير مجلة (الكروم) الثقافية، كان سعيداً بوجوده على أرض وطنه، الحلم الذي عاشه طوال ستة وأربعين عاماً مع حكايات والديه منذ نعومة أظفاره، حيث وطن أخضر فسيح، يسبح في أشجار الزيتون اللانهائية، وشمس دافئة تلف السائرين أسفلها وتمسح على جلودهم بحنان، وتلوج تحيل الشتاء إلى جنة بيضاء ناعمة كقطن نزع للتو من ثمرته، هذا الوطن الذي حاول مسعود خلقه حتى وإن لم يجده، وعاش فيه برغم غيابه.

كنت أكثر يقظة من مسعود في تعاملي مع كل شيء منذ أن وُطئت قدماي أرض رام الله، فأنا لم أعش حُلماً مماثلاً لحلمه يوماً، ولم يأخذ الوطن أي ملامح رسمها لي أبوي، كنت أعلم تماماً هدفي الذي ضحيت من أجل الوصول إليه بعلي، ذلك الدفء والاحتواء الذي لم

أشعر بهما أبداً إلا معه، ضحيت به من أجل إجابة عن سؤال أزلي عشت عمري كله بحثاً عنه، هذا ما كنت موقنة منه، وهذا ما شرعت في العمل من أجله لحظة وصولي.

في البداية تلقى الجميع رغبتني بخفة، لم يعترض أحد قائلين: (انشاء الله في أقرب فرصة)، وعندما ألححت في طلبي واضحة إياه على طاولاتهم في كل جلسة أو اجتماع أو رحلة لتعريفنا بأرجاء رام الله، أدركوا أنه ليس مجرد رغبة فضولية وإنما شيء أشبه بالمصير، فبدعوا يشرحون لي مدى خطورة الأمر، وأن غزة ليست مجرد مدينة يمكن زيارتها في أي وقت، بل يجب إجراء ترتيبات كثيرة قبل ذلك، لكنني أعلنت بوضوح أنني أريد الذهاب مهما كلفني الأمر، وأنني لا أريد أحداً معي.. فقط اذهبوا بي إلى هناك واتركوني!

الحقيقة أنني ما كنت لأتمكن من الذهاب فعلاً إلا بمساندة مسعود لي، وتحمله أمامهم مسئولية كل ما يحدث لي، فقط طلب منهم توفير منزل من منازل أحد أصدقائهم هناك، لأنزل فيه وأعيش في كنفه إلى أن أقرر العودة، بالفعل أجروا اتصالات بواحد من أصدقائهم هناك يدعى جهاد إبراهيم عايش، شاعر رفض مغادرة غزة تحت كل الظروف وقرر البقاء إلى أن يموت فيها، لكنه لم ينجب أو حتى يتزوج كي لا يعيش فجيرة فقد الأبناء، مكتفياً بفجيرة واحدة يعيشها كل لحظة.. فجيرة فقد الوطن.

ذهبت إلى غزة في سيارة أشبه بالمدربة الحربية، كانت كل تلك الترتيبات والتأمينات تصيبنني بالرعب الحقيقي، ورغبت كثيراً في التراجع وحمل حقيبتني لأعود إلى القاهرة، لكن شيئاً ما في داخلي كان يدفعني للمضي قدماً في رحلتي الخطرة، وصوتاً عالياً يدوي في أذني أن تعالي ولا تهربي.. غزة.. غزة.. لا بد أن أبي هناك.. أكيد أبي هناك.

جهد إبراهيم عايش، شاعر في الخمسين من عمره، في ذاكرته يرقد ألم التشريد والموت الذي تعرض إليه مع أهالي قريته (إشوع)، التي دمرها الصهاينة عام ١٩٤٩ وهو بعد طفل له من العمر ثلاث سنوات.. ثلاث سنوات؟! هكذا صرخت في وجهه متسائلة عن كيفية تذكره شيئاً وهو في مثل هذا العمر، فنظر إلي يقطر من عينيه فرع قديم ساكن في مركز بصره منذ الأزل، وقال: (عندما تكون الأحداث قاصرة على الحقائق الغناء والألعاب المتناثرة حولي وذراعي أُمي تهدداني وأنا مستريح بينهما، ربما لا يبقى حينها في ذاكرتي شيء من هذا العمر.. لكن عندما تكون الذكرى منزلاً يتداعى فوق الرأس، وأماً تخطف طفلها من بين الأحجار المتساقطة لتهرب في آخر لحظة قبل أن ينهار المنزل كله على رأسينا، وتجري وتجري إلى أن ينهكها التعب، فتسقط على الأرض ميتة وأجلس إلى جوارها أناديها أن استيقظي وفري بي من هذا الهول، فلا تجيب.. إلى أن يعثر علي أحدهم ويعلم بأنني ابن إبراهيم عايش مدرس الابتدائي بالقرية، فيذهب بي إلى أبي الذي يدور باحثاً في كل مكان عني وأُمي، ويسلمني له معلماً إياه بوفاة زوجته، فيرحل ملماً أساء المبعثر على فقد زوجته وبيته وحياته كلها داخله، مخرجاً منه حكاية لكل يوم يزودني بها إلى أن يموت.. أعتقد حينها يكون من السهل التذكر!).

جهد إبراهيم عايش، هذا الرجل الذي تمنيت في كل لحظة أمضيتهما معه أن يكون أبي، أباً لكل أيامي التي لا أعلم لها حدوداً واضحة أو هوية، أباً يعلمني ما لم تعلمه لي المدارس ولا حتى الحياة، أباً يفتح بوابة ذكرياته وتجاربه ويفضي بها إلي، فيرشدني إلى الطريق، ويمسك بيدي مبعداً إياي عن الحفر والشوارع المظلمة، يمنحني شمعة يضيء بها أحلامي وقلماً أخط به مستقبلي، أباً حلمت به دوماً بعدما اكتشفت أن بابا فؤاد ليس أبي وأنه يؤدي دوراً ليس له، يؤديه بحب

وحنان نعم، لكنه ليس ذلك الحب الذي اشتهيته ولا الحنان الذي تقت إليه دوماً.

جهاد الذي حرم نفسه بنفسه الزواج والأطفال، حيث لا متعة فيهما في ظل مسلسل الذبح اليومي.. ندم عندما عشت معه على أنه حرم نفسه هذه المتعة، حتى وإن كان من الممكن سلبها منه بوحشية في أي لحظة، أحبني وطلب مني أن أكون ابنته التي لم ينجبها قط، فوافقت سعيدة بهذا العرض الذي تمنيته في داخلي وخفت من إعلانه، وفعلًا بدأ يمارس ذلك الدور بعد أيام قليلة من استقراره عنده.

في البداية وما أن وصلت عنده وتركني السائق عائداً سريعاً إلى رام الله، سألني بطريقة فظة تقريباً عن اسمي بالكامل، فأجبت: (سهام زهران سميح البنا)، (إنتي من بيت البنا؟!.. يعني فلسطينية عن جد؟!)، نظرت إليه بدهشة مستنكرة استنكاره ولم أجد شيئاً أجيبه به، فصمت لكنه لم يكتف بما قاله وأعقب كلامه قائلاً: (وليش جاية هون يا بنت القاهرة?!)، اتسعت حدقتا عيني استنكاراً ودهشة منه، ولم أجد سوى أن أقول: (واللهي هما اللي قالوا إنك صديق حميم ليهم، وممكن أنزل ضيفة عليك، لكن لو مش عايز زي ما هو باين إنك تستضفني ممكن تتصل بيهم يبجوا يخدوني بكرة!)، حينها تبدلت ملامحه فوراً من التحفز إلى الشعور بالخجل وقال من فوره: (لا.. لا والله ما هادا قصدي، إنتي ضيفة عزيزة وغالية لحد ما ترجعي على رام الله). شيء ما في داخلي أخبرني بأنه ليس كما يبدو، لكنني لم أحاول الدخول في تفاصيل حياته أو شخصيته، فقط كنت أريد أن يصير حليفاً لي كي يساعدني على البحث عن أبي، خاصة أنه قال لي إنني من بيت البنا، إذن يعلم من هم أهلي، ظلت هذه الجملة تتكرر داخلي ولا أطيع الانتظار حتى يهدأ الجو بيننا لأبادره بالسؤال عن بيت البنا هذا، إلى أن طرق باب الغرفة التي خصصها لي معلناً وقت الغداء، فخرجت

وجلست معه إلى مائدته التي وصفها بالتواضع، بالطبع لم أكن قد اعتدت بعد أصناف الطعام الفلسطينية وإن كانت تبدو لي شهية، فجلست لحظات أحملق في الأطباق وأحاول التعرف بها! لكنه لم يمد لي يد العون مثلما كان الناس في رام الله يفعلون معي، خاصة عندما علموا أنني لم أولد وأعيش في القاهرة فقط، بل عشت مع أسرة مصرية صرف لا يوجد بها أي ملمح فلسطيني، سوى خانة الهوية بشهادة ميلادي، أما جهاد فقد كان متحفظاً ضدي ويتعامل معي على أنني دخيلة على كل ما هو فلسطيني، وهذا بالطبع لأن الناس في رام الله حكو له عني وعن السبب الكامن وراء رغبتني الملحة في القدوم إلى غزة.

شرعت في الأكل دون أن أعلم اسم ما آكله واكتفيت بطعمه اللذيذ.. كان الصمت دائراً حول مائدتنا التي لا تحمل سوانا على كرسيين متقابلين، إلى أن قررت أن أوقف الصمت بحركة شجاعة ليست من خصالي التي أعرفها على الأقل! ولكنها أحياناً ما تظهر دون أي وعي حقيقي، تماماً مثل موقف مظاهرة مذبحة الحرم الإبراهيمي في الجامعة.. أخذت أتنح لمدّة دقيقة، ثم قلت فجأة: (أستاذ جهاد.. أنا يمكن أبان ماليش دعوة بأي حاجة فلسطينية، والحقيقة أنا عارفة ده كويس عن نفسي، أنا ليا اتنين من صديقاتي برغم إنهم مصريات إلا إنهم أكثر فلسطينية مني.. بس صدقني دي مش غلطتي أنا، دي غلطة الظروف، ويمكن غلطة أبويا وأمي.. مش عارفة لكن بالتأكيد مش غلطتي).

انطلقت، في ظل صمته المطبق وعدم مقاطعته إياي بأي كلمة، في سرد حكايتي وسؤالي العتيد الذي أبحث له عن إجابة، فقط ترك ملعقته وتوقف عن ازرداد الطعام، عاقداً ذراعيه فوق صدره ومنصتاً تماماً لي، عندما توقفت منهية حكايتي قائلة: (كان من الممكن

أوفر على نفسي كل المشاكل اللي هتقابلني هنا وأنسى هويتي بكل بساطة وكل حاجة عن أبويا، بمجرد اختيار الزواج من حبيبي، وبعد خمس سنين بس هاخذ الجنسية المصرية وأتعين في مؤسسة صحفية كبيرة في مصر، وأمسخ كل شيء له علاقة بفلسطين بالنسبة لي وماحش هيلومني، بالعكس كل الناس اللي حواليه هيباركوا الخطوة دي وهيستريحوا معايا من مشاكل اسم فلسطين، اللي عامل زي عفريت العلبة بالنسبة ليهم!).

مرت على الأقل خمس دقائق وجهاد ينظر إلي بصمت، عيناه المركزتان على وجهي أريكتاني، فأخذت أعبت بالملاعق والأطباق دون أن أضع شيئاً في فمي، أخيراً قررت النهوض حتى أتخلص من نظرتة المثبته علي والتي لا أدري لها معنى، فأشار إلي بأن أعود إلي مقعدي، ناصحاً إياي بأن أكمل طعامي، وبعد ذلك نتحدث ونحن نحتسي فنجالاً من القهوة.. شعرت بالارتياح ينساب داخل نفسي، وتأكدت أنه سيقدم لي يد العون بلا شك.

بعد انتهائنا من الطعام وفي أثناء احتسائنا القهوة، التي أعدها بمهارة، بادرني بالحديث دون انتظار لحظة واحدة: (الأمر ليس سهلاً يا سهام كما تتصورين، غزة ليست أرضاً مستقرة وهادئة يمكن العثور فيها على إنسان ضائع منذ سنين، أنا لا أريد أن أثبط عزيمتك، لكنك يجب أن تعرفي ما هي غزة أولاً قبل أن تقرري نهائياً إن كنت تريدين الشروع في عملية بحثك عن والدك، أو بمعنى أصح عن هويتك كما فهمت منك).

بالطبع لم أفهم شيئاً من كلامه، خاصة أنني جئت إلى رام الله مكلفة بالتنبؤ بالفشل منذ البداية، وظننت أنه سأكمل لعب ذلك الدور الذي بدأه معي أمي وأبي فؤاد، فقلت له بعناد صريح: (مهما كان

الأمر سأبحث عن أبي وسأعثر عليه)، ابتسم وعاد ليكمل حديثه دونما تعليق واحد على جملتي الاعتراضية:

(بين عام ١٩١٧ وعام ١٩٤٨ كانت غزة جزءاً من فلسطين تحت الانتداب البريطاني، أما الحدود الحالية لقطاع غزة فهي نتيجة لحرب ثمانية وأربعين، إذ احتلت إسرائيل ثلثي غزة وبقي قطاع هامشي من الأرض مساحته ٣٦٠ كيلومتراً مربعاً، صار اسمه قطاع غزة، وقد وضع تحت الإدارة العسكرية المصرية بموجب اتفاق الهدنة بين مصر وإسرائيل.. في ليلة الحرب كان يعيش في هذه المساحة ثمانين ألف فلسطيني، وفي خلال أيام قليلة تدفق أكثر من مائتي ألف لاجئ إليها، وهكذا انسلك قطاع غزة عن غزة الحقيقية وولدت قضية اللاجئين فيه، وتغيرت الحياة تماماً في تلك الأرض، حيث أوجدت الكثافة السكانية غير الطبيعية فيه خللاً حقيقياً في كل النظم الاجتماعية والاقتصادية، وعندما جاء الاحتلال الإسرائيلي بعد هزيمة سبعة وستين، ازداد الوضع اضطراباً، خاصة بعد أن سيطرت إسرائيل على جميع الموارد المائية، ومارست قمعاً مطلقاً على كل أشكال التنظيمات السياسية والاقتصادية، من خلال إجراءات وحشية زارها ظهور المقاومة).

رشف جهاد من فنجاله بهدوء، ساحباً نفساً عميقاً من سيجارته المشتعلة بين أصابعه، ثم عاد ليكمل معلوماته قائلاً:

(لا يقتصر الأمر على ذلك فقط، فلو كان هذا كل شيء لما أعاقك عن رحلة بحثك، ولكن مع ظهور المقاومة بعد سبعة وستين ومنظمة التحرير الفلسطينية بوجودها العسكري في غزة والعمليات الفدائية التي استهدفت الجيش الإسرائيلي، ردت إسرائيل بإجراءات عنيفة، تتلخص في اعتقال المقاومين والمتظاهرين والسياسيين، ثم طردهم.. أكثر من ستمائة غزوي تم طردهم بين ١٩٦٨ و ١٩٧١، وفي عام ١٩٧٠ عندما تولى أرييل شارون قيادة المنطقة العسكرية الجنوبية،

بدأ حملة للتخلص من سكان قطاع غزة فجرف ألوف المنازل، وشرّد نحو ستة عشر ألف لاجئ، انتقل معظمهم إلى العريش في شمال سيناء، في حين أبعد نحو اثني عشر ألفاً من أهالي الفدائيين إلى مخيمات في صحراء سيناء).

توقف مرة أخرى مع رشفة جديدة وسحبة من تبغ سيجارته، سحب معها روحي، فمن الممكن أن يكون أبي وعائلتي ضمن هذه الألوف المهجرة، أو التي بالتأكيد لقي كثيرون منها حتفهم أثناء كل هذا الجنون، نظرت إليه من جوف موتي الذي زرعه بكلامه في حلمي المبتور، وقبل أن أقول أي شيء قال لي:

(يا عزيزتي هناك أيضاً مشكلة مهمة يجب أن تتعاملتي معها، فحسب كلامك والدك كان في القاهرة عندما وقعت نكسة سبعة وستين، وأنه ترك والدتك أواخر واحد وسبعين قبل أن يعلم بحملها لك؟).

(نعم.. وما المشكلة في هذا؟!)

(المشكلة أنه بين حزيران سبعة وستين وكانون أول ثمانية وستين، أبعدت إسرائيل نحو خمسة وسبعين ألف فلسطيني لتخفيض عدد سكان القطاع، كما منعت عودة نحو خمسين ألفاً من سكان غزة صادف أن كانوا خارج القطاع عندما احتلته).

هنا كانت النهاية، فوالدي لم يكن موجوداً في غزة في أثناء الاحتلال، وبالتالي لم يستطع العودة.. قضى الأمر وعلي أن أجمع أشياءي وأعود مطأطئة الرأس إلى القاهرة، أحاول اللحاق بالواقع الذي أدّرت له ظهري في محاولة للبحث عن سراب.. نعم هويتي سراب! وأبي لن تكون له ملامح تغلف ذاكرتي، أو صوت يؤنس غريتي اللانهائية، أما أحلامي فمصيرها التحلل داخل قبر بلا اسم ولا زهور، قبر بلا شاهد يعرفه به المارون إلى جواره، قبر نكرة تماماً مثلي، لا

يحمل هوية يعترف بها الناس، ولا أفق يظلمه ويحمي وجوده بضع سنين قادمة.

لقد وضعني جهاد داخل الحقيقة التي لم يستطع أحد أن يوضحها لي، وتساءلت إن كان مسعود مفلح يعلم كل هذه الحقائق أم لا؟ وإن كان يعلمها فلماذا لم يصارحني بها في القاهرة؟ مجنبي رحلة لا طائل من ورائها، ومانحاً إياي فرصة لبدء رحلة التحلل من كل ما يعلق بي من فلسطين هذه؟!.. كنت في موقف لا يمكن أن يحسدني عليه أحد بالتأكيد، لكنني فجأة تذكرت قول جهاد لي أول وصولي أنني من بيت البناء، إذن هناك عائلة أنتمي إليها باقية في ما تبقى من غزة، لذا دفعت بالسؤال أمام جهاد مطالبة بتوضيح، حينها ابتسم وقال: (إذن أنت جادة في هدفك ولن يثنيك عنه شيء؟!)، نظرت إليه متسائلة ودغدغني أمل يتسلل في القبو المظلم الذي ألقاني فيه جهاد بحكايته التاريخية المطولة، ثم عاد ليقول: (لن أعذك بأنك ستجدين أباك أو حتى إخوته، خاصة أن كل ما تعلمينه أنت عن اسمك هو زهران سميح، أما البناء فهو اسم العائلة، لكن على الأقل يمكنني أنؤكد لك أنني سأعرفك ببعض الناس من عائلة البناء، ربما استطاعوا أن يدلوك على خيط يصل بك إلى واحد من أبناء عمومتك).

فرحت ولم أدر بنفسي إلا وأنا ملقاة بين ذراعيه أقبله بحب حقيقي، قابله بضحكة عالية قائلاً: (شوي شوي علي أنا قلبي ضعيف خصوصاً مع البنات الحلوات!).

في اليوم التالي سارعت إلى ارتداء ملابسي بمجرد أن نهضت من الفراش، ثم خرجت نحو صالة المنزل أبحث عن جهاد الذي تخيلته مازال نائماً، لكنني وجدته إلى جوار النافذة يحتسي قهوته مع سيجارة تتصاعد أدخنتها فوق رأسه، مشكلة رسوماً سوريالية أشبه بشخصيته التي عشقتها في ما بعد، بمجرد أن شعر بي إلى جواره التفت إلي

بابتسامة خلابة أضاعت لي يومي، وقال: (نشيطه إنتي هاه؟!)، ابتسمت صامتة فأكد لي أننا لن نتحرك من المنزل قبل أن أتناول فطوري، وبرغم اعتراضاتي المتدلة بأنه ليس من الضروري أن يتعب نفسه وما إلى ذلك، قال مؤكداً: (مفيش عندي بنات ينزلوا بدون فطور.. بعدين شكل اليوم راح يصير طويل ولازم توكلي حتى تتحملي اليوم)، (يعني في خطة هنفذاها؟!)، (طبعاً أول إشي سويته بعد ما فقت الصبح، إني اتصلت بصديق إلي من بيت البنا اسمه إياد محمود البنا.. حكيت له عنك وأبدى استعداداه لمساعدتنا).

هكذا بدأت رحلة بحثي من عند إياد، مدرس اللغة العربية بوحدة من مدارس المرحلة المتوسطة بغزة، الذي أكد لي منذ البداية مثل جميع من قبله أن الأمل ضعيف في العثور على والدي، ولكن من الممكن العثور على واحد من أعمامي أو عماتي أو أحد أبناء عمومتي، وأوصى بأن نذهب جميعاً إلى واحد من شيوخ عائلة البنا، رجل يبلغ من العمر ثمانين عاماً ويحفظ في ذهنه خريطة كاملة للعائلة، لكن الأمر يحتاج إلى يومين حتى يجهز للقائنا به، حيث إنه يعيش تحت رعاية أحد أحفاده المتبقين من سلسلة أبنائه وأحفاده الذين ماتوا أو طردوا من غزة، أو قرروا الرحيل من تلقاء أنفسهم إلى أي مكان، يستطيعون العيش فيه حياة خالية من القلق والاضطراب اليومي المفروض على جميع أبناء غزة.. كلامه دفعني إلى التساؤل إن كانت أوصلو ستغير من الأمر شيئاً، لكنه أجاب بابتسامة مرة قائلاً: (نحن نعيش الآن هدوءاً مزيفاً، قد تعصف به أي ريح مهما كانت خفيفة.. أوصلو ليست الحل للمشكلة الفلسطينية، أو بمعنى أصح ليست الحل لمشكلة غزة، فغزة لم تعد تواجه الاحتلال فقط، لكنها تواجه مشاكل اقتصادية واجتماعية وخلقاً سكانياً ولده الاحتلال منذ سنين طويلة، وتحتاج إلى معجزة إلهية حقيقية لحلها).

كلام إِيَاد أثار في داخلي تساؤلات كثيرة، لم أستطع النوم دونما الحصول على إجابة لها، وبالطبع كان جهاد هو ملجئي الوحيد، كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءً عندما استيقظت من قيلولة طويلة بعد عودتنا من منزل إِيَاد، وجدت جهاد جالساً عند نافذته الأثيرة في يده سيجارته وأمامه فنجال القهوة على الطاولة الصغيرة التي تفصل مقعدين متقابلين، بينما يقرأ في ديوان لمحمود درويش.. جلست على المقعد المقابل وأنا أحاول البحث عن طريقة لاثقة أقطع بها استرساله في القراءة، لكنه . كما اعتدت معه بعد ذلك - يبادرني دوماً بإجابات لكل أسئلتي قبل أن أ طرحها.

نحى الكتاب جانباً بعد أن ثنى الصفحة التي توقف عندها، ونظر إلي بعينه الملغزتين، ثم قال بابتسامة جانبية على طرفي شفتيه: (هيه هات ما عندك يا فتاتي!).

ابتسمت في خجل من إزعاجي له قائلة: (أبدأ.. بس ياريت ما كنش مصدر قلق وإزعاج لك)، (بالعكس أنا بدأت أحس بقيمة وجود أبناء في الحياة معي.. إيش بدك تعرفي؟!)، (الكلام اللي قاله إِيَاد الصبح عن إن أوصلو مش هي الحل لمشكلة غزة، وإن المشكلة محتاجة معجزة إلهية.. قصده إيه من الكلام ده؟!)، (إنتي عارفة طبعاً إحنا عايشين بأي مخيم بغزة؟)، (أيوه مخيم خان يونس)، (طيب على ما يرتب إِيَاد موعد إلنا مع الشيخ اللي من بيت البنّا، نقوم بكرة بجولة في المخيم عشان تعرفي معنى كلام إِيَاد على الطبيعة)، (يعني مفيش عندك إجابة نظرية دلوقت؟!)، (بالتأكيد عندي، لكن إنتي حابة تسمعي

محاضراتي؟!)، (جداً).. ابتسم تلك الابتسامة الهادئة التي كانت شاطئاً رسوت عنده إلى النهاية، ثم قال:

(بعد نكسة حزيران حاولت إسرائيل تفريغ غزة من سكانها، مثلما ذكرت لك من قبل، وكانت إحدى أدواتها السيطرة على مصادر المياه، فقامت شركة ميكوروت الإسرائيلية بتولي شئون المياه السطحية والجوفية في القطاع والضفة، وبذلك صادر الاحتلال المياه ولم يعط إلنا إلا نقاطاً منها، وبالتالي ضربت الزراعة في غزة. على الجانب الآخر قامت إسرائيل بخطوات مصادرة مشابهة للأراضي، وضيقّت المناطق المأهولة إلى حد الاختناق، وأنشأت المستوطنات لتكثيف الوجود اليهودي داخل القطاع، حتى يصبح مستحيلاً على الفلسطينيين تكوين كيان مستقل، وعزل التجمعات الفلسطينية عن بعضها البعض لتقليل احتمال قيامنا بعمل موحد. سنة ١٩٩٣ كانت ست عشرة مستوطنة يهودية تطوق المدن الرئيسية في القطاع، عدد سكانها وصل في هذا الوقت إلى أربعة آلاف، يقطنون في ثمانية وثلاثين في المائة من مساحة القطاع، في حين يعيش ثمانمائة وثلاثين ألف فلسطيني في المساحة المتبقية.. هاه اكمل أم يكفي ما قلته؟!).

كانت المعلومات التي يسوقها لي جهاد مزودة بالنسب والأرقام، تمثل لي أبواباً تفتح على حقائق لم يكن لي بها علم من قبل، بل إنني متأكدة أن زملاء الجامعة من المتظاهرين لو وصلت إليهم تلك المعلومات، لهاجوا أكثر وكسروا جدران الجامعة، مخترقين صفوف الأمن المركزي الهادرة بسلحها المخيف، قاطعين الطريق سيراً على الأقدام نحو غزة لدحر الإسرائيليين تماماً!!.. عندما ذكرت ذلك لجهاد ضحك بصوت عال وقال: (مازلت فتاة صغيرة، وزملاؤك في الجامعة مازالوا صغاراً أيضاً.. الأمر ليس بهذه السهولة، ولو كان يسيراً إلى هذا الحد لكانت فلسطين حررت منذ زمن).

قاطعته متعجبة: (ما الأمر إذن؟!)، (يا بنتي.. قضية فلسطين قضية متشابكة ومعقدة، يدخل فيها أبعاد دينية وأساطير يهودية وفساد حكام ومصالح ملوك وأهداف استعمارية لدول كبرى.. وكل واحد من ها دول يمتلك جيوشاً كاملة يسيرها نحو مصلحته، دون أن ينظر إلى أي اعتبار آخر مهما كان)، (طيب والناس؟! والمشاعر الوطنية؟!)، (هذه أمور لا يعلمها سوى من هم مثلنا فقط، ولا يبكي عليها سوانا، ونحن لا نمتلك سوى نذراً يسيراً لا يضمن ولا يغني من جوع، ومع ذلك ندفعه عن طيب خاطر، لكنه للأسف ليس له تأثير حقيقي ولا يمكن له أن يغير شيئاً.. إنها لعبة كبار يا سهام ليس لنا فيها دور).

في اليوم التالي، عندما خرجت مع جهاد في سيارته التي ينتمي موديلها إلى الستينات، جلنا حول مساكن المخيم، وبينما يدور بسيارته وأنا أنظر إلى الشوارع الضيقة، والقاذورات التي تملأ كل الأركان، والنساء اللاتي يحملن صفائح المياه متوجهات إلى منازلهن، والشباب المعطل على الأرصفة ينفث دخان السجائر وينهشه الملل، أخذ جهاد يكمل حديثه الذي بدأه البارحة عن وضع غزة قائلاً:

(عمدت إسرائيل إلى تكريس تبعية غزة لها عن طريق تعميق اعتمادها على مصادر دخل خارجية، ثم إعادة توجيه التجارة إلى إسرائيل لتصب فيها حركة الأموال الفلسطينية، فقد استوعبت إسرائيل بسرعة كبيرة ألوف العمال الفلسطينيين في قطاعات مختلفة من اقتصادها، حتى تحول العمل في إسرائيل تدريجياً إلى مصدر رزق أساسي للغزاليين. ومع بداية الانتفاضة سنة سبعة وثمانين، كان دخل أهل غزة يعتمد بنسبة لا تقل عن ستين في المائة على العمل عند إسرائيل، وهذا أدى إلى تخلف الاقتصاد الذي بقي على حاله، نظراً إلى التبعية ومنع إسرائيل أي مشروعات فلسطينية مستقلة. مع ذلك أدركت إسرائيل فشل سياستها، تحديداً في كانون الأول سنة سبعة وثمانين،

عندما تحول تشييع جثث أربعة فلسطينيين قتلهم قوات الاحتلال في مخيم جباليا إلى ثورة حقيقية ضمت الألوف، وكانت الانطلاقة الأولى للانتفاضة التي أجبرت اليهود على الجلوس على طاولة التفاوض في أوسلو.. الحقيقة يجب أن تعلمي أيضاً أن الرد الإسرائيلي على الانتفاضة كان عنيفاً بما فيه الكفاية للقضاء على ما تبقى لدى الغزائين من قدرة على العيش، فقد خضعنا لحصار طويل ومنع تجول، وقطعت أرزاق كل من كانوا يعملون لديهم، وجاءت حرب الخليج لتقضي على القشة التي كنا متعلقين بها، فبعد الغزو العراقي للكويت وتأييد القيادة الفلسطينية لبغداد، طرد ألوف من الفلسطينيين الذين كانوا يعملون في الخليج من وظائفهم، وتوقفت التحويلات المالية التي كانوا يرسلونها إلى أهلهم، كما قطعت السعودية مساعدتها للفلسطينيين، وضربت غزة في مقتل عندما تم وقف كل صادراتها من الحمضيات إلى الخليج الذي كان أكبر مستورد لها، فأخذت مشكلة البطالة تتفاقم إلى حدود لم يعد اقتصاد غزة المدمر أصلاً قادراً على استيعابها).

كان كلام جهاد تقابله صور تؤكد في الشوارع الرثة التي يتجول بي خلالها في المخيم، أطيل النظر نحو الشوارع العابرة أسفل عجلات السيارة، ثم ألقى نظرة سريعة نحوه طالبة بها منه أن يكمل، فأكمل قائلاً:

(كان الواقع السياسي الجديد الذي نتج من اتفاق أوسلو (غزة) أريحا أولاً) لا يتمتع بالأريحية، فقد وقفت مدرعات الاحتلال على حدود مناطق السلطة المسيطرة على أكثر من ثلث الأراضي، بينما تركت الباقي للقيادة الفلسطينية لتثبت من موقعها أنها قادرة على بسط نفوذها في لمح البصر على باقي الأراضي! ولتشاهد أيضاً كيف ستفشل السلطة في حل مشكلة غزة، التي تحولت إلى مارد مروع يهدد الأمنين

ويسحبهم ليلاً واحداً تلو الآخر ليفنيه)، (كيف ذلك؟!)، (زادتك معلوماتي وما تشاهدينه شراهة أليس كذلك؟!)، (أرجوك أكمل).

(دخلت غزة مرحلة جديدة من التوترات السياسية الداخلية، والمواجهات أحياناً بين الفلسطينيين أنفسهم، ومع تأخر ظهور أي تحسن في الظروف الاقتصادية، ازداد التأييد لحركتي حماس والجihad الإسلامي، اللتين عارضتا من الأساس اتفاق أوسلو، ووجه أنصارهما غضبهم نحو الرئيس ياسر عرفات نفسه، ومع استمرار السياسات الإسرائيلية وتعثّر المفاوضات، لم يتحسن حال غزة لا اقتصادياً ولا سياسياً، وهذا العام وصل معدل البطالة إلى ستين في المائة، بينما يتكاثر السكان وتضيق بهم المساحة وتضيق بهم سبل الحياة. وبعد اغتيال إسحق رابين في تشرين الثاني العام الماضي، والعمليات الانتحارية التي نفذتها حماس والجihad في آذار ونيسان الماضيين، إضافة لفشل شمعون بيريز أمام نتتياهو في الانتخابات الإسرائيلية، أصبح هناك مناخ مضطرب حيال المستقبل، وهذا ولد مزيداً من الإحباط واليأس، أستطيع أن أبلغك أنه بلغ أقصى درجاته في غزة، وسينفجر مع أقل حادث يقع في الأيام المقبلة. فعندما تنتفي تماماً سبل العيش الكريم في الحياة، يكون الحلم بالجنة بعد الموت أقرب وأسهل بكثير من الحصول على بعض من الجنة على الأرض!).

انتهت جولتنا في المخيم، وانتهى معها أي إحساس بأهمية عثوري على والدي أو أي كائن كان من أفراد عائلتي، فما شاهدته وسمعته كان كافياً ليحبيب عن سؤالي العتيد: من أنا؟! أنا سهام زهران سميح البناء، ابنة فلسطيني من غزة، ولا أعيش واقع أهلي المؤلم، بينما أرتع في نعيم الحياة بين أمي ووالدي الذي عوضني القدر به فقدي والدي الحقيقي، أكملت تعليمي في هدوء برغم كل الماراثونات التي دخلها أهلي من أجل توفير دولارات تعليمي، المهم أنني أكملت

تعليمي، بعيداً عن أي قلق أو توتر، فقط توترات زرعته بيدي داخل نفسي المرفهة، البعيدة عن كل هذه المأساة التي كان من الممكن أن تكون واقعي، لو لم يتركني أبي ويختفي.

في اليوم التالي جلست مع جهاد وأفضيت إليه بكل ما أرقني ليلة أمس من أفكار، وكل التقرع الذي جلدت نفسي به على مدار ساعات الليل الذي لم يغمض لي جفن خلاله، فقال لي مهدناً إياي: (يا سهام سؤالك لم يكن سؤالاً مرفهاً، بل هو سؤال حقيقي، لك كل الحق في طرحه والعيش مؤرقة به، فأنت تنتمين إلى جيل مسكين، جيل لم نترك له شيئاً كي يعيش من أجله، ولم نوفر له زاداً يبدأ به طريقه الطويل.. الحياة في غزة مؤلمة نعم، لكن الحياة في القاهرة مؤلمة أيضاً، الشعوب العربية كلها تعيش آلاماً مبرحة تختلف في شكلها، لكنها تتفق في مضمونها، كلها نتيجة للخدعة العربية الكبرى التي عاشها جيلنا، خدعة تحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والقدرة على إلقاء إسرائيل في البحر بمنتهى السهولة! أنتم نتيجة طبيعية للسلب والنهب المنظم للذين تعرضت إليهما بلادنا على أيدي أعداء خارجيين، ثم على أيدي أعداء داخليين كان سلبهم أكثر إبلاماً، حيث سلبوا الروح أيضاً مع الجسد.. أنا لا ألومك ولا أتهمك بالرفاهية، بالعكس أنت وجيلك من الشباب في كل مكان من البلاد العربية لم تشهدوا حتى رفاهية الحلم الذي عاشه جيلنا!).

مس كلام جهاد شيئاً ما في نفسي وشعرت براحة كبيرة، لكنني قلت له مع ذلك: (أعتقد أنه من الرفاهية أن أكمل رحلة البحث عن بابا!!)، (بالعكس.. إنني لازم تكلمي رحلتك، لكن توعديني إنه مهما كانت النتيجة توخدي حقيبتك وترجعي على القاهرة)، (ليه؟!)، (لأن مكانك مش هون.. مكانك هناك مع حبيبك المصري.. روعي ابدئي حياة جديدة معاه، وجيبي ولاد علميهم صح وربهم على حب أوطانهم،

اوعى تحكي لهم أساطير زي ما حكيالكُم، إحكي لهم الحقيقة وعرفهم مين عدوهم الحقيقي، عشان يعرفوا هدفهم بسرعة وما يضيعوا وقت).

ظلت كلمات جهاد تدوي في عقلي طوال الأيام التي بقيتها في خان يونس، حتى وأنا عند الشيخ العجوز الذي أكد لي أن أولاد سميح البنا كلهم غادروا غزة من زمن طويل، فقد كان جدي ذا بصيرة ثاقبة، حرص على تعليم أولاده جميعاً وإخراجهم واحداً تلو الآخر إلى الخارج، منهم من ذهب إلى القاهرة وهذا بالطبع كان والدي، ومنهم من ذهب للعمل في الخليج، ومنهم من هاجر إلى الخارج.. وهكذا تقطعت جميع الأسباب أمامي للعثور على والدي أو واحد من إخوته، فقررت العودة إلى رام الله ومنها إلى القاهرة كما طلب مني جهاد، لكنني في اليوم الذي قررت أن أتصل فيه بمسعود مفلح ليرسل إلي سيارة تقلني إلى رام الله وقعت حادثة النفق، لتؤكد رؤية إباد محمود البنا الذي قال إن الهدوء الذي نعيشه الآن هدوء مزيف.. فقد اتفق نتنياهو ورئيس وزراء إسرائيل مع رئيس بلدية القدس على الاستمرار في حفر نفق السور الغربي للمسجد الأقصى، مما أشعل شرارة المقاومة من جديد، تلك المقاومة التي انتظرت حدثاً صغيراً ليشعل فتيلها، بعد زمن طويل من التراكبات التي تسببت بها حكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة، والتي رفضت تنفيذ كل الاتفاقات المبرمة بين السلطة الفلسطينية والحكومات الإسرائيلية التي سبقتها، إضافة لمصادرة الأراضي ومواصلة الاستيطان وتوسيعه.

كانت هبة النفق جد قاسية عشتها بحذافيرها دقيقة تلو دقيقة، أغلق جهاد جميع النوافذ وحذرنى من الاقتراب من الحوائط، والبقاء في مركز أي غرفة أدخلها، حتى لا تصيبنى رصاصة طائشة أو ينهدم حائط على رأسي من جراء القصف اليهودي العشوائي، عشت الرعب بعينه ثلاثة أيام كاملة، حتى هدأ كل شيء مرة أخرى، ولكنه خلف

ثلاثة وستين شهيداً فلسطينياً وألفاً وستمائة جريح في كل مكان، بدءاً من رام الله ونابلس وطولكرم وبيت لحم وأريحا والخليل وحتى القدس وجميع مخيمات غزة.

كانت تلك هي النهاية بالنسبة لي هناك، حتى إن جهاد لم ينتظر حتى تسمح الظروف في رام الله بإرسال سيارة تقلني إليهم، وذهب بنفسه معي حتى سلمني يداً بيد إلى مسعود مفلح، وقال وهو يبكي: (يا أخي رجعوها عالقاهرة.. ما تتركوا هاي الوردة تموت هون، وإنك كمان شو بتسوي هون؟! ارجع عالقاهرة مكانك هناك، تقدر تخدمنا من هناك أكثر).

تركني جهاد ولم أره مرة أخرى، لكنه ظل يتصل بي كلما سمحت ظروف الاتصالات المضطربة له، خاصة بعد التهاب الأوضاع بمجرد تسلم أرييل شارون رئاسة الوزراء في إسرائيل.

عدت إلى القاهرة مرفوعة الرأس، فبرغم أنني لم أجد أبي إلا أنني وجدت نفسي وهويتي، هويتي التي سلمني إياها جهاد إبراهيم عايش ووضعتها في داخلي قائلاً: (هويتك ما بتحتاج ورقة رسمية، الأوراق هاي مهمتها تخليص أوراق مثلها.. أوراق في أوراق خلقها الاستعمار عشان يلفها حوالين رقابنا، ما تخلي الأوراق تهزمك وتقيدك، هويتك في قلبك إنتي اللي بتحديدها وتعيشي فيها بأي مكان.. خلي فلسطين في قلبك وعقلك منين ما تحلي أو ترحلي).

وظلت فلسطين في قلبي وعقلي أينما حلت، أحكيها لابني الذي أنجبته من علي، بعد أن غفر تركي إياه وآمن بعدالة قضيتي، ولمس التغيير الحقيقي الذي صنعه رحلتي إلى غزة في شخصيتي، وتلك السكينة التي سكنت عيني بعدما كانتا زائغتين في كل اتجاه. تزوجت علي، وعدت إلى جريدة الجماهير، وظللت أعمل بها إلى أن

حصلت على الجنسية المصرية منذ أشهر قليلة، وتم تعييني الذي رافقت فرحته فرحة انتظاري أنا وعلي طفلاً جديداً.

لكن يبدو أن مصيري الفلسطيني يلاحقني، يبدو أن ابنة غزة ووردة جهاد، التي رغب في تخليصها من مصير الموت المحتم هناك بإرسالها سريعاً إلى القاهرة، لا بد أن تموت مهما كان موقعها على الأرض.. في غزة أو في القاهرة.. هناك موت وهنا موت يا جهاد!

روحي الآن ممددة على الهواء تلقف أنفاسها بصعوبة بعد أن أضناها عصف الرياح، أحشائي تحمل الخواء، وشموعي تطفأ واحدة تلو الأخرى مخلفة ظلمة، تتباعد الأصوات من حولي وكأنها تأتي من جب سحيق..

أنا الآن أرحل دونما صخب في ظلمة الليل..

أرحل بلا عودة.. فلا تنسوني.

أحمد فادي

كان اسم أمريكا قبل أن أغادر مصر منذ عامين ونصف العام، يعني الخلاص.. الأحلام الشفيفة.. النهار الممزوج بصباحات الطفولة المضيئة بحنان، بينما لم تكن تحوي حروف مصر سوى الألم والآمال المنهوبة.. الآن وأنا عائد إليك أعجب لتراقص حروف اسمك بلذة على لساني، وعذوبة موسيقاه في أذني.

وأنا أجلس على مقعدي الآن بالطائرة المغادرة إلى القاهرة تتقلب الآية، فتستعيد مصر الطيبة بينما ينبت لأمريكا قرنا شيطان، أشبه بهذا الذي كان يخوفنا أهلنا به ونحن أطفال لننام أو نكف عن الضجيج! أدرك تماماً أن سبب إحساسي هذا هو اليأس، فأمريكا التي يهاجر إليها بشر الأرض جميعاً بحثاً عن سعادة مفقودة، أغلقت أبواب سحرها في وجهي، فقط لأنني مصري.. عربي.. لم أجد أحداً مصاباً بلعنة الوطن مثلنا.. آه لو يدري أهالي مجاهل أفريقيا المشردون أنهم أكثر حظاً منا! على الأقل يشفق عليهم العالم ويفتح لهم أبوابه، أما نحن.. العرب أهل التاريخ والحضارة! فلا يتعاطف معنا أحد أو يشملنا بنظرة شفقة، مع أننا نستحقها عن جدارة!

الآن أعود إلى مصر بعد عامين ونصف العام تكللني خيالاتي التي لا حصر لها، والتي صب لعنتها على رأسي وطني وليس ليعيب ما في داخلي.. وطني الذي فررت منه فلاحقتني إلى أقصى الأرض، وكأنه يرسل هزائمه، أو أقسم على ذبحنا عن بكرة أبينا!

هل من الممكن أن تحدث المعجزة وتفتح لي أبوابها التي طالما أوصدتها في وجهي؟! هل سترق لحالي وأنال بعض زهوها الذي منحته اللصوص والقوادين ومن لا يعينهم أمرها في قليل أو كثير؟!

لطالما عشقتك حتى في ابتعادي عنك، لم أكن وحدي عاشقك، بل كل الخائبين الذين تركتهم ورائي من الأصدقاء ولم ينلهم من الحظ سوى ما نالني، تلك الخلطة العجيبة من الهجر والصد والأحلام المسفوحة على مذبحك.. أذكر منى وأحلام وسعيد الذي قتله حماتك، من أهلك ومحبيك!.. وغيره كثيرون.. ماتوا ولم يحضنهم سوى ثراك، لتخمد جذوة عشقهم لك إلى الأبد.

طوال ما انقضى من عامين بعيداً عنك راودني الحنين إليك، وكنت أعجب لحالي فقد تراءيت لي وكأنك بقعة من جنان الله، رغم أنني أعلم تمام العلم أنك لست كذلك، وأنت ضننت بكل شيء علينا، كنا أيام الشباب الأولى نهجم بحدة كل من يتناول عليك، ونقول له لا تقل مصر فاسدة بل قل حكامها هم الفاسدون، لا تقل مصر توصل أبوابها في وجوه أبنائها، بل قل الفاسدون تحكموا في الرقاب والعباد وأغلقوا أبواب الرحمة في وجوههم... ياااااااه! كم كنت غراً لا أرى أسفل قدمي!

لا أدري الآن وأنا عائد رغم أنني من بلاد الأحلام كيف ستستقبلني بلدي؟ كيف ستكون ذراعاها؟ مفتوحتان إلى آخرهما أم معقودتان على صدرها؟!.. عموماً ليس لدي خيارات أخرى، فقد سرقني الوقت ولم يبق أمامي سوى سؤال واحد لست متأكداً من إجابته الصحيحة، ولكنني مضطر إلى أن أفعل أي شيء حتى أجيبه، وإن اضطررت إلى الغش.. فلا مهرب، فليس أمامي طريق آخر، إما أن أدخل جنة الزيف الباقية أو أطرد من العالم بأسره، هل سأستطيع أن أكون واحداً من القوادين؟!

نعم أنا مصري، أم أن ملامحي ذابت في غربة العامين؟! لو نسيتني جميع بلدان الأرض فعليك وحدك أن تبقى علي داخل ذاكرتك، أأنت أنت التي قذفتني من الرحم لأحبو على خريطة جسدك؟! ليس

من حقك النسيان ومع ذلك تتسين، هل علي أن أفحش بك كما اعتاد الآخرون كي أبقى في ذاكرتك؟! أو أصبح العشاق فساقاً فقط على أرضك ولفظت الهائمين في حبك؟! آه يا بلدي! تصفيننا واحداً تلو الآخر، فلا يبقى سوى الكلاب فقط لينهشوا لحكم ويعرضوه في مزادات العالم.. هأنذا عدت إليك، فهل ستعيدين معي كرة الحرمان والنفي؟! أو ستفضلين تركي على ثبح السماء دون أرض، مريحة نفسك من عبء واحد من أبنائك خلت أنك تخلصت منه منذ عامين، لتفاجئي به عائداً بهزائمه الكثيرة إليك حيث لا سكن آخر غيرك؟!

عندما تركت كلية الهندسة في السنة الثانية برغم نجاحي، محولاً أوراقني إلى كلية الإعلام بجامعة القاهرة، أصبت أبي بأول خيبة أمل في ابنه الوحيد على ثلاث فتيات، لم يقتنع بما قدمت إليه من مبررات، فهو لا يفهم أن عشقي للأدب والفنون والسينما والتلفزيون سبب وجيه لتركي دراسة الهندسة، حيث إن كل الناس في نظره من حقهم أن يعشقوا هذه الأشياء، دون أن يضطروا إلى دراستها أو العمل بها، بل إنه أكد لي في واحدة من محاوراتنا المتشنجة، التي كنت أحاول خلالها إقناعه بالحسنى ليوافق على نقل أوراقني إلى الإعلام، أن الإعلام ليس علماً وأن أي إنسان موهوب يمكنه العمل فيه دون دراسته! وساق لي مثلاً الدكتور يوسف إدريس، وكعادتني آنذاك لم آل جهداً لإقناعه، وعندما وصلنا إلى طريق مسدود معاً حولت أوراقني دون علمه، ثم أخبرته بالأمر بعد مرور شهرين من العام الدراسي، وبذلك سددت أمامه جميع الطرق حيث لا رجعة.

لم يقتنع أبي يوماً بأنه هو السبب وراء تفضيلي دراسة الإعلام وعشقي للأدب والسياسة والتاريخ، فهو يرى أن من الطبيعي أن يحب الأب أبنائه في القراءة ومعرفة تاريخ بلادهم وسياستها على مر العصور، ولا يعني ذلك أنهم يجب أن يتخصصوا في هذه الأمور،

ضارباً مثلاً بنفسه، فما هو ذا يعشق الفن والأدب وعبد الناصر (برغم أنه سجن في عهده!)، لكنه مهندس وليس صحفياً أو أديباً، ولم يمتحن أي مهنة تمت لهذه المجالات بصلة، لم يدرك أبي يوماً أنه جنى علي بشيئين علمني إياهما: عبد الناصر الذي سجنه، وحب القراءة.. لم يدرك أن حب عبد الناصر لن يكون ذا جدوى في زمني، وأن القراءة ومعرفة تاريخ بلدي التليد، وعشق أرضه وسمائه ونيله وبحره، التي تغزل فيها الشعراء والأدباء.. سيظل شوكة في ظهري، وطلقة مستقرة في قلبي أنزف معها في كل وقت.

عندما التحقت بالسنة الأولى بكلية الإعلام صدمني شيء لم يكن في حسابي، فزملائي يصغرونني بثلاثة أعوام كاملة، بل إنني وقعت أسيراً في حب فتاة تسبقني بعام، لكن صدمتي لم تدم طويلاً، فقد كان زملائي مثل إخوة صغار غرقى في لجة عامهم الأول بالجامعة، وبالطبع كنت قد مررت بهذه التجربة من قبل، فافتحمتهم كبشار مخضرم، وأخذت أرشدهم إلى الطريق الصحيح للتخلص سريعاً من الأمواج التي تلطمهم بعنف. هذا الأمر أكسبني هيبة ومكانة مهمة لدى الجميع، وبما أن الانطباعات الأولى تدوم إلى الأبد، فقد ظلت في أذهان الجميع، في ما عدا الدهاة منهم طبعاً، مرجعاً مهماً لكل شيء وأي شيء خاص بالدراسة أو النشاط، أو حتى (التزويغ) من المحاضرات ومعاكسة فتيات كليتي الآداب والتجارة!

وفي أروقة هذه الكلية المختصرة في الدور الأخير من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، شعرت بأنني لامست بقدمي تلك الجنة المفقودة التي يُست من العثور عليها في كلية الهندسة، رأيت الأرض تمتد أمامي رحبة، مادة ذراعيها إلى آخرهما، مستعدة لضمي بين جوانحها ومنحي قبلة لا تغيب بعدها شفتاي أبداً! ففيها وجدت آذاناً تنصت لسماح قصصي القصيرة، بل إنهم لقبوني بأديب الكلية، برغم

سذاجة ما كنت أخط بقلمي حينها، وفيها استطعت أن أتناقش مع تيارات سياسية مختلفة كل منها يؤمن بأنه المخلص للوطن من آفاته، كان الناصري والشيوعي والإسلامي، على اختلاف وجهات نظرهم وحدثهم في التعامل مع بعضهم البعض، يعشقونك دون زيف ويحلمون بك ولك، كانت رغبتهم تفيض من أعينهم أنهرًا، كانوا يعتقدون أنهم جنودك الذين سيصلحون الفساد في داخلك بالقلم وعدسة الكاميرا والحناجر الدافئة، كنا جميعاً نؤمن بأن الغد لنا، وأننا لن نكون مثل الجيل السابق الذي انهزم على أبوابك، وانكسرت سيوفهم قبل أن يطالوا جنانك.. دائماً ندافع عن أنفسنا، ونؤكد أننا مختلفون عن آبائنا وأمهاتنا ولقبناهم بجيل النكسة، جيل الأحلام والأوهام.. جيل الخرافات وغياب الوعي عن الواقع الحقيقي، أما نحن فواقعيون، نعرف جيداً طريقنا ولا يمكن أن نضيع في متاهات دروبك الزلقة!

لم نصدق انكسار عيون أهلنا، ألقينا عليهم وابلاً من الاتهامات واليأس والخضوع للسلطة والتهاون والتفريط في الحلم وووو.. لم نكن نعرف أنهم حاولوا مراراً، حتى جردتهم من كل أسلحتهم، وألقيت بهم في صحراء قاحلة، دون قطرة ماء أو خرق بالية تقيهم حرقة الشمس، ونهبت الريح روحهم حتى خوت.. نعم هم جيل النكسة، لكن ليسوا وحدهم، فكلنا أبناء النكسة والموت على بابك الموصد أبداً!

لدنة كلاباب الخبز الأبيض، شفافة برغم لونها الخمري، سحبتي إلى داخلها بسحبة رموشها، التي على قلتها تتحدى شعاع الشمس بسهام سامقة حوشية، لتعيدني بتسبيل من عنان السماء، وتزلقني بنعومة نحو أنفها الدقيق الشامخ، فما ألبث أن تتلقاني شفتان دقيقتان تختلجان مع كل كلمة تمر بينهما وتتهد يصاحب كل جملة!.. هالة التي لا ترحم بعنقها المتخايل بين خصلات شعرها، وربوة نهدها الوافر وخصرها النحيل كامل الاستدارة، المستقر فوق أرداف مدورة متماسكة، هالة التي استقرت بقلبي خمس سنوات.. أخذتني بصوتها المغرد في تهدج، وأحلامها البسيطة، وإيمانها الكلي بقدراتي وموهبتي وتفردني بين كل الطلاب في الكلية، كنت ألفت نظرها إلى أنها ستضطر إلى انتظاري عاماً بعد تخرجها حتى أنتهي أنا أيضاً من الدراسة، فتؤكد لي أنها مستعدة للانتظار ألف عام! وكنت أفرح وأعود إلى منزلي لأرتمي بين أحضان أُمي، مؤكداً لها أنني وجدت فتاتي أخيراً التي ستظل أيامي وتملؤها عشقاً وحناناً، تضحك أُمي، تضمنني بين جوانحها الدافئة، وتدعو لي بأن يتم الله لي على خير، ولا تتي تنبهي إلى أهمية انتهائي من الدراسة أولاً ثم العمل، فأضحك وأخبرها لا توجد مشكلة في الدراسة أو العمل.. كنت دائماً مؤمناً بأن الكبار مترعون بالحزن والخوف والقلق غير المبرر، كنت أعتقد أن أبواب الدنيا كلها ستفتح أمامي.. وما الذي يمنع ذلك؟! فهأنذا أعمل برغم أنني مازلت في الكلية، لم أكن أعلم بأن عملي هذا بوابة وهمية آخرها مسدود، وأنني بمجرد انتهائي من الدراسة والبدء بتحقيق أحلامي وأهدافي، ستقام أمامي سدود سامقة خرسانية لا يمكن العثور على ثغرة بها للولوج عبرها.

عندما أتى المخرج التلفزيوني الشهير إلى الكلية ليشرف على مشروعاتنا الطلابية في قسم الإذاعة والتلفزيون، كنت متأكداً أن عينيه ستتركز علي، وهذا ما حدث بالفعل، فقد أعجبه أسلوبه في إخراج البرامج والأفكار التي أطرحها من خلالها، وبرغم أنني كنت حينها مازلت في العام الثالث في الكلية، إلا أنه اختارني مع اثنين من باقي الطلاب لنعمل معه كمساعدين ببرامجه بالتلفزيون، عندما تلقيت الخبر منه شعرت بارتفاع قدمي عن الأرض، حتى إنني مازلت أذكر نعومة ندف السحاب التي قبضت عليها بكلتا يدي! كانت فرصة نادرة لا تتاح للكثيرين، لكنها أتحت لي دون أن أسعى إليها أو تكون لدي واسطة بالتلفزيون تعلقني بها، عدت يومها إلى المنزل وأنا أجاهد ابتسامة لا تزول من على وجهي، حتى إنني شعرت بركاب الحافلة وهم ينظرون إلي بتعجب، متلفتين حولهم في محاولة للعثور على ما يجعلني أبتسم هكذا دون انقطاع! وبمجرد أن عثرت على أبي كعادته يقرأ بعد صلاة المغرب، لم أمنحه فرصة لإدراك وجودي في غرفته، فقد ألقيت نفسي عليه محتضناً إياه بقوة، حتى إنه بسمل واستعاذ وحوقل محاولاً فهم ما جرى، وعندما أخبرته ابتسم ابتسامة باهتة وكأنه يرسمها على وجهه لإرضائي فقط، فسألته: (ماذا يا بابا ألم ترض عن دخولي هذا المجال بعد؟!)، فأجابني إجابة خلته بها يقلل من شأني محاولاً إحباطي، لكنني الآن أعني تماماً أنه كان يلفت نظري لما ينتظرني من مشقة.. قال: (أعلم جيداً أنك متميز وتمتلك قدرات عالية، ولكن هذا ليس انتصاراً ولا بداية لأي شيء عظيم، فالنجاح في بلادنا أصبح ذا مقاييس عدة، وعليك أن تختار مفهوم النجاح الذي سوف تتبناه في مشارك الطويل).

نعم النجاح في بلادنا له مقاييس عدة، وأنا اخترت مقياساً منقرضاً لم يعد له وجود الآن، مقياساً قذفني في جب أظلم من جب يوسف، حيث لا يمر إلى جواره أحد يمد إلي يداً تنتشلني من برودته

وعفنه الذي يحيط بجدرانه الحلزونية الزلقة، اخترت العمل باجتهاد ورفضت التسلق على الحبال والدوس على الرقاب، رفضت تبني مبدأ (اخطف واجري) و(شيلني واشيك)! ومداينة الرؤساء وتنفيذ أوامرهما مهما كانت تقتل زميلاً، أو ترسخ مبادئ خاطئة لدى آلاف الجماهير الملتصقة بالشاشة.

كان هذا هو مقياسي، وكان هذا هو قبري الذي حفرتة بيدي دون أن أدري! الآن أعود مستعداً تماماً لذبح وسفك الدماء بعد أن طردني حبي لك من بلاد الأحلام، أعود وأنا مسامي مفتوحة تماماً للتلذذ بمشاهدة الرقاب وهي تسحق أسفل قدمي، واستطعام مرق المداينة والرياء والضحك على سذاجة الجمهور، الذي نعمل على تأصل البلاهة لديه!.. ليس أمامي خيار آخر فقد أغلقت البلاد أبوابها في وجهي، ولم يعد أمامي سوى العيش في داخلك بمبادئك الجديدة، أو أبقى ترانزيت في مطارات العالم إلى آخر يوم من حياتي.

كم كانت هالة ساذجة وغبية عندما قررت بعد تخرجها أن تبقى في المنزل عاماً، منتظرة انتهائي من دراستي، حتى لا تبدأ العمل الحقيقي قبلي، قالت لي ذلك بوله شديد وهي تنظر إلي بعينيها، اللتين لم أنس سحرهما والبهجة التي كانتا تخلفانها داخلي حتى الآن، وبرغم أنني رفضت الفكرة مؤكداً لها أنني بالفعل بدأت بناء مستقبلتي العملي ولا يعنيني تخرجي في شيء، حيث ينتظرني مكاني في التلفزيون بعد التخرج، إلا أنها أصرت وأخبرتني بأنها رغبتا الحقيقية، حتى لا أكون قليلاً بالنسبة لها أمام أهلها عندما أتقدم لخطبتها بعد تخرجي. كانت تظن المسكينة أنها سيتم خطفها من قبل الجرائد عندما تذهب إلى واحدة منها، وكنت أظن أنه سيتم تعييني مباشرة في التلفزيون بمجرد تخرجي، حيث إنني بالفعل عملت لديهم لمدة عامين، كانت الحياة

بسيطة أماننا، وكنا مؤمنين بأن السماء رحبة تتسع لنا ولأجيال قادمة
بعدها!

وبالفعل بعد تخرجي ذهبت إلى هذا المخرج الذي أعمل معه
مساعداً، والحقيقة أنني لم أكن أساعده في شيء، بل كنت أنا المخرج
الفعلي لبرامجه! طلبت منه أن يسعى في استصدار أمر بتعييني،
وبالطبع ضحك وأخبرني بأن الأمر سهل وأنني بالتأكيد أستحق التعيين
فوراً في التلفزيون، حيث عملت بجد وإخلاص نظير مقابل ضئيل
طوال عامين.. صدقته وطرقت فرحاً لأتحدث إلى هالة، وأطلب منها
تحديد موعد مع أهلها كي أتقدم لخطبتها رسمياً من والدها.

يا له من يوم! فقد أسرعرت إلى مقابلي في مكاننا المعهود
تحت أشجار كورنيش المنيل، حيث تدفئنا أنفاس المحبين العطرة من
حولنا، كل يصطحب معشوقته يبيثها الحب والأحلام الوردية، وكنا مثلهم
نرسم على صفحة النيل ألف زهرة تعبق أيامنا القادمة بالحب
والخزamy. يومها لم يفلت من بين أيدينا خيط لحلم إلا ووصلناه
بالآخر.. فهذا هو منزلنا، وهذه غرفة النوم التي ستشهد تمازجنا
الأبدى، وهذه غرفة أبنائنا، حتى إننا أسميناهم بأسماء تجادلنا حولها
قراة الساعة، أما ديكور الصالة فقد اشترطت علي أنه سيكون لها،
حيث إن مدخل البيت هو واجهته والمعبر الحقيقي عن ذوق ربة
المنزل، رجوتها كثيراً أن تأخذ ببعض من أفكارى، لكنها أبت بشدة حتى
إنها هددتني بالخصام، فأسرعت بتقبيل كفها طالباً العفو والسماح،
ومنحتها حرية اختيار ديكور الصالة دون أدنى تدخل مني أو اعتراض!

أمضيـنا الوقت في الأحلام التي ما لبثت أن هوت في سديم
كامل، بدأنا التهاوي درجة درجة إليه، أولاً كان رفض أبي اصطحابي
لخطبتها، فقد أخبرني بأنه برغم أن عمري مناسب للزواج، إلا أنني أنا
الذي اخترت تسريب السنين من بين أصابعى عندما أهدرت ثلاث

سنوات في كلية الهندسة دون جدوى، والآن علي الانتظار قليلاً حتى يتم تثبيتي في عملي، وجني بعض المال الذي سوف يساعدني على إتمام زواجي، فبنات الناس لسن لعبة في أيدينا، ولم يكن من الممكن أن تصحبني أمي دون أبي، حتى لو كان الثمن هو تعاسة ابنها الوحيد. ذهبت وحدي فانزلت قلمي درجة أخرى إلى الهوة المظلمة، فقد استقبلني والدها باستهزاء كامل، وأخبرني بأن ابنته جوهرة ولا يمكن أن يمنح الجوهرة إلا لمن يستحقها، وأنا بالطبع لا أستحق اقتناء الجواهر!

كانت صدمة لكلينا، وبرغم إصرارها على أن تنتظرنني مهما مرت عليها السنون، إلا أنني قررت خذلانها بعد أن أخبرني المخرج العظيم بأنه للأسف لا توجد درجات شاغرة بالتلفزيون، حيث إنه قطاع حكومي كما أعلم، وعلي انتظار درجة تشغر، وعندما سألته كم من الوقت علي الانتظار، قال بسهولة شديدة: (لا أدري.. ربما عام أو أكثر.. بس ادعي وقول يا رب!)، لكنه طمأنني أنه من الممكن استمراري في العمل معه بمكافأة شهرية كما اعتدت طوال العامين السابقين.

كنت أعلم جيداً كم ستقاسي هالة لفراقي، فقد قاسيت مثلها تماماً، فبمجرد اختفائها من على خريطة أيامي وجدتني تائهاً في دروب ملتوية كالحة السواد، معرضاً لألف حفرة واسعة لا سبيل إلى الخروج منها، لكنني فضلت أن يحصل من هو أجدر مني على الجوهرة، فقد كانت رقيقة لا تتحمل خدوش أنياب الحياة الشرسة، وكنت أفضل أن تينع في ربوع غيري على أن تذبل في قفاري.

مر علي الوقت بطيئاً كسلحفاة ناعسة منذ ألف عام، وأنا أعمل مع هذا المخرج دون جدوى حقيقية، أخرج له برامجه بينما يرتع هو في جنان رؤسائه، الذين رأوا أنه يتطور يوماً بعد يوم وأن أداءه

اختلف كثيراً، مما يؤكد نضجاً حقيقياً في عمله! كنت حينها لا أبالي إلا بجمع المال، ذلك الذي سيؤهلني لمرتبة القادرين على اقتناء الجواهر، وكنت تائهاً في النقود الغزيرة التي يدفعها لي المخرج العظيم حتى أقدم له أفكاره وأعددها له، بل أخرجها أيضاً وهو نائم في منزله، حتى فاز بالجائزة الأولى في مسابقة أفضل برنامج تسجيلي سياحي، كان البرنامج عن ميثولوجيا مراكب الشمس الفرعونية، وبالطبع كانت فكرتي وإعدادي وإخراجي! أفقت على صفقة أهوت بي إلى نفق حلزوني، شعرت بهول ما أفعله وأنني بذلك أحكم على نفسي بالفناء الأبدي، فتركت كل شيء ورأئي والتزمت داري، صاماً أذني عن توسلات أُمي بالعودة إلى العمل، ورفضاً الرد على اتصالات هذا المخرج المتوسلة للرجوع، والمغرية بتوقيع عقد مع التلفزيون حتى تشعر درجة يتم تعييني عليها، كان من الممكن أن أعمل بعقد مؤقت مع التلفزيون، لكن هذا الخنزير لم يخبرني بذلك وتركني أعمل في ساقيته مغمى العينين، غير آبه لمستقبلي ولا حتى ممتن لما أقدمه له، لكنني لم أحقد عليه أو ألمه، فقد كنت أنا الذي ربط المندبل على عيني، وأنا الذي جلدت ظهري لأدور في ساقيته!

عندما تقع في دائرة النسيان وأنت في مركز بقعة الضوء فهذا هو الجنون بعينه، تجلس لتشاهد جسدك يرتج من هول الطعنات التي يشخك بها عدو لا تراه، بينما تتخثر دماؤك وأنت لا تملك سوى لعق الجراح في صمت، وابتلاع نسغك المعصور من خلايا عقلك وقلبك، فتحاول أن تبقى أطول مدة ممكنة على لسانك مستمراً الألم، ثم يمر على حلقومك مخضباً بدموعك الحامضة التي أهرقتها في أوج سكونك، توعز لنفسك بأن تنهض فتكتشف أنك فقدت أطرافك في معركة لم تملك تحديد ميعادها أو تع أنها ممكنة الوقوع، تنتظر أسفلك على بعد مليمترات قليلة فترى يديك وقدميك هامدة، بينما يلحق ظلك شظايا مخك المنثور على سجادة غرفتك التي تحولت إلى الأحمر الدامي!

لم يكن بإمكانني أن أستجيب لدموع وتوسلات أمي لأنهض تاركاً فراشي، كانت شعيرات ذقني قد طغت على ملامحي مما أفرعها، ولم يكن للطعام مكان في معدتي، فقط أقتات بالماء وقطران السجائر، التي كان يخرج صوتي فقط للمطالبة بها، لم أكن أشعر بالوقت، وكم مر علي وأنا جليس الفراش لا أتحرك إلا للذهاب إلى الحمام. كانت أمي المسكينة تحاول دس الطعام بين شفتي، فيظل قابعاً على لساني حتى يتفسخ ويسيل على جانبي فمي، فتضطر إلى مد أصابعها مرة أخرى لإخراجه وهي تبكي.. لم يكن يعلم أحد بالمنزل أنني الفائز المهزوم، لكن أبي استنتج بحدسه ما وقع لي، هذا ما شعرت به عندما دخل غرفتي بعد وقت طويل من سجنني الذي فرضته على نفسي، وجلس على طرف فراشي ناظراً إلي بعيني الصقر، اللتين تركهما له عبد الناصر بعد رحيله الأبدي! وقال لي: (لا تعتقد أنني سأتعاطف معك، أو أحاول بجنون الأب الخائف على ابنه أن أعرف ما الذي

حدث لتفعل في نفسك ما تفعل.. لا.. أنا لا أريد معرفة شيء، فمهما كان ما حدث لا يستحق أن يكون رد فعلك الهزيمة، انس ما حدث لك مع ذلك المخرج وابدأ من جديد، أنت لم تخسر شيئاً، بالعكس لقد كسبت معرفة وخبرة من العمل الذي قمت به بدلاً عنه، بينما هو الذي خسر.. خسرك أنت.. لن أطلب منك النهوض، فقط أبلغك أنك خذلتني.. ليس ابني من يرفع الراية البيضاء وهو مازال على مشارف الدخول في المعركة).

أصابتنى كلماته بالحنق.. الحنق عليه وعلى أمي وعلى المخرج وحتى على هالة.. كيف أكون قد رفعت الراية البيضاء وأنا على مشارف الدخول في المعركة؟! ألم يكن ما حدث لي مع هذا المخرج معركة دامية؟! ألم ير والدي المبجل الذي سجنه عبد الناصر - برغم أنه يحبه - جسدي المشنوق على باب الغرفة؟! كنت أرغب في الصراخ في وجوههم: (انسوني.. ربما يصيب صدري بعض من الهواء الندي في غياب شعاراتكم، حتى تتمكن ساقاي من السير بعيداً عن ظلمك المتعفن، حتى يتأرج صباحي وأتذكر نفسي)، لكن الحروف كانت تتأبى على لساني ويستحيل صوتي إلى صمت لا نهائي.

يا إلهي كم مر علي من الوقت حينها؟!.. كنت أشعر وكأن صوت الريح الذي يمر إلى جوار نافذتي وأزيز الباب عند دخول أحدهم، وحتى نفسي الذي أسحب به دخان سجائري.. أبواق قابعة خلف أذني، بينما عيناى معشيتان يكاد الضوء يصل إلى مركز الإبصار، كنت موقناً أن هذه هي نهايتي.. نهاية أديب الجامعة ومخرج الروائع!.. حتى ظهرت آسيا.. ياااااااااااه! كم أحب أن أسميها قاسية! مازلت مؤمناً بأن قاسية معبرة عنها بشكل أفضل!

جاءت إلى المنزل.. هكذا حتى دون تعريف لنفسها، فأنا لم أرها من قبل أو حتى أسمع بها في دهايز التليفزيون المعتمدة، انبجست

من حيث لا أدري كسيل غطى أرضي، فابتلت شراييني وعادت من الموت. كل ما أخبرت به والدتي عندما فتحت لها الباب أنها آسيا زميلتي في العمل، وجاءت لتطمئن على سبب غيابي الطويل، فرحت المسكينة وتعلقت بقشنتها، فربما جاءت مخلصتي من الهوة التي أترنح فيها أمام عينيها، وتقتلها في كل ثانية تمر علي بحالتي التي كنت عليها أمام ناظريها، فأنا ومهما كنت ولدا الوحيد وفرحتها الأولى.

بالطبع قابلت خبر قدوم آسيا بالصمت، فمن هي أساساً؟!.. رفضت التحرك من على فراشي، تلبية لرغبة أمي في أن أغسل وجهي على الأقل لمقابلة الفتاة، شعرت المسكينة بالحر من تلك الزائرة التي تطرق بابنا لأول مرة، وتحيرت هل تتركها تدخل إلى غرفتي المقلوبة رأساً على عقب، تظلمها عتمة مخزنة لليال طويلة، وتعبئها رائحة دخان سجائري المنفوث بمواتي؟! أو تضحي بفرصة قد ترفع ابنها من نعشه الذي يدق مساميره بكلتا يديه ولا تستطيع إيقافه!؟

وقفت أمي تعتريها الحيرة والقلق أمامي دون أن أفكر في رحمتها، فمن هي آسيا تلك التي يجب أن أترك كفني الأبيض الذي لففت نفسي داخله راضياً حتى أقابلها؟!.. في النهاية حسمت أمي رأيها، ووجدتها بعد لحظات تقود الفتاة إلى غرفتي، يسبقها ألف اعتذار عن حالي وحال الغرفة، وكأنها تقول إن هذا أمر طارئ وغير معتاد فنحن قوم يعرفون النظافة!

دخلت بحضورها الضئيل وملامحها التي لا تشي بأي شيء، لا تحيطها هالة نور أو تزفها زقزقة طيور، حالة من العتم أضيفت إلى نفسي معها.. فهي لم تبد لي للحظة واحدة مخلصتي التي هبطت من السماء لترفعني من الجب إلى سطح الأرض المنير، حتى عطرها لم يبيح بشيء عندما جلست على طرف فراشي قلقة زائغة العينين تضغط بعصبية على حقيبة يدها، مما أوحى إلي بالقضاء عليها بغتة قبل أن

تللم نفسها وتهاجمني: (إنتي كدابة يا آنسة.. إحنا مش زملاء عمل وأنا ما اعرفكيش ولا انتي كمان تعرفيني.. مين انتي وجاية هنا ليه؟!)، بلسان مشلول نطقت كلماتي متعثراً، فمعدتي الخاوية منذ أيام - لا أعرف كم عددها - لم تسمح لي بإشهار سيفي في وجهها صلباً لا يرتعش.. ربما شعرت بوهني الشديد، وأدركت أنني أتمنى في أعماقي أن تستطيع انتشالي من الوحل الذي تمرغت فيه بإرادتي، فقد فوجئت بتوقف كفها عن عرك جلد حقبيتها، ثم نهوضها من أمامي وتوجهها بخطوات راكزة لا تهتز برغم الكعب العالي الذي تمتطيه نحو النافذة.

حققت تلك الفتاة ما لم تستطعه صلوات أُمي ونزف دموعها المنهمر أمامي صباحاً ومساءً.. اقتحمت عتمتي وبددتها بحركة بهلوانية من كفها الطويلة المدببة.. تسلقت سور أحلامي بخفة واقتحمت جبيني المروع.. أيقظت عصافيري الميتة تحت جلدي المتوتر، وفتحت مسامي ليتصعب عرقي أنهرأ، بينما النور يقتحم عيني غير عابئ بفزعي وصرخاتي.. شعرت بأني فريسة تنتظر صيادها بصبر نافذ، وألقيت صمتي وراء ظهري، وسلمتها بباصرة مغمضة كلياً أحلامي التي انحنت، آملاً أن تعيد نصبها أمام الشمس شامخة.

(اسمي آسيا ياسين.. أنا ما كدبتش بخصوص الزمالة.. إحنا بالفعل زملا ولكن في مكان زي مبنى التلفزيون صعب كل الزملا يعرفوا بعض.. أنا مخرجة في قناة حورس الفضائية الجديدة.. طبعاً أكيد سمعت عن الفضائيات وإن المستقبل ليها.. كلها كام سنة وتروح على القنوات الأرضية ونكون إحنا النجوم، أو قشطة البث التلفزيوني زي ما بيقولولنا رؤساءنا!).

صمتت قليلاً وكأنها تحاول العثور على كلمات تكمل بها محاضرتها، التي كنت أتابعها بشغف حتى أصل إلى الجزء الذي يضم طوق نجاتي، حتى قالت أخيراً: (أنا عرفت اللي حصلك.. طبعاً هتسأل

إزاي؟! مفيش وجود لإجابة على السؤال ده غير إننا إحنا اللي بنصنع الخبر ونروجه ونحكي الحواديت ونجمع الناس حواليتها، وبالتالي من الطبيعي جداً إننا نعرف أي حاجة ببساطة)، تبتسم بهدوء شديد وتقول: (طبعاً كمان تبقى عبيط لو اعتقدت إن الإدارة عرفت الموضوع وقررت تاخذلك حقك وتعديل وضعك.. الإدارة عرفت طبعاً ولكن كأنها ماعرفتتش.. بعدين لما تدخل في الشغل وحياة الإعلام هتعرف إن دي مسألة عادية جداً.. المهم أنا ما جيتش عشان أواسيك أو أخفف ألامك.. أنا شفت شغلك وأعجبت بيه جداً وعايزة أتعاون معاك).

لم أدر ماذا أقول لها، فأنا حتى لم أدر ما المطلوب مني، ولماذا هي هنا في غرفتي مادامت لم تحضر معها طوق نجاتي وتعيد إلي حقي المهدر؟! لكنها لم تمهلني كثيراً كي أفكر، فقد قالت بصوت لا لين فيه: (طبعاً أنت عارف إن التعيين في التلفزيون مسألة متعلقة بالروتين الوظيفي وخلاء درجات وظيفية، لكن في شيء اسمه عقود مؤقتة.. أنا طلبت من مدير القناة إنه يوقع معاك عقد، وهو طبعاً مش مؤقت هي فقط مسميات رسمية لورق رسمي.. العقد يتم تجديده سنوياً بشكل تلقائي لحد ما تخلو درجة وتتعين.. أنا شخصياً انتظرت لمدة ثلث سنين وتعييني ماحصلش إلا من شهور بسيطة.. ممكن يكون حظك أحسن مني وما تستناش المدة دي كلها!)، وأخيراً خرج صوتي محاولاً أن تصمت قليلاً حتى أفهم ماذا تريد: (إنتي بتتكلمي على إيه؟! وعقد مؤقت لإيه بالظبط?!)، (مساعد مخرج في قناة حورس.. مساعد مخرج ليه?!.. طبعاً أنا ما عملتش كده عشان سواد عينيك، ده حتى الواحد بالعافية يقدر يشوفهم من دقنك الطويلة والسواد اللي حوالينهم!)، (أمال بتعملي كده ليه?!)، (بصراحة شغلك عجبنى وعايذاك معايا في برنامجي الجديد.. هاتكلم معاك بعدين عن الفكرة، لكن يكفي إنها فكرة مجنونة وما تحتملش وجود مساعدين ليا بيشتغلوا بالروتين اليومي

العادي، لكن بالتأكيد عايزة مجنون زيك و.. زيي!)، (إنتي مجنونة؟!)،
(جريني وانت تعرف!).

قالت ما قالت وهي أمام النافذة، لم تتحرك حتى يميناً أو يساراً، رأيت شعاع الشمس يتخلل شعرها الذي تنتثره في خصلات لولبية متنافرة على ظهرها وكثفيها.. بدأت تبدد داخلي الصورة التي دخلت عليها، كانت أشعة الشمس تنفذ من بين شعرها لتحتضن وجهها الذي بدأت أرى ملامحه بشكل أفضل الآن، وبرغم أنها تتواضع خجلة أمام إشراق هالة، إلا أنني رأيتها حينها أجمل امرأة تعبر أمام عيني، ووجدتني أقول باستسلام: (موافق!).

وقعت العقد.. كان الأمر انتصاراً للحق في عيني أمي، أما أبي فقد رأى الأمر من زاويته الخاصة.. قابل الخبر بصمت كرهته، كنت منتظراً كلمة منه تضع طوبة في بنائي الذي اعتقدت أنه بدأ الرسوخ، لكنه صمت، لم يقل سوى مبروك على أي حال، وعندما سألته وأنا تواق لكلمة أخرى فيها على الأقل تلميح بتشجيع: (أمال عايزني أشغل إيه؟!)، قال: (عايزك تشغل مخرج تليفزيوني)، (ما انا هشتغل مخرج!)، (وأنا ماوجهتش لك أي اعتراض على اللي أقدمت عليه).. تركني ومضى ليجلس إلى جوار نافذته المشمسة ومكتبته التي تحتل حائطاً كاملاً في صالة المنزل، صاحباً كتابه المنكفى على وجهه من فوق المنضدة المجاورة لمقعده الأثير، وتاه في السطور وكأنني لا أقف على بعد متر واحد خلفه متسائلاً عن السر الذي يكتمه في داخله عني.

موقف أبي أثار داخلي بعض القلاقل، لكنها لم تتم لحد الثورة، فلقد أخدمتها آسيا في مهدها.. قابلتني في الصالة التي تضم المخرجين والمساعدين في القناة بابتسامة عريضة، كنت أتممت للتو إجراءاتي الروتينية لبدء العمل بشكل رسمي، لم أجد طريقة للرد على ابتسامتها سوى بابتسامة محايدة استشفت منها قلقي، وكانت قد حسمت أمرها على مباغتتي للنيل مني دون أدنى مجهود، فهذا المذبح لابد أن يكون كسيراً من هزيمته، وبالتالي لابد من أخذه على حين غرة قبل أن يعيد بناء دفاعاته، ويشهر سيفه مطالباً بمن ينازله في الساحة وجهاً لوجه!.. (هيه يا بطل جاهز للشغل؟!)، (كده بسرعة?!)، وبابتسامة مغناج وصوت أغن ألقت فيهما بعضاً من أسلحتها قالت: (لا أنا مش بأحب المساعدين بتوعي يكونوا كسلانين! إحنا ورانا شغل كثير لازم نخلصه

في فترة محددة).. وبهذه الطريقة بدأت مع آسيا مشواري الذي أضحك من نفسي فيه كلما تذكرته.

فاجأتني بأنها لا تعرف التحدث عن مشروع جديد لها في قلب التليفزيون، وبحركة مفعمة بالدلال غمرت بعينيها محركاً رأسها بليوننة للوراء، لافتة نظري للزملاء الذين يحيطون بنا من كل جانب قائلة: (إذا كانت الحيطان لها آذان، فما بالك والآذان محتشدة في مواجهتنا من كل جانب؟!)، ضحكت وضحكت كأبله متسائلاً: (طيب فين يعني؟!)، وببساطة شديدة قالت: (عندي في البيت!)، (مش هنزعج حد؟!)، سحبت فنجال الشاي الذي كانت تحتسيه بهدوء من فوق المنضدة، ثم رجعت بظهرها إلى الوراء مثبتة عينيها في مركز بصري، وقالت من بين ابتسامة خفيفة جداً لم أحدد معالمها: (لا.. عادي.. ده شغل!).

حددت لي الموعد في اليوم التالي مساءً، وخطت عنوان منزلها على ورقة مزقتها بسرعة خاطفة من دفتر أمامها، حتى إنني انزعجت من صرخة تمزق الورقة التي دوت في أذني.. وبما أنني مؤمن بالسير إلى نحو يقود القلب سرت وراءها، بل إنني انتظرت الموعد بصبر نافذ، برغم أنها لم تعرني انتباهاً بعد حديثها الخاطف متقلبة بين الزملاء، وكأنها توزع وقتها للحديث مع الجميع بدقة حسبتها مسبقاً! حتى رئيس القناة دفعت باب مكتبه بليوننة مفرطة، بعد أن منحت سكرتيرته بعضاً من ضحكاتها وهمساتها وإشارات كفيها المديبتين، لتذهب بعد ذلك وتغيب اليوم بطوله دون عودة.

في اليوم التالي لم أئل منها سوى صباح الخير يا أحمد، لتمضي سريعاً دون أن تهتم بسماع صباحي أنا أيضاً، حاولت كثيراً أن أتحدث إليها، لكنها كانت تجيب بعدم اهتمام كرهته: (حالا.. حالا)، وكدبور مدرب دارت دورتها بين الزملاء، ثم عرجت على مكتب الرئيس وسكرتيرته.. واختفت.

قررت ألا أذهب إليها، خاصة بعد أن حاولت أن أستشف بعض المعلومات من الزملاء عنها، لم يعطني أحد حتى لمحة يسيرة أستدل بها على شخصيتها، فالكل قال جملة واحدة وكأنهم اتفقوا عليها: (آسيا بنت ممتازة ومخرجة لذيدة).. مخرجة لذيدة! كيف يتأتى أن يكون المخرج لذيداً؟! هل تتخصص في إخراج برامج الطبخ؟!.. تركت مبنى التلفزيون وأنا جد مشوش.. أذهب إليها أم لا؟!.. كنت أشعر بأن هناك مكيدة تحاك لي، لكن ما هي المكيدة؟! وماذا يمكنها أن تفعل بي أكثر مما فعل مخرج الجوائز؟! لم يكن يخطر ببالي أنني من الممكن أن أتجرع السم من نفس الكأس مرتين، والحقيقة أن كأس آسيا كانت مختلفة كثيراً!

حسنت أمري وذهبت إليها.. تسكن في شقة بميدان الحجاز، لم أتوقع أبداً أنها شقتها هي وليست شقة عائلتها التي لم أرها مطلقاً، عندما ضغطت على زر الجرس، وجدتني أمامي في حركة من حركاتها الرشيقة المبالغية، تجمع خصلات شعرها الملولة كلها على كتفها اليمنى، وتميل نحو ذراعها الممدودة بعرض فتحة الباب في نفس الاتجاه، رفعت ذراعي مشدوهاً وقلت وقد غاصت عنقي قليلاً داخل كتفي: (أنا جيت بدري؟!)، ابتسمت مزيجة شعرها للوراء ثم قالت: (في ميعادك بالظبط.. كده الشغل ولا بلاش!.. اتفضل). بالطبع فوجئت لخلو المنزل عليها، مما دفعني إلى الجلوس في خجل بدا على وجهي توتراً، وكما هي دائماً اختفت داخل مطبخها ثم ظهرت وقد جهزت كوبين من القهوة، خلت أنها معدة من قبل في انتظاري، قدمت لي كوبي، ثم جلست على واحدة من المتكآت الجلدية الموزعة على الأرض بأناقة مربعة ساقبها، ثم قالت وكأنها قد أعدت نفسها للإجابة عن تساؤلاتي دون أن أ طرحها: (أنا عايشة هنا لوحدي.. في الحقيقة أنا مش من القاهرة أنا من المنصورة وطبعاً عيلتي هناك)، قابلت كلامها

بالصمت وأنا أحرك رأسي مؤمناً على كلامها، فنهضت في واحدة من مباغثاتها، وقالت وهي تتجه نحو مكتبتها: (بتحب الفن التشكيلي؟!)، (أكيد)، (أنا باحبه جداً.. تقدر تقول كل فلوسي ضايعة على اقتناء الكتب عن الفن التشكيلي، وكل فترة لما أحوش قرشين أشتري لوحة من لوحات أصدقائي الفنانين .. طبعاً بيعملولي تخفيض محترم في السعر، وأنا كمان ما بارحمهمش وأنزل ثاني في السعر!)، ثم أشارت إلي بيدها كي أنهض، توجهت نحوها وأنا لا أدري ما مغزى حديثها، لكني أقنعت نفسي بأن برنامجها المجنون عن الفن التشكيلي.. درت معها في أرجاء منزلها حتى حجرة النوم لأشاهد مقتنياتها الفنية، ثم عادت بي من حيث بدأنا عند المكتبة، لتريني عناوين الكتب الكثيرة التي تدور أيضاً عن الفن التشكيلي، ووجدتني أسأله: (وايه المجنون في الفن التشكيلي?!)، ضحكت وقالت لي وهي تنتظر بعتاب إلي: (أنا مش باوريك لوحاتي وكتبي عشان الشغل.. إنت مش عاوز نكون أصحاب?!)، فأجبتها بارتباك بدا علي بالتأكيد: (لا طبعاً عايز!)، وتابعت كلامها كأنها لم تسمع إجابتي (الصداقة أهم شيء في الشغل، لو الناس اللي بيشتغلوا مع بعض أصدقاء، نتيجة الشغل أكيد هتكون فوق الوصف)، لم أدر بماذا أجيب حتى سمحت لي أخيراً بالعودة إلى مقعدي، وعادت كما بدأت إلى التربع فوق متكئها ساحبة كوب القهوة لتعيد تقديمه إلي، ثم تناولت كوبها وقالت بعد أن رشفت منه قليلاً: (سمعت قبل كده عن وادي الريان?!)، (مش ده اللي في الفيوم?!)، (بالظبط.. فكرتي هي تصوير برنامج على مدى ثلاثين حلقة لشهر رمضان هناك، ونستضيف كل يوم فنان من كل المجالات.. ممثلين ورسامين ومخرجين سينما.. طبعاً المشهورين واللي وجههم معروف إعلامياً هناك).

بدت لي فكرتها مملة ومكررة وليس فيها أي شيء من الروعة والجنون، سوى في وادي الريان نفسه، فقلت لها باستهزاء: (وفين الجنون في ده؟!)، (كنت عارفة إنك هتقول كده.. الجنون في إننا لن نستضيفهم بكامل أبهتهم وبهائهم كنجوم.. لا.. كل واحد منهم عليه أن يأتي ليخيم معنا هناك، يعيش معنا حياة التخيم في البر، وهنكون إحنا والمذبة مع المصورين وعمال الإضاءة وغيرهم جزء من البرنامج، حيث سنمر من أمام الكاميرا ونمارس حياة التخيم، في نفس الوقت نقوم بعملنا الذي سيراه المشاهد ويشعر به.. لا وجود لأطعمة فاخرة ولا ملابس منمقة ولا مكياج للمذبة أو الفنان، ونسجل كل ما يحدث على الطبيعة ونحن نعد الطعام ونتجول في الوادي، ولن يكون هناك حديث معد مسبقاً.. سيكون كل شيء طبيعياً، وعلى الفنان أن يمضي اليوم معنا ويمارس فنه بيننا، فإذا كان ممثلاً عليه أن يؤدي مشاهد مثلاً من أفلام قديمة، أو رساماً عليه أن يرسمنا ونحن في الوادي والمخرج يتولى إخراج لقطات من البرنامج.. إلخ .. إلخ، ونحن لن نتحرك من وادي الريان لمدة شهر.. يعني شهر تخيم في البر في هذه المحمية الطبيعية، وبالطبع سترصد كاميرتنا حالات الإعياء التي ستصيب البعض، أو الخوف من اقتراب نفاد مؤونتنا ونحن في انتظار المدد الذي قد يأتي به الضيف معه أو لا يأتي.. طبعاً أنت عارف إننا مش هنموت من الجوع والإعياء، لإننا هنتحرك من القاهرة واحنا مزودين بكل شيء)، صمتت فجأة ونظرت إلي مشيرة بكفها في حركة عصبية وقالت: (هاه!.. مجنونة ولا لأ؟!).

بالطبع كانت فكرة جميلة وجريئة يشوبها الجنون، عرفت منها أن آسيا تتشبب أظفارها كنمرة في صخرة النجومية، ولم أجد في ذلك عيباً، لذا قلت لها بهدوء وعيني تلمع إعجاباً بها: (مجنونة طبعاً.. لكن ليه إخترتيني أنا بالذات؟!)، عادت إليها سكينتها وزفرت نفسها

المحبوس داخلها بعد أن طمأننتها على جنونها، وقالت بعد أن لان جسدها مستكيناً على متكئها: (أولاً الفكرة فيها بعد سياحي، وأنا عجبتي عينيك في الزوايا اللي ركزت عليها في برنامج مراكب الشمس، ثانياً الزاوية اللي ركزت عليها في البرنامج ده تدل على إنك بتبذل مجهود في الإعداد لفكرتك ثم في تنفيذها بأي تمن، وده مش متوفر في الشباب اللي معانا.. كلهم عايزين يعملوا أي حاجة وبسرعة، ولو شيء متعب ياخدوا عليه مبالغ كبيرة، وانت عارف إن مكافآت تليفزيونا جيدة بس مش مهولة).

كنت ساكناً تماماً أمامها، يدور في خلدي ألف سؤال وسؤال عن هذه الفتاة التي سرقت مني عين الكاميرا وسلطتها عليها وحدها لمدة ساعتين، منذ أن دخلت من باب شقتها.. شقتها التي أسرتني بأنقتها الظاهرة في كل قطعة أثاث، وكل مصباح معلق في مكانه تماماً، فلا يتعدى واحد دور الآخر في إضاءته ركناً من أركان الصالة، وتلك الألوان المطلة من اللوحات تلف الحوائط لتحيل كل بقعة في الأرض إلى حديقة في أوج الربيع.

سلمتها دروعي وأسلحتي وأنا على باب شقتها أود لو لا أغادر أبداً، وعدت إلى منزلي مكللاً بغارها الذي توجتني به، وحاملاً صولجان ملك لي ولها وحدنا، ووجدتني - وأنا عائد إلى منزلنا في ميدان روكسي سائراً على قدمي - أودع هالة في خزانة الذكريات مغلقاً عليها باباً بألف قفل!

بدأنا العمل أو ورشة العمل كما أسمتها آسيا، اقتصر الأمر علينا وحدنا وكما لم أتوقع بل تمنيت، دارت أحداث الورشة في منزلها الربيعي، كنا بالكاد نذهب إلى التلفزيون، وكانت بالكاد تعمل في الورشة التي قمت أنا بدور البطولة فيها، فقط اكتفت هي بإمدادي بالشاي والقهوة وأحياناً بزجاجات الاستيلا*، فتحت خطأ ساخناً من هاتفها لإجراء اتصالات مكثفة بنجوم المجتمع لدعوتهم إلى الاشتراك ببرنامجنا، استعنت بكل زملاء الكلية الذين انتشروا في الجرائد والمجلات للحصول على هواتف هؤلاء النجوم، خاصة أحلام التي كانت تحولت بشكل لم أفهمه إلى العمل في مجلة جماهير الفن.. مر شهر وأنا قابع في منزل آسيا، انزلت خلاله تدريجياً من الجلوس على الأريكة أرض الأوراق في نظام شديد على الطاولة أمامي، إلى واحدة من متكاتها الجلدية، وأخيراً على الأرض تتبعثر الأوراق في كل اتجاه، بينما تمارس هي دوراً أنثوياً خلاباً، تدور كفراشة ممتزجة بألوان اللوحات، تلقي بابتسامات مزدهرة عابثة حولي، وأحياناً تجلس خلفي على الأريكة تمد أصابعها المدببة في شعري، ثم تزلقها في نعومة على عنقي لتربت على كتفي في النهاية بحنو، ثم تنهض وتتركني أعاني آلاماً مبرحة في حقوي أحاول تسكينها بلا نتيجة.

مر شهر كامل وأنا أعمل في دائرتها النارية تمنحني نذراً يسيراً من إمدادها الأنثوي الفائض، أحلم بغوثها ولا أستطيع المطالبة به، أعصر الأوراق والقلم وسماعة التليفون بكفي، وأستهي اعتصارها بين جوانحي في تحرر أبدي من كل أطر العالم الخارجي، كانت ترى اشتعالي ولا تألو جهداً في زيادته، بينما تراهن على قدرتي على قتل

جسدي، منصبة نفسها سيدة لأرقي وسهادي، وأنا أستسلم لسيادتها تائهاً في اشتهائي المشتت بين دروبها.

وضعنا اللمسات الأخيرة لشكل البرنامج وانتهيت من كتابة (الإسكربت) الخاص به، كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، نظرت إلى ساعة يدي ثم رفعت رأسي أبحت عنها، كانت جالسة في تراح على الأريكة المواجهة لي، تاهت عينا في منحنيات جسدها، سمحت لنفسني بالتجرؤ على تعريتها بنظراتي عندما اطمأنتت إلى إغنائها، فجلت من أعلاها ألحق عنقها ببطء محاولاً تخيل رائحة عرقها الندي، وعندما قررت ارتشاف رحيق وردتي نهديها، فتحت عينيها بكسل ثم قالت في صوت ناعس: (هاه إيه الأخبار؟!)، أجبت دافعاً غيظي من تيقظها في تلك اللحظة إلى كفي التي تقبض على القلم: (خلاص كل شيء انتهى!)، انكسر القلم بين أصابعي مصدراً طقطقة خفيفة لاحظتها، حاولت مداراة الأمر في نهوضي قائلاً في ارتباك: (إنتي نعسانة هاسيبك عشان تنامي)، أهملت كلامي وثبتت عينيها في عيني، دار بيننا حديث شهوة مشتعلة عبر شفتين اختفتا، لا أتذكر عدد الثواني التي مرت قبل أن تدعوني إلى حفلتها الصاخبة بكف ناعسة متراخية، استجبت لها فوراً ودون تردد.

جلست على مسند الأريكة التي تعثليها، كفي المرتعشة امتدت نحو وجهها في حذر، لكن وجهها الذي توسد كفي في استسلام أوقف رعشتي فسمحت لأصابعي بأن تعرك أذنها بخفة، لم أكن أدري ما الخطوة القادمة، أو بمعنى أصح إلى أي مدى ستسمح لي، ظلت أصابعي متوقفة عند أذنها للحظات مرت علي دهرًا، فقد أخذت آلام اشتهائي لها تزداد وتلهب جميع أعضائي الحائرة، لكنها تقدمت خطوة فاتحة أمامي مسرباً من نور شعاعها، عندما مدت كفها لتلتقط كفي مقبلة أصابعي في نهم أيقظ عفريتي الذي أعمل على تسكينه منذ شهر

كامل، انزلقت بجسدي أحشر نفسي بين جسدها ومسند الأريكة، ولم أدر كيف التقطت شفتاي شفيتها ممتصاً رحيقهما في لوعة.. لم تبد أي تراجع من ناحيتها، أو حتى تضع كفها على صدري مبعدة إياي برفق، كما كانت تفعل هالة منهية شهوتي، بل استسلمت لشفتي مقدمة رحيقها لفمي، ثم مدت كفها نحو رأسي تداعب بأصابعها شعري..

مسرب النور اتسع قليلاً ليضيء رغبتني أكثر، سمحت لكفي بأن تتسلل أسفل قميصها الفضفاض، وزحفت بخفة نحو جمرتيتها الساكنتين داخل حمالة صدرها، فوجئت بها ترجع إلى الوراء قليلاً وظننت أن هذه هي حدودها، لكنني وجدتها تنزع قميصها وصدريتها ثم تنهض لتمد كفيها لمنقطة يدي.. وقعت في أحابيل الدهشة، لكن النشوة لفتتني وأنا أراها ماثلة أمامي وهي نصف عارية، كان الأمر واضحاً تماماً في تلك اللحظة، فالدعوة أكثر كرمًا، ولكن وأنا ألفها بذراعي راتعاً في نصفها الأعلى بحبور، دار في رأسي ألف سؤال.. كان الأهم إلى أين سوف نذهب معاً تلك الليلة؟!

دارت بجسدها وهي تحتضنني، وأخذت تخطو إلى الوراء قليلاً قليلاً، لم تكن تبعد عني بل التصاقها بي كان أكثر قوة مني.. وجدت نفسي بعد لحظات قليلة في حجرة النوم، توقفت وأنا لا أدري هل استدعوني إلى الفراش أم لا، كان الأمر بادياً لكنني لم أكن أتخيل أنها في حركة خاطفة ستجرد من إزارها لتقف أمامي عارية تماماً.. وقفت متردداً فقد باغتتني بما فعلت، ولكن عفريتني أبى أن يظل ساكناً في قمقمه، مطالباً على الأقل بالتححرر من الملابس التي تخنقه، لم تترك أسيا لي شرف التجرد من ملابسني! فقد تقدمت نحوي وبأصابع خفيفة مدربة جردتني منها جميعها، لأجد نفسي ملتصقاً بها في الفراش أرتشف من شرابها المعتق في نهم.

كانت رطوبة تفوح منها رائحة بحر هائج، وأنا لا أترك جزءاً من جسدها دون أن أغوص فيه بجسدي، بينما تنتقلب بجسدها اللولبي فوقى وبجانبي وأسفلي، حتى جاءت لحظة الانعتاق من وجعي في اشتهاؤها، كنت أثناء امتزاجنا أدرك أن هناك حداً لا يمكن تجاوزه، فظلت ألمس كنزها المخبأ بين فخذيهما بخفة مبتعداً كلما شعرت بجموحي، استعددت أن أنهي اللحظة بعيداً، لكنها ضغطت بذراعها الملفوفة حول عنقي، ومدت ذراعها الأخرى لتسكن عفريتى داخل خبيئتها.. مرت اللحظات علي دهرًا، أتقلب بين الدهشة واللذة، آسيا ليست عذراء!.. لكنها المرأة التي حققت وجودي.

سقطنا في بئر من الغياب عن الكون، نامت بين ذراعي هادئة ملائكية، واستسلمت لخدر الاحتفاظ بجسدها بين ضلوعي، وإن كان السؤال الذي أخذ ينهشني إلى أن تيقظت: كيف تحولت الأنسة آسيا إلى سيدة وهي كما أعلم لم تتزوج!؟

لا أدري إن كنت نمت أنا أيضاً أم لا، لكن السؤال ظل متيقظاً برأسي إلى أن استيقظت ووجدتها مستلقية على جانبها الأيمن إلى جوارى، تداعب وجهي بلمسات فراشية أشعرتني بانثشاء حقيقي غيب سؤالي للحظات، لكنها عندما سألتني إن كنت جائعاً وجدنتي أقول لها بتردد: (في حاجة عارف كويس إنها مش من حقي بس..)، لم تتركني أكمل فقد باغتتني بمعرفتها بما يدور في رأسي قائلة: (إزاي بقيت مدام وأنا ما اتجوزتش!؟)، كلماتها ألجمتني وفوجئت بنفسى غارقاً في قطرات باردة تتسابق منزلقة من قمة رأسي على عنقي وظهري، أخذت أردد كلمات غير منتظمة، حتى قالت لي: (تحب تاكل في السرير ولا نطلع الصالة؟)، (زي ما تحبي).

لم أكن آكل برغم شعوري بالجوع منتظراً إجابتها، وفي نفس الوقت لم أستطع أن أعيد السؤال مرة أخرى، لكنها ظلت صامتة إلى أن

أحضرت كوبين من الشاي بعد الطعام، لتبدأ ودون مقدمات قص حكايتها.

آسيا من أسرة فقيرة لم يكن من الممكن أن يصرفوا عليها في الثانوية العامة لتدخل الجامعة بعد ذلك، أوضح أخوها لها الأمر، مذكراً إياها أن معاش والدهم بعد وفاته لا يمكن أن يكفي ثلاث بنات واثنين من الأولاد، وأنه عليها قبول الالتحاق بالثانوي التجاري لتتزوج أو تعمل بعد ذلك، أو أن تعمل وتدرس في الجامعة، فاختارت الأمر الثاني.. عملت بائعة في إحدى صيدليات المنصورة، حيث تخرج من مدرستها إلى الصيدلية إلى أن تغلق في العاشرة مساءً، لتعود إلى المنزل لتذاكر حتى الواحدة أو الثانية صباحاً ثم تنام، لتبدأ دورة شقائها من جديد. وفي يوم طلب منها الصيدلاني أن تسهر معه قليلاً لإنهاء الجرد السنوي للصيدلية فوافقت، لم تكن تدري أنه أبقاها ليجردها من عذريتها، ملقياً بها في عالم جديد تماماً وهو عالم المنبذات من المجتمع.

أخبرتني والدموع تتسابق على خديها أن هذا الرجل وضع حداً لأحلامها في الزواج وأن تصبح أماً في يوم من الأيام، لكنها لم تسمح لهذا الحادث بأن يقضي على أحلامها الأخرى، وهي أن تدخل الجامعة وتصبح شيئاً عظيماً في يوم من الأيام، وبالفعل دخلت الجامعة وإن لم تتمكن من الالتحاق بكلية الإعلام، لكنها ظلت تبحث عن طريقة تعمل بها في التلفزيون إلى أن تمكنت من ذلك، وها هي أمامي مخرجة في التلفزيون.

كانت آسيا في ذلك الوقت قد ملكت عقلي وقلبي وأغشتها عن إبصار الكثير، فلم أسألها عن شكل الفرصة التي فتحت أمامها باب التلفزيون، أو عن شكل علاقتها بأسرتها الآن.. حتى لم أسألها عن رقمي بين عشاقها، فما دار بيننا لا يدل على أنها فقدت عذريتها في حادث اغتصاب فقط!

مكثت معها في تلك الليلة إلى أن انبلج الصباح فعدت إلى منزلي، وجدت أمي في المطبخ كعادتها تعد الفطور لأبي وأخواتي، لم تسألني أين كنت بل سألت وعتابها ظاهر في عينيها إن كنت سأفطر معهم، أجبت بأنني متعب وأحتاج إلى أن أنام.

استيقظت في الرابعة عصراً على صوت أمي وهي تبغني أن آسيا على الهاتف تريد التحدث معي، نهضت مسرعاً لألتقط سماعة التليفون متأهباً لسماع سفر العشق من بين شفثيها، لكنها فاجأتني بقولها: (إيه الدلع ده؟! إنت لسه نايم؟!..! ياللا قوم وقابلني في التليفزيون بعد ساعة)، تعجبت من نغمة صوتها النظامية، وتساءلت عن المكان الذي أودعت فيه صوتها البلبل الذي غردت به في أذني طوال ليلة أمس؟!!

ذهبت إليها وأنا أحلم برغم نبراتها الحازمة في التليفون أن ألقاها عشيقة وليست المخرجة آسيا، لكني لم أجد سوى المخرجة التي سحبتني من ذراعي نحو مكتب رئيس القناة، لنجلس عنده لمدة ساعة نعرض عليه ما أنجزناه طوال الشهر الماضي - ما أنجزته تحرياً للدقة! - لم أتفوه بكلمة واحدة طوال هذه الساعة، فقد انطلقت آسيا كخطيبة مفوهة في شرح معاناتنا لمدة ثلاثين يوماً، لم نعرف للنوم طريقاً أو للطعام مذاقاً حتى أعددتنا البرنامج، واتفقنا مع المشاهير بعد عذاب لإقناعهم بالاشتراك معنا.. بالطبع لم تذكر شيئاً عن الجائزة الكبرى التي فزت بها في الليلة السابقة، نظير مجهودي الذي بذلته وحدي طوال شهر! في النهاية نهض الرجل ليشد على يدها وعيناه تقيضان إعجاباً بها، ثم ألقى نظرة نحوي قائلاً: (إنت محظوظ إنك تبدأ مستقبلك العملي مع آسيا.. دي بألف راجل!)، حزننت كثيراً على وصفه لها بأنها بألف رجل، فآسيا تختزن داخلها فيضاً من أنوثة نساء الأرض جميعاً، ولا تحمل ملمحاً ذكورياً واحداً.. هذا ما أخبرتها به بعد خروجنا

من مكتب الرئيس المبجل، فأجابت بابتسامة مغناج أطاحتني وأوثقت أصفادها حول رسغي.

قبل أن نسافر إلى وادي الريان قابلت أحلام مصادفة في ميدان التحرير، كانت واقفة إلى جوار مبنى الجامعة العربية تنتظر الحافلة لتعود إلى منزلها.. لم أكن قد رأيتها منذ ثلاثة أعوام بعد أن تخرجت في الكلية مع هالة، فقط كنا نكتفي بالحديث في التليفون من وقت لآخر، فقد كانت منشغلة ببيتها وابنتها الصغيرة، شعرت برغبة جامحة في التحدث إليها، فطلبت منها أن نجلس في أحد المقاهي قليلاً قبل أن تعود إلى منزلها، لم أتوقع أن توافق على اقتراحي سريعاً، فلقد تخيلت أنها سوف تتحجج بزوجها وابنتها، لكنها استجابت لي ووجدتني أسرد عليها كل ما حدث لي، منذ أن تخرجت في الكلية وحتى حكايتي مع آسيا، بمجرد أن سألتني عن أخباري. لم تعلق على أمر فقد آسيا عذريتها، لكنها قالت لي عندما أفرجت عن شكوكي الخاصة بمعرفتها رجالاً آخرين قبلي: (مش مهم عرفت كام راجل قبلك، المهم إنها ما تعرفش غيرك دلوقت)، (يعني انتي شايقة إن الشكوك دي مش من حقي؟!)، (طبعاً مش من حقا.. لماذا يبيح المجتمع للرجل أن يفعل ما يريد حتى بعد الزواج ولا يسمح للمرأة بأن تمر بتجاربها الخاصة؟!).

كنت أعلم معركة أحلام مع الدنيا بأسرها لتقضي على الفوارق الاجتماعية بين الرجل والمرأة، لكنني أحببت إجابتها لأنني كنت أريدها ولا أريد سماع غيرها.

انتهى لقائي مع أحلام بعد أن سمعت منها ما أريد، ولم أعر مشاعرها المشوشة تجاه زوجها انتبهاً، فقط اكتفيت بنصحها أن تتحمل المشاكل من أجل ابنتها، وعدت بعد أن أوصلتها إلى منزلها إلى البيت منتظراً الصباح بصبر نافذ، حتى أبدأ مع آسيا رحلتنا إلى وادي الريان ممنياً نفسي بالكثير!

* الاستيلا : نوع بيرة شهير في مصر

(٦)

في وادي الريان أينعت براعم عمري من جديد، وكأن رحم أُمي
فتح فقط هناك ليسرب لي ضوء الدنيا المنتظرة ببهاء الحكايات
وأساطير الأمراء الذين ينقذون فتياتهم من المردة، ممتطين حصانهم
الأبيض المتخايل بشعره الكث على إيقاع الأرض النابضة بعنفوان
العشق، كانت آسيا تحمم في المكان كمهرة رائعة لا تستقر إلا
عندي، ثم تعود لتدور تنشر جمالها الانسيابي في كل مكان حولي.

تمر الأيام ونحن نعمل بجد، وآسيا برغم ما بذلته من مجهود
اهتمت أن يظهر على الشاشة بوجودها أمام الكاميرا أكثر من ورائها،
تشعل لهيب اشتهائي لها، وتغمض باصرتي بحرفية، وتحولني إلى
ولهان هائم على وجهه، متتبعا خطوها ومنتظرا بصبر مشنت لحظها،
ودقائق نغافل فيها من معنا لننفرد معا وأنال بعضاً من كنوزها، حالماً
بيوم عودتنا لنعود إلى عشا الملفوف بدفئها وعذوبة حضورها في
داخلي.

كنت برغم سعادتي بالعمل وفرحة انتظاري رؤية اسمي مكتوباً
على برنامج لأول مرة، منذ أن تخرجت وجررت ساقية غيري لمدة
عامين في الخفاء، أنتظر بصبر نافذ لحظة عودتنا إلى القاهرة، فقد
قررت أن أطلب آسيا للزواج.. وكنت واثقاً من موافقتها، راسماً بمخيلتي
الضئيلة مشهد قبولها، تارة تبكي بين يدي وتسيل دموع الفرح غزيرة
على خديها، وتارة تقفز في الهواء مستقرة بين ذراعي، معلنة موافقتها
بقبلة طويلة تسحبني خارج دائرة الوعي المموجة، وتارة تخبرني بأنها

انتظرت هذه اللحظة طوال ثلاثين يوماً ونحن في وادي الريان! وحلمت بها وقد قلقت من ألا أبادر إلى تلك الخطوة فأسألها: (وإذا لم أسألك الزواج بي ماذا كنت ستفعلين؟!)، فتجيب: (بالطبع كنت سأضربك وأجبرك على الزواج بي!). ثلاثون يوماً أعيش في حلم يمتزج فيه انتصاري في العمل بفوزي بقلب معشوقتي، تلك التي تحدث ظلام جبي وقفزت لتصعد بي نحو شروق الشمس.

انتهت مهمتنا، لملنا معدتنا وحاجتنا وعدنا إلى القاهرة نحمل الأفلام التي صورناها، والتي رفضت آسيا أن تتركها مع أي من أعضاء فريق العمل حتى معي، قالت لي: (مش هتبات إلا في حضني)، ووجدت جرأة لم أعهدا في نفسي من قبل وأنا أقول لها: (هي بس؟!)، فأجابت بعينيها باعثة في كل شهوات العالم، فقد كنت مستعداً لأكل أطنان من الطعام ومضاجعتها ألف مرة!

أمضيت ليلتي معها، كان ما حدث بيننا أشبه بأسطورة، ما كان عقلي ليرقى يوماً ويرسمها في أعماق أحلام شهوتي، ملكتي آسيا يومها مفاتيح جنان الأرض، وتركتني أجوس في ربوعها أروي ظمئي من أنهار شهداء، وأسد فوهة جوعي بصنوف لذائذها، حتى إنني رفضت طلوع النهار علينا، وكرهت تذكيرها لي بوجوب العودة إلى أهلي وبيتي، حتى أبدل ملابسني وأستعد لعمل المونتاج لحلقات البرنامج، كنت قد نسيت تماماً أن لي أهلاً غيرها! ووجدت نفسي خاوياً من أي اشتياق لأمي وأبي وأخواتي، فقد استطاعت تلك القاسية أن تفرغ نفسي من كل شيء إلاها.

ذهبت إلى التليفزيون بعد أن غيرت ملابسني في المنزل، وأصبحت أمني بحسرة عدم تحمسي للجلوس معها وباقي أفراد الأسرة، لكنني لم أهتم لنظراتها المشوبة بحزن رزين، كان كل ما يملكني أن أكون حيث تكون آسيا.

عندما وصلت إلى مقر القناة لم أجد آسيا، وعندما سألت عنها أخبروني بأنها في غرفة الرئيس، انتفض لساني حينها بلذعة مرة ابتلعتها صامتاً، وذهبت إلى مقهى التليفزيون لأشرب عصيراً أذهب به مرارة لساني التي لا أدري من أين حلت. بعد مرور ساعة تقريباً وجدتھا أمامي تسحب كرسيّاً برشاقتها المعهودة، وتجلس مبتسمة قائلة: (الرئيس منتظر بفروغ صبر مشاهدة الشرايط.. هو متحمس جداً للبرنامج من ساعة ما شاف الحلقة البايلوت اللي بعتهاله)، عندما لم تتلق سوى صمتي تابعت حديثها قائلة: (أكيد فقت.. ياللا بقى عشان نبدأ المنتجة)، سحبت سيجارة من علبة دخاني، وأشعلتها وأنا أنظر إليها بصمت ألقها فقالت: (مالك ساكت ليه؟!)، (أبدأً افكرت اللي حصل لي مع المخرج إياه)، فهمت تلمحي فقامت بحركة مسرحية يبدو أنها تدرت عليها كثيراً، حتى إن المقعد انكفأ على ظهره إلى الوراء، محدثاً قرقرة خلفت صمتاً لحظياً في المقهى، ثم قالت: (أنا في غرفة المونتاج لما تخلص عصيرك حصلني، مفيش وقت للكلام اللي مالوش معنى!).

مضت ولكني لم ألحق بها، فقد تركت مبنى التليفزيون وعدت إلى المنزل لأغط في نوم عميق، اعتراه الكثير من الأحلام المزعجة التي لم أتذكرها عندما أيقظتني والدتي تخبرني بأن آسيا على التليفون، وعندما سألتها عن الساعة أجابتني أنها الثامنة مساءً.. طلبت مني آسيا أن أنزل فوراً لألقاها في منزلها، وأصرت عندما أخبرتها بأنني أشعر بكسل وأريد أن أتابع نومي، فذهبت إليها، وكانت هذه هي رغبتني الحقيقية، فقد كنت أتمنى من أعماقي أن تبدد لي شكوكي، وتعيد زرعني في عالمها الذي تحول إلى جنتي المفقودة.

لم أفرع باب منزلها، فقد وجدتھا أمامي واقفة على الباب ترتدي حلة تحيي بها أزهار عمر كامل في لحظة كونية، لحظة تمتلكها آسيا وحدها فتمنحها وتمنعها وقتما شاءت وكيفما شاءت.. تبدد ارتيابي

وقلتي بمجرد مرآها، ووجدت نفسي أنا الذي يبهر لها غيابي وتركبي العمل، لكنني وجدتها تنهض وتسير نحو المطبخ، وكأنها ترقص على قرع طبول تعلن بدء الحياة، ثم تعود حاملة كأسين وزجاجة من الويسكي تضعها على المنضدة لتقول: (إوعى تقولي إنك بتشرب الويسكي متخفف بالتلج أو الكولا!)، (أمال الويسكي بيتشرب إزاي؟!)، صبت قليلاً في كأسها ورفعتها نحو فمها بطراوة، ثم أراحت شفتيها على طرف الكأس واحتست الويسكي ببطء، وعندما أنهت كأسها كنت قد تحولت إلى جمرة نارية، لكنني لم أستطع النهوض لأقبض على جسدها بكلتا يدي وبوحشية، تماماً مثلما رغبت في تلك اللحظة، خطت بتمهل نحوي بعد أن ملأت الكأسين ثم جلست على ساقي، ووضعت طرف الكأس على فمي فتجرعت كأسها مغمضاً.. والتهمت جسدها وأنا أترنح في عمائي.

في اليوم التالي ونحن نعمل في غرفة المونتاج، أخبرتني بهدوء بأنها لم تستأثر بالمجهود الذي بذل في تنفيذ البرنامج وحدها أمام الرئيس عندما كانت في مكتبه، بل شرحت تماماً ما حدث، وكيف أنني قمت بجزء كبير من العمل وحدي، بل إنها قالت له إنه لولا أحمد ما كان يمكنها إخراج العمل بهذه الروعة.. صدقتها، بل غمرني فرح جعلني أعمل لمدة ثماني عشرة ساعة، وحدي بالطبع! فقد تركتني آسيا بعد حوالي ست ساعات من عملنا في المونتاج، وأخبرتني بأنها ستنتظرنني في المنزل بعد أن أنتهي من العمل، لكنني بالطبع لم أذهب إليها، فقد فرغت من مونتاج البرنامج الساعة السادسة صباحاً، ونمت حيث أنا في غرفة المونتاج.

بعد أن شاهد رئيس القناة البرنامج في صورته النهائية أخذ آسيا في حضنه، وشد على يدي قائلاً: (شفت بقى نتيجة العمل مع مخرجة عبقرية زي آسيا؟!)، ابتسمت وأنا لا أدري ما الذي يعنيه، لكنني

شعرت بارتياح لرضاه عن العمل، وترشيحه لعرضه في شهر رمضان، فهذا بالتأكيد سيرفع نسبة المشاهدة، وسيحقق لي نجاحاً حقيقياً يسجل لي في أرشيفي العملي المستقبلي، كما أنني كنت سعيداً أيضاً، لأنني أخيراً أعمل في النور، واسمي يسجل على برنامج جماهيري توقعت له النجاح، وهذا ما حدث بالفعل عندما تم عرض البرنامج.

عدت مع آسيا في سيارتها إلى منزلها، وفي الطريق وجدت أن الوقت قد حان لأعلن لها رغبتني في الزواج بها، كان اليقين من موافقتها سبباً في إعلان رغبتني بهدوء شديد، ودون أدنى انفعال طبيعي يصاحب إعلان أي رجل حبه لفتاته خوفاً من رفضها، حتى إنها أجابتنني بسخرية واضحة: (ومالك بتطلب مني الجواز وكأنك بتطلب واحد شاي؟!)، صدمتني إجابتها واحتجت إلى بعض الوقت أجمع فيه ريقني لأبذل لسانني الذي تحجر فجأة، وعندما هممت بالتحدث أشارت آسيا بكفها كي أصمت وقالت: (دعنا لا نتحدث في هذا الأمر الآن.. على الأقل امنح نفسك بعض الوقت لتعرفني أكثر، وعندما تشعر حينها بأنك مازلت تريد الزواج بي.. حينها لن أمانع). إجابتها أخافتني، فهل مازال هناك أمر لا أعرفه عنها أو أنها لا تريدني؟.. ساورتنني شكوك كثيرة، وشعرت بنفسني أتخبط في حوائط تضيق علي الخناق من كل جانب، لكنني آثرت - وأنا أهبط من سيارتها بعد أن نبهتني بأننا وصلنا - أن أعزو رد فعلها ذلك لتحسسها من أمر فقدتها العذرية قبل الزواج.

مرت الأيام علينا ونحن نعمل ونتبادل العشق، كنت برغم إسناد رئيس القناة إلي مهمة مساعد مخرج للنشرات التي تبث على الهواء، أساعد آسيا في عملها، فتقريباً المونتاج الخاص بكل حلقات برنامجها الأسبوعي كنت أنا الذي يقوم به، إضافة للأفكار التي كنت أقدمها لها في الفراش! في البداية كانت آسيا كما عهدتها، لكنها بدأت تتغير قليلاً قليلاً، كنت أحاول استرضاءها بأي شكل، كم من الساعات

أمضيتها في المكتبات أبحث لها عن كتب لا تملكها في الفن التشكيلي لأحضرها لها، هذا عدا المعارض التي كنت أبحث عنها بلهفة حتى أجتمع بها، بعد أن تعودت الغياب أياماً طويلة عني مبررة الأمر بالعمل والمقابلات الرسمية، وفي النهاية قررت أن أفاتها في أمر الزواج مرة أخرى، معتقداً أن هذا سيحسم أمر غيابها المتصل، لكنها في تلك المرة كانت حازمة وواضحة بما فيه الكفاية، فقد قالت: (إنت ليه عايز تتجوزني؟!)، كان السؤال مثيراً للدهشة حتى إنني صمت بعض الوقت كي أجيبها بعفوية: (لأني بحبك.. إنتي مش بتحبييني انتي كمان؟!)، (مسألة الحب دي أنا مش مؤمنة بيها خالص!)، قبضت إجابتها روعي وشعرت بالاختناق، لكني سألتها بسذاجتي التي أخذتها في طيات قسوتها إلى الأبد: (وتفسري بايه علاقتنا طول السنة اللي فاتت؟!)، بغم بارد الحس أجابت: (انجذاب طبيعي بيحصل لجميع رجال ونساء الأرض)، (لا ما كانش انجذاب.. أعتقد إنني كنت أداة تحققي بيها إنجاز في حياتك)، (ده حقيقي، لكن ما تنكرش إنني ما دستش على جنتك في النهاية، إنت دلوقت مساعد مخرج هوا، وبقت لك سمعة جيدة في القناة، وقريب أوي هنتعين وتبقى مخرج.. وأعتقد إنك تمتلك الكفاءة اللازمة لصنع نجاح كبير في مجال التليفزيون).

صمتت ووقعت أنا أيضاً في لجة الصمت، أواجه روحاً خاوية تماماً تتعق فيها اليوم، فنهضت ساحباً جسدي المكدود، مخلفاً ورائي أجنحتي التي خفقت معها، وقبل أن أغلق الباب ورائي نظرت خلفي حيث كانت تأكل طاردة ملامحي من عينيها، فابتسمت للموت الذي لاح في وجهها، وأغلقت الباب ورائي إلى الأبد.

واجهت بعد آسيا آلاماً مبرحة، فقد كان اقتلاع جذورها من جسدي أمراً مستحيلاً، كان قلبي مسكوناً بحضورها، ولحمها ممتزجاً بلحمي، في خليط معقد التركيب يحتاج إلى أمهر علماء الأرض، كي

يفككوا أعصابها من أعصابي، ويمحوا رحيقها من فمي، ويطردوا
أنفاسها من مجالي الجوي!

لم أحبس نفسي في المنزل كما حدث لي من قبل، وإنما تابعت
الحياة بشكل طبيعي أمام الجميع.. أمي وأخواتي، وخاصة أبي الذي
كان من المستحيل إعلان هزيمتي للمرة الثانية أمامه، لكنني عندما
كنت أسكن إلى غرفتي في النهاية يراودني شعور بأن الزمن يفر من
حولي، ولا يبقى سوى دموع تتساقط على فراشي لتنام إلى جوارتي، بدلاً
من آسيا التي ظلت حضوري في الكون لمدة عام.

تدريجياً بدأت حقيقتها تتكشف لي، فهي تستغل شخصيتها
الجدابة والغموض الذي تحيط به نفسها لتصعد على أكتاف الرجال،
كنت أنا أضعف كتف تسلقت عليها، حيث اعتادت ركوب المصاعد
الفارهة من المترعين بالمال والجاه والشهرة، أظنها اضطرت إلى التقاط
مصعد فقير اختارته بعناية، لتمحو عنها هذه الشبهة التي علقت بها
في التلفزيون.. كان من اللازم إحضار أحد المجهولين، شرط أن
تتوافر فيه الموهبة، حتى تستخدمه في تنفيذ مشروع تلفزيوني يثبت
جدارتها ويسند إليها وحدها في النهاية، فمن أكون أنا؟! مجرد مساعد
مخرج لأفكار وقدرات إبداعية مهولة.. لآسيا العظيمة! وأدركت تدريجياً
سبب عدم رغبة أحد في القناة في التحدث عنها بوضوح، فالكل خائف
من علاقاتها، بل يتمنى أن ينال رضاها ربما خلفت له بعضاً من
فتاتها!

تخبطت بين ولهي بها وازدراي شخصيتها فترة طويلة، خاصة
أنها كانت بحركاتها الفراشية التي أضحت مزعجة تماماً لي تنتقل بين
العربات الفارهة، التي تأتي كل يوم لتأخذها إلى حيث لا يدري أحد
سواها وبعض الزملاء في القناة، الذين كانوا يتهامون في المقهى
عنها ليطبقوا شفاهم فور وصولي. كان الأمر أشبه بمزحة سخيفة،

فهاأنذا أتحول في لحظة إلى مسخ يتهم عليه الناس، أو ضحية
يمصمص القليلون شفاههم بأسى لما جرى له، كنت أرغب آنذاك في
الاختفاء، ولكني لم أجد مكاناً أختفي فيه، فأنا محاصر.. عائلتي من
جهة، وعملي الذي لا أجد له بديلاً من جهة أخرى.. حتى اختفت آسيا
تماماً، وعلمت أنها ذهبت للعمل في إحدى القنوات العربية التي تبث
من لندن، براتب يفوق تخيل أي منا حتى رئيس القناة نفسه، وبذلك
تحول الحديث عني إلى راتب آسيا الضخم. وأخيراً اختفت آسيا من
أحاديث الجميع، فبدأت أنتفس قليلاً لكن دون حلم، فقد ذهبت حاملة
معهها كل أحلامي، تاركة فقط الموت ليسكن أحشائي.

بعد مرور أكثر من ستة أشهر على حادثتي المروعة مع آسيا، لم ألحظ أي تحسن في حالتي، فقط اعتدت ألم فقدي لها وصدمتي في حبها، وإن كنت في لحظاتي الحسية وحدي في غرفتي لم تكن هناك صورة أخرى غيرها لتكون منفذاً تتسرب عبره انفعالاتي.. كم كان ذلك موجعاً أشبه باغتيال يومي، لا يعقبه سوى الرقاد مهزوماً في فراشي المنسي.

تقريباً في خلال هذه الفترة قابلت أحلام السيد مرة أخرى، بعد فترة طويلة انقطعت فيها عني، حتى عبر المكالمات التليفونية القصيرة التي كنا نجريها سريعاً، نتبادل فيها أخبارنا على شكل مقتطفات سريعة وروتينية.. كان ذلك في دار الأوبرا حيث كنت أخرج حلقة من حلقات برنامج (القاهرة الساهرة)، الذي أسنده إلي رئيس القناة بعد ذهاب آسيا، والذي ترقيت معه إلى رتبة مخرج رسمي بعد أن أتممت أوراق تعييني، أحلام أيضاً كانت هناك لتغطية الحفلات للمجلة الفنية التي تعمل بها، كان لقاءها مفاجئاً وأشبه بصاعقة لي، فلقد تلقنتني بين ذراعيها مقبلة إياي بشدة، وهذا أمر صعب تخيله من أحلام، ثم فوجئت بها دون غطاء الرأس الذي لم أعرفها يوماً دونه، ظلت أنفاسي محبوسة في حلقومي لعدة ثوان، حتى وجدتھا تنظر إلي مبتسمة بطريقة لم أعدها أيضاً من أحلام من قبل، لكنها لم تستطع بها محو تلك البلبلة والارتعاش من عينيها، وقالت: (أيوه قلعت الحجاب، وكمان سبت جوزي ومستتية ورقة طلاقي في بيت أمي!)، أخيراً زفرت الأنفاس المعلقة داخلي وقلت: (يعني مافشلتش لوحدي!)، (كلنا فاشلين يا عزيزي، ما تخلّش الموضوع ده يقلّك!).

بعد أن أنهينا عملنا جلسنا في حديقة الأوبرا أمام النافورة التي تتوسطها، تصرفت أحلام بمجون عجيب لم أعرفه فيها من قبل، اقتربت من رزاز الماء المتدفق من النافورة، وأخذت تقفز كطفل يمارس الدهشة بمرح بكر، ناديتها فسألتني بخفة ألن تأتي لتغسل؟! ضحكت ولم أجد ما أقوله سوى: (استحميت في البيت قبل ما آجي!)، (إنت اللي خسران!)، (تعالى بس واقعدى زي الناس العاقلين!)، أجابت بإذعان طفولي لأوامر الآباء: (حاضر)!

سألتها إن كانت تحب أن أصطحبها إلى منزلها، فقد كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلاً، فقالت: (لا.. طول عمري باروح بدري.. كسبت إيه يعني؟!).. تصرفاتها ونزعها غطاء رأسها ومعانقتها لي والآن هذه الكلمات، شعرت بأنني لست الوحيد في العالم الذي يسير بسكين مغروز في ظهره، بل هناك الكثيرون.. فسألتها: (إيه اللي حصلك خلاكي تتغيري مية وتمانين درجة؟!)، (أنا ما اتغيرتش، أنا بس خرجت المارد اللي كان محبوس جوه القمقم)، (وإيه اللي هيعمله فيكي المارد ده؟!.. أعتقد إن البشائر مش خير!)، تجاهلت كلامي ونظرت إلى عيني بصدق شديد قائلة: (يا ريت يا فادي تخرج المارد بتاعك إنت كمان!)، (باين عليكى مش بتهزري)، (أنا ما باعرفش أهزر!)، وفجأة ودون مقدمات قالت: (على فكرة هالة اتجوزت من واحد مش بتحبه.. كانت بتعيط في الفرح.. كانت بتعيط عليك!).

طارت كلماتها كسهام مصوبة نحو جسدي، لترشق كل مكان وتسيل دم أحلامي وتلغيها من الوجود، لم أكن أدري أنني مازلت أحب هالة، ثلاث سنوات مرت على آخر مرة رأيتها فيها، ثلاث سنوات تمرغت خلالها بغباء في زرائب آسيا والمخرج الخنزير، لوث العفن نفسي، وتراكت الفشور الطينية على علبة القطيفة التي أودعت هالة فيها، مغلقاً بقفل ذهبي عليها هناك في آخر ركن مظلم بقلبي، خلّنتي

نسيتها فيها، لكنني الآن أقر أنها ساكنة ولا يمكنها الرحيل. لعنت آسيا بصوت مسموع، فسألتني أحلام: (مين آسيا؟!)، نظرت إليها بعينين غاضبتين ودهشتين تماماً وقلت: (يبدو أنك قررت نسيان كل شيء من الماضي!.. حكيتك عنها من سنة تقريباً)، (أنا فعلاً قررت نسيان كل شيء من الماضي إلا شيء واحد)، (إيه هو؟!)، (سعيد مختار!).

ياااااااه! يبدو أنني أنا الذي نسيت كل شيء عن الماضي برغم أنه ليس بعيداً جداً، فقط أربع سنوات على تخرجي وخمس على تخرج باقي الأصحاب.. منى وأحلام وهالة وسهام ومؤمن، الذي سقط من نافذة منزله ميتاً قبل أن تتم فرحته بانتصاره على الفقر مع عروسه بنت الأغنياء كما كان يردد، وستة أعوام أو يزيد على وفاة سعيد مختار، الذي مات غارقاً في دمائه في قلب ساحة الجامعة.. يبدو أننا توغلنا في العمر وهرمنا برغم قصر الزمن الذي مر علينا، رغبت في معرفة أخبار هذه الثلة التعسة، آملاً أن يكون هناك خبر جيد عن أحد منها، فسألتها محاولاً تحويل مجرى الحديث الذي ألقى بها وبى في بؤرة التعاسة، فقالت: (مؤمن مات في اليوم اللي اتولدت فيه بنتي، وسعيد مات قبله وحكم على كل عمري بالشقاء، وهالة سالت دموعها على فستان فرحها، ومنى هربت من الصحافة وعايشة تحت تأثير المهدئات عشان تنسى حبها اللي على وشك الانهيار، وأنا فشلت في الشغل والجواز.. يتبقى الأمل في سهام.. اتجوزت صحفي مصري يحبها ويتحبه بعد ما فشلت في إنها تلاقي أبوها، وخلفت ولد جميل، وهي دلوقت مستتية مرور خمس سنين على جوازها عشان تاخذ الجنسية).

لم نقل شيئاً جديداً.. كل ما قالته كنت أعرفه من قبل، في ما عدا زواج هالة وزواج سهام وإنجابها طفلاً.. شعرت بيأس تملكني، ورغبت في أن أغادرها ولا أراها إلى الأبد، تماماً كما دعوت سراً ألا أقابل أحداً من ثلة الجامعة مصادفة في أي مكان، لكنني خجلت من

تركها بشكل فجائي حتى دون أن أواسيها على مسألة انفصالها عن زوجها، فسألتها: (خططتي كويس لوضعك بعد الطلاق؟!)، سخرية شديدة أطلت من عينيها أعقبتها ابتسامة استهزاء بسؤالي وقالت: (ما خططتش لحاجة.. كل اللي أنا عايزاه هو الطلاق .. أنا سبت له كل حاجة لدرجة إنه بيساومني دلوقت على بنتي، شارط ياخذها مقابل الطلاق)، (وهتعلمي إيه؟!)، (هاسييهاله.. إيه اللي ممكن تكسبه الطفلة المسكينة دي من أم محطمة زيي?!).

انتهى لقائي بأحلام بعد أن نكأت جرحي بسكين صدئ، وعدت إلى المنزل وأنا أبحث عن سمائي التي هجرتني منذ وقت طويل، كان الليل معتماً، غابت من أفقه النجوم وتبدد القمر، تحسست طريقي كأني حديث العهد بالعمى، لكنني عندما ارتيمت على فراشي اكتشفت أنني ولدت أعمى في عالم معبأ بالمبصرين!

لم أجد سوى العمل حتى أنفث فيه آلامي، كنت أعمل ليل نهار حتى ألهي عيني عن سكب دموع الرغبة.. الرغبة في عالم قاس يشتري فيه الحب وتسحق النعال قلوب المحبين، استطاعت أحلام بجسدها الذي ينزف قطرات جنون أن تكشف تصدعي الداخلي، وعلمت لأول مرة أنني كنت غارقاً في انكسارات ذاتي ناسياً أحلامنا القديمة، كنت أعلم أنها وصلت إلى تلك الحالة ليس فقط من أجل فشل زواجها أو موت سعيد مختار، بل لأنها فشلت في تحقيق أحلامها من أجل البلد، كان موت سعيد بالنسبة لنا جميعاً باباً انفتح لحصد جثث الحالمين، ووضعها في نعوش تشبع الأرض الشرهة لالتهام اللحوم المتألّمة.. كنت قد نسيت الوطن، ذلك الذي جمعنا في أيام الدراسة، نكتب عن مصر ونحلم من أجلها ونتظاهر حتى ندافع عنها، فبرغم خروجنا في مظاهرات من أجل العراق وفلسطين، كان دافعنا صد الأذى عن مصر وليس غيرها، أحلام ومنى وسعيد جسدوا ذلك الحلم

بقوة، وكنا معهم نخطط لمستقبل لا يدور إلا في فلك البلد وتغيير حاله، كنا نردد دوماً: (الطريق صعب ومليان أشواك، لكن لازم نصبر ونقاوم للنهاية)، لم نكن ندري أننا سنقع في الشرك المنصوب لكل من هم مثلنا، أزمات وراء أزمات تجرفنا في تيار الذات لننسى الحلم الرئيسي.

برغم الحال التي رأيت عليها أحلام، ورغبتني الحقيقية في ألا أراها أو أرى أحداً من فريق الحالمين الباقين على وجه الأرض، إلا أنني شعرت بأنه يجب أن أخلف ورائي ما حدث لي منذ أن تخرجت في الجامعة، وأفكر في شيء أجمع به بين نجاحي الذاتي وتقدير شيء للبلد، لم تكن الرؤية واضحة أمامي، فقررت أن أنتظر إلى أن تواتي اللحظة المناسبة، وهكذا وجدت نفسي غارقاً في عملي أخرج برنامج (القاهرة الساهرة)، وأخرج نشرات الهواء، بل إنني كلفت نفسي فوق طاقتها بحمل أعباء العمل عن كاهل الكثير من الزملاء، الذين استمروا الأمر وبدعوا يتعاملون معي كأبله أو مجنون، وأنا برغم علمي أنهم يوفرون طاقاتهم لأعمال أخرى خاصة تدر عليهم المال، إلا أنني لم أبه لذلك، فالمال لم يكن قضيتي يوماً ويا ليتة كان!

كانت روح الأديب تظللني دوماً برغم توقفي عن كتابة القصص منذ الجامعة، حتى إنني أعلنت وفاة المؤلف العظيم منذ زمن، لكني لم أعلن وفاة تلك الروح الشفافة التي تحب السباحة في تيار الناس لمشاهدتهم والغوص في دواخلهم، فالمشي في الشوارع الضيقة وأزقة الأحياء الشعبية والجلوس على مقاهيها، كان متعتي الوحيدة الباقية من أحلامي البعيدة، وفي يوم وأنا جالس في أحد مقاهي السيدة زينب قفرت الفكرة التي كنت أنتظرها منذ زمن.. الناس لا يوجد غيرهم! يجب أن تقترب الشاشة منهم بصدق، لا تتلاعب ببساطتهم وتريق أحلامهم من أجل خلق تسلية مصطنعة على الشاشة، ذهبت إلى رئيس القناة الذي احتجت إلى أسبوع حتى يحدد لي موعداً، مما جعلني أبتسم

ساخراً من هذا الرجل الذي كان بابه يدفع بلمسة واحدة من أصابع آسيا المدببة! لم أهتم كثيراً، فلقد تعلمت الكثير عن حياة الإعلام، كما تنبأت لي آسيا يوماً في حجرتي وأنا أسير انهزامي الأول على يد المخرج، الذي اختفى من التليفزيون بدوره ذاهباً إلى حيث ذهبت منقذتي العظيمة!

عندما تحدد لي الموعد ذهبت إليه وأنا واثق من الموافقة، فقد كانت فكرتي مجنونة حقاً تلك المرة، ولكنه جنون نوعي وليس مثل جنون آسيا الذي زود شبكة اتصالها بالمشاهير والنجوم، وجعل دفتر تليفوناتها مترعاً بأسماء متألئة في سماء القاهرة المزيفة. في مكتبه قابلني بنصف ابتسامة رأيته لأول مرة على وجهه، فلقد اعتدت ابتساماته أمام آسيا العظيمة التي تكاد تشق جانبي شفتيه!.. تجاهلت أمر الابتسامة ليفاجئني بأنه مشغول وعلي أن أقول ما عندي سريعاً، فعرضت الفكرة في كلمات قليلة، ولكنني واثق من أنني أوصلتها تماماً كما كنت ممثلاً بها: (اسم البرنامج ثلاثة على الطريق، أنا والمذيع والمصور ندور بين محافظات مصر، لنلتقط وجوه الناس ونسجل أحلامهم ورغباتهم وطريقة عيشهم، نظهر الثقافة الداخلية للبسطاء المحملين بثقافة أجيال طويلة وحضارة عميقة خلفت أثراً، حتى في بائع البطاطا وعامل المقهى والفلاح، نصور الجانب الآخر من مصر، حيث هناك متعبون ومهمشون وأحلام مهددة على بلاط قسوة العيش، نلفت النظر إلى هذا القطاع العريض من الشعب المصري، ونركز على أنهم ليسوا مجرد أفراد تعيش وراء خط الهامش المجرور على صفحة الحياة)، كان رد فعله غريباً فقد قال: (وبعدين؟!)، لم أجد إجابة فصمت، لكنه تابع قائلاً: (هناك برامج عن التراث، وهناك برامج للشكاوى، وهناك برامج سياحية، والقنوات الأرضية تهتم بجانب المشاكل الاقتصادية للناس، أما نحن فقناة فضائية.. إما أن تقدم تراثاً

أو تقدم سياحة.. أيهما تختار؟!)، (يا فندم أنا لا أريد تقديم برنامج من شرم الشيخ أو من المتحف، ولا أريد أن أقدم برنامج شكوى، أنا أريد أن أقدم برنامجاً عن الشعب المصري الحقيقي الذي يقهر حزنه بالصبر والحلم بغد أفضل، ذلك الشعب الذي هزم كل الأزمات الطاحنة على مدار آلاف السنين بالغناء والفن والعمل والعطاء، ذلك الشعب الذي لم يهاجر من مصر رابضاً على أرضها برغم انكساراته الوطنية وأزماته الاقتصادية، عكس كل شعوب الأرض، أريد أن أرسخ فكرة الوطن لدى الناس، وأظهر لهم أحلى ما فيهم، كي أدفعهم للصمود أكثر والبقاء على العهد الذي قطعه أجدادهم منذ آلاف السنين، أقاوم جنون الرحيل واليأس الذي عبأ صدور الشباب المهزوم، وأعرضه على الكفاح والإيمان بوطنه وحلمه له)، وكان أسوأ ما في مقابلة سيادة الرئيس أن أنهى كلامه معي قائلاً: (الكلام ده ممكن تقوله في خطبة عصماء مش في برنامج تليفزيوني لقناة فضائية! ثم إننا لا نقدم برامج ترض على الثورة ضد الحكومة!)، ثم عاد بظهره إلى الوراء وقال وهو يمرر قلمه بين أصابعه بخفة: (إنت مخرج كويس.. أعتقد تسبيك من فكرة الإعداد دي، إحنا عندنا معدين برامج كثير، لو عايز تعمل برنامج جديد شوفلك معد من القناة أو صحفي يعدلك برنامج)، ثم مد يده ليفتح درج مكتبه ويسحب منه صفحات مقطوعة من مجلة، وقال: (دي مجموعة مواضيع عن الفن التشكيلي عاملاهم صحفية كويسة في مجلة جماهير الفن اسمها أحلام السيد، شوفها فين واتفق معاها على إعداد برنامج عن الفن التشكيلي، وسبيك من الشعب وثقافة بائع البطاطا!)، ثم أطلق ضحكة ساخرة وقال: (بنمترك بائع البطاطا عنده ثقافة؟! ياللا روح شوف الصحفية دي، بالمناسبة هي بنت لطيفة جداً).

أحلام السيد بنت لطيفة؟! ومن أين أتت أحلام باللطافة؟! ألقى بي هذا الرجل في قبو مظلم جديد، خاصة أنه مزقني بالحديث عن

أحلام بهذه الطريقة، فأحلام طوال عمرها جادة، فمن أين لها الوصول إلى ذلك الرجل الذي لا يعجبه سوى من هم مثل آسيا؟!

تجاهلت أمر الاتصال بأحلام من أجل موضوع الفن التشكيلي الذي كنت قد كرهته أصلاً بسبب آسيا، لكنني فوجئت بسكرتيرة رئيس القناة تأتيني بعد أسبوع تقريباً، وتخبرني بأن الأستاذ يسأل عما حدث بشأن برنامج الفن التشكيلي، فوجدت نفسي أجيبها قائلاً: (ما قدرتش أوصل للصحفية اللي قال لي عليها، روعي قوليله عندي معد أفضل منها)، فذهبت إليه ثم عادت بعد ربع ساعة تقريباً وقالت: (الأستاذ بيقولك هو عايز أحلام السيد مش أي حد ثاني غيرها!).

استشطت غضباً واتصلت فوراً بأحلام التي بالطبع لا تحتاج مني للعثور عليها إلى أي بحث، لم أعر عليها في الجريدة فاتصلت بمنزل والدتها، التي كانت قد انتقلت إلى القاهرة تاركة البلد لتكون مع أحلام بعد أن استقرت في القاهرة لتعمل ثم لتتزوج، أخبرتني بأنها ليست موجودة لكن يمكنني الاتصال بها على التليفون المحمول.. أحلام لديها تليفون محمول الآن؟! من أين لها النقود اللازمة لشراء هذا الشيء أصلاً؟! اتصلت على الرقم الذي أملته علي والدتها، ووجدتني أقول لها ساخراً: (الله يرحمه كان بيتكلم في الكوز!)، وجدتني تضحك بصوت عال يحمل كل مجونها، الذي شاهدت بوارده عندما قابلتها منذ ستة أشهر في الأوبرا، لكنه كان قد تمكن منها هذه المرة! حددت معها موعداً في مقهى الهناجر بالأوبرا، حيث أخبرتني بأنه مكانها المفضل، فذهبت إليها. جاءت متأخرة عن موعدنا نصف ساعة، وعندما ظهرت كانت ترتدي رداء ضيقاً وقصيراً، وتضع على وجهها المساحيق باحتراف لم أعده فيها أبداً، وعندما جلست سارعت بإشعال سيجارة.. كل الدلائل تؤكد أنها تتسلخ من جلدها لترتدي جلداً مستعاراً، عدت بظهري إلى الورا، ومسحت بيدي اليمنى على شعر رأسي، محاولاً

استيعاب تلك السيدة الجديدة التي أراها لأول مرة، ثم قلت: (إنتي إيه اللي حصلك؟!)، هزت كتفها اليمنى ونفثت دخان سيجارتها بحرفية، ثم قالت بابتسامة يظللها انكسار في عينيها: (أبدأ.. اطلقت وبطلت نضال!)، (وهذا يؤدي إلى التغيير العجيب الطارئ عليك?!)، (بكل بساطة بدأت أفهم الحياة)، أطفأت سيجارتها ضاغطة بسبابتها على العقب بتوتر، ثم قالت وهي تهز ساقيها بسرعة أرعشت الطاولة: (المهم إنت افكرتتي ليه دلوقت؟! أنا اعتقدت إنك قررت الاختفاء من حياتنا عشان ما تصابش بفيروسنا القاتل!)، (ده حقيقي أنا كنت قررت أسد ودني حتى عن الأخبار اللي بتيجي عنكم.. لكن يا ترى إنتي لسه على اتصال باللي اتبقى من الشلة?!)، (طبعاً في ما عدا سهام.. مش طابقاني لأنها لسه معتقدة إنني كل ما هاشوفها هافكرها إنها فلسطينية ولازم تتاضل من أجل القضية، ده غير إن جوزها صديق طليقي، ومعتقد إنني ست مستهترة خربت بيتي عشان متعتي الخاصة.. وووو.. يعني.. إنت عارف!)، (ومنى قابلة شكك الجديد?!)، كان رأسها منكساً إلى أسفل، فرفعت جفنيها إلى أعلى ناظرة إلي وهي تنبسم بخبث الفاهم ما وراء سؤالي، وقالت: (طبعاً حزينة عشاني، لكنها لسه بتعرفني، وأنا الحقيقة رغم كرهني لثباتها العجيب أمام الريح الشديدة ماقدرش أعيش بعيد عنها كثير.. المهم إنت.. إيه اللي جبرك على معرفتي?!)، (رئيس القناة.. يبدو إن بينكم ود كبير!)، (آه! هو بلغني عن البرنامج اللي عايزني أعده، لكن الحقيقة ما كنتش متخيلة إنه هيفتارك إنت!)، (ليه?!)، (أبدأ لأنني اعتقدت إنك لسه مبقي على الفقر، وبترفع راية الشعارات العظيمة، وبالتالي تبقى مكروه في القناة وماحدش يسندلك عمل غير الروتين الطبيعي!)، (الحقيقة أنا كنت لسه فقري لغاية قبل ماشوفك النهارده.. لكن طالما أحلام باعت لماذا لا أبيع أنا أيضاً?!)، أصابت كلماتي أحلام في مقتل، فعادت للحظات قصيرة إلى ملامحها التي أعرفها جيداً، وقالت بعينين عائدتين لتوهما من القبر: (قصدك

أحلام اتباعت بثمان بخس.. أحلام اتباعت من أول يوم لها في الدنيا، لكنها كانت تقاوم أشباح المزادات العلنية، إلى أن استسلمت للواقع ووقفت بهدوء في المزاد!.

شعرت بقسوتي عليها، ولكنني بالفعل كنت مصدوماً مما أراه أمامي، وجددتي أعتذر إليها، وأنطلق في سرد تفاصيل ما حدث لي منذ أن تخرجت وحتى البرنامج الذي رفضه رئيسي العظيم، أنصتت لي بإمعان، وعادت إلى رداها القديم الجميل، فقد كانت دوماً القلب المفتوح لسماح قصصنا وأحلامنا وأحزاننا، وها هي كما عرفتُها تسمع وتتفعل بما يعتمل في صدورنا وكأن الأمر يخصها، وتتطلق بشجاعة لانتشالنا من الضياع، وعندما انتهيت من أنيني قالت لي بفم مرتعش وعين دامعة: (يااااااه يا فادي!.. إنت عارف إنك أكبر حمار فينا؟! إنت الوحيد اللي عندك دليل قاطع على إن الوطن مش ملك لنا وإنما ملك للفرعون وبلاطه ومهرجينه، واحنا يا إما ننضم لفلول القابعين في الظلمات، أو نلحق بآخر طرف لشعاع الشمس.. يعني نتحول ببساطة لمهرجين البلاط، ومع ذلك مش عايز تفهم!)، (وما هذا الدليل؟!)، (أبوك الذي عشق الوطن، وعشق حلم الوهم الذي قدمه عبد الناصر، وأفنى شبابه من أجل تحقيقه، لكن عبد الناصر سجنه!).

حاولت أن أعيش وفق منطق أحلام الجديد، وبدأت التنفيذ معها من خلال البرنامج الذي حشدت فيه أحلام كبار الفنانين التشكيليين حتى الذين ينقلدون مناصب رفيعة في الدولة، لا يمكنني أن أنكر أنها برغم مبادئها الجديدة مازالت تقبض على زمام بعض الأمور، مثل أدائها في العمل، فلأول مرة أشعر بأن هناك من يعمل معي بنفس مستوى الجدية والتفاني، لكن بالطبع لم يقل أي منا أي شيء مما نريد الصراخ به، فالبرنامج كان مثل أي برنامج نجوم عادي، فقط يأخذ الطابع الثقافي، كنا قد انتهينا من تصوير خمس عشرة حلقة حينما بدأ البث، لاقى البرنامج إعجاب رئيس القناة، ووجدتني أنتقل من لائحة المصموت عنهم إلى دائرة مكبرات الصوت التي تنفث ضجيجها في كل الأذان، ودون أن أدري سحبتني أحلام إلى مجتمع لم أراه قبلاً سوى من الخارج فقط.. مجتمع المخمل والأضواء الخافتة والنظريات المركبة والتاريخ المغلوط والادعاءات الكاذبة، ومدعي الوطنية والمقامين ببضعة أيام أمضوها في السجن السياسي على طاولة الكفاح! حاصدين ثمن السجن أموالاً اكتظت بها جيوبهم من ألف مكان في الخارج والداخل، ليكملوا كفاحهم ولكن هذه المرة ليس من أجل إنقاذ البسطاء، بل من أجل نهب أحلامهم والقضاء على آخر ما تبقى لديهم يقيمون به أودهم!

لا أخفي أنني أعجبت تماماً بتلك المشاهد، التي ظلت في عيني مجرد مشاهد أراها من وراء عدسات الكاميرا أو شاشة التلفزيون، لكنني لم أستطع حتى وأنا في قلبها أن أمد يدي لألمسها وأتأكد أنها حقيقة. لم يدهشني اندماج أحلام الكامل في هذه الحياة، برغم أنها كانت بعد كل سهرة تركب تاكسي وتطلب من السائق أن يوصلها إلى

إمبابة حيث تسكن مع والدتها. حاولت الاندماج مراراً، لكنني في كل مرة أذهب فيها إلى واحدة من تلك السهرات أشعر بأصابع خشنة تقبض على عنقي وتعتصره فلا أتمكن من التنفس.. لا أنكر أن هذه السهرات والعلاقات التي أبنيتها من خلالها بعلية القوم، من الأدباء والفنانين والإعلاميين والمسؤولين عن الثقافة في البلد، درت علي بشكل غير مباشر الكثير من الأموال، وذلك بالطبع لأنني اتبعت نصيحة أحلام في تقديم دور مهرج البلاط، والذي أدركت بمرور الوقت أنني في الحقيقة لم أرق إلى مكانة مهرج الملك، بل لعبت دور مهرج الحاشية فقط!

صرحت بكل ما أشعر به لأحلام، مخبراً إياها بأننا بذلك نبعد كثيراً عن أنفسنا، وأنا لن يمكننا أن نقدم ما يعتمل في صدورنا للناس، ولن نجني سوى المال فقط ويمكن أن نحقق بعض الجاه.. ولكن ماذا بعد؟! كيف يمكن أن نعيش والحقيقة نابضة في صدورنا؟! كيف نعيش وعيوننا ترى المسحوقين تحت أقدام من نتعامل معهم بكل سهولة، ونحن ندرك أنهم الذين يسرقون أيامنا ويشوهون ملامحنا.. كنت موقناً أن أحلام لم تتحول كلياً إلى ما آلت إليه، وأنه لا بد أن يكون هناك في أعماقها، حتى وإن في خزانها المغلقة بألف قفل، تجلس أحلام الأصلية، في انتظار أن تتحرر من الأسر، لكنها أجابتي قائلة: (الحقيقة التي أعرفها أنا وأنت والنابضة أمام أعيننا، والتي أراها كل يوم مرتين، في الصباح وأنا أغادر منزلي للعمل ومساء عند عودتي إلى إمبابة، لم تعد هناك مساحة لتقديمها على كوكب الأرض.. ألم تدرك بعد هذا؟! حتى الناس الذين تبكيهم تحولوا إلى وحوش تنهش بعضها بعضاً، ولن يفهموا أن هناك من يبكيهم فعلاً، فلقد تم خداعهم على مدار سنين طويلة ولم يجنوا سوى الموت والخراب.. صدقني يا أحمد الحقيقة الوحيدة المتاحة تكمن في هؤلاء الخنازير الذين يرتعون أمامك في زرائبهم الفاخرة!).

قررت البعد تماماً عن أحلام، بل البعد عن العالم كله وسيطرت علي فكرة الهجرة، لا بد أن تكون هناك بقعة على الأرض تتنفس.. كنت أشعر باحتياج شديد إلى الهواء النقي، لم يعد بإمكانني بعد هذه اللحظة أن أتعامل مع الغلاف الجوي المحيط بي. وبالفعل بحثت عن طريق الإنترنت عن معاهد لتعليم الإخراج السينمائي في الولايات المتحدة، وعثرت على عدد لا بأس به، فقامت بمراسلتها جميعاً وأرسلت شهادتي الجامعية وملخصاً لما قمت بإخراجه من برامج وأفلام تسجيلية سياحية، كان قد أسندها رئيس القناة إلي بعد أن رضي عني واعتبرني واحداً من زمريته. بعد شهور طويلة تلقيت رسالة تفيد بقبول معهد في لوس أنجلوس إياي، واستطعت بذلك أن أحصل على إقامة بأمريكا لمدة خمسة أعوام، بعد أن أجرت السفارة بحثاً طويلاً في سجل تاريخي الحافل منذ أن تنفست هواء العالم.. وهكذا قبضت بكلتا يدي على أوراق خلاصي من الموت الرازح على الأنفاس في القاهرة.

سافرت.. جمعت كل حاجاتي.. كتبت.. أشرطة الموسيقى.. ملابس.. حتى التحف الصغيرة التي انتقيتها بعناية من كل مكان زرتة في مصر وزينت بها غرفتي.. ورحلت. كنت أسرع الخطى نحو المطار، وعندما وقفت على باب الطائرة لم أنظر ورائي، فقد كنت أشعر برغبة حقيقية في نسيان الوباء الذي خلفته.. وودعت وطني إلى الأبد!

ما الذي تعنيه كلمة وطن؟ سؤال طاردني منذ أن خطوت
 بقدمي على أرض لوس أنجلوس.. كل ما يحيط بي ينظر إلي بسخرية
 ويضحك بملء فيه ويصرخ: (يا حمار!.. هذه هي الأوطان). أدركت
 لماذا تحولت أمريكا إلى حلم لدى الجميع، يكفي أن تسير في شارع لا
 يلتوى كاحلك بحجر، أو مطب لتتكفى على وجهك ثم تنهض تنفض
 ثيابك مما علق بها من أوساخ، وتبدأ البحث عن كسر أو شذخ أو
 جرح! يكفي أن تجد الطعام بكل الألوان وبأسعار في متناول يديك
 ويدي أي إنسان، حتى المشردين المرصوصين على الأرصفة، فتتذكر
 المثل القديم (ما حدش بينام من غير عشا)! هنا الناس لا ينامون إلا
 ومعدهم تعمل، أما في بلادي التي اخترعت هذا المثل فينام الكثيرون
 دون عشاء أو حتى كسرة خبز عفنة! يكفي أنك عندما تتوي العمل تجد
 الكثير من الأعمال التي تنتظر من يقوم بها، حتى لو كان العمل مجرد
 عامل في مقهى أو حتى زبال.. كنت وأنا أدور على قدمي في ذلك
 المقهى الذي عملت فيه مساء حتى أتمكن من العيش وتسديد مصاريف
 المعهد، أتذكر مبتسماً في أسى ذلك الشاب الذي جلس إلى طاولة إلى
 جوارى في مقهى زهرة البستان بالقاهرة، حيث يحتشد المثقفون التعسرون،
 وهو يقول: (في باريس يحتفون بالكاتب مهما كان صغيراً ومازال في
 أول تجربته الإبداعية، أما هنا فلا حياة لمن ينادي، أكتب الشعر منذ
 خمس سنوات ونشرت ديواناً على نفقتي بعد أن ظل قابلاً في دهاليز
 وزارة الثقافة سنوات، ومع ذلك لم أجد من يريد أن يمنحني شرف العمل
 حتى ولو زبال.. في مصر الشعراء يموتون جوعاً أو صرعى السرطان
 مثل أمل دنقل!).

الأرض مازالت.. بأذنيها دم من قرطها المنزوع

قهقهة اللصوص تسوق هودجها.. وتتركها بلا زاد،

تشد أصابع العطش المमित على الرمال،

تضيق صرختها بحممة الخيول.

قال أمل دنقل ذلك وقال أيضاً لا تصالح.. أنا لم أصالح يا أمل، ولكن لم يعد هناك مكان للمقاومة، أخذوا كل شيء حتى قدرتنا على المقاومة، الحقيقة هي التي قالتها أحلام، هذه الأرض ليست لنا لقد أخذوها كلها لهم وحدهم، حتى نحن أخذونا رقيق أرض، لو كنت حياً حتى الآن لكنت فعلت شيئاً من اثنين.. إما أن تصالح أو أن تهاجر مثلي إلى أمريكا!

كنت سعيداً بتجربتي الجديدة، أذاكر وأعمل، وبرغم أنني كنت أسكن في حجرة وضيفة في أحد المباني القديمة المتداعية، إلا أنني لم أشعر سوى بالسعادة، حتى خطابات أُمي المفعمة بالحزن والبكاء، الذي كان يعبر القارات ليمثل أمامي على صفحات الخطاب على شكل بقع باهتة وخط مرتعش، لم تهزني أو تشعرني بالأسى، كنت بالفعل دخلت بإرادتي دائرة نسيان الماضي بكل ما فيه، حتى اللحظات السعيدة مع الأصدقاء في الجامعة، والأحلام الغرة التي تجرأنا يوماً وحلمنا بها. طاردت بصبر شديد كل الوجوه الأليفة التي لم أجد مثلها هنا، والشوارع الدافئة التي احتضنتني سني عمري التي مضت جميعها، وبرغم أنني كنت أوهم نفسي بنجاح عملية الاستئصال، إلا أنني كنت في داخلي موقناً باستحالة النسيان، بل إنني كثيراً ما سافرت بخيالي إلى هناك، لأمشي في الشوارع والحارات والأزقة، وأكل البطاطا المشوية من يد بائعها المثقف رغم أنف رئيس القناة! وأحتسي الشاي الكشري الثقيل على مقهى الفيشاوي أو الحرية أو البستان، وأتلذذ بطعم الذرة المشوي على الكورنيش، أتابع العشاق بعيني خلصة وهم يسرقون اللمسات

الملتعبة بالمشاعر البكر الصادقة، ثم أستدير لأروي عيني من النيل وأنظر إلى انعكاسات الضوء التي تتلألأ على صفحته.. كثيراً ما كنت أحداث النيل وأبته مشاعري، وأرجوه ألا يفشي سر حيني إلى نفسي، وأدعوه ألا ينساني ويسقطني من تعداد الرابضين على شريطه من الشمال إلى الجنوب آلاف السنين، صابرين على البلاء والموت كمداً من أجل عيني.. تصيني الخيبة لأنني خالفت عهد الأجداد ولم أريض مثلهم على الحدود، وأحلف أيمان صعيدي صرف بألا أترك الأرض ولا أخل بالعهد حتى الموت.. آآآه! مازلت حماراً يا أحلام، لكن لم يكن بيدي يوماً أن أخلع عني ثوب الحمار!

تمر الأيام وأتحول تدريجياً إلى ماكينة لا تهدأ، تروسي تدور حول المعهد والمقهى والمذاكرة في حجرتي ليلاً، أحقق تقدماً ملموساً في الدراسة وأنال رضا أساتذتي الذين يتنبأون لي بالتفوق في مجال الإخراج السينمائي، حتى إن أحدهم وفر لي عملاً في معهد مسائي يعلم مبادئ التصوير التلفزيوني والسينمائي للهواة والمراهقين، الذين يحلمون مثلي باختراق حجب السينما الساحرة، وبذلك استطعت أن أحصل على عمل لائق ومريح أكثر من شقاء الدوران طوال الليل بين طاولات زبائن المقهى لتلبية رغباتهم، بل إنهم قدموا لي ألفي دولار كراتب، ما ساعدني على الانتقال من الجحر الذي أسكنه إلى شقة صغيرة في مبنى لائق يضمه شارع نظيف وقريب من المعهد. كنت ألس التطور في حياتي بسرعة، وكان أكثر ما يهم أنه تطور بلا ثمن مدفوع مسبقاً، حيث العمل والاجتهاد هما المعياران الوحيدان للنجاح، كل هذا زاد من شعوري بقيمة حياتي، وأنني شخص حقيقي ليس كائناً هلامياً ينزلق بين الأقدام لتدعسه، ثم تمضي دون أي تغيير يجعلها تتوقف للتفكير لحظة أو إلقاء نظرة وراءها! حتى قابلت بول جستنيان، الذي لم تساورني الشكوك لحظة أنه أمريكي من أصل فرنسي مثلاً أو

بلد أوربي آخر، لكنني فوجئت به بعد مرور شهر على عملي بمعهد
الهواة يقبل علي في الفصل الدراسي، بعد خروج الطلاب وأنا ألملم
أوراقي لأمضي، ويقول: (لم أصدق حينما أخبروني بأن هناك أستاذاً
عربياً انضم إلى فريق العمل، لكنني بعد أن عرفت أن اسمك أحمد
وكمآن فادي صدقت!)، نظرت إليه بدهشة وسألته: (إنت عربي؟!)،
(طبعاً خيي!)، (لكن اسمك بول وكمآن جستنيان وشكلك أصفر على
أخضر.. يعني مش عربي خالص!)، ضحك بول وقال ببساطة:
(عربي لكن مسيحي)، (ما احنا في مصر عندنا مسيحيين لكن ما
قابلتش بينهم بول ولا جستنيان!)، ضحك مرة أخرى وقال: (في لبنان
ممكن تلاقي).

مع بول استطعت الحياة كعربي في قلب أمريكا، حيث
اصطحبني إلى المطاعم العربية والحانات المكتظة بالراقصات
الشرقيات، وتعرفت بجيش جرار من العرب الفارين مثلي من بلادهم..
فهذا من بلاد النهرين، وهذا من بلاد الشام، وهذا من المغرب العربي،
وهذا وهذا.. (يا الله كل دول هربانين!)، يضحك بول أيضاً وهو يقول:
(طبعاً هادول وغيرهن.. أمريكا معاوية عرب يا صديقي!).

فتح بول عيني على أشياء كثيرة، وتحول بمرور الأيام إلى
صديقي الحميم، عرفت معه كيف يمكن أن يعيش المرء الحياة
بحذافيرها دون أن تختل قدرته على العمل والدراسة والتقدم في الحياة.

وفي يوم قدم لي بول مفتاح البقاء في أمريكا حتى الموت..
(ما بدك تتجوز؟!)، أبتسم بحسرة قائلاً: (إيدي على كتفك!)، (خلاص
أنا بجوزك)، أعتدل في جلستي على المقعد وأنظر إليه بابتسامة
اتسعت كثيراً: (إزاي يعني؟!)، (يا حبيبي طالما ما بدك ترجع عا مصر
أبدأ، بقى لازم تتجوز أمريكية عشان تاخذ الجرين كارد وبعدينا
الجنسية)، (ودي أجيبها منين انشاء الله؟!)، (موجودة تكرم عينك).

وتزوجت كارين سيمبسون صديقة زوجة بول الأمريكية أيضاً، والذي حصل من خلالها على الجرين كارد، وينتظر الحصول على الجنسية حتى يودعها إلى الأبد! لكن بالطبع كل شيء له ثمنه، فكارين تكبرني بعشرة أعوام ولديها طفل وعليها ديون لا تستطيع سدادها وحدها.. هات وخذ.. عدت إلى ما كرهته في مصر، لكن بول كان دائماً يقول لي: (يلعن أبو مبادئك هاي!.. هيك ولا ترجع عا مصر بعد ما تنتهي دراستك وسنين إقامتك؟!.. ما بقالك أصلاً غير ثلاث سنوات.. يادوب تاخذ الجرين كارد وبعدها الجنسية وتطلقها!).

تركت شقتي الصغيرة وانتقلت إلى منزل كارين.. في الحقيقة هو منزل في أمريكا، لكن في مصر نسميه فيلا! كانت لطيفة معي، لكنها كانت تعلم جيداً أن ما يجمعنا هو المصلحة، لذلك لم تمنحني في الفراش سوى ما تقتضيه المصلحة، لم يكن هناك وقت للحب، فهي تكافح من أجل تربية ابنها، الذي تركه لها زوجها بعد أن هجرها وغادر إلى ولاية أخرى، وأنا أكافح من أجل الحصول على شهادتي والنجاح في عملي وغزو عالم الدراما في لوس أنجلوس، وربما هوليوود بعد الحصول على الجنسية! ومن أجل أن أدخل على قلب أمي بعض السعادة أرسلت إليها صورة زفافي إلى كارين، ووصفت لها مدى سعادتي معها، وحمدت الله في النهاية أنها لم تلاحظ فرق العمر، بعد أن أعملت سحر الفوتوشوب على الصورة قبل أن أرسلها!

قدمت أوراقني إلى الهجرة والجنسية هناك، وطمأنني الجميع أن الجرين كارد لا تأخذ سوى أشهراً قليلة، فوضعت الانتظار جانباً ومضيت قدماً في حياتي، ممتناً نفسي ببعض الحب والاستقرار مع شريكة عمري الحقيقية، التي كنت أنتظرها بصبر نافذ حتى وأنا أؤدي دور الزوج بآلية في فراش كارين البارد.

كان يوم الحادي عشر من سبتمبر من عام ألفين وواحد عادياً جداً، استيقظت صباحاً ومضيت نحو المعهد لأتلقى دروسي، ولكن بعد انتهاء الفصل الدراسي وخروجي إلى الممر، الذي يحتشد فيه الطلاب في نهاية كل يوم متجهين نحو حديقة المعهد، لاحظت حركة غير عادية واضطراباً في الحديث، التقطت بعض الكلمات (هدموا برجى التجارة العالميين في نيويورك.. قصفوا البنتاجون.. إنهم في طريقهم إلى الكونجرس)!

ماذا حدث؟! ومن هم الذين ضربوا وقصفوا؟! كان الجميع لا يعرفون شيئاً سوى أن هناك تدميراً وقصفاً في نيويورك وواشنطن. عدت سريعاً إلى المنزل لأجد كارين تجلس وهي تحتضن ابنها وتتنظر في رعب إلى شاشة التلفزيون، سألتها في عصبية عما حدث، أخبرتني بأن هناك طائرات مدنية أمريكية اصطدمت ببرجى التجارة العالميين في نيويورك وأن البرجين ينهاران، جلست إلى جوارها ولم أنهض من على الأريكة حتى انتصف الليل، ونمت في مكاني لأستيقظ نهائياً وأتابع الأحداث. لم أخرج من المنزل لمدة يومين.. بن لادن هو من فعل ذلك.. الرئيس بوش يتوعد المجرمين.. المجرمون هم العرب!

تغير كل شيء بين ليلة وضحاها.. كان بول يحمد الله على ملامحه الأوروبية التي ورثها من جده الفرنسي، الذي أنقذه بعد مرور قرن من الزمان وهو لا يعلم! كان يضحك قائلاً: (جدي الأحمق فتنه سحر الشرق وجبال لبنان الخضراء والفتيات اللبانيات، فتزوج منهن وضحى بباريس من أجل لبنان.. الحقيقة كنت أسخر منه دوماً وأسبه لأنه لم يختطف حبيبته اللبنانية ويعود إلى باريس لينفذ أبناءه وأحفاده.. لأول مرة أجد فائدة لجدي الفرنسي!).

لكنني لم يكن لي جد فرنسي ولا حتى تركي! بشرتي مشبعة بلون النيل، وملامي نحتتها معاول التاريخ لتقد من جدار فرعوني

قديم، لم ينفذني أجدادي مثلما أنقذ الجد الفرنسي بول من هول العداء الذي انصب على رؤوس العرب في الشوارع، تحولت جنة أمريكا إلى جحيم.. حتى أساتذتي غيروا مشاعرهم تجاهي، ولم يعودوا إلى سابق عهدهم من مدح عملي، ووعدي بالمساعدة في فتح أبواب المنتجين بلوس أنجلوس بعد التخرج. كنت أحاول التحلي بالصبر حتى تنتهي دراستي التي لم يبق منها سوى عام وبضعة أشهر، لكن الكره المتربص بي وصل إلى المنزل، وبدأت كارين هي الأخرى تنظر إلي كأني عدو متربص بها، لم يقتصر الأمر على النظرات بل ظهر على لسانها، الذي أخذ يطلق السباب ووصف العرب بالإرهابيين المتوحشين. كان بول يعزيني بقوله إنه هو أيضاً يعاني نفس الشيء من زوجته، وإن علينا أن ننحني قليلاً أمام الريح العاتية، حتى يحصل هو على الجنسية وأحصل أنا على الأقل على الجرين كارد.. كنت أزدرد العلقم في كل ثانية تمر علي، في المعهد والعمل والمنزل والشارع الذي لم أعد قادراً حتى على تنسم الهواء فيه، أنتظر بصبر حصولي على الجرين كارد التي تأخرت، وأعزي نفسي بكلمات الرئيس بوش، الذي كان يهدئ الأمريكان ويطالبهم بعدم التعرض للعرب والمسلمين في الشوارع، لأننا لسنا جميعاً إرهابيين! لكن لا حياة لمن ينادي، لقد أصيب الجميع بالذعر وشرهت النفوس للنار، الذي بدأ رئيسهم المضي قدماً للحصول عليه بغزو أفغانستان.

قاطعت التليفزيون وما يبثه كل دقيقة عن الحرب الدائرة في أفغانستان، ورحلة البحث عن أعضاء القاعدة وعلى رأسهم بن لادن، وقررت أن أتخذ خطوات جادة في المطالبة بتلك الجرين كارد، كنت أذهب باستمرار إلى الجنسية والهجرة لأسأل عنها، حتى شعر الجميع باحتياجي اليأس إليها، وفي إحدى زيارتي إلى هذه الدائرة أخبروني

بأن هناك من يريد مقابلتي، ثم أعطوني عنواناً لأذهب إليه، وأكدوا لي أن هذا الرجل سوف يساعدني كثيراً في مسألة الإقامة بل الجنسية!

ذهبت إليه في اليوم التالي وأنا أشعر بتوتر شديد، فمن هذا الرجل؟! ولماذا يريد مساعدتي؟! وفي مكتبه قابلني على الفور.. كان مكتباً عادياً لا يوحي بأي شيء رسمي، كما أن الرجل أمريكي صرف لا تشي ملامحه أو لهجته بأنه من أصل عربي.. زاد توتري، فلماذا يساعدني أمريكي في ظل الأحداث الجارية وموجة الكره الجارفة كل ما هو عربي؟! جلست أمامه صامتاً فسألني إن كنت أريد شرب القهوة، فأومأت برأسي موافقاً.. بدأ الكلام مع أول رشفة قهوة: (أنت مصري متزوج أمريكية؟)، (نعم)، (تدرس الإخراج السينمائي وتعلم التصوير للهواة، ومتفوق في كلا الاثنين)، لم أجب بشيء، (بالطبع تريد الحصول على الجنسية الأمريكية؟!)، (أكيد!)، (متى آخر مرة زرت فيها مصر؟)، (لم أزرها منذ أن حضرت إلى لوس أنجلوس منذ حوالي ثلاثة أعوام)، (ألم تشق لوالديك وأخواتك البنات؟!)، دهشت فكيف عرف أن لي أخوات بنات، وقبل أن أسأل قال: (أنا أعرف عنك كل شيء.. الحقيقة الولايات المتحدة أرض الأحلام فعلاً، خاصة لمن هم في مثل ذكائك وتفوقك العلمي والعمل، ولذلك نحن قررنا مساعدتك)، كان الشعور بوجود شيء غامض ومريب قد ملأ كل نفسي، فنظرت إليه بريية وقلت: (تساعدونني فقط لأنني ذكي؟!).. الأذكاء يملئون شوارعكم من كل جنسيات الأرض.. لماذا أنا؟!)، (لن نساعدك لأجل السماء يا عزيزي!.. أنا لن أطيل عليك في حديث فارغ، أنت تعلم بالطبع أن عهد التجسس على أسراركم العسكرية انتهى منذ زمن، وبالتالي لن أطلبك بأن تكون جاسوساً لنا)، (إذن ماذا تريد؟!)، (أريدك أن تصبح باحثاً علمياً لنا)، (باحثاً علمياً؟!)، (نعم سوف نعلمك على يد أساتذة متخصصين كيفية إجراء أبحاث اجتماعية بشكل علمي،

لتقوم بإجرائها على الناس في مصر.. أحلامهم.. أفكارهم.. احتياجاتهم.. مواقفهم السياسية.. مدى تقبلهم أو رفضهم الأوضاع في مصر، وماذا تمثل لهم أمريكا)، ثم أنهى كلامه قائلاً: (أشياء من هذا القبيل، وبالطبع لن نغفل هدفك الرئيسي وهو السينما.. وبالمناسبة أنت لست الوحيد في هذه اللعبة، هناك كثيرون مثلك.. منهم من يعيش في مصر ومعه الجنسية الأمريكية ليتمتع بجميع امتيازاتها داخل أو خارج أمريكا، ومنهم من يعيش هنا ويتردد بين الحين والآخر على مصر)، كان الغضب بادياً علي تماماً، وقبل أن أجيبه منفِعلاً أشار بيده إلي أن أصمت، وقال: (الكل رفض في البداية، ثم وافق بعد أن فكر وأدرك تماماً أنه لن يكون جاسوساً، بل سيقوم بعمل علمي بحت.. وبالمناسبة هذا العمل مفيد لكم أنتم المصريون، لأننا سنعمل من خلال هذه الأبحاث على تحسين أوضاعكم المعيشية)، وقبل أن يقفز سؤال: (وما الذي يهتمكم من تحسين أوضاعنا؟!) على شفتي، قال: (لا تقل شيئاً.. اذهب وخذ وقتك).

ذهبت وتعجبت من نفسي لماذا لم أوافق على الفور، ما الذي يمكن أن أتمناه غير الجنسية الأمريكية والبقاء في أمريكا طول العمر، وفي نفس الوقت التمتع بالسفر إلى مصر بين الحين والآخر، لأتواصل مع أهلي والتمتع بسحر النيل وملامح المصريين، التي تطاردني في كل لحظة منذ أن وطئت قدماي أرض لوس أنجلوس؟! ظلت هائماً على وجهي في الشوارع لا أدري إلى أين أذهب، كانت فكرة العودة إلى منزل كارين أشبه بالكابوس.. أنا لا أريد العودة إلى هذه المرأة التي لم أشعر معها بسكن الزوجة ودفء حضورها، تماماً مثلما كانت أُمي بالنسبة لأبي ولنا جميعاً.. الشوارع لم تكن أيضاً رحيمة فقد ضاقت علي، وانقضت السماء على رأسي تحنيه وتكسره، ليتدلى على الأرض يحك الأسفلت اللزج، الذي يمحو ملامحي ويعيد رسمها بالزفت!

كيف يمكن أن أبيع أحلام أهلي وأفكارهم وطموحاتهم؟! إنه لأقسى من التجسس على السلاح والعسكر.. ربما كان الأمر أهون على جواسيس الماضي الذين باعوا معلومات عسكرية، لكنهم لم يبيعوا نفوس ذوبهم ونبضات قلوبهم.. إنهم يرغبون في تحويلي إلى فاوست جديد، فاوست مصري يسرق النور من عيون البشر، ويسلبهم إيمانهم ومشاعرهم الطاهرة، فاوست يبيع أهله بثمن بخس هذه المرة، فأنا لن أحصل على الخلود في المقابل بل مجرد إقامة وجنسية! لم أكن أدري ما الذي يمكن أن أفعله، هل أقبل فتفتح لي طاقة القدر الأمريكية؟! أو أرفض فيقذف بي على أرصفة النفي أجاور صفائح زبالة الكون؟!.. تمنيت أن تتشق الأرض لتبتلعني لكنها لم تفعل، وظللت فوقها مصاباً بكل آفات البقاء على ظهرها!

عدت إلى كارين بعد منتصف الليل، كانت نائمة في فراش ابنها، كما اعتادت منذ أن تم إعلان العرب مردة خاسئين، أيقظتها لتهض مذعورة وتحتضن ابنها لتدراً عنه الشر، قلت لها بصوت منخفض: (انهضي أريد التحدث إليك.. لا تخافي أنا شبعان لن ألتهمك أنت وابنك!)، انتظرتها في صالة المنزل، فأنتتي وهي مازالت تحمل على وجهها نفس الملامح المزعجة، لم أترك لها فرصة كي تبدأ الكلام حيث قلت لها: (أعتقد أنه لم يعد هناك مجال للبقاء في هذه الشراكة البائسة، غداً نذهب لنبدأ إجراءات الطلاق.. اسمحي لي بأن أبقى الليلة في منزلك، وغداً سأنقل إلى أي مكان آخر).

لم تعلق على حديثي، ربما لأنها كانت تريد أن تخاف أن تصرح به خوفاً من أن أفترسها وأحلي بمزق ابنها!.. كان لابد من التخلص من كارين، برغم أنني لم أكن قد توصلت إلى قرار بعد في مسألة البحث العلمي الذي طلبه مني هذا الرجل، الذي لا أدري إلى أي الجهات الأمريكية ينتمي، ففي كل الأحوال انتهى دور كارين في

حياتي، فمن دونها يمكن الحصول على الجنسية أو أغادر أمريكا إلى أي مكان في الأرض.

ظللت متعزراً أياماً طويلة في الوصول إلى قرار، حتى اتصل بي السيد إكس الذي نسي أو تناسى أن يخبرني باسمه! وطلب مني زيارته مرة أخرى، فذهبت إليه وأنا لا ألوي على شيء، لكنني وأنا عنده وجدتني أقول ببساطة وكأني مستقر على قراري منذ الأزل: (إذا كان لابد من بيع أهلي لأحد فليكن للقوادين منهم.. لقد تركت مصر لأنني رفضت بيعها لأبنائها الذين يتاجرون بها، لذا لا يمكن أن أبيعها لتجار غرباء!)، نظر إلي ببرود وقال: (اسمح لي.. أنت غبي، لأنك لو بعت بلادك للتجار من أبنائها فأنت تبيعها أيضاً لنا، ولكن بطريق غير مباشر!)، (يا سيدي أفضل أن أشارك في قتلها بطريق غير مباشر، على أن يترشش دمها على وجهي!).

وهأنذا أعود إليك.. أعود وقد قتلت أحمد فادي الذي تعرفينه بكلتا يدي، ودفنته في أرض غريبة.. أعود في ثوب جديد.. ثوب قواد مقتدر، لأساعد عتاة القوادين على ذبحك.. ولكن أهم شيء ألا تترشش دماؤك على وجهي!

سحر سلطان

عزيزتي أحلام..

لا أدري لماذا اخترتك أنت وحدك دون باقي أصدقائي الكثيرين في مصر، كي أرسل إليك خطاب وداعي للعالم.. للدنيا بأسرها، فأنا الآن يا أحلام أجمع كل أغراضي القليلة في هذه الدنيا لأرحل، أنا الآن أمسك بالقلم والأوراق التي سمح لي بها طبيبي المعالج في هذه المصحة النفسية التي أعيش بها منذ ثلاثة أشهر، ظناً منه أنني أخطو قدماً نحو السلامة العقلية والنفسية، لا يعلم أنني طلبتها كي أخط آخر كلمات لي قبل الرحيل النهائي من هذه الدنيا القاسية، التي لم تمنحني فرصة واحدة حقيقية كي أعيش وأتنفس بحرية وأمل وراحة. يمكنني أن أقول الآن وأنا أكتب خطاب الرحيل إنني أشعر بالراحة والسلام، فالراحة في هذه الدنيا لا تتأتى إلا بالرحيل عنها بلا عودة.. صدقيني أنا لا أريد العودة أبداً، وأعتقد أن جهنم ستكون أكثر رحمة بنيرانها من دنياكم تلك.

هل تذكريني يا أحلام؟ ربما مازلت تذكريني برغم أن أخباري انقطعت عنك منذ سنين طويلة، لكني أعلم عنك بعض الأخبار، مثل أنك أصبحت صحفية مرموقة وأن لديك ابنة، أتمنى أن تكوني قد استطعت التغلب على آلامك، وحصلت على بعض من الطمأنينة التي ناشدتها دوماً أن تقبل علي دون جدوى!

هل تذكرتني؟!.. أنا أول من علمك كيف تبصقين على العالم بملء لعاب فمك، أنا أول من علمك كيف تسبين الظروف السيئة وأباك وكل من تخلى عنك في هذا الكون.. أنا من علمك هذا، وأنا من لم تقده بصقاته على الدنيا بأسرها، واحتقاره كل المتخيلين عنا وسط رياح

الكون الماطرة، وتجاهله كل أصنام مجتمعاتنا، تلك الأصنام التي دأبت في حصاري وضيق علي الخناق حتى هنا في سويسرا، ذلك المنفى الذي جئت إليه طوعاً ظاناً أنه سيكون المأوى والحائط المانع لكل الآلام.

أنا سحر سلطان، صديقتك التي أصررت على الاحتفاظ بها برغم تحذير الكل لك مني، برغم نظراتهم التي اتهمتي بالعهر والخروج على الناموس المقدس، ذلك الناموس الذي وضعوه بأيديهم وخروا له ساجدين صاغرين.. أنا سحر يا أحلام فهل تذكرت؟!

مازلت أذكر وجهك الممتلئ بالدهشة والأسئلة اللانهائية، وهو يطل لي من بين فتحة باب حجرتك الموارب، حيث كانت زميلاتك نائمات وأنت وحدك مازلت متيقظة تقرئين، تلك العادة السيئة التي لم تقدم لك إجابة واحدة.. نظرت إلي بتعجب متسائلة عن حضوري إليك في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، لم أعر تساؤلك انتباهاً وقلت لك في نبرة آمرة: (البسي روب وتعالى معايًا!)، لم ترفضى أو تسألني لماذا، بل ذهبت من فورك وعدت بالروب على جسدك، أمسكت بيدك وانطلقت نحو سلم المبنى الذي كنا نقطن فيه بالمدينة الجامعية، صاعدة بك إلى أعلى، أوقفنتي قائلة: (إحنا رايحين فين؟! الساعة ثلاثة بالليل يا بنتي، كده هنصحي البنات اللي معاك في الأوضة)، (ومين قالك إننا رايحين على الأوضة بتاعتي؟!)، (أمال رايحين على فين انشاء الله؟!)، (تعالى بس وانتي ساكتة).

انصعت لأوامري وتبعنتي إلى أعلى، أخذت أصعد بك، أصعد بك وأنت تلهثين (كده احنا وصلنا للسطح.. هنقعد فيه دلوقت؟! دي الدنيا برد خالص!)، أفلت يدك من يدي وانطلقت دافعة باب السطح، جارية نحو سوره القصير.. (إنتي رايحة فين يا مجنونة?!)، صعدت فوق السور وانتصبت واقفة فاتحة ذراعي عن آخرهما، (يخرب عقلك

إنّتي بتعملي إيه؟! انزلي هتموتي نفسك!)، استدرت مستخفة بضيق حافة السور، وأشرت إليك أن تأتي لتصعدي إلى جواري، ثم عدت لأنظر في الفراغ السماوي وقلت: (تعالى يا أحلام.. تعالى نتف على الدنيا كلها! تعالى نتف عليها بكل عزمنا عشان تعرف كويس إنها ماتهناش، عشان تعرف إنها مهما عملت فينا هننتصر عليها، تعالى نتف على الدنيا اللي حرمتك من أبوكي وحرمتي من أمي وأبوي، تعالى نتف على الدنيا اللي شردتنا من يوم ما اتولدنا من غير ذنب، تعالى نتف عليها ونغيظها عشان خلاص إحنا كبرنا ونقدر نهزمها!). كنت قد بدأت البصق بملء ما في فمي نحو الفضاء، حين اعتليت حافة السور إلى جواري وأنت تضحكين وتقولين: (واللهي إنتي مجنونة بس باموت فيكي)، (تقي يا أحلام تقي! بدمتك مانفسكيش تنفي على الدنيا وتطلعيلها لسانك?!)، (نفسى بس مش عارفة ازاي?!)، (بسيطة.. كده!)، وعادوت البصق مرة أخرى لتتضمي إلي وتبصقي بكل عزمك.. أخذنا نبصق ونبصق ونبصق حتى جف حلقانا، فاعترتنا هستيريا من الضحك ونحن نشاهد بصاقنا تعيده الرياح إلى وجهينا وملابسنا، لم ننتبه حينها لأن الدنيا هي التي بصقت علينا، وأننا لم نفعل سوى أننا ساعدناها على تجفيف حلقينا أكثر مما هما عليه من جفاف!

آه يا أحلام! لقد بصقت الدنيا في وجهينا منذ أن ولدنا، بصقت وظلت تبصق وتبصق، حتى قررت الرحيل عنها علها تتساني وترتاح من وجودي! أنا الآن ملقاة على سرير بغرفة باردة وسط ثلوج سويسرا، يجاورني عدد لا بأس به من النساء المبصوق عليهن أيضاً، يحاولون هنا أن يعيدوا تأهيلنا لنعاد التصارع في حلبة الدنيا الكريهة، لكنني لن أسمح لهم، فقد قررت الرحيل! أكتب إليك بعد أن ابتلعت زجاجة كاملة من أقراص المهدئة، التي أخذتها خلسة من الممرضة التي تعطيني إياها بحساب، كلما انتابتي موجات الهياج التي لا أعرف

كيف أسيطر عليها، ابتلعتها بعد أن دونت اسمك وعنوان نقابة الصحفيين المصرية، التي لا أعرف لك عنواناً غيرها، على مطروف كبير يتسع لأوراقى الكثيرة التي سأخط فيها خطاب وداعي.. فقد قررت أن يكون ذلك الخطاب عريضة دعوى ضد العالم، عريضة دعوى ضد أبي وأمي، ضد حبيبي الأول الذي سلبني جواز مروري في عالم النساء ورحل، ضد زوجي الذي اخترته وتجاهلت الدين والأعراف والتقاليد وكل الناس، من أجل أن أحيا إلى جواره ثم اختفى، ضد مجتمعنا الظالم، ضد مصر التي اكتشفت هنا في المنفى أنني أحبها كثيراً ولا أحلم بالعيش بعيداً عنها لحظة واحدة، لكنها لفظتني بقسوة، لفظتني مع أهلها.. أهلي، بمنتهى السهولة ودون أدنى تفكير، ضد كل شيء.. كل شيء يا أحلام!

منذ طفولتي وأنا أعيش مع جدي الهمة في بيت فقير بأحد أزقة سيدي جابر بالأسكندرية، كان البيت يتداعى مثل جدي، وكان علي أن أعيش هذا التداعي، لم يكن في أركانه أي إشراقة لغد يأتي بصباح متوهج، بل كانت كل صباحاتي محملة بغبار خريفي، وأوراق شجر تتساقط لتكسو أيامي بصفارها المعتل، كانت أمي ترسل من الكويت بعض مال وبعض كساء، وكانت تتعم علي بمحياها كل عامين أو ثلاثة.. خطاباتها تصل بعد أن يكون اليأس قد سكنني من كثرة الانتظار، ومكالماتها الشهرية تحدث دوماً وأنا نائمة أو ألعب مع أصدقاء الشارع، لم تكن جدي تكلف نفسها عناء إيقاظي أو مناداتي، فكل ما يهمها موعد وصول الحوالة المالية إلى البنك، المكان الوحيد الذي كانت تقدر على الذهاب إليه، لأن قديمها متداعيتان وغير قادرتين على التحرك إلى أي مكان آخر!

أما أبي فأذكر أن أول مرة أراه فيها عندما قررت جدي التخلص من عبء وجودي لديها، وأبلغت أمي أنني فتاة شقية وهي امرأة عجوز لا قبل لها بتحمل تصرفاتي ومتابعتي، فطلبت أمي أن أجمع حاجاتي وأذهب إلى أبي، كنت في الثانوية العامة وأستعد لدخول الامتحانات.. لم أر أي سعادة ولو خفية تطل من عيني أبي عندما رأيته، فقد سلم علي بفطور وبادرني بالإشارة نحو مكان حجرتي، تلك الحجرة القابعة في مكان منفي في آخر بقعة بمنزله، ثم أمرني بصرامة أن ألزم الهدوء حتى لا تضجر مني زوجته وأبنائها.

من المفترض أن أبناء زوجته هم إخوتي، لكنني لم أشعر بذلك برغم إلحاحي على الاقتراب منهم، وصمودي في وجه كل ما قابلني

للوصول إلى قلوبهم، كنت أرغب في خلق عالم أنتمي إليه وأتحسس فيه ملامح ريعية غضة، غير تلك المتغضنة التي تحمل زوايا وانحناءات زمن لم أعشه، كنت أتوسل فيهم استقامة ظهر انكسر منذ أن دفع بي إلى هذا العالم، لكنهم لم يعترفوا بي أختاً، بل كنت دوماً بالنسبة لهم عبئاً يحملونه ويخططون من أجل زواله كي يتنفسوا الصعداء، هذا ما رأيته في وجوههم عندما قرر أبي أن يلقي بي إلى الطرقات غير عابئ بمصيري.

بالطبع كان التخلص مني سهلاً، حيث لا يوجد ما يربطه بي ولا قيمة لوجودي في الحياة، دائماً أنا سبب شقاء له وذكرى سيئة لامرأة أحمل ملامح وجهها.. لم أدر يوماً يا أحلام ما الذي فعلته أُمي به أو فعله هو بها، ليكون القذف بي على قارعة الطريق سهلاً لكليهما، منذ طفولتي وأنا أفتش عن كيان ما، أي كيان يشعرني بأنني لست فائضة عن الحاجة أو مخلوقاً أتى الحياة بلا مبرر، برغم أنني لم أسألهم الوجود.

كان أبي يرى بكلتا عينيه معاناتي مع زوجته، التي كانت تمنعني في إزعاجي وأنا في أمس الحاجة إلى ساعة واحدة من الهدوء أذاكر فيها استعداداً لامتحانات الثانوية العامة، فبمجرد انتهاء أبنائها من امتحاناتهم بدأت سهرات الأصدقاء والأمسيات التي لا تنتهي، كنت أنام في انتظار الهدوء لكنه لم يتأت لي أبداً في هذا المنزل، فقد كنت أستيقظ فرعة على ضجيج ضحكة أو صوت موسيقى عالية.. تعبئ الأصوات فراغ غرفتي المستطيلة، التي لم يكن فيها حتى نافذة أستأنس من خلالها بزحام الشارع، تدخل الأصوات ولا تخرج _ حيث لا منفذ _ فتظل تطن في أذني، فأحاول النوم مرة أخرى ربما تحين ساعة الصمت لأجلس إلى كتبي قليلاً، لكن للأسف، فبعد انتهاء أمسياتها يعلو صوت تليفزيون حجرتها الذي لا يصمت حتى الصباح، فزوجة أبي لا تعرف

النوم سوى على صوت التليفزيون، وأبناؤها لا يعرفون النوم أبداً أو الهدوء!.. أذكر أنني تجرأت يوماً وطلبت منها أن تخفض صوت التليفزيون قليلاً، فما كان منها سوى الصراخ في وجهي: (ده بيتي أنا واللي ما يعجبوش عاداتي يمشي)، انتظرت أن يتدخل أبي لصالح، لكنه ظل ممدداً على فراشه، ولم يكلف نفسه حتى عناء النظر إلى وجهي!

مع ذلك نجحت في الثانوية العامة بمجموع أهلني لدخول كلية التجارة، حينها لم يبارك لي أحد ومر خبر نجاحي كريح عابرة، فقط سمعت زوجة أبي وهي تقول له إنني مستهترة، ولو كنت ذاكرت لكنت حصلت على مجموع أفضل! ولما قال لها إن مجموعي مقبول، قالت إنني حصلت عليه بالفهولة! حمدت الله أنني فهلاوية مادامت أنجحتني هذه الصفة، وقررت حينها أن أعتمد على فلهوتي للنهاية!

لم يكن يومي الأول بالجامعة مميزاً في شيء، فلقد استيقظت على صوت المنبه وقمت لأرتدي ثوباً قديماً، حيث لم يشتر لي أبي ثوباً جديداً أستهل به سنيي الجامعية مثلما تفعل كل الأسر لأبنائها، خرجت من زنزانتي وفعلت كل ما يخطر على بال لأجذب انتباه أبي إلي، علني أسمع كلمة حب وتشجيع على المضي قدماً في حياتي الجامعية، تركني أبي أخرج من الباب أمامه وهو جالس على طاولة الطعام يتناول فطوره، دون حتى اقتراح منه بتناول القليل من الطعام قبل أن أمضي.. آه يا أحلام! كم تفت في تلك اللحظة إلى عناق ولو خاطف منه، وابتسامة محبة تكون زادي في رحلتي الجامعية التي أخطو نحوها أولى خطواتي، لكنني لم أنل شيئاً سوى التجاهل، دائماً ما شعرت بأنني ولدت طيفاً أو مجرد شبح بين الآخرين يصعب عليهم ملاحظته.

تساقطت دموعي وأنا واقفة على محطة الأتوبيس أسأل الغرباء عن أي حافلة علي أن أركبها، في الوقت الذي رأيت فيه أبي يعبر بسيارته الفارحة ومعه إخوتي ليقلمهم إلى مدرستهم.. لم أذكر لك شيئاً من هذا قبل الآن، فلقد عشت بينكم أكذوبة كبيرة، أكذوبة تحمل الحقيقة لكنني لم أعشها، عشت بينكم في المدينة الجامعية كابنة لطبيب عيون شهير وطبيبة تعمل في الكويت، وكان للمال الذي ترسله إلي أُمي بغزارة في ذلك الوقت دور كبير في إقناعكم بأنني مرفهة، لم أكن يوماً مرفهة، فحتى الحب والمشاعر الدافئة التي كنت غنيات بها.. لم يكونا لدي.

قدري كان ينتظرني في أول يوم لي بالجامعة، فلقد التقيت أشرف في ذلك اليوم، كان أول من تحدثت إليه، عندما خرجت من أحد مدرجات كلية التجارة بجامعة القاهرة، كنت مازلت تحت تأثير الضجيج والزحام الذي أشعروني بأنني في محطة قطار أو ميدان رمسيس، لم أخرج من باب المدرج بإرادتي، بل تم دفعي بفعل الضغط البشري، الذي انفجر بمجرد انتهاء أول محاضرة ترحيبية بالطلاب الجدد! استيقظت فجأة من الحلم الذي كنت أحاول أن أرسمه برغم كل شيء لمستقبلي الباهر، وكأن هناك من أخبر هؤلاء الطلاب بأنني بلا ثمن، فألقوا بي خارج المدرج بتكالبهم علي، لم أشعر بنفسي إلا وأنا ملقاة على الأرض، وأشرف بقامته القصيرة وجسده المكتنز قليلاً يللم حاجاتي المبعثرة ويضحك، ثم مد كفه نحوي فلقفتها بسرعة لأنهض.

لا أعرف لماذا انجذبت إليه، برغم أنه كان يسخر من هيئتي البلهاء وأنا ملقاة على الأرض، أنظر بفزع نحو الأجساد المتدافعة من فوهة المدرج أخشى أن يسحقوني بأقدامهم، ربما ضحكته هي التي أثارتني، فقد كنت في أمس الحاجة إلى أن أرى وجهاً يضحك في وجهي، حتى ولو كان سخرية مني! أخذت أعدل من ملابسني التي

التقت حول جسدي، وأضبط خصلات شعري التي تبعثرت في كل الاتجاهات، وعندما لم يتوقف عن الضحك قدفته بكل ما أعرفه من جمل سكندرية بذيئة، فما كان منه إلا أن زاد ضحكاً حتى خلته سوف يموت بانقطاع أنفاسه مع الضحك!

أشرف عليوان .. أتى القاهرة من الخليل ليكمل دراسته الجامعية، كمحاولة من أهله لإبعاده عن ساحة الإعدام اليومي هناك، خاصة بعد أن شارك في الانتفاضة الأولى، سحرني بكلامه الذي لم يطرأ على مسامعي من قبل.. القضية والعروبة والهوية والوطن.. بحثت معه عن هويتي فلم أجدها، وحاولت الانتماء إلى وطني فلم أستطع، فتبنيته هويته ودافعت عن وطنه.. تدريجياً تحول أشرف من حبيب إلى إله! لم يكن يعنيني شيء في الحياة سوى أن أبصره راضياً، أحضر معه اجتماعات لتنظيم مظاهرات ضد الحكومات العربية، وأسير معه في تلك المظاهرات وأهتف بكل جوارحي (فلسطين عربية).. لم أكن مخلصاً لفلسطين بل لأشرف، لم يكن يعنيني أن تعود إلا من أجل أشرف.. كل شيء في هذه الدنيا يا أحلام تم اختصاره في أشرف.

أعلم أنك الآن ستقولين لنفسك بعد قراءة ما سيأتي: (لماذا لم تخبرني بهذه التفاصيل!؟)، لم أخبر أحداً بتفاصيل علاقتي بأشرف بعد ما حدث لي بسببه، فقد كان أشرف سبباً رئيسياً في كل التحولات التي حدثت لي في حياتي، فعلى يديه أصبحت ناشطة سياسية دون أن أدري، وعلى يديه تحولت إلى سيدة تعيش كعذراء بين عذارى، وعلى يديه فقدت آخر منزل يمكن أن يؤويني على الأرض، لأقابلك وأعيش في المدينة الجامعية مدة ثلاث سنوات، حتى تخرجت وقررت مع رؤوف إلى سويسرا.

لم أشعر بالإنتماء أبداً وأنا بين ذراعيه، فلقد كان حبيبي، لا بل كان أبي وأمي اللذين لم أعرف طريق ذراعيهما أو ألف صوت

نبضيها، كان كل شيء.. نعم فلقد استولى حتى على عقلي، عقلي الذي لم يحاول أحد يوماً أن يدخل فيه ولو فكرة واحدة، فمن أزقة سيدي جابر إلى منزل أبي الفاخر بالمعادي، لم أسمع أحداً يخصني بحديث أو يقدم لي كتاباً أو يحكي لي قصة، أو يلامسني فأستشعر مرور جلد آخر يشعرنني بأن لي جسداً، أو يضمني بقوة لقاء بعد غيبة، فأمي المسافرة أبداً كانت تتلقاني بضمة عابرة، وريثة سرابية على خدي، وابتسامة شبحية، وجملة متعالية: (ياه! ده انتي كبرتِي أهوه!).. كان من حقي أن أنغمس في كل عطاءات أشرف، دون أن أفكر في عيب أو حرام، فأنا حتى لم يكلف أحد نفسه عبء إخباري بالعيب أو بالحرام!.. أتعلمين يا أحلام؟!.. لقد ظللت أحيض سنة كاملة وأنا معتقدة تماماً أنني أعاني مرضاً عضالاً ومشرفة على الموت! كنت كلما ذهبت لإخبار جدتي تتجاهلني، (تيته أنا باموت وديني المستشفى)، تنتظر إلي بوهن ولا مبالاة: (ليه بقى انشاء الله؟!)، (أنا بانزف يا تيته دمي هيخلص وهاموت)، (واللهي إنتي اللي هتموتيني.. امتي بقى أخلص منك وارتاح من همك؟!.. ماحدث في الدنيا قادر يفهم إني ست عجوزة ومش قد علل العيال خلاص!).

أتركها وأمضي وأنا أضع القطن الذي أشتريه بكميات كبيرة من الصيدلية بين فخذي، وعندما تمضي أيام الدورة الشهرية أقول الحمد لله، وعندما تعود أعود إلى الرعب مرة أخرى من أنني حتماً سأموت! إلى أن بلغ رعيي مبلغه، فذهبت إلى المستشفى العام، وعند الباب سألت عن الطبيب، لم أكن أعرف إلى أي تخصص طبي أذهب، فذهبوا بي إلى قسم الأطفال، كان كل المنتظرين في رواق القسم أمهات يحملن أطفالهن بين أذرعهن أو يحضنهم إلى جوارهن وكنت وحدي، لاحظت ذلك الممرضة فاقتربت نحوي وسألتني: (إنتي مع مين يا شاطرة?!)، (أنا جاية لوحدي)، (ليه في إيه?!)، (أبدأ أنا

باموت وعازياكم تلحقوني)، ابتمست الممرضة ونظرت إلي وفي عينيها استنشعار مكر طفولي من قبلي، ثم قالت: (بتموتي حنة واحدة؟!)، (أيوه واللهي!)، وغرقت في نوبة من البكاء رقق قلبها نحوي فربتت على شعري بحنان لم أعده: (خلاص خلاص ما تعيطيش قوليلي بس فيكي إيه)، (أنا دمي ببسيح كل شهر من غير ما اتعور!)، حينها نظرت إلي بدهش وسألتني عن عمري، فأخبرتها بأنني في الثالثة عشرة، حينها قالت: (طيب ببسيح منين؟!)، فقلت لها: (من تحت) وأشرت أسفلي، امتلأت المرأة حيرة وبادرتني قائلة: (إنتي أمك ميتة؟!)، (لا ماما مسافرة)، (طيب ليه ما قلتيش لأبوكي أو أي حد من الستات في عيلتك؟!)، حينها تملكني رعب حقيقي على نفسي، فقد بدا لي من كلام الممرضة أن الأمر جد خطير، فقلت لها وأنا مرعوبة: (ليه هو المرض اللي عندي خطير؟! يعني هاموت خلاص؟!)، ضحكت ثم أخذتني من يدي وأفهمتني أن ما عندي ليس مرضاً، ولكنه أمر طبيعي يحدث لكل نساء الأرض!

لم يكن من الممكن أن أرفض حناناً معروضاً علي، لم يكن من الممكن أن أستشعر خطراً من اقتراب جسد أشرف ولامسته جسدي، لم يكن ممكناً أبداً يا أحلام.. أعلم أنك الوحيدة التي ستفهم وستقدر، أعلم ذلك من اليوم الذي علمت فيه بأنني أحب رؤوف وأعتزم الزواج به، حينها قلت لي: (عادي ممكن يغير دينه في الأزهر وتنجوزوا)، ويرغم أنني كنت متيقنة من استحالة قيام رؤوف بهذه الخطوة، إلا أنني صمت وأمنت على كلامك، لكنني ارتحت أيضاً إلى تقبلك الفكرة، برغم استهجان الجميع لها والنظر إلي كمنشقة أو خائنة.

سنة كاملة عشتها مع أشرف، كنت أذهب إليه صباحاً بدلاً من الذهاب إلى المحاضرات، التي أدركت بعد مرور وقت في الكلية أنها ليست مهمة، وأن أغلب طلاب التجارة يداومون على مقاعد

الحديقة وفي المقهى الملحق بكليتنا، وعند اقتراب نهاية العام الدراسي يجمعون المحاضرات من هؤلاء الندرة الذين ينتظمون على مقاعد المدرجات كل يوم، ليذاكروها وينجحوا بتقديرات عالية!.. وبعد أن نمضي وقتاً طويلاً معاً يصل بنا إلى الظهيرة، نرتدي ملابسنا ونذهب إلى الجامعة، لنحتسي الشاي وندخل السجائر ونتناقش في السياسة، أو ننظم رحلة، أو نقوم بالتظاهر!.. هذه كانت حياتي مع أشرف الذي حولني إلى شيوعية متعصبة، ليس فقط شيوعية ولكن تروتسكية، برغم أنني لم أكن أعلم الفرق الحقيقي بين أن تكون شيوعياً لينينياً أو أن تكون شيوعياً تروتسكياً! وأعتقد أنهم جميعاً لم يكونوا يدركون الفرق لذلك لم أهتم بالسؤال! فما كان يهمني أن أكون سحر أشرفية، وهذا ما كنت أفهمه جيداً وأحب أن أظل عليه، متجاهلة كل ما يقال عني.. (دي تبع أشرف بيه!)، (دي بتاعة أشرف!)، (دي موزة أشرف!).. وكل النظرات التي كانت ترشقها الفتيات الشريفات في ظهري، وكل العيون المتربصة للاستمتاع بي بمجرد أن يلقيني أشرف بحثاً عن (موزة) جديدة!

كنت الوحيدة التي لا تدرك أن علاقتي بأشرف لن تكون أبدية، وأنها ستؤول إلى نهاية حتماً، كنت مخدرة دائماً بحبوبة المهدئة التي تبعدني عن واقعي الأليم الذي أعيشه كل يوم بمنزل أبي، حتى سحب مني أقراصي في هدوء ودون أن يعبأ بتبعات ذلك.

مضى العام الدراسي الأول لي والنهائي بالنسبة لأشرف، ومع ذلك لم يخطر ببالي أن هذا مؤشر على بداية نهاية علاقتنا، كنت فرحة بتقديري العالي الذي خدمتي فلهوتي للمرة الثانية في الحصول عليه (جيد جداً)، ذهبت إلى والدي لأخبره، ربما لم أكن قد أيقنت بعد أنني ميتة بالنسبة له أو ليس لي وجود من الأساس.. جريت إليه والفرح يلفني، كان جالساً مع أبنائه حول طاولة الطعام وقت الغداء، اندفعت

من باب المنزل نحوه، ولففت ذراعي حول عنقه وأنا أصبح: (جيد جداً يا بابا.. جيد جداً!)، كان الصمت هو بطل هذا المشهد الذي لن يغيب عني حتى بعد الموت، فقد مد كفيه الباردتين وحل تشابك ذراعي من حول عنقه قائلاً بصوت معدني: (أوكيه)!!.. في نفس اللحظة انتفضت زوجته من فوق مقعدها، الذي انكفأ خلفها على الأرض محدثاً دويّاً اختلط بصراخها: (كام مرة قتلتك إنك مش عايشة في زريبة، وإنك لازم تخلعي جزمك على الباب قبل ما تدخل!)..

توقف لعابي في منتصف حلقي، وانعدم هواء الغرفة حولي، وقفت ذاهلة أنتظر دموعي أن تتزلق على خدي، لكنها تحجرت وأخذت تشكني كإبر حادة في مآقي.. لم أشعر بنفسي إلا وأنا خارج المنزل، لا أذكر كيف خرجت، لا أذكر حتى إن كان أحد اعترض على خروجي، وإن كنت موقنة أنه لم يكن هناك من انتبه!

بالطبع توجهت نحو منزل أشرف، كان جالساً يقرأ الجريدة عندما دخلت، سألني عما ألم بي فأخذت أنشج بين ذراعيه وأقص عليه ما حدث، فضحك.. لم يكن هناك ما يمكنه أن يكدر صفوه، حتى عندما يقرأ أخبار فلسطين بأحداثها الدرامية الدامية.. عبارة واحدة يرددها عقب كل حادثة: (راح يجي يوم وترجع إلنا)، ثم يطوي الجريدة ويلقيها على الأرض.. عندما سألته مغتظة من رد فعله عن سبب ضحكه، قال: (بعدك طفلة صغيرة.. مفروض إنك عارفة إن هادا بده يحصل)، ثم سألني إن كنت قد تناولت فطوري، كان الوقت وقت غداء، لكنني أفطرت معه حيث لم أكن قد تناولت أي طعام بعد.

بعد أن أمضيت اليوم كله معه في منزله عدت إلى منزل والدي، كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل عندما دلفت من الباب، لم يخطر ببالي أبداً أن هناك من يعبأ بتأخيري أو غيابي تماماً، لكن على غير العادة وجدت أبي ينتظرنني يحيط به كم هائل من

الصراخ والسباب، الذي لا يضم قلقاً واحداً بادياً على وجهه.. خرجت إجابتي تلقائية تماماً عندما سألني أين كنت، فلقد أخبرته بشأن أشرف وعلاقتي به وأني كنت في منزله، وكانت هذه هي النهاية لتراجيديا وجودي في بيت أبي، فهو لم يفعل سوى أن أمرني أن أدخل لجمع حاجاتي والخروج من منزله بلا عودة، قائلاً: (روحي للمكان اللي كنتي فيه يا كلبة)، ثم أتبع ذلك بوصفه إياي بأنني حثالة، تماماً مثل التي أنجبتني!

وأنا أجمع حاجاتي من الزنزانة التي كنت أسكنها، تساءلت إن كانت أمي فعلاً حثالة، وإن كانت أنجبتني وحدها دونه، لكني لم أستطع أن أسأله هذا السؤال، ومضيت وأنا لا أنظر ورائي، وبمجرد أن خطوت بضع خطوات خارج البناية التي يقطن فيها أبي، أحسست وكأن الهواء أصبح نظيفاً فجأة، وأني لم أكن أعيش سوى في مكب للنفايات، فابتسمت.. ومضيت وأنا أتعثر في حقيبة ملابسي.

توجهت نحو أقرب هاتف عمومي واتصلت بأشرف حتى يأتي لاصطحابي، وفي الصباح اتصلت بوالدتي في الكويت وأخبرتها بكل شيء، وأنها يجب أن ترسل إلي من الآن فصاعداً نقوداً كل شهر.. كل ما قالته لي معاتبة: (ليه بس يا سحر عملتي كده؟! ليه تتأخري بره للساعة دي؟!)، لم تعبأ بكوني على علاقة غرامية بشاب، وأني مقيمة عنده في المنزل بعد أن طردني والدي! وبالطبع قبل انتهاء المكالمة بثوان معدودة وافقت على أن تغدق علي أموالها لأول مرة في حياتي.. وأنا عائدة من السنترال، وبرغم أنني لم أعتقد يوماً خطيئة علاقتي بأشرف، إلا أنني ابتسمت في مرارة وقلت: (صحيح حثالة!).

ظللت عند أشرف أشهر الإجازة الصيفية، وبعد بحث وسؤال أخبرني أشرف بأنه من حقي الالتحاق بالمدينة الجامعية، لأنني سكندرية وبطاقتي الشخصية تثبت ذلك، لكن المدينة الجامعية لا تفتح

أبوابها إلا شتاء مع بداية العام الدراسي، لم يكن لدي حل آخر، خاصة بعد أن أخبرني أشرف، الذي كان قد أنهى دراسته في الجامعة، بأنه سيغادر القاهرة في طريقه إلى دولة الإمارات، حيث يعيش عمه منذ عشرين عاماً هناك، ليلتحق بعمل أوجده له، وأنه ظل في القاهرة بعد انتهاء الدراسة في انتظار انتهاء إجراءات السفر والإقامة هناك.. لا أعرف لماذا لم أسأله عن مصير علاقتنا، وعما إذا كان سيرسل إلي لألحق به بعد أن يستقر هناك كي نتزوج، أسئلة كثيرة تفجرت داخلي، لكنني لم أسألها ولا أدري لماذا لم أفعل حتى الآن!

عندما حان يوم سفره أخبرني بأنه دفع إيجار الشقة المفروشة التي نسكنها حتى نهاية الإجازة، وعلي بعدها أن ألتحق بالمدينة الجامعية للطالبات.. رافقته إلى المطار، وهناك لم أتمكن من مقاومة دموعي التي هطلت بغزارة.. لا أدري ما الذي كنت أبكي من أجله حينها، هل أبكي على فراق أشرف؟! أو أبكي على وحدتي التي سأزرع داخلها بعد سفره؟! أخرج منديلاً من جيب بنطاله ومسح دموعي، انتظرت أن يقول لي أنه سيتصل بي بمجرد وصوله، لكنه لم يفعل، كل ما فعله وهو مستعد للدخول إلى حيث لا يمكنني مرافقته أن قال، وهو يضمني طويلاً بين ذراعيه: (ديري بالك على حالك يا سحر.. أنا حبيتك فعلاً وما ضحككش عليك).

اختفى.. وظللت معلقة بآخر جملة قالها لي، فلقد فسرتها ألف تفسير، وعزمت على انتظاره.. انتظار جودو!

سافر أشرف وبقيت وحدي في منزله أشاهد التلفزيون في صمت، لم أكن أدري ما الذي يعرض على الشاشة، فقط ملقاة على الأريكة أدخن السجائر بشراهة وأنا صامتة. مضت الأيام وأنا على هذا الحال، لا أخرج من باب المنزل ولا أكل تقريباً إلا الفتات، لكن فجأة ودون مقدمات أو تفكير مسبق نهضت لأستحم وأرتدي ملابسني ثم نزلت، لم أكن ألوي على شيء، ولم أحدد أي الأماكن يمكن أن أذهب إليها، لكنني وجدت نفسي فجأة في الهناجر بدار الأوبرا، جالسة على واحدة من طاولات مقهاها، أحتسي فنجالاً من النسكافيه وأمتص السجائر امتصاصاً! كان المكان يعج بالمرحيين الشباب الذين يحملون بعمل انقلاب في المسرح المصري، يتناقشون ويتجادلون، خاصة الطاولة التي تجاورني، حيث كان رؤوف يجلس مع عدد من الفتيات والفتيان، الذين ينظرون إلى أوراق أمامهم، ثم يعودون إلى النظر في وجه رؤوف ليجادلوه في أمر ما.. كما علمت بعد ذلك من رؤوف كانوا يستعدون لتقديم أول مسرحية من إخراجهم.. أعجبنى شكلهم كثيراً، فلم أدر أنني أحملق فيهم بتركيز شديد يكاد يصل إلى حد المراقبة والتتصت، لدرجة أنهم شعروا بالقلق مني ومن نظراتي المريبة.

مضى الوقت ونهضوا متوجهين نحو قاعة المسرح في الهناجر، حينها لم أجد ما أفعله سوى أن أنهض لأعود من حيث أتيت.. بقيت صورتهم عالقة في مخيلتي طوال الليل، وربما ظلت عالقة مدة طويلة، إلى أن عدت لأبحث عنهم في الهناجر مرة أخرى.

لم يكن متبقياً على فتح الجامعة أبوابها سوى أيام معدودة، فذهبت إلى المدينة الجامعية لأستعلم عن موعد التحاقي بها، فأخبروني

بأنني يجب أن أكون موجودة في اليوم الأول للدراسة، حتى أدفع المصاريف وأتسلم غرفتي.. بالطبع لم يخطر في بالي أن هذه الحجرة ستكون لي واثنين آخرين من الفتيات، لكن هذا ما أدركته عندما توجهت بحقيبتى القلقة معي إلى المدينة لأتمم الإجراءات، يومها صدمني المشهد الذي أبصرته.. كان فناء المدينة مكتظاً بالآلاف الفتيات القرويات، لا يمكن وصفهن سوى بذلك، طبعاً أنت متذكرة يا أحلام، وإن كنت بالتأكيد لم تريهن بهذا الشكل، فقد كنت واحدة منهن!.. الملابس الحريرية المزخمة بالنقوش والورود ذات الألوان الفاقعة، حتى مساحيق وجوههن تنحصر في ثلاثة ألوان لا غير: الأحمر والأزرق والأخضر!.. كنت واقفة أضحك، وأنا الآن أضحك أيضاً! فمازالت الصورة مطبوعة في ذاكرتي، أرجوك لا تغضبي مني، اسمحي لي وسط الموت الذي أستقبله ببعض الضحكات!

بعد أن انتهيت من الطابور الطويل للإجراءات، ذهبت إلى غرفة الأمن عند باب المدينة الجامعية، حيث تركت حقيبتى لديه إلى أن أفرغ من الروتين المفزع الذي نمر به، حتى نحصل على سرير مختنق بين سريرين آخرين في حجرة لا تتسع لفردين على الأكثر، هناك هالني ما رأيت، ربما التعبير الأكثر دقة هو أثار غيرتي وحقدى على العالم كله، فلقد اكتشفت أنني الفتاة الوحيدة في هذا الكون.. بالطبع تعرفين المشهد الذي أريد وصفه، فلقد لعبت بنفسك أحد أدواره المتعددة، الفتيات مستريحات في عناق طويل بين أذرع آبائهن وأمهاتهن أو حتى إخوتهن، وبكاء الفراق القصير يسقط الدموع أنهاراً من جميع الأعين، لم أبصر عيناً واحدة جافة، الكل حزين على الفراق سواء الفتيات أو أهلهن، أنا الوحيدة التي لم يبك على فراقى أحد، لكنى بكيت على غربتي في عالم يعج بالأقارب والأهل من حولي. كنت يا أحلام نائمة بين ذراعي والدتك تبكين، وتشدين بذراعيك بقوة على جسد

أمك، يهزك النشيج وكأنك لن تريها بعد اليوم، أسقطت حقيبتني على الأرض واقتربت منكما، مازلت أذكر الكلمات التي تبادلتها مع أمك: (ماما أنا مش عارفة إزاي هاعيش من غير ما تكوني معايا؟!)، (معلش يا حبيبتي عشان الورد ينسقي العليق.. عشان تدخلني كليتك وتتخرجني منها ويكون في إيدك سلاح تواجهي بيه العالم.. مش كده يا أحلام؟!)، (أيوه يا ماما أوعدك إني هاذاكر وانجح ومش هالعب أبداً)، (أيوه كده يا حبيبتي، خليكي على طول زي ما انا عارفاكي.. أحلام القوية الشاطرة!).

لا أدري ما الذي شدني إلى هذا الحوار، ربما كنت أحتاج إلى من يقوله لي، إلى من يشد أزري ويخبرني بأنني قوية وشاطرة! وأني سأكون شيئاً كبيراً في المستقبل، لا أدري.. ولكنني عقدت العزم في ذلك الوقت على أن تكوني صديقتي، فمشيت وراءك بعد أن انتهيت من بكائك لأعلم إلى أي مبنى بالمدينة ستتوجهين، وكانت المصادفة أن وجدتك متوجهة إلى نفس المبنى الذي سأقطن فيه، تمنيت أن تكوني زميلتي في الحجرة، لكن خاب أمني هذه المرة، عندما وجدتك متفقة مع فتاتين من نفس كليتك لتقطنوا معاً.

بالطبع تذكرين ما حدث بعد ذلك وكيف تعرفنا ببعضنا البعض، كان الأسبوع الأول من الدراسة أشبه بمعسكر تعارف ومحاولة للتآلف مع الأخريات، للعيش بسلام في هذا المكان المزدهم بفتيات من كل مكان في مصر، كل واحدة تحمل ثقافة وتقاليد وطريقة حياة المدينة أو القرية الآتية منها، وكل واحدة تنظر إلى غيرها بغيرة وترقب لكل ما قد يتأتى منها من فعل أو كلمة لا تتفق معها، لتقيم الدنيا ولا تقدها! الشجار والصوت العالي كان الأسلوب الوحيد للتفاهم بين الجميع، وأنت منزوية في حجرتك صامتة لا تستطيعين الاعتراض على ما تفعله زميلناك بالغرفة، وبرغم أنك كنت متعجبة ودهشة مما تفعله كل منهما،

إلا أنك التزمت الصمت إلى أن توطدت علاقتنا وعلمتك كيف تردين وتمدين ذراعك، بل كيف تقذفين من أمامك بأفزع الشتائم! كلما تذكرت أول مشاجرة وقعت بينك وبين إحدى زميلتيك في الحجرة أضحك، أنا الآن أضحك!.. ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي أطلقت فيها السباب في وجه من أمامك، كان لك كل الحق في أن تدخل في هذا العراك، بعد أن أعلنت تلك الفتاة بكل صراحة زعامتها للغرفة، وتحكمها في حياتك أنت وزميلتكما الثالثة التي كنت تكريهين صمتها وقبولها كل شيء، بل ترك مقود حياتها للفتاة الأخرى التي تعاركت معها، كانت تلك المشاجرة هي التي حسمت استمرارك في غرفتك، بعدها انتقلت إلى الغرفة المقابلة لغرفتي، وبذلك أصبحت بشكل أو بآخر مقيمة معي أو مقيمة أنا معك، المهم أن الفرصة أتاحت لنا لنكون أقرب لبعضنا البعض.

حكيت لك عن مغامرتي العاطفية الوحيدة التي عصفت بمستقبلي كفتاة، وإن لم أحك لك كل التفاصيل، فكل ما عرفته أنت أنني وقعت في حب شاب وخرجت معه كثيراً، حتى انطلقت الشائعات من حولي، بالطبع لم يكن من السهل أن أروي لك كل التفاصيل، فلقد كنت ملتزمة وصايا أمك التزاماً شديداً، وهذا ما لم أكن أعرفه قط أو علمني إياه أحد قط، كنت متيمة بأمك، أنا حتى الآن أحسبك على أمك يا أحلام، يا ليت كانت لي أم بنصف إخلاصها وتضحيتها من أجلك، ربما ما وقعت في كل تلك المشاكل التي تعرضت إليها، وربما كنت أكثر قوة في حبي لأشرف ومن بعده رؤوف، كنت سأعي حينها معنى التقاليد حتى لو كانت تقاليد بالية وخائفة، فأنا لست هدى شعراوي لأكسرهما وأتحداهما وأغيرهما، من أنا لأواجه أشد التقاليد والأعراف عتاقة ورسوخاً؟! وماذا لدي من زاد لأحاربها وأضع بديلاً لها أقوى وأكثر إقناعاً وأريحية؟! هذا ما اكتشفته بمجرد أن وطئت أقدامي

سويسرا، فكل ما تبنيته من قضايا قبل ذلك كان مجرد وهم، عندما تبنيت قضية فلسطين واعتنقت الفكر الشيوعي لم أختبرها عن بحث ومعرفة حقيقية، بل كان من أجل أشرف وتماشياً معه حتى يحبني ويظل مقتنعاً بي كحبيبة، وعندما وقعت في غرام المسرح وقرأت شكسبير وبرناردشو وتشيكوف وبريخت وسارتر وغيرهم.. كنت أتمثل حلم رؤوف وأحاول أن أفهم كلامه، هذا كل شيء، لكنه لا يفي بمتطلبات زعامة التغيير أو تحدي الواقع.

مر علي هذا العام ثقيلًا، وإن كان وجودك معي خفف الكثير، منح صورتني بعض القيمة في عيون فتيات المدينة الجامعية، اللاتي وصل إليهن ذكر سمعتي الملوثة، بالطبع من طالبات التجارة بالمدينة، أعتقد أنهن كن يتحدثن معي ويعاملنني بلطف لسببين، الأول بالطبع هو لساني الطويل! والثاني أنك كنت صديقتي. في هذا العام كنت أتردد بين الحين والآخر على الهناجر بدار الأوبرا، فلقد ظل مشهد رؤوف وفرفته المسرحية عالقاً بذهني، كنت أذهب علني أجدهم لأستمع بالنظر والتنصت عليهم، لكني لم أكن أراهم في كل مرة، فقط ثلاث مرات هي التي صادفت ووجدتهم هناك.. لكن عموماً وجودي في ذلك المكان كان يعطيني بعضاً من الشعور بالحب للحياة، هذا الشعور الذي كنت فقدته آنذاك ورده إلي رؤوف، ليعود ويأخذه مرة أخرى، ولكنها المرة الأخيرة! فهأنذا أكتب إليك بيد أصابها القليل من الخدر، بعد أن ابتلعت كما أخبرتك سابقاً زجاجة كاملة من الحبوب المهدئة.

أتذكرين؟! أنا من عرفتك طريق الهناجر ومسارح الأوبرا، التي أدمنتها بعد ذلك وأصبحت مكانك المفضل، وأيضاً بعد أن عرفتك إياها انسحبت لأختفي مع رؤوف في كل مكان وأي مكان. بعد مرور هذا العام اصطدمت أنت مع الشيوعيين بالجامعة، لأنهم أصروا على إقناعك بأنه لا إله، في حين كنت أنت متيقنة من وجود الله.. هل

مازلت متيقنة؟!.. في العام التالي التحقت أنت بالجماعات الإسلامية، كان حدثاً بالنسبة للجميع وأولهم أنا، ربما كان هذا هو السبب الرئيسي الذي أبعدنا عن بعضنا البعض، ولكن ظل بيننا شيء.. شيء هناك في أفق كل منا يحمل الحب للآخر، كنا ننظر إلى بعضنا البعض من بعيد، فقط لنطمئن على أن الآخر يعيش، ثم نمضي كل منا في اتجاه. كان آخر حوار بيننا عندما علمت أنك مريضة وترقدين في فراشك، كنت في السنة الرابعة من الكلية، بينما كنت أنت في الثالثة، حينها أخبرتك بعلاقتي برؤوف، وأخبرتكم بأنه مسيحي، وأنني رغم ذلك لا أجد مبرراً واحداً لتركه، حينها ذكرت لي أنه من الممكن أن يغير دينه في الأزهر.. وهكذا لم أرك بعد ذلك، حيث سافرت بعد تخرجي مباشرة مع رؤوف للزواج في سويسرا، بعيداً عن الأعراف والأحكام الدينية، بعيداً عن الجامع والكنيسة!

رؤوف.. ذلك الضوء الفضي الذي انسال بنعومة ليضيء خلاياي، وينقي دمي من كل حقد على العالم، من كل سقم بأعضائي يواجه صباحاتي التي لم تكن في نظري سوى علية، تلقاني برفق وداعب أحلامي المكبوتة داخلي، وصفى كل الشوائب التي علقت بأهدابي طوال سنيي، فأبصرت الكون كما لم أبصره من قبل.

رؤوف.. ذلك المسرحي المتبتل الذي لا يرى الدنيا إلا من خلال خشبة المسرح، فهي كما قال يوسف وهبي: (ما الدنيا إلا مسرح كبير)!! كان دائماً ينصحني بابتلاع هزائمي مع اللقم، أتركها لمعدتي كي تطحنها، ولأنها ليست مفيدة فستخرج مع البراز!!.. (يا بنتي حكايتك دي اتحككت كتبيبيير قبل كده، لدرجة إن الناس لا يمكن تتفرج عليها النهارده.. مشاكلك قديمة في زمن جديد، انسبها واستريح وريح الدنيا.. لسه في قصادك حياة وأكيد مليانة مشاكل، بس أكيد المشاكل الجاية هتكون عصرية تليق بوقتنا وجيلنا!). نعم يا رؤوف فمشكلتي معك كانت جد عصرية، ربما تكررت قليلاً في الماضي، لكنها ليست مستهلكة كي تعرض على خشبة المسرح، هذا إن وافق الأزهر على عرضها من الأساس!

ظلت أتردد على الهناجر عاماً دراسياً كاملاً، لم أر فيه رؤوف مع باقي أعضاء فرقته سوى مرتين أو ثلاث، لكني لم أياس.. في اليوم الأخير لامتحانات السنة الثالثة بالجامعة ذهبت إلى هناك، كنت أدعو من كل قلبي أن أراه، لا أدري تحديداً ما الذي جذبني إليه، برغم أننا لم نتبادل الحديث أو حتى النظرات، هكذا ظننت، لكنه أكد لي بعد ذلك أنه لاحظ تركيز نظراتي عليهم وعليه خصوصاً.. عندما

وصلت كانت الطاولة التي يجلس إليها مع باقي زملائه فارغة، وجدتني أتجه نحوها، وكأني على موعد معه وكأنه حدد المكان والطاولة، جلست وطلبت فنجالاً من القهوة كما اعتدت أن أفعل دائماً، وأنا أرشف رشقات متباعدة من القهوة، ظلت أجيل نظري في كل الاتجاهات يمينا ويسارا وإلى الخلف وأمامي، لم أتوقف لحظة عن تفحص الداخلين من الباب، وبينما الدقائق تتراكم لتكمل الساعة ثم الساعتين، لم أشعر بالملل أبداً من الانتظار. لا أدري ما الذي اعتراني يومها من إحساس عميق بأنني على موعد حقيقي مع رؤوف، كنت أنتظره بوله حقيقي، بل تخيلت نفسي بين ذراعيه أبته شوقي وأتلقى وحشته من غيابي!.. فجأة.. والله هذا ما حدث يا أحلام.. فجأة دفع باب الهناجر بيده ودخل، بينما ينظر خلفه وهو يكمل حديثه مع فتاة من فرقته، تمنيت أن أكون أنا من وضع كفه على كتفها برفق داعياً إياها إلى الدخول قبله، وأنا من سحب لها الكرسي بهدوء لتجلس عليه، ثم أنا من مد أصابعه ليمسح شيئاً علق بأهدابي.. كانت اللحظات تمر ببطء وأنا أتابعه أثناء حديثه مع هذه الفتاة.. آه! نسيت أن أخبرك بأنه علق عينيه علي لحظة عندما توجه تلقائياً نحو طاولته فوجدني أشغلها، لكنه ما لبث أن استدار متوجهاً معها إلى طاولة أخرى.

يبدو أنه لم يكن على لقاء في ذلك اليوم مع باقي أعضاء فرقته، فقد غادرت الفتاة وحدها بعد ساعة تقريباً، ليبقى وحده على الطاولة مشعلاً سيجارة، سحب منها أنفاساً هادئة ليخرجها ببطء لذيق، كم تداعب مخيلتي تلك اللحظات حتى الآن، وأتمنى أن تعود إلي برؤوف!.. تخيلي يا أحلام أنه بعد أن أطفأ سيجارته نهض من على مقعده، دون أن يحدث تلك الجلبة المعتادة لمقاعد الهناجر الحديدية الثقيلة، ثم وجدته يتوجه ناحيتي، لم أكن متأكدة أنه يتوجه ناحيتي بالفعل، فبقيت ثابتة كحجر على مقعدي، لكن ما أن وجدته أمامي

مباشرة يستأذن في الجلوس، حتى انتفضت مضطربة والعرق يهاجمني
بشراسة في كل أجزاء جسدي، كنت مبللة تماماً عندما مد كفه ليلحق
بي قبل أن أفر، كان جالساً كما هو على المقعد لم يحرك سوى ذراعه
التي امتدت لتقبض كفه على كفي المرتعشة.. (مالك في إيه؟!.. هو
أنا بعبع؟!)، لم أعثر على كلمة واحدة في قاموسي، أعلم أنك قد لا
تصدقين أن مثلي يمر بتلك اللحظات، فحتى عندما حكيت لك عن
أشرف ورؤوف كنت أتعمد الضحك وإطلاق النكات، ليخرج الموقف
الرومانسي في صورة ساخرة كوميدية تطلقين لها الضحكات معي، لكن
اعلمي يا أحلام أنني مثلك ومثل كل الفتيات، أرتعش لقرب الحبيب،
وتتهدج أنفاسي عندما أتلفظ بكلمة حب، وأذوب حتى أتلاشى أمام
محبوبي..

(إهدي إهدي.. وبعدين إنتي اللي عايزاني أكلمك، مش كده
ولا أنا بقى طلعت حمار لأول مرة في حياتي؟!).. شعرت بأنه يهينني،
وتخيلت أنني بالفعل أحمل عيني فتاة هوى، كما اعتاد أن ينظر إلي
الجميع بعد علاقتي بأشرف، لكنني لم أستطع أن أبتلع جملته وأمضي
في هدوء، ووجدت سحر التي تعرفينها ويعرفها الجميع تخرج من
مكمنها، الذي كنت أودعتها فيه قبل أن أدخل إلى الهناجر: (أنا عايزاك
تكلمني ليه بقى انشاء الله؟! عمر الشريف ولا ألن دلون اسم الله؟!)،
انطلقت ضحكة رؤوف خجلة متوارية، ثم نظر حوله سريعاً كي يطمئن
إلى أنه لم يلحظ وصلة ردي أحد! ثم قام داعياً إياي للجلوس بنظرة
رجاء وإشارة صغيرة من يده: (أقعدني بس الأول وبلاش الشر اللي في
عينيك ده.. أنا مش قصدي حاجة واللهي، أنا يا ستي اللي عايز
أكلمك من زمان)، أرضت كلماته الأخيرة غروري فجلست، سحبت
حقيقتي نحو صدري بينما أرخيته عليها قليلاً، ونظرت إليه بشقاوتي

المعتادة قائلة: (وعايز تكلمني ليه بقى!؟)، وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة لحقته بسؤال آخر بسرعة شديدة: (إلا قولي إنت اسمك إيه!؟).

رؤوف عزيز هذا هو اسمه، ولأكون صريحة معك يا أحلام فقد لاحظت شارة الصليب على رسغه، ولم أهتم بذلك، فكل ما كنت أريده أن أقترب من رؤوف.. لا أدري لماذا هو دون غيره، لكنني أردت الاقتراب بشدة.

في هذا اليوم جلسنا معاً ساعات طويلة، كانت تلك هي المرة الأولى _ كما أكد رؤوف _ التي يمكث فيها كل تلك الساعات بالهناجر دون أن تكون لديه بروفة.. تحدثنا عن كل شيء.. جدتي وأمي المسافرة إلى الأبد، وأبي الذي ينكرني وزوجته وإخوتي الذين ليسوا إخوة، حتى أشرف وما فعلته معه بالتفصيل.. حقيقة لا أعرف حتى الآن ما الذي أصابني، لأقول كل شيء وأي شيء في داخلي لرؤوف، برغم أنني أجلس معه للمرة الأولى، ربما كنت أحتاج إلى شخص لا أعتاد لقاءه يومياً لأصرح له كل ما أكننته في تجاوفي الضيقة المظلمة، أو ربما استرحت إليه هذا الحد.

كان ذلك اليوم مخصصاً لي، حيث لم يحك هو أي شيء عن حياته أو اهتماماته أو أحلامه، وانتهى اليوم وكل المعلومات الإضافية لدي عنه أن اسمه رؤوف عزيز وأنه مسيحي، فقد اكتفى رؤوف بمناقشة كل آلامي، وتنفيذ كل تعليق لي على حدث ما في حياتي، كنت أشعر بأنني أجلس أمام طبيب، يحمل في يد وردة يانعة تنتشر عطرها في السماء، وفي اليد الأخرى ترياقاً سحرياً ينثره على نفسي فتهدأ وتشفى.

عندما اكتشفت أن الساعة وصلت إلى العاشرة مساءً، أطلقت صيحة خافتة: (يا خبر! ده ميعاد قفل باب المدينة الساعة ثمانية

ولغاية الساعة تسعة سماح، بعد كده هيعملولي مشكلة)، (طيب إهدي إهدي.. أنا هاوصلك وربنا يسهل وما تحصلش مشكلة).. أوصلني بالفعل إلى باب المدينة الجامعية، وهناك اكتشفت أن اليوم فوضى، لأنه آخر أيام الدراسة وعلينا المغادرة في اليوم التالي.

لم تحدث مشكلة في الدخول إلى المدينة الجامعية، لكن المشكلة الحقيقية كانت في الإجابة عن هذا السؤال: (أين سأذهب عندما تغلق المدينة أبوابها خلال أشهر الصيف؟!).

في اليوم التالي وبعد أن ودعنا بعضنا بعضاً في انتظار للقاء في العام الدراسي المقبل، كنتن جميعاً تحملن حقائبكن وأنتن تعلمن جيداً إلى أين ستذهبن، ففي الوقت الذي توجهتن جميعاً إلى محطات القطار والحافلات المتوجهة إلى الأقاليم، توجهت أنا إلى سنترال الجيزة، كانت حقيبتني ضخمة وثقيلة، أخرجرها على الأرض بين نظرات الناس في الشارع المتسائلة، كنت اعتدت حمل حقيبتني وتحمل ضرباتها المؤلمة لقلمي وتعثري فيها بين كل لحظة وأخرى، لكن الشعور الجديد الذي كدرني هو أنني تأكدت من معلومة واضحة جداً للعيان، هي أنني متشردة بلا أهل ولا مأوى.. كان معي نفود كافية، لكنني خفت من الذهاب إلى فندق للبيات فيه وحدي، خاصة أن النقود التي معي لن تؤمن لي المبيت في فندق خمس نجوم، وإنما في واحد من تلك الفنادق المريبة المتناثرة في شارع رمسيس، جلست على أحد مقاعد السنترال أنتظر دوري في المكاملة التي حجزتها للكويت، لم يكن أمامي إلا اللجوء إلى أمي لأحصل منها على مشورة بالمكان الذي أذهب إليه، خاصة أن جدتي كانت قد توفيت وباع خالي منزلها. بعد مرور نحو ساعة من الانتظار نادتنني موظفة السنترال فقد حان دوري، تحدثت إلى أمي، وبالطبع لم تسألني عما إذا كنت قد أبلت بلاء حسناً في الامتحانات، فقد بدأت كلامها معي بمجرد أن سمعت صوتي قائلة:

(هيه يا سحر؟! في إيه تاني؟!.. مش الفلوس بتوصلك كل أول شهر ولا مش كفاية؟!)، (لا يا ماما كفاية أوي، بس أنا خلصت امتحاناتي امبارح والمدينة الجامعية بتقفل في الصيف، ومش عارفة أروح فين؟!)، (تروحي فين؟! أهو ده اللي ماكنتش عاملة حسابه!)، (يعني إيه يا ماما أبأت في الشارع?!)، كنت قد بدأت الاختناق وخرج صوتي متهدجاً باكياً، فسارعت بقولها: (بس بس خلاص، اقفلي السكة دلوقت وكلميني بعد ساعة هاشوف هاعمل إيه وأقول لك)، (وهاروح فين يا ماما في الساعة دي?!)، (إنتي فين دلوقت؟)، (أنا في السنترال اللي جنب المدينة)، (خلاص خليك زي ما انتي)، ووضعت السماعة حتى قبل أن أقول لها سلاماً.

لم أستطع يا أحلام أن أكبح جماح دموعي التي تراكمت بضراوة في مقلتي، أخذت أبكي حتى إن صوتي علا بشهقات خافتة، جعلت المرأة التي تجلس إلى جوارني تضع ذراعها على كتفي: (مالك يا بنتي بس في إيه?!)، (مفيش يا طنط ولا حاجة)، (أجبلك ميه?!)، (لا لا متشكرة)، ومع ذلك نهضت وأحضرت لي كوباً من الماء، شربته وكأنني أتجرع سماً، وفجأة وأنا أشرب قفز إلى ذهني رؤوف، فلقد أعطاني رقم تليفون منزله وعمله بالمجلس الأعلى للثقافة، فقامت مسرعة واتصلت به على تليفون مكتبه، كنت أدعو الله في سري أن يكون موجوداً، واستجاب الله دعواتي للمرة الأولى! فلقد أجابني رؤوف، (رؤوف أنا سحر سلطان فاكرني؟! أنا اللي كنت معاك..)، (بس بس إنتي على طول كده مسروعة! طبعاً فاكرك وإزاي أنساكي، حد ينسى وش القطة الشرسة اللي يجنن ده?!)، (رؤوف أرجوك مش وقت هزار، أنا موجودة في سنترال الجيزة، ومش عارفة أروح فين.. المدينة قفلت بيبانها النهارده، وكل البنات روحوا على بيوتهم، وأنا هنا مش عارفة أروح فين بالطبط.. كلمت ماما في الكويت وقالتي إنها مش عارفة

تقولي أروح فين، وإني أتصل ببيها بعد ساعة تكون اتصرفت، وأنا حاسة إنها مش هتتصرف.. أرجوك تعالى وديني في أي حطة)، (طيب طيب خليكي مكانك وأنا جايلك فوراً).

بعد نصف ساعة كان رؤوف أمامي، لا أدري كيف تغلب على الزحام واستطاع أن يحضر بهذه السرعة من الزمالك، ولكنه أتى. كانت عيناى متورمتين من البكاء، ووجهي يحمل كل علامات الفزع، بمجرد أن رأيته قفزت من على المقعد جارية نحوه، ضم كفي بكفيه ثم رفع يده ليمسح آخر دموع تساقطت على خدي، (ليه كل ده؟! الحياة أبسط من كده يا سحر)، (لا لا مش بسيطة خالص صدقني)، (لا بسيطة! الأول نكلم مامتك يمكن تكون فعلاً لقت حل، وبعدةين نتصرف.. ممكن؟!)، (أوكيه).. وبالفعل اتصلت بالسيدة والدتي العظيمة التي لا أدري ما الذي تفعله في الكويت حتى الآن؟! تخيلي هي الوحيدة التي لم تعد من الكويت أثناء غزو العراق إياها، بقيت هناك وانقطعت أخبارها طوال فترة الحرب، ومعها انقطع موردي المالي الوحيد، وظل الشباب أشرف وأصدقائه يدبرون لي الأموال، حتى عادت إلى الحياة مرة أخرى، وأخبرتني بواجبها العظيم الذي قامت به أثناء الحرب لإنقاذ الجرحى!.. تنقذ الجرحى في الكويت وتترك ابنتها تنتشر وربما تموت جوعاً في مصر! يا لها من بسالة منقطعة النظير!.. المهم اتصلت بها، وأخبرتني بصوت يقطر عذوبة، وربما لأول مرة تشعر بالخل، بأنها اتصلت بخالي، ولكنه رفض أن أقيم معه وأسرتة، لكنه اقترح عليها أن أذهب إلى واحد من بيوت المغتربات المنتشرة في القاهرة، وطلبت مني أن أبحث عن واحد من تلك البيوت، لم تفكر أُمي أين سأذهب حتى أعرثر على بيت المغتربات هذا؟! لكنها طلبت مني مؤكدة أن أذهب إلى البنك بعد يومين لأتسلم مبلغ ألف جنيه، يعينني على مصاريف هذا البيت والحياة وحدي فيه.

أخبرت رؤوف بما أخبرتني أمي، كنت كبنيان انهار تحت وطأة الإهمال لعقود طويلة دون رعاية، لكن رؤوف استقبل الخبر ببساطة وقال لي: (ما تقلقيش ده اللي كنت ناوي عليه بالفعل، ولغاية ما نلاقي واحد مضمون ونضيف هتروحي تعيشي عند واحدة صاحبتني.. هي عايشة لوحدها لأنها مش من القاهرة برضه، ومأجرة أوضتين على سطوح عمارة في سليمان باشا في وسط البلد.. أنا كلمتها في التليفون قبل ما اجيلك ووافقت، دي كمان رحبت جداً بالفكرة.. خلاص يا ستي؟!، شعرت فجأة بانزياح ذلك المارد الم هول الذي كان جاثماً على صدري، وقلت في استسلام طفولي: (خلاص).

سهير عبد الملاك.. هذا هو اسمها.. عضو في فرقة رؤوف، وتلعب أدواراً ثانوية في مسرحيات القطاع الخاص والمسلسلات العربية، ولا مانع لديها عن الإعلانات والاشتراك في عروض حفلات أعياد الميلاد للأطفال.. تكسب نقوداً مقبولة توفر لها لقمة عيش نظيفة ومسكناً متواضعاً، ولكنه في مكان استراتيجي كما كانت تردد دائماً!.. جاءت من المنيا رغم أنف أهلها الذين قاطعوها منذ ذلك الوقت، جاءت لتحقيق حلمها بأن تكون ممثلة عظيمة يشار إليها بالبنان، لكنها اكتشفت أن الفاتورة التي يجب دفعها باهظة ولا تملك أن تسدها، فاكتفت أن تتعلق بآخر عربات القطار، لكنها مقتنعة دائماً بأن الأدوار التي تقوم بها في فرقة رؤوف _ وغيره من المخرجين المتمردين الشباب _ شيء عظيم سيذكره التاريخ دوماً، كما ذكر مؤسسي المسرح الأوائل أمثال جورج أبيض ويوسف وهبي ونجيب الريحاني وفاطمة رشدي وأمينة رزق.. (يا سحر إحنا بنأسس لمسرح جديد.. مسرح بعيد عن الإسفاف والكلام الفاضي، مسرح مش تقليدي.. مسرح بيكسر كل الأسس القديمة ويبنيها من جديد)، كان كلامها جديداً لي تماماً، لكنها شدتني إلى القراءة في المسرح، وحضور بروفات رؤوف، ومشاهدة

عروض مسرح الطليعة والغد والشباب، كنت في البداية لا أفقه شيئاً مما يقدمون، لكن قليلاً قليلاً بدأت أدخل ذلك العالم المبهر.. عالم رؤوف وسهير. كان رؤوف يتعامل مع سهير بتبسط شديد، كأن يقبلها كلما يراها، أو أن يداعب خصلات شعرها ونحن نشاهد التلفزيون في منزلها، حيث كنت أجلس على (الفوتيه) وحدي، بينما يجلس هو ملتصقاً بها على الأريكة، كنت أشعر بغيرة شديدة من سهير، وتعمق داخلي يقين بأنهما على علاقة ببعضهما البعض، خاصة أنها مسيحية مثله، وبدأت أقول لنفسي: (إنتي اللي عبيطة.. أكيد رؤوف مش هيوبرط نفسه في علاقة مع مسلمة وكمان جاهلة زي، سهير جميلة ومتقفة وعندها هدف في الدنيا بتعمل عشانه المستحيل، مش زي عايشة زي الريشة وسايبة أي شوية هوا يرموني من مكان لمكان!). لكن هذا لم يقنعني أو يبعدي عن المشاعر التي أكنها لرؤوف، فلقد وقعت في أسر عشقه حتى قبل أن أعرف اسمه، وربما ذلك ما دفعني إلى الاقتراب أكثر من عالمه.. هل تعلمين يا أحلام أن عالم المسرح يفتح لك كل أفق المعرفة والثقافة، فالمسرح فلسفة وعلم نفس وأدب وتاريخ وحتى جغرافيا.. هذا ما كان يرده لي رؤوف دائماً مع كل كتاب يحضره لي كي أقرأه، أما سهير فكانت تقول أحياناً وهي تقدم لي كتاباً: (الثقافة والمعرفة مهمين جداً مهما كانت شغلتك أو مجال دراستك.. يعني مثلاً الممثلات اللي بيظهروا في السينما والتلفزيون دول مجرد عرايس ماريونت بيحركهم المخرج، عشان كده بيطلعوا باهتين ومش بيقنعوا المشاهد، عكس ممثلات زمان، واحدة زي مديحة يسري اتربت على إيد عباس العقاد، دي حتى مرة قالتلي إنها دلوقت مفرغة نفسها في قراءة كتب المتصوفة الإسلاميين)، وتضحك ثم تقول: (ساعتها غرت منها جداً ورحت اشتريت كام كتاب في التصوف الإسلامي عشان أبقى زيها)، حينها دهشت مما قالته ولم أستطع إخماد فضولي فسألتها: (بتقري في الإسلام وانتي مسيحية!؟)، حينها نظرت إلي

وكأنها تتوقع هذا السؤال: (يا سحر الإسلام والمسيحية واليهودية وحتى الأديان اللي بنقول عليها وثنية، كلها أفكار إنسانية عظيمة قدرت تخلق مجتمعات حضارية، وتقضي على الفوضى والعنف الإنساني، وتخلي الإنسان أكثر سمواً، ودي وظيفة كل الأديان وكم ان وظيفة الفلسفة).

بالطبع شعرت ببلبل في داخلي لأنني لم أتمكن من استيعاب كل ما قالته، لكنني شعرت بارتياح كبير لأنني تعرفت بهذه الفتاة شديدة الروعة. بالمناسبة يا أحلام نسيت أن أخبرك بأن سهير أحببتي جداً، وأصرت على ألا أذهب إلى بيت المغتربات، وطلبت مني البقاء معها طوال الصيف، لكنني أصررت على أن أدفع معها بعضاً من الإيجار، وبالفعل سمحت لي بدفع ربع الإيجار لأنها أكبر مني وتعمل.

كانت تلك الإجازة نقطة ضوء لي، أخذت تتسع شيئاً فشيئاً لتكشف لي عوالم لم أكن أعلم عنها شيئاً، عالم الفنانين المثقفين الذين لا يعرفهم الجمهور، أو يعرف وجوههم دون أن يهتم بحفظ أسمائهم، عالم كتاب المسرح والشعراء والروائيين، عالم الجرائد التي توجد كل يوم أمام باب الشقة لنرشف ما تحويه مع قهوة الصباح، عالم الكتب والمسرح وغياب التلفزيون إلا إذا كان هناك ما يهم، عالم السهرات والمناقشات بين المثقفين الذين يدلون بأرائهم في الحكومة والسياسة، ولكن من زاوية أخرى غير زاوية التيارات السياسية التي تمثلها بها الجامعة، عالم نظريته إلى الكون أكثر رحابة وليناً، عالم بلا تشنجات ولا عصبية.. أو هكذا كنت أراه حينها!.. لا أدري! لكنني عشقت عالم رؤوف السحري الذي رأيت نفسي فيه جميلة، فتاة عادية غير موسومة بالعمر، فتاة لها الحق تماماً في اختيار حياتها وعيشها بالطريقة التي تريدها دون أية إملاءات خارجية، عالم بلا تصنيفات سوى تصنيف واحد: الحقيقي والمزيف، وكان كل من أشرف وسهير ينتمي إلى التصنيف الأول، وهو ما كنت أعتر به كثيراً.

انتهت الإجازة سريعاً، لم أشعر للأيام بأي ثقل أو تباطؤ، فحجم الفروض التي ألزمت بها نفسي كي أتوافق مع هذا العالم الجديد الذي انضمت إليه، جعلني لا أشعر بالأيام، حتى إنني لم أنشغل كثيراً باحتمال وجود علاقة عاطفية بين رؤوف وسهير، فلقد أحببتهما كليهما لما أولياني من رعاية فائقة، لم يكن رؤوف يغادر بيت سهير قبل أن يقول لها: (خدي بالك من البنات)، ثم يغمز لي بعينه مبتسماً، أما سهير فكانت كأم لي برغم أنها لا تكبرني بكثير، فلقد كانت حينها في أواخر العشرينات، لكنها تمتلك مشاعر أمومة فياضة، حتى إنني سألتها يوماً ونحن مستقلتان في الفراش قبل النوم: (خسارة إنك ما بقتيش أم لغاية دلوقت يا سهير)، لم أكن أرمي بسؤالي إلى معرفة حقيقة علاقتها برؤوف، وإنما بالفعل كنت أشعر بأنها أم رائعة.. حينها أجابتي بصوت حاولت كثيراً إخفاء الحزن الذي يحويه: (لسه ما جاش النصيب يا سحر، وبعدين انتي عارفة الجواز عندنا مؤبد مافهوش رجوع، عشان كده الواحدة لازم تتأكد مية في المية إن الإنسان اللي هنتجوزه هو راجل عمرها). ربما حيرتني إجابتها قليلاً، فلقد سألت نفسي وهل رؤوف إنسان تقف عنده الفتاة مترددة؟! ثم حاولت أن أجد في إجابتها بصيصاً من أمل يشق لي طريقاً أصل منه إلى قلب رؤوف.

لم أستطع حينها إدراك أن رؤوف يحبني أنا وليس غيري، برغم حنانه وشغفه بي، فلقد كان دائم السؤال عني إذا ما تغيب يوماً عن الحضور إلينا، أو لم تتوفر فرصة للقائه بالخارج، بينما يجلس معي طويلاً ليسمعني وأنا أحكي له عن رواية قرأتها أو أسأله عن أشياء لم أفهمها في كتاب ما، ربما اختلاف الدين وشخصية رؤوف العاقلة والمترنة هي التي جعلتني متأرجحة بين الشك واليقين، كما أن طريقة تعامله مع سهير كانت عاملاً كبيراً أيضاً في إثقال كفة الشك، لم أكن أدري أنه خائف من مصارحتي بحبه لي حتى لا أرفضه بسبب

الدين أيضاً، خاصة أنني لا أنتمي إلى عالمهم المفتوح الذي يعيش بلا عقد أو فوارق عقائدية.

ظل الأمر كذلك حتى انتهت الإجازة، وجاء اليوم الذي جمعت فيه أمتعتي استعداداً للعودة إلى المدينة الجامعية، يومها وبعد ان انتهت سهرتتا في منزل سهير، ومضى كل إلى سبيله لأبقى وسهير وحدنا، فوجئت بها تسألني ونحن نجمع الأطباق والأكواب من على المنضدة: (سحر.. إنتي مش ناوية تحبي ثاني بعد أشرف؟!)، نظرت إليها في ريبة، فلقد ألقفني السؤال من أن تكون شعرت بشيء من دواخلي تجاه رؤوف وتريد التأكد، (قصدك إيه؟!)، (يعني.. إنتي ناوية تعيشي لغاية امتي راهبة في دير أشرف اللي انتي ما تعرفيش عنه أي حاجة من أكثر من سنة؟!)، (برضه مش فاهمة)، (مش فاهمة ولا مش عايزة تجاوبي؟!)، مع كلماتها الأخيرة تلك تأكد لدي الإحساس بأنها تجس نبضي تجاه رؤوف، فعزمت على ألا أعطيها إجابة شافية، ومع ذلك قلت بكل غباء: (أنا باحب واحد دلوقت.. بس أصله بعيد عني.. صعب إننا نتقابل!)، وبالطبع فهمت جملتي من زاويتها الفلسفية، فلقد اقتربت مني ووضعت كفيها على ذراعي بحنانها المعهود وقالت: (صدقيني يا سحر لو في حب حقيقي بين اتنين، الاتنين يقدرُوا يلغوا المسافات اللي بتبعدم مهما كان نوع المسافات دي)، ثم تركتني لتكمل جمع الأطباق والذهاب بها إلى المطبخ. فجر كلامها بركاناً في داخلي، فماذا تقصد؟! وإلى أي المعاني ترمي؟!.. تتبعثا نحو المطبخ مسرعة، وقد قررت اللعب معها بالكلام حتى الوصول إلى غايتي: (تقصدي إيه يا سهير باللي انتي قلتيه؟!.. أنا حبيبي مش غني، وبعدين أنا مش فقيرة زي ما انتي عارفة، ماما بتبعثلي كل اللي أنا عايزاه)، (مش قصدي غنى وفقر)، (وكمآن هو من القاهرة، يعني مش ساكن بعيد عني)، (ولا كمآن أقصد مسافات سفر)، وهنا سألتها بتحد: (أمال

تقصدي إيه؟!، تركت سهير الطبق الذي كانت تغسله أمام حوض المطبخ، ثم غسلت يديها وجففتها في هدوء، نظرت إلي نظرة متشككة من رد فعلي ثم قالت: (أقصد إن رؤوف يبحك وخايف يصارك لتصدميه بسبب موضوع الدين!).. يا الله!.. كم كان لوقع كلماتها التي أخرجتها في حذر شديد من أثر في نفسي، فلقد علت أصوات الأهازيج ودقات الطبول المبهجة، مما جعلني أقفز وأنا أصيح فرحة: (رؤوف يبحبني؟! رؤوف يبحبني!.. رؤوف يبحبني!.. رؤوف يبحبني!)، أخذت أدور وأقفز راقصة على صوت إيقاع قلبي الذي علت دقاته.. كان رد فعلي مفاجئاً لسهير، لكنها أخذت تضحك وتصفق قائلة: (أنا قلتله كثير إنك بتحببه لكن هو ما صدقنيش.. أجيبه منين دلوقت عشان أفرحه?!)، عندما سمعت سهير تقول ذلك اشتعلت داخلي رغبة لا راد لها في أن ألحق برؤوف، لأخبره بأنني أيضاً أحبه، كنت مازلت بملابس الخروج فجريت نحو الباب لأخرج باحثة عنه.

لحققتي سهير على باب المصعد وهي تقول: (إنتي رايحة فين يا مجنونة?! الساعة اتنين بعد نص الليل وهو أكيد خلاص ركب تاكسي ومشى.. الصباح رباح)، ولكني لم أخرج من المصعد، وجذبت بابه نحوي مبعده يدها عنه حتى أهبط وأبحث عن رؤوف، عندما أيقنت أنني لن أترجع جذبت باب المصعد نحوها مرة أخرى، ودخلت إلى جوارى قائلة: (لو مصرة يبقى مش هاسيبك تمشي الساعة دي لوحذك في الشوارع).

وجدنا رؤوف في آخر شارع سليمان باشا، لم يركب تاكسياً ليعود بها إلى منزله، ولكنه - كما أخبرني بعد ذلك - كان يتمشى في ظل الهدوء الذي يحل على وسط البلد بعد منتصف الليل، ويفكر كيف ستمضي الأيام دون أن تحتويني بعد أن أعود إلى المدينة الجامعية والانتظام في الدراسة، كنت مع سهير نركب تاكسياً، لكنني كنت أنظر

من نافذة العربة لشعور خالجي بأنني سأجد رؤوف ماشياً في مكان ما، وبمجرد أن رأيته صرخت: (رؤوف!.. رؤوف!.. أنا كمان بحبك يا رؤوف! أنا كمان بحبك!)، رن صوتي في هدأة ما بعد منتصف ليل وسط البلد، كان هناك بعض من الساهرين يستمتعون أيضاً بجمال المباني العتيقة، بعيداً عن الزحام والاختناق المروري الصباحي، توقف الجميع ونظروا إلي، كانوا جميعاً يشيرون نحوي ويبتسمون، أوقفت سهير التاكسي بعد أن صرخت: (يا مجنونة! إنتي بتعملي إيه؟! هتفرجي الناس علينا!).. فتحت باب التاكسي حتى قبل أن نتوقف تماماً، كدت أتعثر وأنا مندفعة منها، وبين صرخات السائق وسهير تلقفني رؤوف بين ذراعيه راکعاً على ركبتيه، وأنا بكامل جسدي مستريحة داخله، لا يمكن أن أنسى كلماته (بحبك.. أنا اللي بحبك قد الدنيا دي كلها.. هاتحدى الكون عشانك.. هتحدى مصر كلها.. المسيحيين والمسلمين.. لكن مفيش حد هيبعدك عني!).

كان رؤوف يدري تماماً أننا يمكن أن نتحدى، لكن إلى أي مدى سنتحمل الضغوط والحرمان من كل شيء نعرفه ونحبه من جراء تحدينا؟!.. أعتقد أنه لم يدرك هذا أو يحسب له حساباً!

هل فكرت يوماً يا أحلام أن تجمعني كل رومانسيته، ومشاعرك الحقيقية التي لا يشوبها أي زيف، لتضعيها على الأرض ثم تراقبها كيف ستمشي؟!.. سؤال غريب أليس كذلك؟! ولكنني أسأله الآن وأنا على فراش رحيلي، أسأله وأفكر هل ستستطيع تلك الرومانسية أن تمشي دون تعثر؟! هل سيتركها الأرضيون تسير في سلام؟!.. على الأرض يا أحلام لا توجد حقيقة، لا توجد مشاعر ولا رومانسية.. الرومانسية.. تلك الكلمة التي يظلمها الجميع، كل الفتيات يصفن أنفسهن بأنهن رومانسيات، لكن كم مرة صادفت فتاة رومانسية حقاً أو حتى فتى؟! الرومانسيون لا مكان لهم على الأرض يا أحلام، المشاعر تولد دون أن نتعمدها، الحب لا يخلق أو يحدد، الحب يأتي ودائماً ما يأتي وسط ظروف قاسية لا تسمح له بأن يعيش، حتى حبنا للوطن، هؤلاء السياسيون الذين يلوكون الوطن في أفواههم لا يعشقون الوطن، لأن العشق بلا أسباب، وهم لديهم ألف سبب وسبب لأن يقولوا بصوت عال: نحب الوطن! أما نحن الذين نعشق في صمت، نعشق دون سبب، نعشق لأننا ولدنا عشاقاً.. إذا قلنا نحب، نقولها والألم يقطر من خلائانا، نقولها ودمائنا تستباح، تستباح بأعلى صوت وأوضح صورة، دون أن نعترض أو نصرخ، فقط نرحل في هدوء، نرحل لأن الرحيل قدر مكتوب على كل العشاق.

ولأنني عاشقة دون أسباب أحببت رؤوف، ولأنني لا أعرف سوى ما في داخلي، لا أعرف سوى النبض ولهاً بالحبيب، لم تكن الظروف معي، لأن الظروف لا تخدم العشاق.. هي تخدم المتعشقين فقط! لأن المتعشقين هم أبناء هذه الأرض، أرضيون مثلها، يخطون عليها دون أن يشعروا بها تحت أقدامهم، يحبون دون أن ينفذ طعم قبلة

أحبتهم إلى أعماق ما في روحهم، دون أن تبقى أنفسهم رهينة لدى الحبيب، دون أن يتسللوا ضوءاً في كأس الحبيب، ينيرون ظلام جوفه مع كل قطرة يسكبها في فمه، دون أن يكونوا فراشة في مروج أيامه، دون أن تنفتحت أوردتهم وهم يلجون جسد الحبيب.. الرومانسية يا أحلام بلا قدمين، لا مكان لها على الأرض، هي مثلي ابنة بلا أب ولا أم، ابنة يسوعية تخطو أياماً قليلة تنشد الحب فلا تقابل سوى الصلب!

الحب لا ينتهي يا أحلام، الحب الحقيقي أبدي، فإذا غاب تركنا أجساداً تخطو دون روح، لذلك أنا أقتل جسدي بيدي لأن روحي ذهبت إلى حيث لا أدري، ذهبت إلى رؤوف، هي عنده الآن، وأنا أعلم أنه لن يطردها، سيبقي عليها.. سيبقي عليها إلى الأبد، هناك في أبعد نقطة في عمق روحه حيث نسكن معاً إلى الأبد.

رؤوف هو الابن الوحيد لوالديه، لذلك كان من الصعب جداً أن يتحول عن دينه، كنت أعلم ذلك وأرتجف مذعورة من فكرة أن يفرقنا الدين، أنا لم يجمع الدين بيني وبين أحد، لا أبي ولا أمي، وحتى أشرف الذي كان مسلماً مثلي مضى ولم يعد أو حتى يسأل عني، فهل أضحي برؤوف من أجل الدين؟! هل أضحي به من أجل المتزلفين لدخول الجنة؟! من أجل كل المتشدين بالله وجلالته دون أن يرتجفوا عشقاً حتى ولا لطير في السماء؟! لم يكن من السهل التضحية برؤوف تحت أي بند أو أي مبدأ أرضي، نعم.. فأنا ورؤوف كائنات فراشية، لا مكان لها سوى مروج الأزهار وسحب السماء.. والضوء حتى لو كان قاتلنا!

لقد اقتربنا أنا ورؤوف من الضوء متوحدين فيه، غير عابئين بلسعته وحريقه، اقتربنا منه محلقين ذائبين في كل ذراته المتناثرة حولنا، كنت مستعدة لأن أعيش مع رؤوف أبد الدهر، تحت أي مسمى حتى لو كان عشيقه، المهم ألا أبرحه أبداً، وإلى أي الأماكن يمكن أن أغادره؟! في أي القلوب يمكن أن أنغرس وتندأ؟! لا يوجد هناك مكان

ولا قلب يحتويني سوى رؤوف، ولذلك رميت كل شيء وراء ظهري..
رميت كل ما هو أرضي، لأنعم بسمائي على ندف سحب رؤوف
الحنون.

بعد أن أنهيت عامي الأخير في الجامعة لم أكن منتظرة أن
أتزوج رؤوف، لكنني فوجئت به يعلن خطبتنا في حفل نجاحي الذي
رتبه مع سهير في شقتها.. رفع كأسه إلى أعلى بعد أن نهض بشكل
حماسي، وقال: (يا جماعة أن عايزكم تشربوا نخب خطوبتي على
سحر)، نظر إليه الجميع بعيون حائرة بين البهجة والتساؤل، لكنهم
رفعوا كؤوسهم مع ذلك وقد رسموا ابتسامة مسرحية واسعة، إلا سهير
فقد كانت تعرف كل شيء عن خطة رؤوف.. نهضت ملبية إشارة
رؤوف بالاقتراب منه، أحاط بذراع خصري في انتصار مهيب، ورفع
بذراعه الأخرى كأسه سامحاً للآخرين برفع كؤوسهم أيضاً، وبعد أن
قالوا جميعاً في صوت واحد، وكأنهم قد تمرنوا جيداً على ذلك المشهد:
(في صحة رؤوف وسحر)، انسابت الخمر داخل حلوهم، بينما نظرت
إلى رؤوف بوله متسائلة: (إزاي يا رؤوف؟!)، فرد علي بنظرة مماثلة
وقال: (هتعرفي بعدين.. بس دلوقت أنا عايزك تقرحي).

فرحت ولكن بقلق خالج كل أعضائي، ظللت على هذا الوضع
إلى أن رحل الجميع حتى سهير، التي أصرت على ترك المنزل لنا في
تلك الليلة، وبين شفتي رؤوف وكفيه سمعته يقص علي خطته للهروب
إلى سويسرا، لم يكن ترك مصر إلى الأبد هو ما يهمني، ولكن الرحيل
إلى المجهول هو ما أردد جسدي، فأخذت ألقي أمامه بالعقبات..
(وأأمك وأبوك هتقولهم إيه؟!)، (أنا بالفعل قلت لهم إنني هاسافر سويسرا
عشان اقدر أعمل اللي انا مش عارف أعمله هنا)، (ووافقوا؟!)، (على
مضض.. لكن بابا مقتنع عقلياً بضرورة سفري)، (وقلتلهم عليا؟!)،
(أيوه لكن ماقلتلهمش إنك مسلمة)، (وتفتكر إن ده هيفضل سر لغاية

إمتى؟!)، (أرجوكي يا سحر ما تفسديش اللحظة دي بالواقع، سيبني كل شيء لوقته).

وتركت كل شيء لوقته! لم أكن أدري ما الذي يمكن أن يحدث، كنت أتخيل رجال البوليس وهم يقبضون علينا في المطار، ويرفعون هراواتهم بوجهينا ليهشموا جمجمتنا ثم يسحقوهما بنعالهم! أو رجالاً بلحى ونساء متشحات من أعلى إلى أسفل بالسواد، وهم يتحلقون حولنا في المطار شاهرين سيوفهم ليطعنوني وحدي، بينما يلقون برؤوف لآخرين يحملون صلباناً خشبية ضخمة يثبتونه عليها، ثم يدقون أطرافه بمسامير صدئة، يرفعون مطارقهم ويسقطون بها على كل مسمار على حدة وهم يضحكون، بينما دماء رؤوف تسيل ناعمة لزجة على الصليب، وهو يبتسم رافعاً عينين مضيئتين نحو السماء يرجوها أن ترفعنا إليها!

ظلت مخيلتي تعبت بفرحتي، حتى جاء رؤوف يوماً حاملاً جوازي سفرنا، وقد طبع عليهما إذن دخولنا إلى سويسرا، ومعهما تذكرتان سياحيتان، نعم فقد كانت خطة رؤوف أن نسافر ضمن مجموعة سياحية إلى سويسرا، وبمجرد الهبوط إلى أرض المطار نطلب اللجوء، لاضطهاد مجتمعنا إيانا ورفضه تزويجنا لاختلاف الدين، لم أصدق حتى آخر لحظة أنهم سيقبلون بنا لاجئين، إلى أن هبطنا في مطار (جنيف كوانتران)، ورأيت بعيني كيف تم القبول بلجوتنا. كان الأمر أشبه بالحلم لكنه تحقق، فلقد تزوجت رؤوف زواجاً مديناً بعيداً عن الجامع والكنيسة، كما أنهم وفروا لنا مسكناً متواضعاً، ولكنه على الأقل أربعة حيطان تضمنا، وخصصوا لنا راتباً صغيراً لإعالتنا، حتى نتمكن من التكيف داخل المجتمع الجديد ونعثر على عمل.. لا أدري ماذا أقول لك بعد؟! فهذا البلد الجبلي يكمن سحره في هوائه النظيف من كل قيود وأغلال عرقية أو طائفية، فهو على صغره وفر لي

الشعور بالأمان لأول مرة في حياتي، وولدت لدي رغبة عميقة في بدء
حياة بلا ماضٍ أليم، حياة بيضاء دون كلمة واحدة، وعلي فقط يقع
عبء خط السطور!

أمضينا الشهر الأول لنا داخل سويسرا كسائحين حقيقيين، فلقد أخذنا نتنقل بين أرجاء جنيف، حيث بحيرة ليमान التي تتبع من نهر الرون، وقمة مون بلان أعلى قمم جبال الألب، وكاتدرائية سان بيار بآثارها الرومانية والقوطية، ومتحف إريانا، وساعة الزهور، وعندما حل الشتاء علينا لأول مرة في سويسرا ذهبنا إلى زير مات وسان موريتز، لنتزلج على قمم الجبال المغطاة بالثلوج والتي تكاد تطال السماء.. شعرت فعلاً حينها بأنني طلعت السماء، قبضت عليها بكلتا يدي، وبإمكاني وحدي أن أفلتها من قبضتي أو أبقها إلى الأبد، لقد شعرت يا أحلام لأول مرة بطعم السعادة التي كنا نركض وراءها ولا نلحقها أبداً، هذه السعادة التي تقر منا وكأننا كلاب جرباء أو كائنات ممسوسة، هنا يا أحلام عشت كإنسان حقيقي، وأدركت أنهم في بلادنا يربوننا ويتركوننا نعيش كأشبه بشر أو أنصاف مخلوقات، فعلينا أن نقبل بالفتات ونسعد به، لأننا لا ندرك أن هناك على الأرض بشراً مثلنا لا يزدون عنا شيئاً يعيشون كبشر حقيقيين، بشر بكامل هياتهم وأحاسيسهم وعقولهم.. يا ليت تلك الأيام دامت ويا ليت سعادتنا لم تقر من أيدينا مرة أخرى. أحياناً أسخر من حالي، وأقول ربما اكتشفت السعادة التي احتضنتنا في سويسرا أننا مصريون، أنصاف بشر، فتراجعت لتصحح الخطأ الذي أوقعها فيه اختلاف المكان الذي نوجد فيه!

بعد أن نفذت النقود التي أحضرها رؤوف معه من مصر، ولم يبق لنا سوى الراتب الاجتماعي الذي يؤمن لنا حياة الكفاف، قرر رؤوف أن يتنازل عن أحلامه قليلاً، ويضع كرامته كفنان مسرحي موهوب جانباً، ليقبل بأي عمل يصادفه، خاصة بعد أن اكتشفت أنني

حامل، لم يكن من السهل على رؤوف أن يضع أحلامه المسرحية وراء ظهره ليقف في أحد البارات يصب خمرًا للمتسكعين في ليالي جنيف الساحرة، لكنه فعل، كان مصراً على أنه سعيد وأن ما يحدث لنا أمر طبيعي يحدث لأي مهاجر إلى بلد جديد لا يعرفه ولا هو يعرفه، مع ذلك بدأ رؤوف عمل معادلة لشهادته المصرية، فكان يدرس نهراً ثم يعمل طوال الليل في البار، إلى أن أنجبت ابنتي الأولى إيزيس، نعم إيزيس.. أسميناها اسماً يجمع بيننا، اسماً لأصل واحد هو لنا، بعيداً عن أسماء أدياننا التي فرقتنا.

بعد أن أنجبت إيزيس بدأت تلقي دروس في اللغة الفرنسية حتى أتمكن من الحصول على عمل في إحدى دور الحضانة، لم تكن حياتنا مرفهة، ولكنها على بساطتها كانت هادئة وجميلة، لكن بعد أن أنهى رؤوف معادلة شهادته، وبدأ البحث عن طريق لدخول المسرح هناك، بدأنا نعيش حالة قاسية من التوتر، فقد كان الأمر صعباً فعلاً، فمن الذي يريد غريباً لتقديم مسرحه وأفكاره البعيدة عن مجتمعهم وبيئتهم؟ مع ذلك استطاع رؤوف أن يحصل على عمل مؤقت بأحد المسارح كواحد من مساعدي المخرج، ولكن بالطبع ليس مساعداً رئيسياً، كان هذا الأمر صعباً على رؤوف الذي كان يعمل تحت يديه مساعدون كثرون، دائماً ما كان يبكي على حاله ويقول: (أديني باعيد اللي عملته زمان من أول وجديد، وكأن تاريخ عملي في المسرح في مصر مش محسوب، وكأن تجربتي الفنية في مصر مالهاش لازمة ولا تتعد فن في أي حنة بره مصر!).

مرت الأيام علينا ورؤوف يجمع بين عمله المؤقت في المسرح وعمله في البار، كان ممزقاً بين العاملين اللذين يبدأ كلاهما في الليل، مع ذلك لم يستطع ترك العمل في البار حيث لا يدر المسرح أي مال يذكر، ورغم ذلك لم يكن قد فقد الأمل بعد، فقد كان يعكف نهراً على

كتابة مسرحيات يحلم بأن يقدمها على خشبة المسرح في جنيف، ويستعين بواحد من أصدقائه العرب الذين ولدوا وعاشوا في سويسرا ليترجم له هذه المسرحيات، كان يعيش بآمال عريضة، وإحباطات أكثر عرضاً!.. أشاهده من بعيد وأصمت وأنا ممزقة في داخلي، فأنا السبب في كل ذلك، لولاي لما ترك رؤوف مصر، ولظل سعيداً هانئاً بجوار والديه وحياته المستقرة الجميلة بين أصدقائه وفنه، الذي كان قد بدأ يشهد صعوداً ملموساً قبل مغادرتنا مصر، ترك كل شيء وراءه من أجلي، ترك والدته التي تلقت خبر زواجه بي بارتقاع حاد في الضغط، وتم إنقاذها في آخر لحظة، ووالده الذي مضغ الإهانة في صمت، كاتماً كل مشاعره من أجل الحفاظ على استقرار حالة زوجته. كنت أعلم تماماً مقدار الأسى الذي يمور داخل رؤوف، ويمضغه في صمت حتى لا ينغص علي حياتي، ولم أكن أعرف كيف أعوضه عن كل ذلك، سوى ببذل مجهود كبير في خدمته والعمل على راحته داخل المنزل، حتى بلغت إيزيس عامها الثاني وأكملت دوراتي التعليمية في اللغة الفرنسية، حينها استطعت بمعجزة ما الحصول على عمل كمشرفة في حضانة للرضع، كان الأجر مقبولاً، وكنت أحسنه بالعمل كجليسة أطفال كلما تيسر لي الأمر، كما أن رؤوف استطاع الاتصال بأحد العرب المقيمين في ألمانيا ويدير داراً عربية للنشر هناك، فكان يكتب له مقالات في المسرح، تصدر له كل شهر في دورية الدار الشهرية، كل هذا ساعد على أن يترك رؤوف العمل في البار، مما جعلني أشعر أننا أخيراً سنتخلص من أسباب القلق في حياتنا. وبالفعل شهدت حياتنا حالة من الصعود والزهو، وإن كنت أصبت بإرهاق كبير، حيث وقع على عاتقي العبء الأكبر في تحمل مسؤوليتنا المادية، لكنني لم أتذمر، فقد كان ذلك يعوضني تأنيب الضمير الذي عشته طويلاً تجاه رؤوف، خاصة بعد أن تلقى نبأ وفاة أمه وهي غاضبة عليه.. هكذا أبلغه والده في التليفون، وأخبره بأن يسوع سيظل غاضباً عليه، إلى أن يعود

ليرضي أمه في قبرها ويطلب المغفرة من الكنيسة! بالطبع حينها تأكدت أننا المسلمين لسنا وحدنا الذين نتعالى على غيرنا من معتقي الديانات الأخرى، بوصفنا أصحاب الدين الصحيح، فكل أهل دين يعدون أنفسهم كذلك، مما جعلني أفكر في حقيقة الأديان ككل، نعم يا أحلام.. سحر سلطان العابثة والمنطلقة بلا سبب عكفت على دراسة مقارنة الأديان، كان رؤوف يهزأ بي متسائلاً: (صدقيني مش هتلاقى الحل لمشكلتنا في الكتب اللي انتي ممققة عينك فيها ليل ونهار دي، اقري حاجة تانية أفيد، وسيبك من موضوع الأديان ده!).

بين العمل وحياتي الأسرية مضت الأيام، برغم ما تحولت إليه من رتابة، حيث فقد رؤوف حماسه للحياة، وأصبح يمضي جل وقته متسكعاً ليلاً أو عابثاً بالأوراق، يثور بين الحين والآخر ليمزق ما كتبه صارخاً: (عمال أكتب أكتب، والسنين بتمر ومفيش حاجة راضية تخرج للنور)، ومن وقت لآخر يبكي كطفل على أمه التي ماتت غاضبة عليه، ولم يستطع حتى العودة للمشاركة في دفنها أو طلب غفرانها، أو يبكي على إيزيس التي كتب عليها أن تعيش غريبة عن بلدها عمرها كله، حيث لا يمكنها العودة إلى مصر بأم وأب مارقين وخارجين عن الأعراف والأديان، أو باكياً لأنه خائني مرة مع عاهرة اصطادها من الطريق وهو مخمور، أو باكياً لأنه لم يستطع الوفاء بعهده لي وتقديمه السعادة الأبدية على طبق من ذهب. هكذا مضت أيامي، وبرغم ضجري من كل ما يحدث إلا أنني ظللت على عشقي لرؤوف، وحاولت باستماتة أن أخرجه من عدم الاتزان الذي غرق فيه، لقد قمت بدوري على أكمل وجه لأول مرة في حياتي يا أحلام، قمت بدوري كزوجة وحيبة مخلص وأصيلة، لقد كان تحدياً بيني وبين الزمن، تحدياً له حتى أثبت أنني لم أخطئ عندما تزوجت رؤوف، أن كلينا لم يخطئ، وحتى الآن يا أحلام وأنا أموت منتحرة أصر على أنني ورؤوف لم

نخطئ، ولكن مجتمعنا الظالم هو الذي أخطأ في حقنا، ومازال يخطئ في حق القلوب الندية ليزبحها بقوانينه المجحفة التي لا تقترب من إنسانيتنا الأصيلة في شيء، قوانينه التي لا تخلق سوى متعصيين وعنصريين، لا تخلق سوى بشراً مصاباً بالفصام، يمارس اضطهاداً خفياً تجاه من يخالفه ويتشدد بالتسامح والوحدة الوطنية!

ظل رؤوف على هذه الحال المضطربة، وظلت حياتي معه في صعود وهبوط متواتر، حتى جاءت فرصة حقيقية لرؤوف ليقدّم فيها مسرحه في أوروبا، فقد دعاه صاحب دار النشر العربية في ألمانيا، ليسافر إليه ويقدم أحد عروضه هناك على خشبة مسرح الدار الذي افتتحه، ليقدم عليه الفن العربي بكل أشكاله للجالية العربية هناك، ووعدّه بأن افتتاح هذا المسرح ليس كل شيء، فلسوف يتبنى مشروعاً للتجوال بالعروض التي سيتم إنتاجها على هذا المسرح في كل مكان بأوروبا، وربما البلاد العربية أيضاً. كان هذا العرض طاقة من النور انفتحت فجأة أمام أعيننا، وإن كان لزوم انتقال رؤوف إلى ألمانيا أولاً من دوننا قد أنزل في قلبي ألماً لم أستطع تفسيره حينها، سوى بعدم رغبتني في مفارقة رؤوف ولو حتى مؤقتاً، لكن رؤوف لم يلتفت أبداً إلى ما آلمني، لم يفكر في حرمانه مني وإيزيس لفترة زمنية قد تطول أو تقصر، حتى نلحق به هناك أو يعود إلينا مكلاً بالنصر، فقط جمع حاجاته وطار إلى ألمانيا. نعم لقد آلمني ذلك كثيراً، وفكرت في أن يكون رؤوف قد فقد حبه لي ولابنته، أو يكون بالفعل قد ندم على ما فعله للزواج بي، ولا يجبره على الاستمرار في الحياة معي سوى انعدام السبيل للعودة، لكن بعد مرور أسبوع من استقراره في ألمانيا اتصل بي، وأخذ يعتذر وهو يبكي لأنه لم يدرك وهو يغادرنا أن فراقنا صعب هكذا، وأن هذه الفرصة أتاحت له أن يدرك مدى حبه لي، وأنه لم يخطئ أبداً برميّه كل شيء وراءه ليكون معي.. معي وحدي.

أعادت تلك المكالمة الروح إلي، والثقة بالحياة التي أعيشها،
وبرغم ابتعاد رؤوف عني إلا أنني كنت سعيدة، فرؤوف لم يتركني وإنما
غادر لظرف مؤقت وسيعود، كما أن اتصاله الدائم بنا وإرساله النقود
إلينا، أشعرنني بأن كل شيء على ما يرام. وبالفعل بعد أربعة أشهر عاد
رؤوف إلي مكللاً بالغار، فقد أخرج أولى مسرحياته للجالية العربية في
ألمانيا، ولاقت نجاحاً مقبولاً هناك، عاد بأحلام لسنين قادمة وخطط
مستقبلية كبيرة، وإن كان العائد المادي من وراء هذه المسرحية لم يكن
مجزياً بالمرة، وفهمت منه أنه كان يرسل إلينا بكل ما يتقاضاه من
صاحب دار النشر تلك تقريباً، فقط يترك ما يقيم به أوده هناك، فلقد
كان هذا العمل يحمل أهدافاً ثقافية وسياسية غير ربحية بالمعنى
المفهوم، وهذا ما كان يؤرقه كثيراً، خاصة بعد أن ترك كل ما كان
يعمل به هنا في جنيف قبل أن يذهب لإخراج مسرحيته تلك. بالطبع
خففت عنه الأمر، وأكدت له أن عملي يدر علينا ربحاً جيداً، وأنه يجب
ألا يفكر في شيء سوى فنه، لكن بعد مرور الوقت وعدم استدعاء
صاحب الدار تلك إياه ليعيدوا التجربة مرة أخرى في ألمانيا، أو القيام
بجولة أوروبية كما وعده سابقاً، عاد مرة أخرى إلى حالة الاختلال
النفسي التي كان عليها قبل أن يسافر، ولم أعد قادرة على احتوائه،
فلقد كان هذه المرة يمر بعاصفة نفسية رهيبة، لم تصلح معها كل حيلي
ومحاولاتي لتهدئته. اتصل بالرجل في ألمانيا، فأخبره بأن هذه التجربة
كلفته كثيراً، ولم تعد عليه بريح كاف ليعيد التجربة على الأقل في
الوقت الحالي، وأنه بإمكانه أن يعاود كتابة مقالاته لينشرها له في
دوريته الثقافية، وهذا هو كل ما يمكن أن يقدمه له. لم يكن المال الذي
يعود عليه من كتابة المقالات مجزياً، فقد كانت تنشر له مقالة واحدة
في الشهر، مما جعله يشعر بأن رجولته مهانة، فامرأة هي التي تصرف
عليه وتعطيه مصروفه اليومي، وامرأة هي التي تتكفل بكل احتياجات
ابنته.. لم يكن بيدي أي شيء يمكن أن أقدمه له سوى أن أعطيه كل

ما يطلبه من مال دون تبرم، برغم كثرة طلباته غير المبررة، وكأنه يستفزني للدخول معه في معركة.. تعبت فعلاً يا أحلام فلا أنا مرضاة ولا قدرة على بلوغ رضائه، حتى انفجرنا في وجهي بعضنا البعض، وجرحنا بعضنا بعضاً كثيراً بأقذع الشتائم والتهديدات، كان لهذا الانفجار الذي لا يعبر عن مشاعري الحقيقية تجاه رؤوف آثار دامية، فلقد غادر رؤوف المنزل واختفى، حتى إنه لم يأخذ معه ملابسه أو أي شيء من أوراقه.

اليوم يكون قد مر عام وثلاثة أشهر على اختفاء رؤوف، سألت عنه في كل مكان بجنيف، وأبلغت الشرطة اختفائه ليجثوا عنه في جميع أرجاء سويسرا، اتصلت بصاحب دار النشر في ألمانيا عله يكون قد سافر إليه، لكنه أكد لي أنه لم يره منذ تلك المسرحية، حتى إنني اتصلت بوالده ربما يكون قد عاد إلى مصر وحده، وإن كنت لا أدري كيف يمكنه أن يفعل ذلك، إلا أنني اتصلت فلم أجد سوى صوت مجروح يتهمني بإفساد حياة أسرة كاملة، ووصف لي بأبني شيطان أغوى ابنه الوحيد، وتسبب بضياعه وموت أمه المأساوي! لم أكن أعرف أنني إلى هذا الحد شريرة، فلقد قضيت بكلتا يدي على الإنسان الوحيد الذي أحبني بصدق، ولو لم أكن أنانية في الحصول على سعادتي بأي ثمن لما وافقت على الزواج برؤوف، ولتركته واختفيت ليعيش حياته الطبيعية في مصر، ويتزوج فتاة من دينه تتناسبه ويناسبها، وكان حتماً سينساني، أو حتى عاش بغصة فقدي عمره كله، فما كانت تلك الغصة لتدمر حياته مثلما دمرتها بالدخول إليها.

هأنذا أكتب آخر كلماتي وأسكب آخر دموعي، هأنذا أودع عالماً سلبني كل شيء، هأنذا أضع نهاية لقصة مأساوية لم أخط ثلاثة أرباعها بيدي لكنني تجرعتها وحدي، أترك ابنتي وأنا لست قلقة عليها، فهي الآن في دار لرعاية الأطفال بسويسرا، لن تتشرد، ففي هذا البلد لا

يتشرد أحد إلا إذا اختار أن يكون متشرداً! أنا لست قلقة على إيزيس، فسوف تتعلم وتتربى جيداً دون أب أو أم في هذا البلد، ربما سنلقى اهتماماً أفضل بكثير من ذلك الذي كانت ستلقاه على يدي.

أرجوك يا أحلام لا تغضبي مني لأنني وضعت نهاية حياتي بيدي، ولا تمزقي أوراقى الأخيرة، فهي كل ما أتركه لهذه الدنيا، ليذل على أنني كنت هنا بينكم على هذه الأرض، ربما على يدك أدرك أحد وجودي.. وجودي الذي لم يدركه أو يعره أحد اهتماماً حتى أبي وأمي.

صديقتك التي تذكرتك وحدك على فراش الموت..

سحر سلطان

أحلام السيد

اسمي أحلام السيد.. أحلام.. ربما كنت مجموعة من الأحلام الهائمة في مخيلة والدي، لكن المؤكد أنني لم أتحقق.. نعم أنا أحلام لم يتحقق أيها لأي ممن سمياني، كان والدي أكثر واقعية عندما علم منذ لحظة ميلادي أنني لست سوى أحلام.. أوهام.. فرحل حتى قبل أن أفتح عيني لنور الدنيا.. نور الدنيا.. ذلك النور الذي اقتحمني عنوة، ولم يكن أبداً سوى بعض من ضوء لا علاقة له بالنور.. متشائمة؟! ربما.. لكنني أستطيع أن أقول إنني واقعية!.. واقعية منذ البداية؟! لا لم أكن يوماً أنتمي إلى عالم الواقعيين، لكنني الآن وبعد مرور سنين معبأة بأحلام مجهضة وآمال مسلوبة وأمنيات سرابية.. أصبحت واقعية.

اسمي في حد ذاته عبء ثقيل، لم يكن كذلك منذ البداية، فلقد كنت أسير باسمي في كل مكان وأنا مملوءة به، لكن الأيام فرغتني منه حتماً بعد آخر، حتى صار مجرد لافتة معلقة على جسدي.. هنا ترقد أحلام حيث تراعي جثامين أحلامها المقتولة عنوة!

أنا هنا.. هنا أين؟! أنا هنا في بلاد الناس ولست في بلادي، حيث إنني أخرجت منها، بالطبع لم أنل شرف سعد زغلول ولا أحمد عرابي بالنفي، فلم يحكم علي أحد بالنفي بل حكمت على نفسي به.. لماذا؟! لأنني لم أعد قادرة على تحمل مزيد من الأيام في بلادي، لأن قواي خارت ولم أتمكن من التصدي لمن باعوني كقطع من الخردة في سوق النخاسة الوطني، لأنني استسلمت حتى لم يعد لدي شيء آخر أسلمه، لأنني ضعت تماماً ولم أكن قادرة على لملمة نفسي المبعثرة على جميع الطرقات هناك.. هناك في بلادي!.. أنا هنا في بلاد الناس أحياء ولا أحياء، حيث منزل ليس بمنزلي، ولا يمكن أن يكون منزلي مهما

علقت فيه من صور لأهلي وابنتي وأقربائي.. كانت محاولة فاشلة من ضمن محاولاتي العديدة والتي فشلت في النهاية، كنت أحاول أن أحضرهم في منزلي الذي هو ليس بمنزلي، كي يؤنسوا وحدتي ويمنحوني بعضاً من دفء فقدته بينهم، فتوهمت أن الصور سوف تجلب ريحاً من دفئهم حتى لو كان مزيفاً، فلم أحصل حتى على الزيف!.. صورة أُمي وجدي وابنتي وصور كل الذين أحببتهم ولم يحبوني بالقدر الذي يكفي كي يبقوا معي، كي يبقى على الأقل واحد منهم معي.. صور الذين أوفوا ولم تمنحهم الدنيا فرصة البقاء، وصور الذين خانوا وبقوا لكنهم لم يبقوا عليّ، صور من شوارع بلادي البعيدة لكنها برغم ذلك لم تقترب، فظلت الصور مجرد صور، وأصبح بيتي الذي ليس هو بيتي مجرد بازار كبير لصور متحفية لبعض من بشر أدعي أنهم أهلي وأصحابي، وبعض من شوارع وآثار أدعي أن أجدادي هم الذين بنوها يوماً!

أنا أحلام السيد.. كنت مشروعاً صغيراً لفتاة تحب الحياة وتقبل عليها، وبرغم كل المؤشرات التي دقت أَلْف إنذار بأن إقبالي على الحياة لا يوازيه إقبال مماثل من الحياة نفسها، إلا أنني لم أكن أعاباً بهزائمي الصغيرة وأنظر دائماً إلى الأمام، أترك ورائي ما أجهض من أحلام وأفكر في الحلم الذي يليه فيموت، فأبدله بحلم آخر فيموت، فأضع أمام الدنيا حلماً آخر.. وهكذا حتى ماتت جميع الأحلام فرحلت!.. ليس بحثاً عن مكان أفضل أحيي فيه ما مات من أحلام، ولكن بحثاً عن قبر هادئ أندفن فيه مع أحلامي التي لملت بقاياها المبعثرة على طرقات بلادي، في انتظار اللحظة المناسبة للرحيل.. الرحيل حيث رحل الحالمون مثلي من قلبي، لأنتظر الميتين على قيد الحياة والمرابطين على حدود الانتهاء!

في العام الماضي ماتت سحر سلطان، تركت لي خطاباً طويلاً، بعد أن اختفت سنين طويلة لم أكن أعلم عنها فيها أي شيء، ليصلني في النهاية خطاب وداع، تعجلت النهاية وقررت أن تقدم هي على الرحيل بإرادتها.. للأسف لا أمتلك شجاعتك يا سحر، سأضطر إلى البقاء في انتظار الموت، ربما يأتي ويخطفني فجأة مثلما خطف سعيد وسهام ومؤمن.. لا لن تكون مفاجأة فلقد تلقيت على مدار سني عمري إنذارات كثيرة بالقتل.. نعم لم أفهم أغلبها، لكنني الآن فهمت ووعيت جيداً أن فصول الدنيا لا تحتوي على تفاصيل مضيئة خاصة بي.. خاصة بنا.. نحن يا أصدقائي أبناء موت، أنجبنا آباؤنا المنتهون، فلم تنتج بذرتهم سوى نباتاً ضعيفاً غير مرحب به على الإطلاق في هذا العالم! هذه الدنيا التي تكرر صفحاتها لمن هم غيرنا، تكرسها للأقدر على البيع والخيانة والوقوف دون أن تطرف لهم عين في سوق النخاسة، يبيعون ويبيعون كل حسب الدور المحدد له تماماً.. نحن أبناء الذين لم يستطيعوا البيع ولم يجدوا من يشتريهم بمواصفاتهم غير المطلوبة في هذا الزمان! حتى أوطاننا لم ترغب فينا، ولم تلق نحونا ولو نظرة تفحص فيها عن أجسادنا الذابلة وقلوبنا العامرة بحبها، هي لا تريد حبنا، هي تقبل فقط على النخاسين والعبيد!

أنا الآن أمضي أيامي التي أعلم أنها لن تكون كثيرة، أمضيها أدور في عجلة الحياة المفروضة علي حيث لا هدف بعيداً عن بلادي، حيث لا أمل في بلاد الناس.. أكل وأشرب وألبس حد التخمة، فلا يوجد شيء آخر لأفعله! أتخم ذاتي وأثقل روحي بكل الأرضيات العفنة، حيث اختفت السماوات الرحبة، ولم تعد لدي نجوم كي أنثرها في الفضاء.

مات الجميع، أو انتهوا في انتظار انقضاء نبضات القلوب لتعلن الوفاة رسمياً، لم يعد لدي من الأصدقاء ولا الأحبة سوى أجساد

تأكلت تحت التراب، وأجساد تسير كأشباح في انتظار أن يوارىها الثرى،
لم يعد لدي أي شيء بعد أن راح من راح وخان من خان، بعد أن تبدد
إيماني بالوطن بلا رجعة، وأصبح رد فعلي الوحيد عند سماع اسمه
ابتسامة باهتة معبأة بالهزائم والجروح المتقيحة.

لم أستطع يوماً التحدث عن سعيد بعد مقتله.. ظلت أحمل هم
لفظه أنفاسه الأخيرة بين ذراعي، وهول دمائه التي صبغت ملابسني
بلونها الأحمر القاني، على ظهري دون أنين، يخرج حزني عليه في
شكل زفرات طويلة لا تفارقني أبداً مهما مرت الأيام مكملة عاماً فعامين
فثلاثة فتسعة أعوام.. نعم تسعة أعوام يا سعيد مرت على غيابك..
مرت على غيابي معك وانطفاء شعلة روحي، تسعة أعوام حاولت
خلالها أن أنساك، اتخذت كل السبل طريقاً لنسيانك دون جدوى، كنت
دائماً معي في كل لحظات انتصاري الوهمي، وكل انكساراتي التي
دائماً تشكل خرزاً يضاف إلى سبحة هزيمتي فيك.. كان فقدك تحدياً
سافراً لقدرة ذاتي على المضي في الحياة، كان أشد وقاحة من تحدي
الدنيا إياي بقسوة عيشي عمري كله بلا أب، فلقد كان تأكيداً لنبذها
وجودي، تأكيداً لإمعانها في رفضي، تأكيداً لعدم رغبتها في أن أحيأ
على صفحة أيامها.

حكمت على جميع من حولي ألا يتحدثوا عنك أبداً أمامي،
ورميت نفسي في أحضان أول طارق لبابي، دون أن أسمح لنفسي
بلحظة واحدة لأفكر في ما إذا كان هذا هو الشخص الذي يمكنه أن
يحل محلك داخل روحي، بلحظة واحدة أفكر فيها في إن كان حتى
رجلاً يستحق شق عباب صروف الحياة معه، بلحظة واحدة أفكر في
إن كان يحبني فعلاً أم أراد امتلاكي ليفرغ في شحنات كرهه ورفضه
للعالم، بلحظة واحدة لأفكر في إن كان يريد امتلاكي فقط أم أيضاً
تسخيري لتحقيق أحلامه المادية التي لم يستطع وحده تحقيقها!.. رميت

نفسى فى أعضان سالم علوان، الشاعر المدعى، والناقد المزيف،
ومدرس اللغة العربية الأكثر قدرة على قتلها بين صفوف تلاميذه!

لم يكن أمامى بعد مقتل سعيد أى خيار غير المضى قدماً فى
ما كنت قد بدأت به بالفعل، لمملت ذاتى المبعثرة وعدت إلى الجامعة،
كانت أمى تعيش رعباً حقيقياً مما قد يحدث لى، بعد أن تجرأت
وكسرت نواميس بلدتنا الصغيرة واستسلمت للحب، تركتني أعود لإكمال
العام الأخير من كليتي، بعد أن تحدث لأول مرة فى حياتها رغبة
أخوالى الذين أصدروا حكماً بشأنى، مفاده أننى فتاة ساقطة أحب!
وبالتالى على أن ألزم المنزل حتى يجدوا من يرضى بحمل بلاوى التى
نأوا بحملها، تركتني أمى لأعود إلى القاهرة وحدي، بعد أن استخرجت
منى وعوداً بالأفعل سوى المذاكرة حتى نهاية العام، وألا أشارك فى
أى مظاهرات، أو أقع فى حب أى إنسان آخر.. وهل كان من الممكن
أن أقع فى حب إنسان آخر بهذه السرعة؟! وهل كان من الممكن أن
تواتيني الشجاعة وأشارك فى أى مظاهرة أخرى؟! لقد حصلت أمى
على وعود منى ما كان عليها أن تشقى نفسها بطلبها من الأساس، فلقد
عدت إلى الجامعة بقلب محطم تماماً وعقل فارغ من أى شيء، لا
يرغب سوى فى وضع حد لوجودي داخل أسوار الجامعة.

مرت الأيام الأخيرة للدراسة ببطء مقيت، جمعت بعده حاجاتي
من حجرتي بالمدينة الجامعية وعدت إلى البلدة، لم أكن أنوي العودة
إلى الحياة بأي شكل من الأشكال، فلقد اكتفيت بالبقاء فى سكون
شرفتنا الصغيرة، ومحادثة نجمتي التى تسكن سماء شارعنا.. كانت
الوحيدة التى تسمعني فى صمت، دون ثمرات الإرادة واختبارات الله
للمؤمنين والرجال الذين سيبدلني الله بواحد منهم خير من سعيد.. وهل
هناك خير من سعيد؟!.. لا يوجد ولم أجد، حتى وأنا أخلف عامي

الثلاثين ورأي في بلاد الناس البعيدة كثيراً عن نجمتي الأثرية في سماء
شارعنا!

كنت يائسة تماماً، فارغة العقل، عليلة القلب، أجلس كمن
يجلس على ربح تأرجحه في جميع الاتجاهات، لا يبصر أرضاً تحته
يثبت عليها ولو قدماً واحدة من قدميه، لا أملك سوى الهذيان والصمت
في مواجهة ضجيج العالم.. لا أرى سوى دموع أمي تبكي، تبكي
مشروع عمرها الذي يفشل أمامها ويضيع.. كنت دائماً ذلك المخلوق
الصغير الذي ورطها في حياة قاسية لم تملك سوى أن تختارها، كنت
دائماً الوعد بالجنة الذي تنتظره في النهاية، لكنها فوجئت بأيامها تتبدد
على ضياعي وتيهي التي عدت إليها بهما.. كنت أعلم تماماً كلما
رأيتها من وراء أستار الضباب الذي لفني وأحكم التقافه حولي، أنها
تبكي نفسها في، وأناني باستمرار على ما أنا فيه أحكم على أعز
الناس بالفناء، لكنني كنت خاوية تماماً من أن أخرج من جعبتي شيئاً
يداوي جرحها، جرحها الذي كنته! ظلت كذلك أهيم على وجهي في
صحراء صمتي القاحلة، لا أجد حتى سراباً أجري إليه.. ربع خال تماماً
من أي شيء وكل شيء من الممكن أن نطلق عليه اسماً، حتى اتصل
بي باسم الزيتوني صديق سعيد، لم تكن أمي تعرفه، لكنها تعلقت به
كآخر طوق للنجاة قد ينتشل روحها من الفناء، فقامت بفك سلك
التليفون الملتف حول نفسه، وأخذت تسير به حتى أحضرته إلي في
الشرفة، التي لم أكن أنقل منها سوى إلى الفراش، ناولتني السماعة
وطلبت مني أن أتحدث مع الطالب، (مين يا ماما؟!)، (ده واحد اسمه
باسم الزيتوني بيقول إنه زميلك في الجامعة)، نظرت إليها بعينين
ميتتين وقلت: (مش زميلي في الجامعة.. ده كذاب!)، لم يكن يعني
المسكينة أن يكون زميلي بالفعل أم لا، كان كل هما أن أفعل شيئاً
غير الصمت في سماء الشرفة، فقالت: (يعني ما تعرفهوش خالص؟!)،

(أعرفه)، (خلاص كلميه شوفي عايز منك إيه)، لم تكن استجابتي
للتحدث مع باسم سوى لأرضي أمي..
ألو.

أيوه يا أحلام.. إزيك؟!

كويسة.

إنتي ليه ما رجعتيش على الجرنال؟! دول ببسألوا عليكي.

عاوزين إيه؟!

عاوزين إيه؟!.. أما انتي غريبة أوي، مش مفروض إنك
بتشتغلي في الجرنال ده؟!

أنا كنت مجرد طالبة بتتدرب مش صحفية كبيرة الجرنال
هينهار بغيابها!

لا يا أحلام إنتي ما كنتيش مجرد طالبة بتتدرب، إنتي كنتي
صحفية.. وصحفية مش قليلة.

والنبي بلاش الكلام الكبير ده!

يعني إيه؟! إنتي خلاص مش هتشتغلي صحفية؟! هنتجوزي
وتقعدي في البيت؟!

حتى الخيار ده ما عدتش أملكه!

ليه يعني؟! إيه اللي حصل عشان تعملي كده؟!

إيه اللي حصل؟!.. إنت ما حدش بلغك باللي حصل لسه؟!

أغلقت سماعة التليفون في وجه باسم، كان هذا هو ردي
الوحيد على تساؤله عما حدث كي أعتزل الحياة، لكنه لم يستسلم فلقد

كان يحمل في داخله إخلاصاً لسعيد يكفي لأن يتحمل من أجله المستحيل كي لا تضيع حبيبته، اتصل مرة أخرى قبل حتى أن تبدأ أمي معاتبتني، أجابته هي قائلة قبل حتى أن ينطق بكلمة واحدة: (والنبي يا ابني ما تسببهاش واستحملها عشان خاطر قلب أم بيموت على ضناه).

ربما لم يؤثر في حديث باسم، مثلما أثرت في كلمات أمي (قلب أم بيموت على ضناه)، كان لابد أن أنهض من كفني، وأنفض عني غبار الموت لأمضي قدماً في الحياة، فقط من أجل أمي، لم تكن تستحق موتي، لم تكن تستحق أن يضيع مشروع عمرها من أجل خطأ لم ترتكبه، فأنا التي أحبت وأمن بلادي هو الذي ذبح حبي!

بعد حديث طويل مع باسم منحته ومنحت أمي ما يريدان، فلقد قلت له إنني سأحضر في صباح اليوم التالي إلى القاهرة لأعود إلى عملي مرة أخرى.. لم يكن القرار سهلاً حتى على أمي، التي اضطرت إلى أن تخالف كل أحكام إخوتها التي صدرت بشأنها، فلقد قرروا ألا أعود إلى القاهرة، وأنني إذا أردت العمل فعلي أن أقبل بأي وظيفة لا أتحرك من أجلها خارج حدود مدينتي الصغيرة.

مكثت أمي طوال الليل تحضر حقيبتني، وهي تهذي بكلمات مثل: (اللي يحصل يحصل بقي! ما انا مش هافقد بنت عمري عشان خاطر أرضيهم)، (ماما أنا مش عايزة أسببك مشاكل مع خوالي)، (المشكلة الوحيدة اللي ممكن تسببها لي إنك تحكمني على نفسك بالموت)، كانت الدموع غزيرة تلك الليلة أذرفها مع أمي، التي انتصبت بقامة إيزيسية أمامي، تجمع أشلائي من الطرقات، وتنفخ في من روحها العطرة كي أعاد السير في عمري مرة أخرى. لم نكن نعرف إلى أين سأذهب، فأنا لا منزل لي بالقاهرة، وخالي الذي يقطن فيها يرفضني،

لكن أُمِّي كانت تشعر بالثقة باسم وقالت لي: (أكيد هيعرف يدبرلك سكن تعيشي فيه لغاية ما نقفي على رجلِك وتشتري بيتك يا حبيبتي).

استقبلني باسم في محطة قطار الجيزة، لم أكن أستطيع النظر إلى وجهه طويلاً، فلقد كان تجسيداَ دائماً لأيامي مع سعيد، كان هناك اتفاق ضمنِي بيننا ألا ننكأ جرح سعيد ونتركه كامناً، لذا لم نتحدث سوى عن المكان الذي سأسكنه، والجريدة التي يجب أن أعود إلى العمل بها. وبالفعل كان باسم قد جهز لي حجرة أسفل سلم إحدى البنايات المتهالكة بمنطقة أم المصريين، كان يسكنها أحد أصدقائه الإقليميين أثناء الدراسة، وهي الآن فارغة بعد أن أنهى صديقه دراسته وعاد إلى محافظته، لم أكتثر لحجمها الذي لا يتسع سوى لشخص واحد، ولا للأثاث الذي يقتصر على سرير وأريكة استانبولي بلا فرش يكسوها!.. كانت الحجرة شبه عارية من كل شيء، في ما عدا ذلك السرير وتلك الأريكة الفقيرة، لكني أحببتها، ففيها استطعت أن أخلو بذاتي لأول مرة في حياتي، ومعها استطعت أن أنعزل عن العالم حولي، بمجرد عودتي من (الاتجاه العربي) وإغلاق بابها علي.

كانت حياتي قاصرة في ذلك الوقت على العمل، بينما أغلقت أبوابي في وجوه الجميع، حتى باسم الذي احترم حزني واختفى مكتفياً بالاطمئنان علي من زملائي بالجريدة، كانت منى هي الوحيدة المصرح لها بعبور أسيجتي، والتي كنت معها أتنازل عن حوائط صمتي ليخرج صوتي بالكلام، كانت معي دوماً تدفع بي نحو شوارع القاهرة القديمة، التي كنا نجوبها طويلاً وعرضاً أثناء أعوام الدراسة، وحفلات الأوبرا ومسارح الدولة وندوات أتيليه القاهرة وجمعية محبي الفنون الجميلة، تعود بي إلى المتاحف التي أكلناها بعيوننا كثيراً من قبل، وإلى الجوامع والكنائس القديمة التي صلينا فيها صلاة خاصة لمصر التي كانت.

بدأت خلاياي تعود إلى الحياة تدريجياً مع كل جولة أقوم بها مع منى، إلى أن عدت مرة أخرى إلى الحياة التي كنت قد فقدتها مع سعيد، حتى إنني فوجئت بقلبي يعاود النبض من جديد.. نعم.. لا أنكر أنني أحببت سالم علوان، أو ربما تشبثت بحبه كأول خيط من نور يضيء ظلمات قلبي الذي انطفأ عنوة، ومع نبض قلبي مرة أخرى تأكدت أنني أعشق الدنيا وأقبل عليها مهما فعلت، تعمدت الانغماس في شخص سالم تماماً، حتى إنني أصممت أذني وأعميت عيني عن حقيقته التي كانت واضحة للجميع إلاي!.. مجرد مدع كبير استطاع أن يفرض اسمه على ساحة الشعر دون موهبة، وعلى النقد الأدبي دون علم، يجده المثقفون في كل المحافل الأدبية متشدداً بالنظريات، وساخراً من الكتاب وكأنه مبدع زمانه الأوحداً! بعيد كل البعد عن أي موقف وطني لا يأتي بمكاسب شخصية، في حين يحتل مكاناً بارزاً في كل القاعات التي تلتوك أحلام الوطن، بفقايع شعارات وطبول جوفاء لا تصدر سوى الضجيج!

لا أدري حتى الآن لماذا اختارني سالم علوان كي أكون امرأته، فقد كان يبلغ من العمر أربعين عاماً دون زواج، ربما اختارني لأنني كنت البلهاء الوحيدة التي تؤمن بأن الزواج شركة قائمة على الحب والتعاون بين الحبيبين، من أجل بناء حياة سعيدة، لأنني الوحيدة التي لم تطلب شبكة غالية ومنزلاً عامراً بأحدث الأجهزة وأرقى المفروشات، لأنني الوحيدة التي رفضت أن يقام لها حفل مهيب للزفاف، وأن يكون لها ثوب عروس مبهر، ربما لهذا فقط اختار أن أكون امرأته! فلقد كان بخيلاً مقترراً على نفسه قبل الجميع! وبرغم أن صفاته تلك كانت واضحة للعيان، إلا أنني لم أرها قبل أن أتورط في الزواج به وأيضاً الحمل.

كان سالم يتردد على جريدة الاتجاه العربي كثيراً، ودائماً ما كان يلوح لي بإعجابه، لكنني كنت أقابل كل ذلك بالتجاهل، إذ كنت أحب سعيد ولم أكن أرى غيره، لكن موت سعيد فتح الباب على مصراعيه أمام سالم، الذي أخذ يتقرب مني بدعوى مواساتي في مصابي، لم يكن بإمكانني رؤيته على حقيقته، فلقد شيد لنفسه أمامي صرحاً عالياً من الرومانسية والعذوبة، كنت أذهب كل يوم إلى الجريدة لأجد وردة حمراء على مكتبي، وعندما أسأل من الذي وضعها يخبرونني بأنه الشاعر سالم علوان. في البداية تعجبت من هذا الأمر، وشعرت بالخلج أيضاً أمام زملائي، لكنني لا أنكر أن هذه الوردة كانت تنتثر عطراً على جميع ساعات حياتي، تطور الأمر بعد ذلك، حيث أخذ سالم في الظهور تدريجياً في الجريدة بشكل شبه يومي، حتى إن جميع زملائي بدعوا التعامل معه على أنه العاشق الولهان لأحلام، وأخذوا يتهكمون علينا أماناً كلما اجتمعنا معاً في نفس اللحظة بالجريدة. لم أكن أدري ما الذي يجب علي فعله، لكنني أعترف بأنني ما كنت لأضع حداً لهذا الأمر، فلقد أحببت تلك الحالة التي كنت أحتاج إليها بشدة، وسط كل العواصف التي هددت وجودي في الشهور الماضية، كما أنني كنت أعاني قهر مقاطعة أخوالي لي، وفقر أُمي عن سداد احتياجاتي اليسيرة في الحياة، إضافة إلى ضالة المكافأة التي كانت تصرفها لي الاتجاه العربي، وتأجيل قرار تعييني رسمياً، لما كانت تمر به الجريدة من أزمة مالية بسبب ضالة الإعلانات أو نضوبها، بعد أن عقدت الحكومة اتفاقاً سرياً مع الشركات الكبيرة المعلنه، حتى لا تمنحنا إعلانات وبالتالي نتوقف عن الصدور، فتكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد، الأول أن نتخلص منا ومن فضحنا مساوئ النظام، والثاني أن تبقى أمام الجميع الحكومة الديمقراطية التي لم تقصف قلماً أو تغلق صحيفة!!

كنت أعيش شظف العيش بجلد وصبر، وأتحمل مقاطعة أهلي لي، وقلة حيلة أمي التي لم تستطع مساندتي سوى بقلبها.. كل ذلك كان يدفع بي نحو الذبول تدريجياً، مما جعل من سالم علوان قطرة ماء في صحراء قاحلة لا يمكن الوقوف أمامها بتساؤل في محاولة للرفض أو القبول، كان القبول هو خيارى الوحيد فتلقفته وبدأت الانغماس فيه تدريجياً.

كان سالم على علم بحالتي تماماً، وكصياد ماهر يعرف كيف ومتى يقتنص فريسته باغتتي بطلب الزواج بي، ترددت في القبول، لكنه فاجأني بحصوله على رقم تليفون والدتي، وطلبه منها بشكل مباشر الزواج بي.. بالطبع فرحت المسكينة فقد حسبتها جيداً، أنا أعيش وحدي في القاهرة أعاني الفقر والعوز، وأخوالي يقاطعوننا بسبب عودتي إلى العمل في القاهرة بمباركتها، ولذلك كان الزواج بسالم علوان هو الحل الوحيد لكل أزمات حياتنا، لأنه عندما يتزوجني سيرضى عني أخوالي، حيث سأعيش في القاهرة تحت وصاية رجل هو زوجي، وسأتخلص معه من الفقر الذي أعيشه في حجرتي تحت سلم البناية التي أقطن فيها. لم تدر أمي وهي تقنعني بقبول سالم كزوج دون أدنى تفكير في الأمر، أنها تلقى بي في جب سحيق، وتضيف إلى أزمات حياتنا أزمة جديدة لا قبل لنا بمواجهتها.. لا أستطيع أن ألقى اللوم على أمي وحدها، فلقد وافقت أنا أيضاً دون كثير تردد، بينما عجل أخوالي بإجراءات الزواج، غير معنيين بأقل الأشياء التي استماتوا من أجل الحصول عليها من أزواج بناتهم، لم يهتموا بقيمة شبكتي ولا بمستوى الشقة التي سأسكنها مع سالم، ولا حتى مؤخر صداقي المكتوب في عقد الزواج، كانوا يريدون التخلص مني بأسرع وقت ممكن، حتى لا أظل كالشوكة المغروزة في حلوقهم طوال الوقت.. الجميع حسبها بدقة إلا أنا، فقد كان عدم اكتراثي للأثاث والمنزل والشبكة والفرح نابعاً من

إيماني بقيمة الحياة التي يجب أن أبنيتها مع شريك العمر، دون أن أعي
أن شريك العمر يأخذني كواحدة من أكثر صفقات حياته ربحاً وتوفيراً
للنفقات لا أكثر ولا أقل!.. لقد حصل علي سالم برخص التراب كما
يقولون! ولذلك ظللت رخيصة في عينيه، حتى تركت له كل شيء حتى
ابنتي.. ومضيت.

يقولون دائماً إن المؤمن مصاب.. لكن السؤال هو وهل يظل المؤمن مصاباً طوال عمره حتى تميته المصائب كمداً؟!.. لا أدري لماذا اعتدنا أن نهون من مصائب الدنيا التي لا تبال إلا شريحة معينة من البشر، فمثلاً لا نجد الأغنياء والحكام ورجال الدين النافذين مصابين، برغم أنهم غالباً ما يخرجون علينا بمسوح الراعي الأمين، يحللون ويحرمون كيفما شاءوا، ويضعون لنا نواميس حياتنا التي إذا خرج أحدها عنها زج به في غياهب السجون أو نفي في الأرض.. أليسوا هم أيضاً مؤمنين؟! أم أن مصائب الإيمان لا تعرف سوانا؟!!

ولأنني بالطبع من المؤمنين أخذت المصائب تنهال علي من كل اتجاه! فمع أول بوارد للقيء الذي يصحب الحمل تم إغلاق جريدة الاتجاه العربي، لأجد نفسي في الشارع دون عمل.. لم أكن أدري أن هذا الأمر سيثير سالم، وسيجعله يدور حول نفسه ملحاً علي أن أبحث عن أي طريقة أجد بها عملاً في أي جريدة أياً كانت، كنت حينها في حالة نفسية وصحية لا تسمح لي على الإطلاق بأن أدور في ساقية البحث عن مكان عمل يؤويني، فلقد كان إغلاق جريدة الاتجاه العربي سفكاً علنياً لأكبر حلم عشته في بلاط صاحبة الجلالة، وهو أن أكون محققة صحفية مهمة تبحث عن مكامن الفساد لتكشفها للعيان، لأكون كما أردت منذ طفولتي صحفية تتاضل من أجل إصلاح وطنها بالقلم، كان انتهاء لأهم فترة عملت فيها صحفية كما قال الناموس، كما أنني كنت في ذلك الوقت أعمل على قضية فساد مهمة متورط فيها نعيم القاضي، عضو مجلس الشعب وأحد أبرز الوجوه في الحزب الوطني، وكذلك صاحب أكبر مصانع منتجات ألبان في مصر، حيث كان يستورد مادة الفورمالين الفاسدة من إسرائيل لاستخدامها في منتجات

مصانعه. كنت أعتبر هذه القضية أهم تحقيق قمت به منذ أن عملت في الاتجاه العربي، ولم يكن من الممكن إغلاق درج مكتبي على الوثائق والمستندات التي استطعت الحصول عليها وتدينه، لم يكن أمامي سوى منى حاكم، التي كانت تعمل آنذاك في قسم التحقيقات بجريدة القاهرة اليوم، لأستعين بها، فلم يكن هناك من أئتمنه على هذه القضية غيرها، لكن للأسف باعتنا رئيسة قسمها ببعض آلاف من الجنيهات، واستولت على المستندات وأماتت القضية! برغم أن هذا الأمر كان مصيبة حقيقية لي، إلا أن انهيار منى بعد تلك الواقعة وضعني في موقف شائك، فكيف يمكنني أن أفرغ غضبي فيها لأنها انتمت من لا يؤتمن على مثل تلك الوثائق المهمة، وهي تواجه أكبر انهيار للمبادئ في حياتها.

انشغلت بمنى وبحملي، وحاولت نسيان كل تلك الحوادث الأليمة التي تراكمت على نفسي مع أول خطوات لي في الحياة، لم يكن الأمر متوقفاً عند حدود قضية نعيم القاضي وسقوط صديقتي في جب الاكتئاب، فلقد كنت أواجه حقيقة سالم التي بدأت تتكشف أمام عيني بوضوح يوماً بعد يوم، سالم الذي أخذ يدور حول نفسه لمجرد أنني أجلس في البيت بلا عمل، ولم يهدأ حتى استطاع الحصول على رقم تليفون الدكتور فاروق أبوحمد، رئيس قسم الصحافة بكلية الإعلام، وأخبره بما آل إليه حالي بعد توقف الاتجاه العربي عن الصدور، كان يعلم جيداً مدى اهتمام دكتور أبوحمد بي، حيث كان يعدني وعدداً من زملاء دفعتي في الكلية بذوراً قوية لصحفيين متميزين.. بالطبع نسي الدكتور أن البذور القوية تحتاج إلى أرض خصبة كي تنمو. وبالفعل قام الدكتور أبوحمد بالاتصال بي في المنزل، وعاتبني لأنني لم أتصل به فور إغلاق الاتجاه العربي، عللت ذلك بأنني لا أريد أن أزعجه، لكنه أكد لي أنه لا يمكن أن ينزعج من مساعدة واحدة من تلاميذه

النجباء، وأخبرني بأنه في استطاعته أن يلحقني بجريدة الجماهير، لكن علي أن أعي أن طبيعة جريدة الجماهير أكثر تحفظاً من الاتجاه العربي، وأنني لن أستطيع أن أقوم بعمل نفس نوعية التحقيقات التي كنت أقوم بها، حينها أخبرته بأنني لا أنوي الاستمرار في هذا الطريق، وأنني أرغب في العمل في القسم الثقافي أو الفني.

يبدو أنني سهلت عليه الأمر بطلبي هذا، فلقد أخبرني بأن الأديب عبدالمنعم عيسى، رئيس القسم الثقافي والفني في جريدة الجماهير، صديق حميم له، وأنه لن يرفض له طلباً أبداً. وبذلك التحقت بالقسم الثقافي والفني بجريدة الجماهير، والذي كان من أقوى الأقسام الثقافية الفنية في الصحافة المصرية، فهو يقدم عدداً من الصفحات على أكثر من يوم في الأسبوع، تناقش الأدب والمسرح والموسيقى والفن التشكيلي والسينما بأسلوب رصين وشيق في نفس الوقت.

لا أستطيع أن أقول إنني بدأت عملي الصحفي في مجال الثقافة والفن تغمرني السعادة ويملؤني الأمل في الغد، فلم يكن أمامي أي هدف أسعى إلى تحقيقه مع الصحافة الثقافية والفنية، بل إنني كنت أنظر إلى هذا القسم على أنه مكان جيد للاختباء ودفن الرأس في الرمل، بعيداً عن أي قضية حقيقية أتحرك فيها من أجل مصر.. نعم مصر مرة أخرى.. هذا الاسم المزعج الذي ظل يحاصرني طوال حياتي، واحتجت إلى ألف دقة زار حتى أبرأ منه وما برئت!

وعلى الرغم من استخفافي بمجال عملي الصحفي الجديد، ودخولي إليه دون أي أهداف أو رغبة في تحقيق شيء ذي بال، إلا أنني تعرضت إلى حرب شعواء من قبل زملائي في القسم، لا أدري لم، وكلما حاولت حتى الآن أن أجد سبباً، أكتشف أنه لم يكن هناك سبب حقيقي واحد يدفعهم إلى فعل ذلك، أو حتى يدفع رئيس القسم إلى أن

يزدريني ويتعامل معي كعدوة، ربما تفسير منى كان هو التفسير المنطقي الوحيد، لكني مع ذلك لم أستطع الإيمان بأنه من الممكن أن يتعاضد الزملاء من أجل هذا السبب..

- المشكلة يا أحلام إن المؤسسات الصحفية بتعلق أي صحفي سنين طويلة على ما يصدر قرار تعيينه.. وفي السنين دي بيتعامل مع الصحفي بلاإنسانية، بيتجربه تدريجياً من كل ملامحه، وتوصله لمجرد متوحش في غابة كبيرة، ويتحول الضرب تحت الحزام لأي حد وبدون سبب لمجرد نوع من أنواع التسلية.. للأسف يا أحلام في المؤسسات الصحفية بيتجرد الصحفي من إنسانيته ويتحول لشخص سادي كبير!

- بس أنا مش باعمل فيهم حاجة يا منى، أنا باحاول إني أشغل وأعمل التكاليفات اللي بتجيلي من رئيس القسم من سكات.. لا أنا عايزة آخذ مكان حد ولا باصارع حد على مكانته.

- ما أنا قلنك إنهم مش لازم يكون عندهم مبرر للدخول في صراع معاكي، هما اتحولوا لوحوش ما تعرفش غير الصراع، وبعدين من حق حسن زميلك في القسم إنه يصارعك لأنه لسه ما اتعيش، وبالتالي لازم يخاف منك لأنك جاية بتوصية من الدكتور أبوحمدة صديق عبدالمنعم عيسى الشخصي.

- يا منى عبدالمنعم عيسى شخصياً مش طايقني مش عارفة ليه؟!.. أنا أحياناً بأسأل نفسي هو أنا عملت إيه غلط؟!.. هو ليه بيكرهني كده؟!

ظلت أعمل في القسم الثقافي والفني عامين لا أدري لماذا يكرهني رئيس القسم إلى هذا الحد، لم أستطع يوماً وضع يدي على السبب سوى بعض التفسيرات أو الكلمات المتناثرة من هنا ومن هناك،

مثل أنه يكره غطاء الرأس الذي أرّتيه، أو أنه لم يسترح إلي منذ البداية عندما ذهبت إليه وفي أحشائي طفل، أو أنه يكره أن يرى فتاة صغيرة لديها الكثير من المبادئ الثابتة والتاريخ النضالي، في حين باع هو كل مبادئه بأبخس الأثمان ليتقرب زلفى إلى الحكومة ويعتلي الكرسي الذي يتربع عليه الآن. كلها كانت أقوالاً، لكنني لم أكتشف أيّاً منها بنفسى، وظللت طوال عامين أمضيتهما في القسم الثقافي والفني بجريدة الجماهير، أعاني الإهمال والقاء موضوعاتي في بئر النسيان في خزانة رئيس القسم، والاتهامات المستمرة بأننى لا أعرف طريقاً للكتابة الصحفية الرصينة! أذكر أنني قمت مرة بعمل تحقيق كبير عن مطابع ومكتبات شارع الأزهر التاريخية، التي تتعرض إلى هجمة حكومية شرسة تهددها بالإغلاق والهدم لبناء مزارات سياحية مكانها، جاء التحقيق بتكليف من رئيس القسم نفسه، وبعدما أجرته وقدمته له وتم إخباري بأنه معجب به، بل تم إدراجه ضمن قائمة الموضوعات المخصصة لصفحة الأسبوع، وقام المخرج الصحفي برسمه على الماكيت، فجأة ودون مقدمات تم رفع التحقيق في آخر لحظة من على الصفحة وإحلال آخر مكانه، وعندما تجرأت وسألت عبدالمنعم عيسى عن السبب قال: (التحقيق طلع دون المستوى)، (لكن حضرتك وافقت عليه وبالفعل كان اترسم على الصفحة!)، حينها تغيرت قسما وجهه ونظر إلي بازدياد قائلاً: (كنت هاظط أنزله عشان ماكنش عندي موضوعات بديلة، لكن لما جالي تحقيق كويس شلته!). كان وقع كلماته علي جد قاس، فأنا لم أفرض نفسى كصحفية عظيمة لا يشق لها غبار، وكنت مستعدة تماماً لإجراء أي تصليحات يطلبها منى، لكنه وافق عليه وأمر بنشره بالفعل ليتم إلغاء قرار النشر في آخر لحظة، قبل مثل الجريدة للطبع ودون أي مقدمات أو أسباب واضحة، كان لابد أن أسأل: (طيب حضرتك ليه ما قتلش على مواطن الضعف في التحقيق قبل ما تسمح بنشره وكنت صلحتها؟!)، (أقولك على إيه؟! أمال يعني

انتي خريجة إعلام إزاي؟! واشتغلتني أكثر من سنة في جريدة الاتجاه العربي إزاي؟!.. مفروض تكوني عارفة شغلك كويس وتعمليه من غير إرشادات حد!)، (عموماً حضرتك أنا مهما كنت خريجة إعلام أو اشتغلت فترة في الاتجاه العربي، فأنا لسه مبتدئة وياريت حضرتك تعلمني).. ربما لو كان ما أجاب به عبدالمنعم عيسى حينها قد سمعته من أحد ولم أسمعه بنفسي ما صدقت، لكن هذه الجملة قيلت لي، واخترقت حجاب السكون الذي يفرضه هذا الرجل على نفسه في مكتبه المقدس، متوجهة بمنتهى العنف نحو أذني لتسقط داخل ذاتي بقوة، محدثة ضجيجاً مدوياً لم أتمكن من كتمانها ربما حتى الآن، فلقد قال لي بمنتهى السهولة: (أنا مش فاضي عشان أعلم حد!).

كان ذلك الحوار هو نهاية أي حوار إنساني من الممكن أن يحدث بيني وبين ذلك الأديب العظيم، الذي يتشوق أينما ذهب وحل بالمبادئ والمثل ودور الأدب في تغيير الشعوب، لكنني وبعد مرور سنين طويلة على تلك الواقعة - التي رسخت داخلي كفراً عميقاً بكل ما يكتبه الرجل، حتى إنني ألقيت ثرواته المدونة في رواياته وقصصه ونفيتها من مكتبتي إلى الأبد - ألتمس له العذر، فهو من الجيل الذي ذاق مرارة النكسة وعاش هوانها، تلك النكسة التي تغلغت في نفوس جيل آبائنا وأساتذتنا، فسقوها لنا علقماً قطرة قطرة، وخبروا نفوسنا، ومزقوا ستار أنفسنا، فخرجنا جديرين تماماً بأن نكون أبناء للمنتكسين أبداً!

لم أكن أستطيع الاستمرار بعد ذلك مع هذا الرجل، وفي هذا المكان الخرب تماماً بكل أعضائه، بدءاً من رئيس القسم وحتى حسن زميلي، الذي يعيش عند حدود قرار التعيين الذي ينتظره بصبر نافذ، ويفعل أي شيء من أجل الوصول إليه، يسفك ذاته على عتبات الصحفيين القدامى بالقسم، ويتمسح عند قدمي رئيس القسم، يعمل لدى

الجميع مرطوناً كبيراً جديراً بلقب (قفة)! كان الجو جد فاسد حد الاختناق، وكنت بالفعل أترنج من هول لقيا هؤلاء الميتين برسم الحياة كل يوم، فقررت أن أترك ذلك المكان وأرحل، لكن سالم هاجمني بشدة عندما فاتحته في الأمر..

يعني إيه تسيبي الجماهير.. إنتي عبيطة؟!

يا سالم مش قادرة أتعامل مع الناس دي خلاص.. أنا مش عارفة هما إيه بيعاملوني كده؟! إيه بيكرهوني؟!

كان رد سالم علي مزعجاً بقدر الإزعاج الذي ألقاه يومياً في الجريدة، فلقد قال لي: (طبيعي الناس كلها تكرهك.. أنا عمري ما سمعت حد بيتكلم عنك كويس!)، لفظ تلك السموم بمنتهى السهولة، فوجهه وصوته لم يتأثرا بالعنف الذي يطفح من داخل نفسه على صفحة حياتنا معاً، كنت حينها في آخر أيام حملي، ولم أكن قادرة على تحمل أي شيء، فأخذت أصرخ في وجهه: (ليه يا سالم بتقول كده؟!.. ليه بتقول كده؟!.. مين الناس اللي مش بتتكلم علي كويس؟! وليه طبيعي إنهم يكرهوني؟! أنا باعمل إيه يا سالم في الناس عشان يكرهوني؟! وباعمل فيك إنت إيه عشان تقدر تقوللي كده؟!.. ليه يا سالم ليه؟!.. ليه؟!).

ربما خاف على جنينه الذي ينتظره بصبر شديد، لذلك اعتذر لي، وتحولت نبرة صوته إلى نبرة حنون ومحبة، مبرراً ما قاله بأنني لا أحاول الاندماج مع زملائي، وأنهم يعتقدون أنني أتعالى عليهم، ولذلك اعتقد أنهم قد يكرهونني لذلك. كان سالم قد تحول إلى مصدر إزعاج كبير في حياتي، تتحطم على صخرته حتى الأحلام البديلة التي أحللتها محل آمالي، والتي ضاعت بضياح سعيد وإغلاق الاتجاه العربي، لم أكن أدري ما الذي يجب علي فعله، بعد أن تنازلت عن كل طموحاتي،

واكتفيت بأن أكون مجرد زوجة لشاعر تخيلت أنه حر المعدن، ومجرد
صحفية مجتهدة في قسم الثقافة والفنون!؟

تبدد صوت مؤمن إلى الأبد في اليوم الذي خرج فيه صوت ابنتي إلى الحياة.. لم يكن ليخطر في بالي أبداً أن يد القدر سوف تكرر حبات سبحتنا، كنت أعتقد أن سعيد سيكون قرباناً كافياً لكف يد القدر عنا، كنت أعتقد أننا لو متنا جميعاً سيبقى مؤمن الذي عرف منذ البداية حقيقة اللعبة واشترك في أدوارها مبكراً، لكن في ما يبدو أن جيلنا مرصود منذ أول نفس تنفسه في هذا العالم.. جيل غريب غير مرحب به في هذا الزمان، وعلى هذه الأرض التي تتأكل وتأكل أبناءها في الطريق.

كان موت مؤمن جد عجيب، فأنا حتى الآن لا أستطيع استيعاب سقوطه من شرفة منزله.. سقط من الدور الخامس جثة هامة.. كيف سقط؟! هل هناك من أسقطه أو أنه ألقى بنفسه من الشرفة؟! لو آمنت برغبة كل جيلي في الانتحار فلا بد أن أستثني مؤمن.. هل يمكن أن يكون قد انتحر؟! لماذا؟! لقد أخبرني بنفسه آخر مرة لقيته بأن الدنيا أخيراً أقبلت عليه بكل زهوها، وأنه يعيش الآن نشوة الانتصار على القهر والذل والحاجة التي عاش في ظلها عمره كله.. لا يمكن أن يكون قد انتحر، ولا يمكن أن يكون هناك من قتله.. فلماذا يقتل وهو مجرد سمكة صغيرة تعيش على فئات الحيتان؟!.. لو كان هناك من لابد من قتله فليكن واحداً من هؤلاء الطواغيت، الذين يقبضون على أنفاس الصحافة في مصر، ويسفكون دم الأفلام الحرة.. لم يكن مؤمن ذات يوم أكثر من مجرد شماسرجي لمدنسي بلاط صاحبة الجلالة المتداعية، فلماذا يقتل؟! ومن الذي يمكن أن يكون قتله؟! لم أستطع أبداً وضع يدي على الحقيقة التي تكمن وراء موته، فهو لا يمكن أن ينتحر، ولا يمكن أن يغتال، ولا يمكن أيضاً أن يكون

مثلاً قالت الشرطة إنه سقط خطأ من شرفة منزله.. خطأ؟!.. كيف خطأ؟!

لا أستطيع أن أنسى أبداً آخر لقاء لي معه، كنت في الشهر السابع من حملي، تكورت بطني وثقلت خطواتي، وأصبحت مثل بطة بديئة تتوازن على الأرض بصعوبة!.. كنت أسير أمام مبنى مؤسسة الأيام، في الوقت الذي خرج هو من بوابتها الرئيسية، فناداني بصوته الضاحك وبسمته العريضة دائماً:

(بت يا أحلام!.. يخرب عقلك! إنتي بقى شكلك عامل كده ليه؟)، (مؤمن؟!.. إزيك يا حبيبي وحشتني جداً)، (إنتي أكثر.. أنا آسف إنني مش بأسأل عليكي باستمرار بسبب مشاغلي، لكن انتي عارفة يا أحلام غلاوتك عندي وإني لا يمكن أنساكي)، (مش باين يا مؤمن.. إنت بقالك شهرين مش بتسأل عليا، وكل ما اتصل بيك في المكتب يقولولي إنك مش موجود.. خلاص بقيت مهم!)، (أنا طبعاً بقيت مهم بس مش مهم عليكي.. عارفة يا أحلام؟!)، (إيه؟!)، (أنا لما أبقي رئيس تحرير الأيام.. لا.. لما أبقي رئيس مجلس إدارة مؤسسة الأيام كلها على بعضها، مش هاسمح لأي حد من كلاب دفعتنا يدخل مكتبي إلا إنتي.. إنتي الوحيدة اللي هيكون من حقك تدخلني.. لا.. تدخلني إيه.. ترقى الباب برجلك وتدخلني!)، (يعني أنا الكلبة الوحيدة اللي هتدخلها من دفعتنا؟!)، (إخص عليكي ما تقوليش على نفسك كلبة، هما اللي كلاب)، (ليه يا مؤمن تقول على زمايلنا كده؟! ما حدش فينا كلب يا مؤمن)، (لا هما كلاب.. كلهم بيكرهوني وبيحسدوني على اللي وصلت له، عشان هما فشلة مش قادرين يتحملوا وجود واحد ناجح وسطهم)، (يا مؤمن خليك متسامح شوية، وعموماً كل واحد وله أسبابه)، (أسباب إيه يا أحلام دي؟! حتى منى حاكم ما قدرتش تقوللي مبروك على المنصب الجديد ووشها مفروود شوية، قالتها لي من تحت

ضرسها وسابتتي ومشيت.. إيه بقى السبب اللي عند منى انشاء الله؟!، (إنت كمان هتعييب على منى؟!.. عموماً إنت عارف إيه السبب اللي خلا منى تعمل كده)، (آه! عشان أوهام المبادئ والمثل العليا اللي واكله دماغك إنتي وهي.. عموماً إنتي عارفة إني ماكنش ممكن أتمسك..)، (بس يا مؤمن.. إنت عارف إني مش بالومك على أي حاجة بتعملها)، (وعشان كده بحبك!.. قوليلي بقى إيه آخر أخبار المدرس الخايب اللي انتي رحتي اتبيلتي واتجوزتيه؟!)، (يا ساتر عليك هو انت ما تعرفش تكون مؤدب أبداً!)، (مؤدب إيه انتي كمان؟!.. وهو في واحدة عاقلة تروح تتجوز صايع، وتطلب من الناس يكونوا مؤدبين في الكلام اللي بيقولوه عنه)، (يا ربي!.. مش ممكن! إنت مش ممكن.. عموماً كفاية عليك كده، أنا مش قادرة أفق.. مع السلامة أنا ماشية)، (استني انتي رابحة فين؟! أنا لسه ما اطمنتش عليك)، (عايز تعرف إيه؟!)، (إنتي عاملة إيه في جوازك وشغلك وحملك وكل حاجة؟!)، (أنا مش عاملة حاجة خالص يا مؤمن، أنا بيتعمل في!.. عموماً لو شائت الظروف وقدرنا نقعد مع بعض قعدة طويلة هاحكيلك على كل حاجة)، (إيه يا أحلام مالك؟!)، (بعدين يا مؤمن.. بعدين نتكلم في كل حاجة بالتفصيل)، (أحلام.. لو محتاجة فلوس قوليلي)، ثم أخرج رزمة ضخمة من النقود وقام بفرها أمامي وهو ينظر إليها نظرة جائع، ثم نظر إلى وجهي وابتنسامة ملؤها شراهة تحل نصف وجهه وقال: (بصي يا أحلام! كل الفلوس دي بتاعتي أنا، بقيت باكسب كتير أوي أكثر مما تتخيلي)، ثم مد يده بالنقود لإعطائي إياها وقال: (خديهم يا أحلام.. خديهم.. أنا معايا منهم كتير قوي ولو عايزة تاني أجييلك)، أبعدت يده التي تقبض على النقود قائلة: (شكراً يا مؤمن، إنت عارف إني لو محتاجة فلوس مش هلاقي أقرب منك عشان أطلب منه)، (إنتي ليه مكسوفة مني يا أحلام؟!)، (أنا مش مكسوفة ولا حاجة.. المهم بس شوف يوم نقعد نرغي فيه براحتنا). كانت نظراته الشرهة إلى النقود

موجعة، أحسست معها أنه يمر بفترة عصيبة في حياته، أزمة ما، لكني لم أدر أبداً ما هي، فقد مات آخذاً معه كل أزماته التي أزعجته بها الدنيا منذ طفولته، رفض مؤمن أن يقابلني قبل أن ألد فقد قال لي: (لا.. أنا مش هاقدر أشوفك تاني وانتي عاملة زي الدبة كده! لما تولدي أبقى أشوفك)، ثم أطلق ضحكة هستيرية وسلم علي وتركني ومضى.. مضى إلى الأبد.. مضى وأصبح نسياً منسياً، لم يعد يذكره أي من أفراد دفعتنا، لم تعد هناك عين تبكيه سواي، في كل ليلة أتذكر الراحلين وأبكي، أبكي شبابهم الذي ضاع سدى على قارعة طريقنا الوعر، أذكرهم وأنتظر أن تسحقني الدنيا بقدميها القاسيتين مثلهم تماماً.

ظلمت أبكي مؤمن ثلاثة أسابيع بشكل متواصل، أسكب لابنتي الحزن في الرضاع، وأعتصر ذاتي على عتبات رحيله الذي تآزر مع رحيل سعيد ضد وجودي على الأرض، كنت أنظر إلى ابنتي متسائلة عن جدوى إنجاب طفل لهذا العالم المعبأ بقسوة تاريخ كامل من الهزائم، لا أنام مراقبة إياها وهي تتنفس بهدوء ليلاً، متوهمة أحياناً أنها غادرت الحياة، فأهزها بعنف لتستيقظ باكية فزعة. لم يكن بمقدور سالم أن يستوعب حزني أو حتى يتحملة، فقد كان كلما دخل علي ووجدني مازلت أبكي يزفر ضيقاً ثم يخرج، حتى انفجر ذات مرة قائلاً: (مش ممكن اللي انتي بتعمليه ده!.. هو يعني مين اللي مانتك ده؟! حتى واحد كان زميلك في الجامعة)، أحاول أن أستجديه الصمت فلا يصمت ويكمل: (أمال لو ماتت أمك ولا بنتك هتعملي إيه؟!)، أختطف ابنتي من جوارِي لأحتضنها بخوف، حتى لا تتسرب من بين يدي وتضيع، وأصرخ في وجهه: (حرام عليك ما تقولش كده!)، يكمل نفث أنفاسه الكريهة في وجهي ويقول: (خايفة عليها أوي كده؟! والنبي بلاش تمثيل! إنتي لو أم بصحيح ما ترضعيش بنتك غم ونكد ويغور أي حد قدامها)، (كفاية يا سالم.. كفاية)، (ده أنا متخيل إني لو مت مش هتعملي

كده!!.. إوعي تكوني كنتي بتحبيه على سعيد بتاعك ده!)، ينظر إلي متهمكاً ويكمل: (دي تبقى مصيبة لو كنتي بتحبيه!!.. ده كده بقى الواحد يكتب عليكى ممنوع الاقتراب!!.. ده أنا كده أخاف على نفسي!).

وما أدراك أني أحبك.. اطمئن يا عزيزي أنت خارج دائرة الموت التي تلاحق أحبابي، اقترب كما يحلو لك فلا يوجد خطر عليك، فمهما كان مدى اقترابك لن تموت لأنني لا أحبك!!.. لأنني أمقتك، وأكره نفسي التي وقعت في حبائك، وتوهمت أن في يدك الخلاص.

عامان كاملان ابتعدت فيهما عن الجميع، الأصدقاء والزملاء، الندوات والمؤتمرات، ابتعدت فيهما حتى عن أمي التي لم يكن يربطها بي سوى احتضانها لابنتي الصغيرة عدد الساعات القليلة التي أخنقي فيها للذهاب إلى العمل، فقط لأثبت وجودي وحقي في الحصول على التعيين ذات يوم - تماماً كما أراد سالم! -.. ابتعدت في هاتين السنتين حتى عن سالم، الذي لم يعد هناك أي رابطة تربطني به، بعد أن تحولت في نظره إلى أم ابنته فقط، التي يتركها في المنزل غائباً مع أصدقائه واهتماماته التي كان يسميها ثقافية وسياسية! عامان قررت فيهما أن أكون أمّاً وكفى، أما لتلك النبتة المزهرة الصغيرة التي تملأ الكون فرحاً وحباً وجمالاً، تلك البنت التي وضعت فيها كل أحلامي الميتة، أمله أن تحييها هي ذات يوم. ظللت على هذا الحال حتى صدر قرار بشأنني في الجريدة، فلقد قرر رئيس القسم الأديب العظيم عبدالمنعم عيسى الاستغناء عن خدماتي، لأنني - والحق معه هذه المرة! - لست مفيدة بأي حال من الأحوال لقسمه.. وبرغم قسوة القرار، إلا أنه تضمن بعض نقاط الرحمة، فلقد نصح بأن يتم نقلي إلى المجموعة الجديدة لمجلة جماهير الفن، التي كانت المؤسسة بصدد إنشائها في ذلك الوقت، حيث قال إن مستواي الصحفي لا يرقى إلى العمل في قسم أدبي وفني رصين كقسمه، لكنه يصلح لمجلة فنية تهتم بالفنانين فقط!

وهكذا تحولت دون إرادة مني إلى مجلة جماهير الفن، بركة رائعة من دنيانا الكريهة نزلت درجة أخرى نحو عالم لم أحلم به يوماً ولم يكن ضمن مخططاتي، أنا أحلام السيد مناضلة الجامعة القديمة والصحفية الشرسة بجريدة الاتجاه العربي، أصبحت رغماً عني صحفية

فنية تجري وراء أخبار الفنانين والمشاهير، وتتقرب إليهم زلفى من أجل الحصول على تصريح تافه، وصورة لا تجذب سوى المراهقين إلى النجم أو النجمة الساطعة!

لم يكن بداخلي أي قدرة على أن أفكر حتى في ترك المكان برمته، وحفظ آخر رمق للكرامة والعزة والأحلام الوطنية الكبيرة، فلقد استقبلت القرار بصمت ميت لامرأة ما عاد داخلها أي شيء ينبئ بالحياة، جمعت أوراقى وأقلامي من الدرج الذي منحوني إياه بأحد المكاتب المشتركة مع ثلاثة زملاء لي في القسم الثقافي والفني بجريدة الجماهير، وذهبت إلى المكان الذي خصصته المؤسسة للمجلة الجديدة.. تلك المجلة التي هبطت على رئاسة تحريرها صحفية متسلقة، لا تملك أرشيفاً صحفياً عظيماً ولا سنوات خبرة كثيرة، لكنها تملك ذكاء أنثى تعرف جيداً الطريق الوحيد المضمون لوصول امرأة إلى أعلى المناصب في بلدنا العزيز!.. ووسط كل الحكايات الشائنة التي تدور حولها ورئيس مجلس الإدارة، كان لابد لي أن أعمل صاغرة معترفة بها كأستاذة لا يشق لها غبار في عالم الصحافة! وفي الحقيقة لم يكن لدي أدنى اعتراض عليها، فهي لا تختلف في شيء عن الأديب العظيم الذي عملت تحت رئاسته مسبقاً، ولا عن سالم علوان زوجي الشاعر المناضل، ولا نظامنا الذي أغلق جريدة الاتجاه العربي بأسلوب عصابات محترف.. هي واحدة داخل منظومة كبيرة، غبي فقط هو من يخرج عليها ويعترض!

وبرغم كل ما حولها وعليها من شائعات تدنو أو تبعد عن الحقيقة، قدمت لي تلك المرأة فرصة لا يمكنني إنكارها، فلقد سلمتني باباً مختصاً بالفنون الرفيعة، بعد أن أدركت أنني أحمل شبهة الثقافة والمعرفة! ولدي معلومات جيدة عن الموسيقى كعلم وفن محترم، بعيداً عن عالم الدبكة وآه وآه وإيه إيه!! ثم بعد أن أثبت جدارتي في تحمل

مسئولية هذا الباب، إضافة إلى أبواب المجلة الأخرى العادية، أصدرت قراراً بتعييني، لأصبح لأول مرة بعد أربع سنوات كاملة من تخرجي صحفية تحمل أوراقاً رسمية تعترف بذلك!

لا أنكر أن هذا الوضع الجديد لصفتي كصحفية أعطاني دفعة قوية إلى الأمام، ورسم على وجهي صورة ابتسامة حقيقية كانت قد غابت عني منذ زمن طويل.. أذكر أنني عندما علمت بخبر صدور قرار تعييني، اتصلت بأمي وأنا أبكي بكاء مريراً، لم أكن أدري أن مثل هذا القرار سيوجعني إلى هذا الحد، فلقد كان ذلك الحق الطبيعي لأي إنسان يعمل في الوجود، جائزة كبرى لا ينالها أي إنسان في بلادنا العزيزة! شعرت بأنني أحصل على صك حريتي أخيراً، بعد أن بذلت ذاتي في سبيل مالكي سنين طويلة حتى يرضى وهو ممعن في قسوته وتعذيبه، حدثت أُمي وأنا أبكي ولا أدري إن كنت فرحة أم حزينة، لكن ما كنت واثقة منه تماماً أن هذا القرار وما يشمله من فرحة ملك لأُمي فقط وتتويج لكفاحها وحدها..

(باكية) ماما!.. ماما!

مالك يا حبيبتي في إيه؟! إيه اللي حصل؟!

صدر قرار بتعييني يا ماما.. أخيراً هتعين!

وبمجرد أن نطقت بتلك الجملة الغبية، والتي في ما يبدو ساحرة جداً! غرقت أُمي في بكاء مماثل.. أخذنا نبكي معاً، ولا نعرف ما هي الكلمات اللاتقة لمثل هذا الموقف حتى نقولها، إلى أن خرجت من صدر أُمي زفرة طويلة كأنها تفرغ بها كل ما بداخلها من عبء الأيام الثقيل عليها، ثم قالت: (ألف مبروك يا حبيبتي.. ألف مبروك عليكِ وعليها).

وعدت أُمي في تلك اللحظة بأن راتبي الأول سيكون مخصصاً لها تشتري به أي شيء تريده، بعد أن تحملت عبء الصرف علي كل تلك السنوات الماضية، منذ مولدي وحتى بعد زواجي! فلقد كانت تقتطع من معاش والدها الذي تركه لها بعد وفاته كي تكمل لي مصروف بيّتي، مصروف بيّتي الذي لم يكن سالم يمنحني منه سوى نذراً يسيراً مدعياً أن هذه هي حدوده وإمكانياته، بينما يكسب الكثير من المال ويحتفظ به لنفسه، غير مكترث لمتطلبات بيته وابنته.

لم أدر كيف عرف سالم بخبر تعييني، فأنا لم أهتم بإخباره، ولم تخبره أُمي أيضاً حيث كانت علاقتهما متوترة بسببي، لكنني فوجئت به في المنزل عند عودتي على غير عادته، وبمجرد أن دخلت استقبلني بترحاب شديد، وأخذني في حضنه لأول مرة بعيداً عن رغباته في الفراش..

ألف مبروك يا حبيبتي.. ألف ألف مبروك!

على إيه؟!!

يا سلام! على التعيين طبعاً.

عرفت منين؟!!

إنّتي عارفة إن مفيش حاجة تستخبي على سالم علوان!

ثم استدار ليذهب ويستريح بكامل جسده على واحدة من أرائك الصالة، وبنظرة نهمة قال:

(خلاص بقى بقيتي صحفية رسمي وهتقبضي مرتب محترم!).

فاجأني كلامه فأجبتة بسؤال حاولت فيه أن أكون غبية بالقدر اللائق به، برغم أنني أعلم تماماً ما يرمي إليه: (يعني إيه؟! ما أنا باخد مكافأة شهرية منتظمة من المجلة.. إيه الجديد?!).

لا! هي المكافأة دي كانت فلوس!

أهي كانت فلوس وبتتصرف كلها على بيتك.

عارف طبعاً يا حبييتي.. لكن برضه عارف إن مرتبات الصحفيين مش قليلة، وخصوصاً لما يكونوا صحفيين في مؤسسة الجماهير.

إشاعات.. مرتبات الصحفيين أي كلام.

أثارت طريقتي في الكلام حفيظته فقال بمسحة من غضب:
(المهم إنها هتكون أكثر من المكافأة.. وعشان كده باقولك أنا هأخذ الفرق بين المكافأة والمرتب.. يعني الفلوس اللي كنتي بتأخديها كمكافأة خليها للبيت أما الباقي فهاخده)!

- تأخده؟!

- آمال يعني انتي فاكدة أنا سايبك هاملة بيتك وبنتك وبتشتغلي ليه؟!

إيه.. عمالة عندك بتشغلها؟!

باقولك إيه يا أحلام مش عايز لماضة.. الست مكانها البيت، ولما تشتغل يبقى فلوسها من حق جوزها نظير وقته اللي اتنازلها عنه وراحت تشتغل!

لم أكن أتخيل أبداً مهما كانت نظرتي إلى سالم قد تدنت، أنه من الممكن أن يتلفظ بتلك الكلمات، فلقد نزع قناعه بخفة ودون أدنى حرج، وتعرى من كل الشعارات الزائفة التي ظل مبقياً على رفعها أمامي، برغم إدراكه أنني كشفتها عنه منذ زمن..

ياااااااااااااه!!.. آمال فين كلامك عن مساواة المرأة بالرجل
وحق الإنسان في العمل والكسب و..

قاطعني بحدة صارخاً في وجهي: (بأقولك إيه يا ماما.. أنا مش عايز سفسطة وكلام بايخ.. أنا قلت اللي عندي وخلص وهيتفزع مع أول الشهر الجاي).

لم أكن أدري أنني أحتفظ في داخلي بتلك القوة التي رددت بها على سالم، وبنفس حدثه وجبروته في الحديث: (باقولك إيه إنت يا بابا.. أول الشهر مرتبي كله هيروح لأمي، وبعد كده إعمل حسابك إن ولا مليم من اللي هاخدهم هيتصرف على بيتك، بنتي بس هي اللي هاصرف عليها لأنها بنتي، لكن بيتك لا.. واعرف كويس إني مش هاستلف من ماما ثاني عشان أصرف على بيتك.. بيتك مسئوليتك إنت لوحيدك.. قناع شعارات المساواة سقط يبقا انت الراجل وانت اللي تتصرف).

خلاص ويبقى انتى ست ومكانك البيت ومفیش شغل.

لا في شغل!.. ولو مش عاجبك تقدر تطلقني.

عايزة تطلقى ارفعى قضية طلاق شوفى هتاخدي ايه!

مش عايزة أطلق وعلى المتضرر اللجوء للقضاء يا سالم!

بعد هذا الحوار بدأت حياتي مع سالم تأخذ شكلاً جديداً، شكلاً أقرب إلى واقع العلاقة بيننا، بعيداً عن صمت الصقور قبل أن تتقوض على فريستها الذي عشناه طوال العامين الماضيين.. كان قراراً ضمناً بيننا أن نتعامل مع بعضنا البعض بوضوح لا يعبر سوى عن واقع مشاعرنا تجاه بعضنا البعض.

انتقلت ابنتي عملياً للعيش في منزل أمي، ولم تكن تدخل بيت أبيها سوى للنوم، بعد أن قررت إغراق نفسي تماماً في العمل لتعويض الأعوام التي ضاعت وأنا أحاول بناء أسرة سعيدة، كبديل للأحلام الوطنية العريضة التي أجهضت، ووجدتني أتعامل مع واقع الأيام ومشاعري بجرأة ظلت مكبوتة داخل نفسي منذ طفولتي، جرأة كانت تقتصر فقط على الخيال لكنني لم أجرؤ أبداً على أن أخرجها إلى عالم الواقع. كان أول فعل جريء قمت به هو رفع ذلك الغطاء، الذي ظل سنين طويلة يخنق رقبتني ويكبت خصلات شعري عن السباحة في نهر الهواء العليل، لطالما كنت أحلم بمداعبة الهواء شعري، ولطالما كنت أتعلم الوقوف في الشرفة دون غطاء رأس متوسلة إلى الهواء أن ينتعش ويلامس شعري وعنقي بجرأة تطير معها روحي.. لم أدر يوماً لماذا وضعت ذلك الغطاء على شعري، فلم أكن يوماً صاحبة القرار، بينما كان قرار المجتمع الريفى الذي نشأت فيه، حيث المحبة هي المسلمة المحترمة وغير المحبة إما مسيحية أو مسلمة ساقطة!.. المهم هو أنني استطعت أخذ القرار ونزع الغطاء، لأنكشف للكون الذي حرمت الدخول في غماره بكل جزء من أجزاء جسدي وروحي.

ذهبت إلى الكوافير لأول مرة في حياتي، وأسلمت خصلات شعري له، كي يمنحني قصة شعر تليق بعمرى ورغبتى في طرح كل الآلام وراء ظهري لأبدأ حياة جديدة، تمنيت للمرة الألف أن تكون سعيدة.. رسمت ملامح جديدة لأحلام، بعيداً عن الوطن والبيت والأسرة، أحلام الصحفية الفنية المرموقة صاحبة الحوارات الجريئة والباب الموسيقي المتميز، الذي جذب الكثير من القراء وفتح أمامي أبواب الأوبرا بكل رقيها ومجتمعها الأرستقراطي النخبوي. ووجدتني أعود تدريجياً إلى القراءة، بعد أن ابتعدت عنها سنين يصل عددها إلى عدد السنين التي انخنقت فيها بحبال سالم المقدسة، وامتلاكه صك

عبوديتي الشرعي! كنت أشعر بمسامي تتفتح من جديد، لا أدري ما السبب في ذلك، ولكن ربما بعد أن امتلكت بطاقة عضويتي بنقابة الصحفيين، وأصبحت صحفية رسمياً بواحدة من المؤسسات الصحفية المرموقة في البلد، شعرت بثبات قدمي على الأرض، وأنني لم أعد خيال مآتة في مهب الريح ونقرات الطيور الشرهة!.. لا أدري، ولا أريد أن أنظر إلى تلك المرحلة من حياتي، لكن كل ما أعرفه أنني كنت مشرعة الأبواب على الحياة، أناديها أن تقبل بكل ما في من رغبة مستميتة في العيش بشكل جديد، شكل ألمس فيه الأرض وأصعد نحو السماء لأرشف من ماء سحابها النقي.

تتأسيت بإرادة قوية ألم رحيل سعيد مختار، الذي ظل ملازماً إياي طوال السنين الماضية، والتي لم يستطع فيها سالم أن ينسيني إياه لحظة واحدة، ودفنت مؤمن داخل قبور روعي واضعة أزهار عالم نفسي كله على قبره، وودعته بعد ما ظلت عينا ابنتي تذكرايني به دوماً، لأنني فقدته يوم أطلت هي على العالم.. قررت أن أعيش بصدق، لأنني اكتشفت أنني لم أعش يوماً وبشكل حقيقي، ضائعة بين فقد الأب والحبيب والأصدقاء والوطن.. لكن للأسف لا يمكن للإنسان أن يفر من قدر مكتوب له دون غيره، قدر مكتوب لكل جيله.. قدر يتلخص في كلمتين: (الموت أو النفي)!

انغمست بشكل كامل في دائرة عملي، التي شعرت معها بتعويض شديد من النقص الذي عشته طوال عمري الماضي، كنت فرحة بنجاحاتي الصحفية واسمي الذي بدأ يلعب في عالم الصحافة الفنية، التي خرجت من بين أصابعي رصينة وجادة، ورغم أنها تنتشر في صفحات مجلة جماهير الفن التي رأى عبدالمنعم عيسى أنني أليق بصحافتها التافهة وبرئيسة تحريرها ذات السيرة المشبوهة!.. نسيت كل شيء حولي حتى سالم الذي لم أكن أراه سوى مصادفة في المنزل وهو نائم أو وهو يستعد للخروج، أما ابنتي فقد استقرت بين أحضان أُمي، واستغنت بشكل أو بآخر عن وجودي معها كأم، فقد لعبت أُمي دور أُمها بجدارة كانت متوقعة منها، فهي لم تخلق إلا لتكون أُمًا لعالم كامل من الأطفال المهملين!

ذات يوم بعدما أنهيت عملي في ساعة متأخرة من الليل كعادتي، أخبرتني أُمي، وأنا أحمل ابنتي النائمة مستعدة للعودة إلى منزل سالم، بأن منى حاكم اتصلت بي وتريدني أن أتصل بها ضرورياً.. تساءلت عن كيفية حصولها على تليفون منزل أُمي الجديد في القاهرة، فحتى اللحظة التي انقطعت فيها عن مقابلتها، لم تكن أُمي قد امتلكت في شقتها بالقاهرة خطاً تليفونيا.. وعدت أُمي بالاتصال بها، وأكملت مشواري اليومي نحو بيت سالم.

تساءلت كثيراً عن سبب اتصال منى بي، بعد أن علمت في المجلة أنها حصلت منهم على تليفون منزلي، وبالطبع أنا أترك رقم تليفون منزل أُمي عند الجميع، منذ أن قررت تحويل منزل سالم إلى مجرد فراش أنام عليه كل مساء، بعد أن أكون قد مارست حياتي بين

العمل ومنزل أمي الذي يحوي ابنتي، وبعد أن قرر سالم محاربتني بشكل خفي في العمل، حيث كان يجيب كل من يتصل بي من مصادري بأسلوب سيئ، لدرجة أن بعض الفنانين نصحوني بالانفصال عنه، لأنه كما ارتأوا يغار من نجاحي في العمل.

اتصلت بمنى من المكتب، ولكنها لم تكن موجودة بمنزلها، فعاودت الاتصال بها في القاهرة اليوم، وبمجرد أن وصل إلى مسامعي صوتها، انتابنتي رعشة سرت في جسدي كله، فها هي صديقة نفسي ورفيقة أوهامي تظهر مرة أخرى على صفحة من صفحاتي الجديدة في الحياة، وضعت يدي على شعري، وكأنني خجلة من استنكار منى نزعي غطاء شعري، وبكثير من الارتباك تحدثت إليها، وأنا أتمنى من كل قلبي ألا تطلب مقابلي لكنها طلبت..

إيه اللي فكرك بيا يا منى بعد السنين دي كلها؟!

مش سنين طويلة أوي يا أحلام.. إزيك وإزي بنتك وجوزك.

كله كويس.. إنتي عاملة إيه؟!

أنا مش عاملة حاجة خالص!

ليه بس؟!

أنا باقرالك شغلك.. شغلك جميل.

(بخجل) يعني أهو باحاول أعمل حاجة مهمة في مجلة فنية.

وماله الفن يا أحلام؟!.. الفن شيء جميل في حياتنا، خاصة لما يكون الفن اللي انتي بتكتبي عنه.

متشكرة يا منى.. هيه.. إيه اللي فكرك بيا؟!

أنا عمري ما نسيتهك.. لكن اللي خلاني أتصل بيكي هو عمر راضي.

مين عمر راضي ده؟!

ده يا ستي موسيقار مصري كان عايش بره بقاله خمستاشر سنة ورجع مصر من شهور.. هو عازف كمان ومؤلف موسيقي، عمل حفلة في دار أيتام للأطفال وكانت جميلة أوي، وهو بيعمل حفلات في الأوبرا و..

عايزاني أكتب عنه مش كده؟!

بالظبط.

طيب أحضر له حفلة الأول.

هو قال كده برضه، وعشان كده عازمك على ريسيتال له في الأوبرا مع البيانست منال حلمي.

ياااااه! ده يبقى موسيقي مهم طالما منال حلمي وافقت تعمل معاه ريسيتال.. خلاص نتقابل قصاد المسرح الصغير ونحضر الحفلة سوا، وبعدين تعرفيني عليه.

ماشي.. متشكرة يا أحلام.

أخبرتني منى بموعد الحفل، وذهبت بنية سليمة تماماً لا تهدف سوى إلى مقابلة صديقة عزيزة فرقني عنها الدهر، وحضور حفلة متميزة لعازفين مهمين في الأوبرا، لكنني لم أكن أدري أن القدر يذهب بي نحو مصير ما كنت أتمناه أبداً ولا أرغب فيه، بسبب الانقلابات المدمرة التي حدثت لي معه.

في الليلة السابقة للحفل فوجئت بسالم يرتب حقيبة سفره، مخبراً إياي بأنه مسافر إلى إسبانيا صباح الغد، لتمثيل مصر في مهرجان شعراء دول البحر الأبيض المتوسط، لم أهتم كثيراً بما يقول، بقدر ما فرحت في داخلي لأنه سيغيب عن حيزي المكاني لمدة عشرة أيام!.. بعدما نام وجدنتني أتقلب في الفراش، وأنا مأخوذة بنوبة شبق جسدية لم تطرق بابي منذ أن فقدت اهتمامي بسالم، تحول جسدي إلى زهرة بتلاتها تنفتح في موسم اللقاح، ووجدت يدي تمسح خريطة جسدي وتضغط على صدري وعضوي الأنثوي برفق، وكأنما أربت عليهما في محاولة تهدئتهما! لم ألق إلى جسد سالم الملقى إلى جوارى ولو نظرة واحدة، فلقد كان جسدي يتفتح لآخر مبهم لا أعرف له ملامح، لكني كنت أناديه باستماتة رغبة فيه، ولا أدري من أين يمكنني الحصول عليه ليمنحني ذاته في لحظة إشباع تقف إليها بحرقة عنيفة!

لم أجد للنوم سبيلاً في هذه الليلة حتى الساعات الأولى من الصباح، لكني عندما أفقت على صوت ابنتي التي تتأدني من حجرتها لم أجد سالم إلى جوارى، ولاحظت اختفاء حقيبة سفره، فعلمت أنه مضى دون أن يكلف نفسه حتى عناء إخباري بأنه ذاهب.. ذهبت إلى ابنتي وأنا أطير فرحة، لا أدري لماذا شعرت بتلك الفرحة ذلك الصباح، ولكن في داخلي كان هناك صوت ملائكي يزف إلي خبر استعادة قلبي شبابه، بعد أن شاخ على يدي سالم والأمن المصري الذي اختطف سعيد.

خرجت من المنزل وأنا أحمل البنت الصغيرة التي كانت تطالبني بالإسراع للذهاب إلى جدتها، كانت المسكينة تعلم في داخلها مثلي أن منزل والدها لا يعني سوى فراشاً للنوم فقط! بعدما وصلت إلى أمي وسلمتها البنت، قالت لي دهشة: (اللهم اجعله خير.. باين عليكي مبسوطه أوي يا أحلام.. يا ترى ليه؟!)، ابتسمت بإضاءة كاملة وقلت

لها: (مش عارفة يا ماما.. بس أنا فعلاً مبسوفة.. يمكن لأنني هاقابل منى النهارده بعد طول غياب)، (رينا يخليكوا لبعض يا بنتي.. منى بتحبك إوعي تبعدي عنها تاني)، (إنشاء الله يا ماما).

غادرت متجهة نحو مقر المجلة والسعادة مازالت تلفني، كنت أحت الساعات على أن تمضي سريعة حتى تأتي ساعة ذهابي إلى حفل عمر راضي، ولذلك أقنعت نفسي بأنني فعلاً سعيدة لأنني سأقابل منى، فلم أكن أرى سبباً آخر غير ذلك. وعلى غير عادتي وجددتي أعود إلى منزل سالم مرة أخرى، حتى أغير ملابسني إلى شيء أكثر رونقاً وزهواً، ووجددتي أضع المساحيق على وجهي برغم عدم اكتراثني لهذا الأمر في الغالب.. لم أكن أدري لماذا أستعد، ومن هو هذا الذي يجب أن أقابله وأنا في كامل أناقتي وجمالي؟!

على باب المسرح الصغير قابلت منى، التي لم تبد أي تساؤل عن سبب ظهوري أمامها بشعري دون غطاء، لكنني وجدت نفسي أقول لها بعد أن تعانقنا بشوق صادق: (قلعت الحجاب!)، (مش عارفة أقولك إيه؟!.. مبروك ولا ليه كده يا أحلام؟!)، (ما تقوليش حاجة، بس اقبليني زي ما انا بالظبط زي ما اتعودت منك)، (المهم تكوني لسه أحلام صاحبتني القديمة اللي انا عارفاها)، (حتى دي ماقدرش أضمنها لك.. لكن الشيء الوحيد اللي أقدر أضمنه لك هو إني لسه باحبك زي زمان)، (أعتقد ده كفاية).

دخلنا إلى قاعة المسرح وجلسنا على مقعدين في الصفوف الأخيرة، تماماً كما كنا نفعل في الماضي، حيث تفضل كل منا أن تختفي في الخلف لتعبر عن مشاعرها التي تنتابها مع نغمات الموسيقى أو مع الآراء المطروحة في الندوات، دون أن يلحظها أحد من الحضور.. خرج عمر راضي حاملاً كمانه تقوده منال حلمي إلى البقعة التي يجب أن يقف فيها على خشبة المسرح، أدركت أنه ضرير

وببلاهة تامة وجددتي أهمس إلى منى: (دا أعمى!)، نظرت إلي منى باستنكار وقالت: (اسمها ضرير! وبعدين انتي عندك مشكلة في إنه ما بيشوفش؟!)، تداركت ما قلته للتو وقلت لها: (أبدأً واللهي يا منى أنا بس اتفاجئت)، (هو الضرير ما ينفعش يكون موسيقار مهم؟!)، (إيه يا بنتي في إيه؟! واللهي ما اقصد، وبعدين ما أهم موسيقار في مصر دلوقت ضرير.. ولا نسيتي عمار الشريعي?!)، بغضب حقيقي قالت: (قولي لنفسك)، وجددتي أضحك وأقول لها: (والله زمااااااااااا يا منى!)، وابتسمنا تماماً مثلما كنا نبتسم في الماضي، بعد انتهاء حديث نناقش فيه بعضنا بعضاً، ووجددتي أسحب إحدى كفيها المتشابكتين والمستقرتين على ركبتيها كعادتها وأضمها بكفي، ليصلني بعد طول ابتعاد ندى كفها الرحيمة الذي دائماً ما بلل حر نفسي الهائجة.

كانت الحفلة جد ناجحة، فقد كانت معزوفات عمر متطورة تمزج بين الموسيقى الشرقية بطربها والموسيقى الغربية برصانتها وعلمها، وصاحبته منال حلمي بنقراتها الرشيقة على البيانو، فخرجت الألحان كأعذب ما تكون، حتى امتلأت نفسي وروحي بنشوة فسرت معها مشاعري الشبقية وفرحي اللذين انتاباني منذ أمس، لكن كان التفسير الحقيقي لتلك المشاعر موجوداً في نفس قاعة المسرح.. هناك على أحد المقاعد في الصفوف الأمامية!

بعد انتهاء الحفل ذهبت مع منى إلى حجرات الفنانين خلف المسرح، وقابلنا عمر ومنال اللذين كانا يتقبلان تهاني الجمهور الذي احتشد معبراً عن إعجابه بفن كليهما، وبعد أن انفض الجمهور من حولهما وتركنا منال حلمي لتقف على أفراد مع رجل، وجددتي دون أن أدري لماذا مشدودة إليه بكل ما في من تركيز، حاولت أن أحوله بالتحدث مع عمر ومنى لكن دون جدوى، حتى اختفى تاركاً منال التي توجهت نحو حجرتها وأغلقتها دونها.

تطور حديثي مع عمر ومنى إلى دعوته إيانا على العشاء بمناسبة عودة علاقتي بشكل طبيعي بمنى، لم أدر إن كان هذا هو السبب الحقيقي كما قال عمر، أم أنه أراد أن يطيل وجود منى معه، فلقد شعرت بانجذابهما إلى بعضهما البعض.. وافقت وأنا أشعر بسعادة، لأن هناك مشروع حب ينتظر صديقتي العزيزة، التي تضرب حول نفسها أسواراً أخلاقية عملاقة تحجبها عن أي فرصة حقيقية للالتقاء نصفها الآخر.. نصفها الآخر؟! وهل وجدت أنا نصفي الآخر أو أنني وجدته ومات؟!!

في مطعم برستيج تحلق ثلاثتنا، بعد حديث مرح شعرت معه منى بالخجل ونحن نركب التاكسي في طريقنا إلى المطعم، جلسنا ونحن مازلنا متأثرين بحديثنا هذا، حيث كانت منى غارقة في خجلها، خاصة عندما ورطتها في الجلوس إلى جوار عمر في الجانب المقابل لي: (عيب عليك يا شيخة هانسيب الراحل قاعد لوحده؟!.. اقعدي إنتي جنبه)، لم تستطع المسكينة أن تتقوه بكلمة واحدة، وظلت واقفة مرتبكة بعد أن جلست أنا وعمر متقابلين على الطاولة، ف شعر عمر بها وقال في محاولة للدفاع عنها: (طيب ما تيجي إنتي تقعدي جنبي اشمعنى منى؟!)، فقلت بشقاوة أصبحت صفة رئيسية لي مع تطورات شخصيتي الجديدة: (لا يا اخويا أهلي يقطعوني!)، ضحكنا جميعاً وتشجعت منى لتجلس إلى جوار عمر. لم يمض وقت طويل حتى فوجئت بحضور ذلك الرجل، الذي كان يقف مع منال حلمي في ممر حجرات الفنانين بالمسرح الصغير، أخذتني المفاجأة، ووجدت أنفاسي تتوقف وتعبئ صدري، بينما جسدي يعاوده اشتعال أمس، ولحظتها فقط أدركت أنه هو ذلك الرجل المبهم الذي كنت أدعوه طوال أمسياتي المؤرقة!

عارف منصور.. الأديب العراقي الشهير، والهارب منذ عشر سنوات إلى ألمانيا، بعيداً عن ظلم وقهر النظام العراقي، الذي هددته لما يكتبه بجرأة عن واقع العراق المؤلم.. هو نفسه الرجل الذي خطف بصري واحتجز أنفاسي واستأثر بدقات قلبي، منذ اللحظة التي رأيته فيها مع منال حلمي، وهو نفسه الذي جلس على المقعد الفارغ إلى جوارى، لنتحلق أربعتنا حول مائدة عمر راضي، التي أعدها ليخط أول سطور قصة غرامه مع منى، لكنه ودون أن يدري خط أول سطور قصة غرامي مع عارف، الذي هبط علي كنسر مجنح من أعالي السماء، ليأخذني بين مخالبه طائراً نحو جزيرة ذات ملامح لم أكن أتخيل يوماً أنني سأحملها على قسماط وجهي ذات يوم.

بمجرد أن حضر عارف إلى برستيچ، واقترب بقامته الفارعة وملامحه الآشورية الأخاذة، رسم على وجهه ابتسامة غير مكرثة لأي من الجالسين - أقصد أنا ومنى! -.. كان يبدو أنه في مهمة رسمية، أو مؤدياً خدمة طلبها صديق، فلقد رغب عمر على ما بدا لي في أن ينفرد بمنى بما يتفق وتقاليدهما المتحفظة، فأحضر لي أنا المحرم الشرعي الذي رغبت فيه منى رفيقاً يلهيني عنهما! كنت أفهم تماماً قواعد اللعبة بمجرد أن رأيت عارف ونظرتة اللامبالية، وتعريف عمر السريع به، ثم تقديمي له بأني الصحفية الفنية الشهيرة أحلام السيد.. ابتلعت ابتسامة، ولكن بمجرد أن جلس عارف إلى جوارى، وبدأ تأدية المهمة التي جاء من أجلها قلت له: (أنا مش صحفية شهيرة ولا يحزنون! أنا هنا بالعب دور محرم شرعي لمنى!)، حينها نظر إلي عارف بعينين لمعتا فجأة، وكأنه اكتشف حضوري الحقيقي فقط في تلك اللحظة، وأجابني: (بالتأكيد صحفية مشهورة.. إنت اسمك أحلام فعلاً؟)، انطلقت ضحكة عابثة مني خجلت منها فور إتمامها، ثم قلت وأنا لا أستطيع السيطرة على نبرتي الساخرة: (اسمي في شهادة الميلاد

أحلام، ولكن اسمي الحقيقي أوهام!)، (ولما تكونين إنت أوهام لعد شلون يكون الحلم؟!)، أخذتتي كلماته وحضوره الذي يأسرني منذ البارحة قبل حتى أن أراه، فوجئت بدمائي تتجمع كلها في قلبي الذي أخذ يدق بأعلى صوت لديه، دافعاً بالدم إلى رأسي حتى خلته سيخرج من عيني فوراً، أصابني الارتباك، ودون أن أدري نظرت إليه بهيام حقيقي.. لم يرحمني عارف فقال وهو يمد كفه ليمرر أصابعه على خدي بلمسات فراشية: (شبيكي؟!)، لم أكن حينها أفهم اللهجة العراقية جيداً، فقلت له ولساني يتعثر في النطق: (نعم؟!.. تقصد إيه؟!)، ابتسم وعاد برأسه إلى الوراء، وقال وهو يضغط على الحروف محاولاً التحدث باللهجة المصرية: (مالك؟!.. إيه اللي بيكي؟!)، (واللهي؟!.. شبيكي معناها مالك؟! إمامم.. تعبير جديد جداً عليا.. أبداً ماليش.. مش عارفة ليه مش عارفة أكلمك، مع إني رغبة جداً وباتكلم عمال على بطل!)، (هاهاهاها.. أول مرة أشوف واحدة تقول على نفسها رغبة!)، (يعني.. الاعتراف بالحق فضيلة!).

تهت معه في الحديث، وشعرت بأنني أسلم له قيادي طوعية، حيث تحولت إلى مجرد رد فعل لكل ما يأتي به، فلا أبادر أنا إلى فتح أي موضوع ولا سؤاله عن أي شيء، فقط أجيب وأنتقي ما يمنحني إياه من معلومات بفرحة وهدوء.. سألني عن عمري فأخبرته بأنه ستة وعشرون عاماً، فقال لي ضاحكاً (ياااااااا ستة وعشرين!.. لازم عاد تقولي يا عمو عارف!)، نظرت إليه متسائلة فقال:

أنا عمري أربعين.. عرفتني ليش لازم تقولين لي يا عمو؟!

لا مش لازم أقولك يا عمو لأن جوزي أكبر منك.

كان تصرّحي أنني متزوجة صادمًا له، حيث نظر إليّ بالم

حقيقي وقال:

- إنت متزوجة؟

- أيوه.. للأسف!

- ليش للأسف؟!.. إنت مو سعيدة بزواجك؟!

ووجدتني ولأول مرة منذ تزوجت سالم أبوح بكرهي العيش معه، فلم أكن أتحدث حتى مع أمي، التي كانت تشعر بتعاستي ولا تأخذ مني سوى نظرات متألّمة في صمت. أخذت أقص عليه حكايتي مع سالم وكيف تزوجته، لم أت على ذكر سعيد أبداً، فلقد كنت حتى ذلك الوقت أخاف من ترديد ذكراه علناً، حتى لا أقع في دائرة الانهيار التي كنت لا أرغب في دخولها، اكتفيت بالقول أنني مررت بتجربة حب فاشلة استغلها سالم ليدخل إلي بسهولة ويتزوجني، أخبرته عن ابنتي وكيف أنني أشعر بالحزن عليها لأنها لا تعيش حياة سوية بين أبيها وأمها، برغم أنني أبقى على زواجي بسالم حتى لا تكون ابنة لأب وأم مطلّقين.. أخذ عارف يستمع إلي وعيناه تفيضان حناناً لم أئله منذ سنين طويلة، شعرت به وكأنه واحة ظهرت فجأة في هجير الصحراء القاحلة التي أحمل أيامي على كتفي وأسير فيها موجعة تماماً، لا أدري الآن إن كان عارف قد استغل ضعفي وإعجابي به لصالحه، لكنه في ذلك الوقت بدا لي كملاك يفرد جناحيه على حدودي ليؤمنها ويحتويني داخله، هذا الداخل الرحب الذي اتسع لي وفاض، متيحاً أماكن عدة للضامئين ومنهكي القوى أمثالي!.. بعد أن أنهيت قصتي مع سالم، قلت له محاولة إضفاء بعض البهجة على حديثنا الذي حولته إلى بقعة حزن: (وتوتة توتة فرغت الحدوتة.. مش قللتك إني رغبة؟!)، (لا أبداً عزيزتي إنت جميلة مثل الوردة المندية في الصباح).. لم أكن أتخيل أن هناك رجلاً على الأرض لديه هذا المخزون الغزلي الرائع، لأنني وبكل بساطة لم أكن أعلم أن هذا هو أسلوب العراقيين في الحديث مع النساء أياً كن، لكن ما أعلمه جيداً أن كلمات عارف تلك أخذتني إلى أعالي

السماء، لأفرد لأول مرة جناحي وأطير، فحتى مع سعيد لم أشعر بهذه
المشاعر، حيث كنا مكبلين بأحلامنا من أجل الوطن، حتى ونحن في
قمة لحظاتنا العشقية!

انتهت جلستنا في تلك الليلة بمطعم برستيج بشكل مفاجئ، فلم أكن أتوقع أن ينهي عمر بنفسه السهرة بمثل هذه السرعة، لكنني توقعت أن تكون منى وراءه وهذا ما تأكدت منه بعد ذلك، ربما لم يحزني تصرف منى إلا لأنها حرمتني بتلك السرعة الجلوس إلى جوار عارف، حتى إنني تخرجت من طلب رقم تليفونه، كما أنه لم يبادر إلى طلب رقم تليفوني أو معرفة طريقة الوصول إلي، كل ما حدث هو أننا توجهنا بصمت إلى خارج المطعم، وأوقفنا تاكسي أوصلت منى أولاً إلى منزلها ثم أوصلتني، ليكمل عارف وعمر المشوار بعد ذلك إلى لا أدري أين. ظلت شهرًا كاملاً لا أعرف شيئاً عنه، حتى عندما قابلت عمر لإجراء الحوار الصحفي لم أمتلك الجرأة الكافية لسؤاله عن عارف، كل ما تحدثنا عنه خارج سياق الحوار هو منى، التي صرحت لي أنها غير مستعدة لإكمال علاقتها بعمر دون خطبة رسمية، وهذا ما أبلغته عمر، مغلفة إياه بشرح مبسط ورقيق لشخص منى وقناعاتها في مسألة العلاقات بين الرجل والمرأة.. كان عمر متفهماً جداً طبيعتها تلك، بل أبدى احترامه الشديد لها، وأبلغني أنه سيقوم بما يجب عليه القيام به.

شهر كامل لم أعلم فيه أي شيء عن عارف، وحتى منى وعمر لم أعلم عن تطورات علاقتها أي شيء، ولم تتصل منى لتبلغني أي خبر خاص بقيام عمر بزيارتهم في منزلهم لخطبتها، أعترف بأنني لم أنشغل كثيراً بمصير منى وعمر، فقد دخلت في حالة هوس غير محتمل بحضور عارف الطاغي داخل لحظاتي اليومية، ولم أفكر من الأساس في شكل علاقتي به وأنا متزوجة سالم، كيف سأحبه وأمارس معه عشقي وأفرغ معه رغبتني المزدادة اشتعالاً وأنا أمام الدنيا امرأة سالم؟!.. لم تنتبني أي مشاعر بالقلق أو الخوف من أي تطورات

قد تحدث لهذه العلاقة، فقط كنت أفكر فيه وأحلم به كل ليلة وأنا أندس إلى جوار جسد سالم البارد في الفراش، ومع ذلك كنت أبيت كل يوم بجسد كالجمر يتوق إلى ماء عارف كي يببله ويهدئ من حرارته!

شهر كامل انقطعت فيه تماماً أخباره، أو ربما كان هذا أمراً طبيعياً جداً، فعارف لم يكن جزءاً من حياتي يوماً، وأنا لم أكن أفعل طوال هذا الشهر سوى إكمال مسار حياتي الطبيعية التي انتهجتها، منذ أن قررت أن أركز في عملي وأحاول تحقيق أي نجاح في الحياة، حتى لو لم يكن هذا النجاح جزءاً من أحلامي السابقة. مع نهاية الشهر كنت قد بدأت نسيانه، أو بمعنى أصح الرضا به كوهم جميل أطل علي من مسرب ضوء كاد أن يضيء حياتي، لكنه كالعادة اخترقني كشهاب أضاء عمري كله لحظة سريعة وانطفأ.. وفي غمار انشغالي بالعمل، وانكفائي على مكتبي المحشور في أحد أركان صالة مجلة جماهير الفن بمؤسسة الجماهير، زغرد التليفون المستقر أمامي وهو يزف صوت عارف عبر سماعته، تناولت سماعة التليفون بتراخ وقربتها من أذني، حيث كنت أتأذى من الأصوات العالية التي تخترقني دائماً عبرها، لكن وعلى غير العادة انبعث صوت مغرد يقول:

هاللو عيني!

ألصقت السماعة على أسطوانة أذني، ونهضت من على مقعدي، بينما كفي الأخرى تعين الأولى على تثبيت السماعة على أذني حتى لا يفوتني حرف من الذي سيتقوه به، وعندما مرت اللحظات دون أن أجيب بشيء قال:

- أحلام.. إنت أحلام؟!

- أيوه أيوه أنا أحلام.. وانت عارف مش كده؟!

- إي أنا عارف.. شنو أخبارك عيني؟! شلونك وردة؟!

- أنا كويسة كويسة قوي.. وانت عامل إيه؟!

- أنا زين الحمد لله.. اشتاقيتك كثير.

لم أعرف كيف أجيبه وهو يجود علي بكل هذا الحنان المنبعث من فمه العذب، لم يخاطبني أحد بمثل هذه الطريقة من قبل، ولم أكن قادرة على استيعاب كل هذا الكلام الذائب في إكسير عشق معنق، فما كان مني سوى أن أجبته ولساني يتعثر في كل كلمة ينطقها:

أأن.. نا كك.. ممان مشتقالك قوي!

يعني بعدك تذكريني أحلام؟!

صعب أنسى!

شنو رأيك تجين عندي البيت؟!

لم أفكر في الأمر وأجبتته من فوري: (إنت ساكن فين؟).

أخذت عنوانه حيث يستأجر شقة مفروشة في الزمالك، وللمت أوراق المبعثرة على المكتب ثم دسستها في الدرج، واختطفت حقيبتتي وجريت نحو الشارع لأوقف أول تاكسي تمر بي لتأخذني إلى عارف، حيث لم أفكر في ما سأفعله لديه في منزله، بل لم أفكر إن كان ذلك صحيحاً أم لا! تحولت دون أن أعي إلى أحلام أخرى، غير تلك التي أعرفها صاحبة القوانين الأخلاقية الصارمة، أحلام لا تعرف سوى أنها تريد عارف وبأي ثمن!

وأنا أدخل باب البناية التي يقطن فيها رأيت منال حلمي تفتح سيارتها الواقفة أمام البناية لتركبها وتمضي، شيء ما ألقى بثقل كئيب على صدري، لكنني لم أعبأ كثيراً بالأمر، برغم أنها لم تكن المرة الأولى التي أرى فيها منال في حيز عارف المكاني، صعدت من فوري إلى منزله، وبمجرد أن ضغطت على زر الجرس فتح الباب من فوره، أطل

عارف كإله أسطوري مهيب لم أستطع مع رؤيته النطق، أعلم جيداً الآن ما بدوت عليه، فلا بد أن عيني انفتحتا عن آخرهما في محاولة لاستيعاب كل هذا الضوء المحيط به، وغرقت في صمت يعود إلى انعقاد لساني، الذي لم تفك عقده إلا بعد أن هدأت قليلاً وأنا جالسة على الأريكة التي تنصدر صالة منزله، تلقاني عارف بين ذراعيه الدافئتين، حيث شعرت وأنا بينهما كأني عصفور بلله المطر وظل يرتجف، حتى اهتدى إلى عشه في عتم انقضااض السحاب على نهارات الشتاء.. سحبنى عارف بكفه نحو الصالة دون أن ينبس بكلمة واحدة، فلقد اكتفى بتأثير وجوده أمامي الذي من المؤكد أنه لاحظته، اختفى قليلاً في المطبخ بعد أن أوصلني إلى الأريكة، ومن هناك قال برشاقة: (شنو تشربين؟!)، (أي حاجة.. ما تتعيش نفسك)، (إنت تتعيبيني؟! والله ما دخل هذا البيت أحد أهم منك)، (مش للدرجة دي يا عارف ما تبالغش!)، (أنا ما أبالغ عيني أنا أقول الصدق.. مصر كلها ما فيها أهم من أحلام بالنسبة إلي).

خرج بعد دقائق حاملاً صينية عليها كوبان من الشاي، وبمجرد أن وضعهما على الطاولة وجلس إلى جوارى، اكتشفت أن لون الشاي فاتح جداً ولا يصل إلا إلى نصف الكوب، فقلت له مداعبة:

إيه ده؟! إنتم ماعندكومش شاي وميه كفاية ولا إيه؟!

غرق في الضحك ونظر إلي بعينه المظللتين بغابة كثيفة من الرموش ونظرته المتراخية الناعسة:

إي.. والله نسيت إنكم تحبون الشاي مثل عيونكم وتشربونه غامق!

اسمه ثقيل مش غامق.. آمال إنتم بقى بتشربوا إيه في العراق؟!

شاي لكن مثل ما انت شايقة.. أعتقد هالشكل يكون صحي
أكثر!

الناس بتشرب الشاي عشان تستمخ مش عشان تحافظ على
صحتها!

غرق مرة أخرى في الضحك ثم قال:

أنا أموت على طريقتك في الكلام.. كثير حباية!

واللهي إنت اللي كتير حباب!

لم أدر كيف قلت هذه الكلمة، لكنها كانت قد قيلت وقضي
الأمر، اقترب بعدها عارف مني ومرر أصابعه على شفتي قائلاً:

شفايفك حقيقية مو صحيح؟!

لا وهم! زي ما كلي على بعضي وهم!

لا والله هم بها الجمال من غير عملية تجميل؟!

عملية تجميل؟!

إي كل النسوان يسوون عمليات تجميل في شفايفهم حتى
يصيروا مثل شفايفك بها الروعة اللي إنت فيها!

لم يلحظ أحد من قبل شفتي، لم ألحظهما أنا نفسي من قبل،
لم ألحظ روعتهما حتى عند القبل، فقط عارف هو صاحب السبق في
اكتشاف جمال شفتي، اكتشفهما بالنظر ويلمسة الأصابع وباحتوائهما
بين شفتيه.. لا أدري كيف ذبت معه في موجة عارمة من القبل،
امتدت معها يده لتفك أزرار قميصي، سابعة بين وعلى نهدي، لتتسل
بهدوء نحو قفل حمالة صدري فتحله، لينفرط عقد هذين النهدين
المكبلين منذ زمن! لم يداعب سالم صدري من قبل، كان ينقض بعضوه

على فرجي ليفرغ شحنة معبأة داخله، ثم يقوم من فوره إلى الحمام!.. لم أشعر مع سالم من قبل بأن للجنس وجوهاً ساحرة مثل تلك التي رأيتهـا في تلك الليلة على يدي عارف، برغم أننا لم نصل إلى الإيلاج، مر الأمر كله علي كأن فراشات الكون حطت على جسدي تلامسه بأجنحتها وأنا عارية تماماً ونائمة في مرج أخضر، تحيط بي الزهور وأفرع الشجر المنسدلة تحتك بجسدي وتؤكد غضاظته وعذريته.. نعم لقد كنت بين يدي عارف عذراء تماماً لم تختبر جسد رجل، وكان عارف هو ذلك الرجل الذي فتح باب العذرية ليحولني إلى امرأة مكتملة.

مرت علي اللحظات بين يدي عارف وأنا غائبة تماماً عن حقيقة كوني زوجة لآخر - مهما كان ذلك الآخر -، حتى أفقت فجأة، ولا أدري ما الذي أفاقني ووضع الواقع المؤلم كله أمام بصيرتي، انتقض جسدي بين يدي عارف، ووجدتني أدفعه برفق بعيداً أصابه هو نفسه بالتوتر، نهضت ألملم ملابسني التي تفتحت كلها، وإن كانت مازالت مستقرة فوق جسدي.. (شنو صار؟!) قالها منزعجاً، (أنا ضايقتك في شي؟!)، لم أجب أكملت إغلاق ملابسني، وكبحت جماح جسدي بين الأقمشة، ثم جريت نحو حقيبتني التي كنت قد وضعتها على واحد من الكراسي عند أول الصالة.. كل هذا وعارف جالس على الأريكة لم يتحرك وينظر إلي بذهول، التفت إليه بعينين كسيرتين وقلت: (أنا متجوزة يا عارف!.. أنا متجوزة!)، وضع كفه على رأسه، ثم أشعل سيجارة وعاد بظهره إلى الـوراء ماداً ساقيه إلى آخرهما، كان ممدداً تماماً أمامي وعلى وجهه عبوس لم أستطع مواجهته، أخفضت بصري نحو الأرض وقلت: (أنا آسفة.. لكن أنا مش كده خالص.. أنا مش عارفة أنا جيت إزاي أصلاً؟!)، نظر إلي بطرف عينيـه وقال: (إنت تحبيني؟)، أجبته بسرعة ودون تفكير وأنا أضغط على الحروف

مؤكدّة: (بحبك أوي.. مش عارفة إزاي.. بس بحبك!)، أطفأ السيجارة واقترب مني واضعاً كفيه على خصري، ثم قال: (ما فانت علي لحظة فكرت فيها إنك ست رخيصة، بالعكس من يوم ما تركتك في ليلة حفلة عمر وأنا أشوفك براءة وطهارة ما شفت مثلاً في حياتي.. براءة محتاج إلها بعد سنين من الدنس اللي أحاط بيه من كل اتجاه.. ما أقصد دنس نساء.. لا.. دنس عالم كله زيف وتمثيل وما في حقيقة أبداً ولا إخلاص.. أحلام أنا من يوم شفتك وإنت بالنسبة لي وطن.. وطن انحرمت منه من عشر سنين ومو لاقى تعويض عنه.. مو لاقى نور مثل نور شمس.. مو لاقى عطف مثل عطف شوارعه وأهله.. أحلام أنا طول فترة غيابي بلندن الشهر الماضي وأنا ما أفكر إلا بيبك، ولا أريد إلا إنت، ولا أحلم في الليل غير بشفايفك ووجهك الطيب)، لا أدري لماذا تشبثت فقط بكلمة وطن، ربما لأنني محرومة من وطني برغم أنني أعيش فيه.. لا أدري! لكني لم أرد أياً مما قاله سوى كلمة واحدة: وطن، حيث خرجت مني في صيغة تساؤل: (وطن؟!)، (إي وطن.. إنت ما تدرين عن قيمتك شي.. إنت تسيرين كوطن كامل في قمة انتصاره.. ها اللحظات اللي قطعتها كانت كأني أتمرغ على تراب بلادي وأسير في دروبه، كانت كأن دفء شمس بغداد كله أحاطني وأخذني بين ذراعيه.. لا تحرميني منك يا أحلام.. لا تتفيني بعد ما نفاني العراق!).

لا أدري ما الذي قلته له، لكن كل ما أتذكره أنني مضيت، بعد أن ثبت على موقعي بأنني لا يمكن أن أكون بين يدي رجل حتى لو كان هو، وأنا مازلت أمام الناس كلهم مرتبطة بصك زواج موثق في المحكمة، لكني لم أستطع أن أوقف دوران رأسي بسؤال واحد فرضه علي تراث قديم حملته أُمي على ظهري منذ الطفولة: (هل زنيّت؟!.. هل أصبحت زانية?!)، كنت أسأل السؤال ولا أجد له إجابة، لأعود

وأسأله مرة أخرى: (هل أصبحت امرأة ساقطة.. زانية؟!.. هل يغضب الله علي الآن ويعد لي حجرة في جهنم؟! حجرة مخصصة للزانيات أمثالي؟!).. أسأل السؤال لأجيب أحياناً بأن لا، أنا لم أزن لم يكتمل الجنس بيننا، الزانية هي التي تسلم نفسها تماماً لرجل دون زواج، لأعود وأتهكم على نفسي قائلة: (وانتي كنتي عايزة إيه يحصل أكثر من اللي حصل ده؟! كان ناقص بس..).. كل هذا وأنا عقب كل طرح للسؤال أغرق في تخيل لذيتي لذاتي بين يديه، ويهب علي نسيم يحمل عبق عطره، حتى إنني أصبحت أتوهم جواره مع كل نسمة تخرق أنفي أشم معها رائحة ذلك العطر، وكأن رجال الدنيا تكتلوا علي وأصبحوا يستخدمون نفس العطر!

مرت علي أيام لم أعدها وأنا تائهة تماماً بين سؤالتي الذي لا جواب له، ورائحة عطر عارف التي تحاصرني أينما ذهبت، حتى جاءني رنين جديد يحمل معه صوته الذي لم يكن سوى تدميراً حقيقياً لكل حوائط دفاعي، دعاني تلك المرة إلى ندوة يعقدها المجلس الأعلى للثقافة لمناقشة روايته الأخيرة (امرأة عصرية)، ووجدتني لا أستطيع فعل أي شيء سوى الذهاب.. ذهبت وأنا أنشد نداءه إياي، نداء لا أعرف ما الذي سيأخذني إليه، لكنني كنت مسحورة تماماً بشخصه، فاقدة أي وعي أو قدرة على التفكير سوى فيه، فيه وحده ولتتهر كل العوالم الأخرى التي أنتمي إليها من دونه، فلتنقض حوائط سالم عليه، فلتذهب ابنتي إلى أي مكان غير مكاني، فلتمت أمني كمداً بسببي، فليذهب عملي أدراج الرياح ولا يعود، فلينبذني المجتمع ويلفظني، فليسقط كل شيء في سبيل الحصول على لحظة واحدة يجمعني فيها القدر بعارف، حتى لو كانت ضد قوانينه الصارمة!

ذهبت وحضرت حضوره الطاعي على كل ما عداه.. الكل صامت في حضرته، الكل يستمع إليه وهو يقرأ بعضاً من صفحات

روايته.. كل امرأة جالسة كانت ترغب في أن تكون هي تلك المرأة التي يرونها بكل تفاصيلها حتى الجسدية، وإن كن لا يملكن تلك المواصفات!.. كان الرجال في الندوة ينظرون إليه بحقد لم أبرره سوى بأنهم لا يعرفون كيف يحبون المرأة ويصفونها وينصفونها، كما يفعل عارف في كل كلمة خطها في روايته، أما الناقدان الكبيران اللذان حضرا ليناقتشا الرواية، فقد تضامنا مع كل سطر فيها، وانها لا عليها بالمديح إلى درجة لم أفكر في سببها آنذاك، فهذان الناقدان يعدان من كبار النقاد في مصر، واللذان من الصعب على أي أديب الحصول على واحد منهما كي يحضر فقط ندوة لمناقشة روايته، حتى لو كالا لها كل دم، فحضورهما يكفي لأن يتم الاعتراف بالعمل الأدبي، لم أفكر في من يقف وراء كل هذا، ويحشد كل هذا الجمهور ليحضر مناقشة رواية لأديب عربي، لم يحقق أي شهرة عالمية أو حتى عربية! كل ما فكرت فيه أنه بالفعل أديب عظيم، وتأثرت بهذه الفكرة حتى وأنا أقرأ له فلم ألحظ كل عيوبه كأديب، فقط حملت صفحات كتبه كل عشقي له، فلم أر غير أديب يفوق حتى نجيب محفوظ وماركيز!

بعد أن انتهت الندوة وانفض الجمهور المهيّب، الذي لم أر مثله في ندوات أدبية أخرى، اقترب مني عارف وهو يصطحب عمر الذي كان حاضراً أيضاً وقال:

ها حبيبتي عجبك الندوة؟!

جداً.. أنت كنت رائع.. ممكن تديني نسخة من الرواية؟!

طبعاً عيني كل حرف كتبه اعتبره ملكك من هسه!

كنا نتحدث معاً وكأن عمر غير موجود بالمرة، ففتحنا وقال

مبتسماً:

على فكرة يا أحلام عمر راضي بيسلم عليكى خالص، وبيقولك إنتي ما بتسألش عليه ليه؟!!

قال كلماته وضحك فشاركناه في ضحكاته، لكن عيوننا كانت معلقة ببعضها البعض، وشفاهنا ترسل قبلات عبر ذرات الهواء الذي يفصل بين جسدنا المتقابلين.. تمشينا مع عمر حتى خارج المبنى، وبسرعة أشار عارف إلى تاكسي ليركبها عمر وحده، لكني تنبتهت لأنني لم أسأل عن أمره مع منى، فأشرت للتاكسي أن تمضي، ثم التفت إلى عمر وسألته كمن تدارك أمراً غائباً عنه للتو:

عمر.. أخبرك مع منى إيه؟!

نظر إلي عارف نظرة لائمة لم أفهم سببها، لكن مسحة الحزن التي كست وجه عمر أنبأتني بأن الأمور ليست على ما يرام، تخيلت للوهلة الأولى أن منى أفسدت كل شيء بسبب أفكارها، ولكن عمر أوضح الأمر فقال وهو يحاول أن يظهر لامبالياً: (أبداً أهلها رفضوا يقابلوني لأنني أعمى)، شد عارف بكفه على ذراع عمر الذي يتأبطه ونظر ساهماً إلى الأرض، بينما انعقد لساني وضاعت مني كل المفردات.. تقابلت عيناى وعينا عارف نتبادل مشاعر الأسى، حركت رأسي وسألت بعيني ما الذي يجب أن أقوله، أعفاني عارف من مشقة الكلام، وقال محاولاً ارتداء قناع اللامبالي هو أيضاً ليتضامن مع صديقه: (الحقيقة أهلها ما يفهمون، وعمر ما تهمة هاي الأشياء)، لكن عمر ربت بكفه على ذراع عارف التي تتأبطه، وكأنه يعفيه من حمل عبء ثقيل، قائلاً: (لا يا عارف منى تهمني، وأهلها أخذوا الموقف الطبيعي اللي أي أب وأم بيحبوا بنتهم كان لازم ياخدوه)، حاولت التدخل مدافعة عن فقده البصر، لكنه أشار إلي بكفه أن توقفي، فابتلعت كلماتي التي لم أكن أدري كيف سأصوغها، ثم طلب منا أن نشير إلى تاكسي كي يلحق بمواعيد لديه، وما أن توقفت التاكسي حتى

غاب عمر عن بصرنا.. بصرنا الذي يضعنا في الصفوف الأولى من البشر دون أن نستحق، في هذا المجتمع وهذه الدنيا!

مضيت أنا وعارف يحتضن كلانا ذراع الآخر دون أن نفكر في نظرة الشارع إلينا، دون أن أفكر في ما يمكن أن يحدث لو رأي أحد معارف سالم أو معارفي، فقط اكتفيت بحنو احتضان ذراعيه وكفه جزءاً من جسدي الذي كان يشده كله.

في نهاية الشارع نظر إلي عارف مستفسراً وراجياً في نفس الوقت، وبعد هنيهة سألتني إلى أين سأذهب، أجبته بلسان متردد أنني سأعود إلى المنزل، وأنا أنتظر دعوة منه إلى أي مكان في هذا العالم، كانت أعيننا متعلقة ببعضها البعض، لم يبرح أي منا مكانه أو حتى يقوم بحركة تدل على الذهاب، حتى نطق أخيراً قائلاً: (أعرف أنك ما تحبين تجين عندي البيت، بس ما في مكان آخر ممكن يساعنا غيره.. أوعدك ما راح يصير شي)، لم أجبه، فقط تأبطت ذراعه وذهبت معه إلى منزله.

لم يكن من السهل مقاومة حضوره إلى جوارى في مكان لنا فقط دون أي إنسان آخر على وجه الأرض، كنت أنشد تلك الشفتين اللتين أخذتاني من عالمي القاسي وغرزتاني في عالم حان مفعم بالغضاضة، حريري الملمس حتى لو كان كل شيء فيه مصنوعاً من وبر جمال! كان وجود عارف أشبه بصلاة دائمة وتراتيل ملائكة تفرد أجنتها بين الأرض والسماء.. مازلت أذكر ذلك الوجود حتى الآن وأستعيده داخلي، وأحلم بعودة ولو ثانية واحدة منه، برغم كل ما أبصرته وقاسيته. في ذلك اليوم وبعد أن وصلنا إلى منزله، دخل كعادته إلى المطبخ وخرج بكوبين من الشاي أيضاً، لكنه راعى مزاجي المصري في تلك المرة، دون أن يغفل إلقاء جملة ساخرة على شاينا الأسود، لم يكن بداخلي أي قدرة على مبادلتها النكات، شيء واحد فقط

هو الذي سيطر علي في تلك اللحظة، أن أغرق في بحر جسده الهائج ليبتلعني كلي، أن أنفذ داخل مسامه لأصبح مجرد خلايا تتعشق بخلايا جسده، أن أتحد معه في لحظة ممتدة لا يمر عليها الوقت، ولا نفرغ فيها من بعضنا البعض أبداً، كنت أنظر إليه كإله قديم حضر من الماضي ليشق كل ما هو سماوي، ويستحوذ علي بكل ما في داخلي من أعصاب وخلايا.

لا بد أنه شعر بي، بل لا بد أنه كان يعلم مدى تأثيره وتغلغله في دمائي، كان يعرف وظل عارفاً لآخر لحظة وهو يذبني قرباناً في معبده.. ترك شايه على الطاولة واقترب مني على نفس الأريكة، واجهني بوجهه الإيروسى وظل ساهماً يمسح خريطة وجهي بعينيه، أسبل جفنيه لأقل من الثانية، ثم احتضن رعشة كفي بكفه وقال: (أعرف إنك ما تريدان أقترب منك.. بس ليش ها العذاب اللي تفرضينه علي؟!)، أشار نحو ذكره النافر تحت بنطاله ثم قال: (شفت لأي حد أنا أريدك؟!).. لم يكن عندي أي تعليق، لم أكن أبغي سوى النفاذ إلى جسده وعدم الخروج أبداً.. استسلمت لأصابعه المدربة جيداً وهي تحل وثاق شعري وأقمشتي التي تحتجز جسدي وتمنع عنه الهواء، تركتني كلي ليديه، لشفتيه، لجسده الذي مسح حدودي وجابها من كل اتجاه.. وتركت ذكره ليعمر دلتاي الجافة بفيض من غوث لولاه لصرت بوراً!

مع عارف عرفت وجوهاً لم أعرفها للجنس، كان يأخذني عقب كل لقاء بيننا نحو المرأة، كلانا عار لا يحجب جسدينا شيء، يطالبني بالنظر إلى جسدي وكيف أنه جسد إلهة وليس بشراً، كنت أنظر إليه وأنا أضحك واصفة إياه بالمبالغ، لكنه كان يهز رأسه مؤكداً أنه لا يقول سوى الحقيقة ويطالبني بأن أدقق النظر، يمر بكفه على كل جزء في جسدي.. وجهي، العنق، النهدين، الخصر، الردفين، الساقين، وحتى القدم، ثم يدير جسدي في مواجهته، ليركع أمامي وهو يرفع كفيه إلى

أعلى وكأنه يصلي لمعبوده، ثم يغمض عينيه ويسند كفيه إلى نهدي، يمررهما برقة متحسناً كل انحناء وارتفاع، ثم يبدأ النزول على باقي جسدي وهو يفعل نفس الشيء، كأنه ينحت جسدي من جديد، ولكثرة ما فعل ذلك آمنت بأن عارف أعاد خلق ذلك الجسد الذي أملكه، والذي صرت أراه رائعاً كما يراه.

استطاع عارف وبكل سهولة أن يفجر داخلي تلك الأنثى الغائبة، المنزوية في أكثر الأماكن إظلاماً في داخلي، تلك الأنثى التي قتلها المجتمع وغطاها، تلك الأنثى التي يرفضها العالم كله ويطالبها بأن تكون رجلاً مسخاً حتى يسمح لها بالمرور.. أضاء عارف ظلمة أنثائي المكبوتة، فصرت أحب النظر إلى المرأة، وبدأت الاعتناء بنفسني وشراء ملابس أنثوية تصرح كياني كامرأة، عرفت كيف أضحك بملء ذاتي، وبدأت ألحظ زقزقة العصافير على الشجر، وتغير الفصول وتعاقبها واخضرار الربيع، وروعة اصفرار أوراق الخريف.. عرفت كيف أكون أما ترعى ابنتها وتمضي معها وقتاً جميلاً، دون أن تشعر بأنها تؤدي واجباً مفروضاً عليها.. باختصار فتح عارف لي أبواب حياتي التي كانت مستغلقة علي.

توالت زياراتي إلى عارف في منزله، لم أكن أستطيع وضع حد لرغبتني فيه وتماهي ذاتي في وجوده حولي، كان اليوم الذي يمر علي دون أن أراه يعد يوماً ضائعاً، أهيم فيه على وجهي لا أدري ما الذي يجب علي فعله! أمسك القلم ليظل واقفاً عند نقطة واحدة على الورق، أو أظل ساهمة أمام ابنتي لا أعرف ماذا أفعل لها حتى ترشدني هي بكلماتها الصغيرة إلى ما تريد بالتحديد، أما أمي فقد لاحظت أنني أكثر سعادة وأحالت الأمر إلى تحسن تشهده علاقتي بسالم! سالم الوحيد الذي لم يلمس أي تغيير علي، لأنه ببساطة ليس موجوداً معي، هو في كل مكان إلا معي، ولا أراه إلا جسداً على الفراش ليلاً أو نهاراً عندما أستيقظ قبله.. كان لجمود علاقتي بسالم أثر مهم في داخلي وأنا أتمادى في عشقي رجلاً آخر غيره، فقد كان مجرد زائر أو شبح عابر خلال يومي، لا يتجاوز وجوده الساعة، بينما ابتعد تماماً عن جسدي غير راغب فيه، ولو بقبلة يتم إجباره عليها من قبل ابنته.. (بابا.. بوس ماما)، يضحك ساخراً ثم يقول: (ماليش نفس يا حبيبتي! بوسيه انتي بالنيابة عني!)، تضحك البنت ثم تقبلني وهي لا تفهم ما يرمي إليه أبوها بكلماته، فلقد انتهج سالم خطة طويلة الأمد، عندما لم تجد معي أساليب العنف التي اتبعها من أجل الحصول على راتبي وإخضاعه لإرادته ورغباته، فقرر معاقبتي بأن يهملني كزوجة لها حق عليه، لم يكن يدري حتى قبل ظهور عارف في حياتي أنني عفته كوجود ذكرى في دنياي، ولم تكن ملامسته إيائي سوى عقاب جسدي أتحمله صاغرة، فقط لاعتقادي أن هذا حقه الشرعي الذي يجبرني عليه صك عبوديتي الذي يمتلك به جسدي أمام القانون!

دارت حياتي آنذاك في فلك عارف، كنت أجود من عملي لأنال إعجابه أكثر، وأعكف ليالي لأقرأ كتبه ومقالاته التي انتشرت في الدوريات الأدبية وحتى الجرائد اليومية والأسبوعية، يكتب تارة عن التراث العراقي والآثار العراقية التي تعود إلى الحضارات البابلية والآشورية والأكادية، ويكتب تارة أخرى عن الوضع السياسي في العراق مكيلاً للنظام العراقي كل هجوم ولوم، بل إنه لم يترك الموسيقى والغناء والمسرح، وحتى السينما العراقية التي لم أسمع عنها من سواه، ليكتب عنها مقالات، ذاكرًا حقائق تاريخية مثيرة ألبت عليه المثقفين في مصر متهمين إياه بالغش والتزوير في التاريخ.. استطاع عارف في مدة وجيزة أن يحتل صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون، إما كاتباً أو ضيفاً أو مشاراً إليه من قبل الرافضين له، والذين أطلقوا عليه لقب (الظاهرة العراقية في القاهرة). كنت أصدقه في كل ما يقول ويكتب، حتى لو كان مناقضاً حقائق تاريخية مصرية مدونة منذ القدم، فلقد استطاع عارف بكل سهولة أن يغشي بصري وبصم أذني عن سماع أي حقيقة أخرى سواه، كنت كالمنومة التي يتم تسيرها من قبل منومها، لا أرى سوى ما يريد أن يريني إياه، ولا أسمع إلا ما يسمعني، وبسببه دخلت مناقشات عديدة مع الكثير من المثقفين المصريين، الذين حاولوا أن يفتحوا عيني على الحقيقة التي كان عارف يزيّفها بما يكتبه، ويؤكدون لي أنه صناعة أمريكية مثل الكثير من المعارضة العراقية التي يتم الدفع بها إلى الصفوف الأمامية، لترويج الأكاذيب والقضاء على الثقافة العربية برمتها، التي قادتها مصر منذ عهد محمد علي في المنطقة كلها، لكنني كنت أدفع أمامهم بحجة، وهي أنه لو كان مثلاً يقولون لماذا يتم الاحتفاء به في القاهرة ولم يعيش في الخارج، حتى أجابني شكري محفوظ أحد الناشطين السياسيين:

- لأنه مش منتج للثقافة والإبداع الأصيل ما تمش الاحتفاء بيه في الغرب وتم الدفع بيه لهذا.. لمصر، وعلى فكرة لازم تعرفي إنه موجود بدعم من الحكومة المصرية نفسها ممثلة في وزارة الثقافة.

إزاي يعني؟!.. تقدر تقولي إزاي وهو بيتكلم كل يوم عن النظم السياسية العربية العميلة وعلى رأسها النظام العراقي؟!!

بالظبط زي ما قولتي على رأسها النظام العراقي.. الحكومة المصرية حالياً من مصلحتها أو من أهدافها تسويء سمعة النظام العراقي، عشان تموت أي مقاومة أو احتجاج شعبي مصري على ممارسات أمريكا في العراق والحصار اللي بقاله سنين هناك.

لا عارف مش كده.. عارف صديق عزيز وأنا عارفاه كويس.. عارف بيحب العراق وحزين على نفيه منه، ولو قدر يعمل أي حاجة لوطنه هيعملها.

طيب طالما هو كده تقدر تقولي لي مش بيشارك في أي حملة لجمع تبرعات للعراق رغم إنه ميسور الحال؟! أنا بنفسني اتصلت بيه في آخر مرة جمعنا فيها تبرعات للعراق عشان يشارك حتى ولو بإنه يجمع من المجتمع العراقي المخملي داخل القاهرة تبرعات ما وافقش، وقال لي إنه ضد إننا نساعد النظام العراقي بالتهوين عليه وجمع تبرعات للناس هناك!.. ورغم كل اللي قلهوله عن الأطفال اللي بيموتوا كل يوم والأدوية الناقصة وغيره، إلا إنه قال لي خليه يموتوا عشان يجيله يوم ويثوروا على الظلم!

هو قال كده؟!

أيوه قال كده!

عموماً وجهة نظره معقولة وتحترم!

يا سلام؟!.. طب قوليلي يا ست أحلام إمتى شفتي ندوة ثقافية في مصر بيتحشد لها كل هذا الكم من كبار مثقفي السلطة والجمهور.. أعظم الكتاب المصريين مش بيجيلهم في ندواتهم أكثر من عشر تنفار وغالباً بيبقوا أصحاب المؤلف!

يا سلام! إنت عايز تقوللي إن وزارة الثقافة هي اللي بتحشدله الناس كمان؟!!

أيوه وهي اللي بتحشدله أكبر النقاد عشان يناقشوا رواياته التافهة، اللي فجأة كده انتشرت دفعة واحدة على حساب وزارة الثقافة، وقال إيه كان كاتبهم وهو في ألمانيا ورفض ينشرهم في بلد غربي لأن هدفه الجمهور العربي؟!.. طيب وفي الآخر رواياته قدمت إيه للجمهور العربي؟! (امرأة عصرية) ولا (ليالي السهر البغدادية) ولا (شمس الفرات).. كلها روايات ما تفرقش عن روايات عبير وزهور بتوع المراهقين!

هو اللي يتكلم عن الحب والعلاقة الشفافة بالمرأة يبقى بتاع مراهقين وبس؟!!

معلش يا ستي مش مراهقين، لكن في النهاية هي مش أكثر من روايات عشق وغرام.. فبين بقى الوطن والسياسة والمعارضة للأنظمة العربية؟!!

ما هو بيكتبها في مقالاته.

بيعارض نظام واحد مجسد في صدام حسين.. النظام العراقي.. في حين يمدح في النظام المصري، ويحضر كل الاحتفالات الرسمية الحكومية المصرية، لدرجة إنه أصبح أبرز المثقفين المصنفين للنظام.. أبرز حتى من مثقفي النظام المصريين!

كان كلام شكري حقيقياً، كل كلمة قالها كانت حقيقية، لكني
برغم ذلك كذبت في داخلي، ذهبت إلى عارف كي أرتمي بين دفتي
ذراعيه دون أن أقص عليه كلمة واحدة من التي سمعتها، فقط قلت له:
عارف إنت ليه مش بتشارك في أي حملات لمناصرة العراق؟!
حملات مثل شنو؟!

يعني جمع أدوية ومواد غذائية وفلوس..
حبيبتي العراق مليون فلوس ما ينradله فلوس أكثر من اللي
بيه، العراق ينradله ثورة!

تقصد العراقيين يثوروا ضد صدام؟!
العراقيين خلاص تعبوا ما يقدرين يثورون.. لازم الثورة تجي
من الخارج.. من المعارضة العراقية في الخارج.
يعني إيه مش فاهمة؟!

ربت علي كتفي ونظر إلي نظرتة المذبية لخلاياي، ثم
أحاطني بذراعيه وهمس في أذني: (إنت ليش تشغلين بالك بها
الأمور؟!.. أنا أريدك وإنت معي، معي وبس، بعدين مو قلتك إنك إنت
وطني؟!).

وهكذا ظلت الأمور بيننا، لقاء مليء بالهمس يعقبه فراش
بسعة العالم نشق حدائقه ونداعب وروده وبساطه الأخضر، لم أكن
أقدر على أن أحادثه بما في داخلي، فقط الحديث كان له ثم للفراش
بيننا، ولا أدري حتى الآن كيف ذبت فيه إلى هذا الحد، دون أي نبضة
من وعي تظل متيقظة برأسي لساعة واحدة فقط وأنا معه؟!

لم يتركني شكري محفوظ وأخذ يلاحقني في كل مكان، عرف بطريقة أو بأخرى تاريخي السياسي في الجامعة، والتحقيقات التي أثارها في جريدة الاتجاه العربي قبل أن تغلق، بل إنه عرف أنني كنت محبوبة سعيد مختار الذي رحل بفعل أمن النظام المصري، كنت أدهش من ظهوره في كل مكان أذهب إليه، سواء ندوة في اتحاد الكتاب أو أتيليه القاهرة أو حتى حفلة موسيقية بالأوبرا، كان دائماً يقابلني بابتسامة ويفتح معي موضوعات سياسية للمناقشة، وكنت دون أن أشعر أنطلق معه في مناقشاته، لأبدي رأيي وأنظر معه إلى الأوضاع المصرية والعربية الحالية، وأتحدث عن بعض المواقف التي قمت بها مع أصدقائي في الجامعة. نظرته إلي لم تخل من إعجاب لحظته، برغم أنني لم أبد اهتماماً، لأنني أحب عارف، ولأنه من المفترض أنه يعرف أنني امرأة متزوجة! لكن كل ما فعلته لصدده عن الانطلاق في أي حديث إعجاب بي لم يكثرث هو له، وظل يلاحقني حتى قال لي ذات مرة:

عارفة أسوأ حاجة فيكي واللي مش قادر أفهم واحدة بعقليتك
وذكائك مؤمنة بيها إزاي إيه؟!!

إيه يا ترى؟!

إعجابك بكتابات سي عارف منصور ده!

تاني هتفتح الموضوع ده؟!.. يا سيدي تقدر تقول إنها مجرد
مشاعر عروبية لمناصرة العراق!

طيب ما تناصري العراق بجد!

إزاي يعني؟!

انضمي لينا.

مين إنتم؟!

اللجنة المصرية لمناصرة شعب العراق.

سياسة يعني؟!

أيوه سياسة! وهي جديدة عليكم؟!

أثارت جملته الأخيرة حفيظتي، لكنه وقبل أن أبدي أي محاولة للهروب أو الإنكار قال لي:

- أحلام السيد واحدة من أكبر الناشطات السياسيات في الجامعة من سنة ١٩٩٠ وحتى ١٩٩٤، ورفيقة شهيد الجامعة سعيد مختار، والصحفية اللامعة في الاتجاه العربي.. تفكري تقديري تنكري كل ده؟!

نزلت كلماته علي كالصاعقة لا لأنه يعرف، ولكن لأنه نطق باسم سعيد شهيد الجامعة، تحول سعيد إلى شهيد مثل شهداء الانتفاضة، الذين لا نستطيع سرد أسمائهم لكثرتهم وتزايدهم يوماً بعد يوم، كان لذكر اسم سعيد أمامي وقع أثار الاضطراب داخلي، وكل مخزون الذكريات عن الذين ماتوا دون أن يبصروا نهراً مشمساً حقيقياً ينير دروبهم في عتمة الأوطان الناكرة، فقلت له والحزن والألم بل الكره يسيطر على صوتي:

(أيوه أنا أحلام السيد رفيقة سعيد اللي قتلوه بقنابلهم المسيلة للدموع.. أيوه أنا حبيبة سعيد اللي مات في حضني وغرقني دمه، ولسه لغاية دلوقت مش راضي لونه الأحمر يروح من على هدومي وجسمي مهما استحميت وبدلت من هدوم.. أيوه أنا أحلام اللي قفلولها أسرتها في الكلية واللي الطلاب ما وقفوش معاها وهي مهددة بالرشد.. أنا أحلام الصحفية اللي قفلولها الجريدة اللي كانت معاها بتقدر تقول

وتكتب وتدافع عن وطنها.. أنا أحلام اللي ماعدتش عارفة يعني إيه
وطن في زحمة المزايدين عليه!).

تأثر شكري بكلماتي ودهشت لامتلاء عينيه بالدموع، التي
سارع بمحوها ثم قال لي بصوت حنون:

(مش انتي لوحذك اللي عانيتي يا أحلام، ولا هروبك هيبعد
عنك المعاناة، الوطن صاحي فينا سواء أيقظناه بإيدينا أو حاولنا نقتله..
الأوطان مش بتتحرر بالنواح ولا موت واحد عزيز علينا يكفي
لتحريرها، الأوطان بتتحرر بموت ونضال أجيال، لغاية ما تيجي ساعة
الحقيقة والحق يرجع لأصحابه اللي هما احنا).

أدريت ظهري لشكري وكأنني لم أسمع، ووليت من أمامه
الأدبار أعدو، وكأنني أبتعد عن نفسي التي أقتلها في داخلي لأعيش
نفساً أخرى لا أعرفها ولا أحبها، لكنها توفر لي الصمت والهدوء حتى
لو كان صمت وهدوء الموت، لكنه لم يبأس وقال بصوت عال: (لما
تلاقي أحلام الحقيقية اتصلي بيه.. أنا مستيكي!).

خرجت إلى الشارع تملؤني الدموع، التي حرصت على كبها
داخلي حتى لا تفيض فتغرقني إلى الأبد، دموع مخزونة من سنين،
وتراكمها الصدمات والأحزان المتوالية يوماً بعد يوم علي دون رحمة،
دموع تحديث تساقطها بعناد مستميت وأنا أدفع بجسدي للمضي قدماً
في تيار الزمن الذي لا يعيني ولا أعيه، مصرة على البقاء برغم كل
محاولات القتل التي كانت تقطع كل يوم جزءاً من داخلي وتتركه
فارغاً، حتى امتلأت نفسي بفقايع هوائية كثيرة، أطفو معها على سطح
الحياة وأبعد تدريجياً عن عمق الأرض، حتى أصبحت أكاد ألامسها،
استطاع شكري بكلماته أن يفتح كثيراً من تلك الفقايع، فوجدت نفسي
أقرب إلى الأرض التي نسيتها أو تناسيتها، وجددتني أبكي وأنا أسير في

الشارع وتحيط بي العيون المتسائلة، رأيت لأول مرة منذ زمن هؤلاء البشر الذين أنتمي إليهم، والذين افتقدت مشاعري المحبة لهم، منذ مات سعيد ولحقه مؤمن، وأغلقوا الجريدة الأمل، وباعتنا آمال أبوالفتوح من أجل بضعة آلاف من الجنيئات، وذقت الذل والمهانة في القسم الثقافي والفني على يد عبدالمنعم عيسى الذي ليس لديه وقت ليعلم أمثالي! وانتظاري المر قراراً يخطه بشر، يعلن من خلاله حقي في العيش كصحفية معترف بها وتتقاضى راتباً منتظماً كل شهر يساعدها على أن تقيم أود حياتها، وسالم علوان زوجي الذي تزوجني فقط لأنني زيجة لن تكلفه شيئاً! ومشروع صحفية ستغرف الأموال وتلقي بها في حجره!.. كانت الحوادث أكبر مني فابتعدت داخل نفسي، ولم أجدها إلا على يدي عارف الذي لون كل البقع الباهتة في داخلي، ثم أتى شكري ليشد كفي المعلقة في الهواء ويضعها على الأرض.. أرضي.. أرض الوطن.. الوطن الذي لعنته يوماً لأنه ابتلع حبيبي داخل أرضه ولم يعده.. ربما كنت مهياة للعودة، لكني كنت أحتاج إلى من يدفعني نحو تلك الحياة التي لطالما آمنت أنها مصيري، والتي برغم كل محاولاتي للهروب منها كان لابد لي من العودة.

وجدتني أعيد ما قاله شكري لي: (لما تلاقي أحلام الحقيقية اتصلي بيه.. أنا مستيكي!)، مسحت دموعي بكلتا كفي، ثم استدرت ناحية الطريق ووقفت مشيرة إلى تاكسي حتى أعود إلى شكري.. فجأة وبشكل لا أستطيع وصفه أو تفسيره أو إكسابه أي تسلسل منطقي للوصول إلى النتيجة، وجدتني أردد في داخلي وأنا داخل عربة التاكسي: (لازم نقضي على الكلاب اللي واكلين بلادنا وسافحين خيرها، لازم الوطن العربي يرجع لأصحابه)، لكني أستطيع الآن أن أقول وأنا بعيدة تماماً عن تلك الأيام وأجلس على أريكتي، هنا في ذلك المنزل الذي يحويني في بلاد الناس، أنني في ذلك الوقت شهدت تحولاً

كبيراً في نظرتي إلى مسألة الوطن، وهو أنني بدأت مرحلة لا تتمتع كثيراً بالرومانسية المفرطة التي كنت أغرق فيها في الماضي، فلقد خبرت الكثير في الحياة، ما أكد لي أن الوطن ليس معشوقاً سماوياً نخلق معه في أبعد سماء، وإنما هو حق لكل أهله يجب استرداده للتمتع به.

كان ظهوري المفاجئ أمام شكري محفوظ بعد ساعتين فقط من تركي إياه، نهاية لمشهد درامي تصاعدت فيه الصراعات حد التخمّة، حتى وصل بأبطاله إلى الصمت المشلول الذي لا توجد داخله أي كلمات تعبيرية تقطعه، ولذلك لم يقل شكري بعد دقائق أمضاها في ذهول سوى: (معقول لقيتيها بسرعة؟!)، (يمكن كانت قريبة جداً لكن ماكنتش واخدة بالي منها!)، ربت بكفه على كتفي وابتسامة عريضة تحتل وجهه، ثم قال: (بكرة هنجتمع الساعة سبعة مساء في نقابة الصحفيين.. أنا في انتظارك).

بسهولة ويسر شديدين لم أكن أتوقعهما أبداً من نفسي، انخرطت مرة أخرى في العمل السياسي ضمن اللجنة المصرية لمناصرة شعب العراق، كانت مصر أيضاً غائبة، مصر التي كانت تأتي دوماً في ظلال أفكارنا الثورية، حيث نخرج من أجل فلسطين أو من أجل العراق، لكننا لم نكن لنخرج أبداً من أجل مصر.. مصر التي تأتي في هتافاتنا بعد أن تنتهي كل الهتافات من أجل العراق ثم فلسطين أو العكس، كل وفقاً للحدث الذي نخرج من أجله للتظاهر، دائماً بداخلي كان يثور هذا السؤال: (متى نخرج من أجل مصر؟! متى نصرخ بكل ما فينا من قهر وشعور بالظلم والغبن، مطالبين بحقوقنا وإعادة بناء بلدنا الذي ينهب يوماً بعد يوم، حتى لم يعد لديه ما يمكننا الاستفادة به أو العيش عليه؟!)، لكنني مع ذلك كنت أمضي في عملي السياسي من أجل العراق، الذي أو من بقضيته العادلة وأهمية ما نفعله لمساعدة شعبه وتهوين ثقل وطأة الحصار عليه. كنا نفعل نفس الأشياء التي اعتدنا فعلها في الجامعة، ندوات وحفلات غنائية ثورية وأمسيات شعرية تبكي مجد العراق الزائل وهوان العرب وضياعهم، باكين على حالنا وحالمين بصلاح الدين الجديد الذي سيأتي ليحررنا ويطرد الغرب الشرير من بلادنا، كنت في ذلك الوقت متأثر كثيراً بهذه الأشياء، وأبكي كلما أتى ذكر صلاح الدين أو عبد الناصر، لكنني الآن أتساءل: (إلى متى سنظل في انتظار من لن يأتي أبداً؟! ولماذا لا نكون جميعاً صلاح الدين وعبد الناصر?!).

وصل إلى علم سالم انخراطي في اللجنة المصرية لمناصرة شعب العراق، وأنني أخرج معهم في مظاهراتهم أمام نقابة الصحفيين ودار القضاء العالي ونقابة المحامين، وأنني أيضاً أنظم معهم الندوات

والأمسيات الشعرية والمؤتمرات، فما كان منه إلا أن اتصل بي في مقر مجلة جماهير الفن، حيث لم نكن نلتقي عملياً بالمنزل، وطلب مني أن ألقاه بمنزلنا في الساعة مساءً لمناقشة مسألة ضرورية تخص مستقبلنا معاً، سقط قلبي بين أحشائي، فلقد تخيلت أنه علم بعلاقتي بعارف، وظلت الظنون تنهش عقلي، برغم أنني لم أكن أكثرث أبداً لمشاعره تجاه هذا الأمر، ولا حتى لما يمكن أن يفعله معي، كل ما كان يخيفني أن يصل ذلك الخبر إلى أمي، وأن يشيعه بين الناس، حتى إنني تخيلته يطلقني ويحرمني ابنتي إلى الأبد، أو أن يودعني في السجن بتهمة خيانتة! طاردتني الهواجس حتى أتت الساعة التي حددها، فعدت إلى المنزل دون أن أمر على أمي لاصطحاب ابنتي، لم أكن أعلم أن صورتي تحولت إلى صورة شبحية أقترب بها من عالم الأموات، فلقد هربت الدماء من شراييني أو تجمدت، وصلت إلى المنزل ولم أجده فلم أفعل أي شيء سوى الجلوس على الأريكة التي في صدر الصالة، ووضعت حقيبتي على الأرض إلى جوارِي، تماماً كأنني في منزل غرباء أنتظر المضيف حتى يأتي ليستقبلني! ظلت عيني معلقة بالباب أعد الثواني والدقائق حتى اكتملت الساعة، حينها أفرعتني حركة المفتاح في ثقب الباب، فتجمدت نظراتي عليه وكأن الموت في طريقه الآن ليقبض روعي ويودعني أسفل دركات النار.. دخل سالم بنظرته الثعلبية التي لاحظتها فيه منذ أسدل الستار على عشقه المخلوق، وابتسم ابتسامة أعرفها جيداً، ابتسامة لا تعني سوى أنه أمسك علي شيئاً ينال به مني.. هيئته لم توح لي بأنه علم بشيء عن عارف، فلا يمكن لأي رجل مهما كان دنيئاً أن تكون تلك هيئته عندما يعلم بخيانة زوجته له، هدأت قليلاً، لكنني لم أستبعد تماماً اكتشافه ذلك الأمر، فظلت متحفزة لدرء الخطر عني في اللحظة المناسبة..

مساء الخير يا هانم.

مساء النور .

جلس على الأريكة المجاورة تماماً لي، لم أتحرك وظللت
متشابكة اليدين شاخصة ببصري إلى الأمام، فقال:

إيه مالك؟! مش بتبصيلي ليه؟!

أبدأ!

أدرت إليه وجهي، وحاولت جاهدة إخفاء توتري، ثم قلت له:

في إيه؟! مالك مستدعيني بشكل رسمي كده!

تصدقني؟!

أصدق إيه؟!

وحشتيني!

عند هذا الحد عادت كل الطمأنينة إلى نفسي، وتأكدت أنه لم
يعرف أمر عارف، مما أكسبني القوة وبدأت أتساءل عن السبب الآخر
الذي استدعاني من أجله، وإن كنت فكرت في أنه ربما يريد نقوداً، لكنه
لم يفعل ذلك من قبل، لقد كان دائماً يأخذ نقودي بشكل غير مباشر،
إما بطلب شراء ملابس له أو شراء شيء للمنزل، أو ترك كل أعباء
البيت المادية على كاهلي متجاهلاً تماماً إعطائي أي نقود، إضافة إلى
قيامه بعدم شراء أي شيء من مستلزماته.. لم أجه لبضع ثوان
مستغرقة في تخمين سبب طلبه الالتقاء بي، فقال:

إيه هو أنا ما وحشتكيش ولا إيه؟!

سالم أظن إن الموضوع ده محسوم بينا، واحنا الاتنين عارفين
إننا مستمرين في الجواز عشان البنات مش أكثر.

خلاص خلاص.. المهم.

أيوواااااااه المهم!.. إنت عايزني ليه؟!

أنا ما استغناش يا ستي، بس اللي أنا عايزك فيه موضوع مهم جداً.

إيه هو؟!

إنتي رجعتي تاني للنشاط السياسي؟!

هنا وجدتي أشعر باستئساد غير عادي تفجر داخلي، ونظرت إليه بكل ثقة وقوة قائلة:

أيوه عند حضرتك اعتراض؟!

مش كنا عقلنا وقلنا خلاص ناخد بالنا من بيتنا وشغلنا.

شغلي أنا واخدة بالي منه كويس، أما مسألة البيت دي بقى فهو فين البيت؟! لو تقصد البنت فهي عند أمي بتاخذ بالها منها، وهي عادت لا محتجاني ولا محتجاك للأسف.

طيب ما تاخدي بالك منها، وبدل ما تضيعي وقتك عشان العراق والكلام الفاضي ده ضيعيه على بنتك.

العراق كلام فاضي؟!

أيوه كلام فاضي، إحنا مالنا ومال العراق.. ما تتحرق باللي فيها!

تتحرق؟! إنت اللي بتقول الكلام ده؟!

أيوه أنا!

مش العراق دي برضه اللي دعتك في يوم من الأيام لمهرجان
المريد؟!.. مش هي برضه البلد اللي انت كاتب فيها قصايد بتتباكي
عليها؟!.. إزاي بقى تتحرق؟!

أكتب قصايد.. أروح أقول شعر فيها في مهرجان دي نقرة،
ومسألة إني ألف في الشوارع وأعمل مظاهرات عليها، وأجعلها تبرعات
وأخاف مع الحكومة عشان نمرر التبرعات على الحدود دي حاجة
تانية.

واللهي؟!

أيوه! وأنا باقولك أهو.. العلاقات متوترة جداً بين النظام في
مصر والنظام في العراق، وأنا مش عايز أي كلام عليا في وزارة
الثقافة يوقف علاقتي بيه!

إيه اللي حصل بالظبط يا سالم؟!

اللي حصل يا هانم إن ديواني الشعري اتعطل نشره في الهيئة،
ولما رحلت لمنير بيه رئيس الهيئة أسأله عن السبب قال لي بالمحسوس
كده إني أخلي مراتي تعقل.

آآآه فهمت!.. وانت جاي تطلب مني أعقل؟!

بالظبط!

أسفة أعتقد إني هافضل مجنونة على طول، وقول لمنير بيه
يفصل في تعامله بينك وبينني.. قول له إنك آويني في بيتك عشان
البنات وخلاص، يا إما طلقني وريح نفسك مني للأبد!

أثار كلامي حفيظة سالم، وأذاب الجليد الذي حنط به ملامح
وجهه على ابتسامة ونظرة هادئة، ليظهر تماماً كما هو في داخله،
وقال لي بصوت عال يملؤه الغضب:

بصي يا أحلام إنتي هتبطلي الجنان بتاعك ده بإرادتك أو
غصب عنك، ولو هتستغلي الموضوع عشان أطلقك فاعرفي كويس إن
ده لا يمكن يحصل إلا في خيالك، عارفة ليه؟!.. بكل بساطة لأنني
مش فاضي أتجوز ثاني، وانتي هنا في البيت ده لأنني أنا عايز كده
مش أكثر!

خلاص أنا في البيت لغاية ما تحب تطردني منه، أما مسألة
العراق دي فاعرف كويس إنني مش هاسيبيها، واعرف كمان إن مش
بس العراق، أي موقف وطني هيتطلب مشاركتي هأشارك فيه حتى لو
كان آخره السجن!

انتهى لقائنا على أسوأ ما يكون، لكنني برغم ذلك شعرت
بطمأنينة شديدة داخلي، واستياء شديد من مجرد وقوفي في المجتمع
موقف زوجة لهذا الإنسان، فكيف أكون زوجة لسالم الذي يعيش مرتدياً
معطف الشاعر والناقد الجاد ذي الآراء الوطنية المخلصة، وهو أسفل
ذلك المعطف عار من كل قيمة يمكن الانتماء إليها في الحياة؟!

في اليوم التالي ذهبت إلى مؤسسة الجماهير وأنا تنتابني رغبة
شديدة في الارتقاء بين أحضان عارف، الذي اكتسب داخلي قيمة
جديدة عقب انخراطي في العمل السياسي من أجل العراق، وهي أنني
أحب عراقياً منفياً من العراق، وأعطيه من روحي ما يخفف وطأة
الشوق إلى بلاده عليه! أضحك كثيراً على نفسي التي عاشت زمناً
طويلاً ذلك الوهم، وهي تعتقد تماماً أن هذا الرجل كان وطنياً مخلصاً
لبلده، وأن كفاحه من أجل هذا البلد فقط يختلف في التناول عن كفاح
شكري وغيره من أعضاء اللجنة، لكنه يتكامل في النهاية.. اتصلت به
فور استقراري على مقعد مكتبي، فأجابني بعد فترة ليست بالقصيرة وهو
شبه ناعس، طلبت منه أن ألقاه في منزله فاعتذر لي بشدة لأنه مسافر
إلى لندن في الظهيرة، وعندما سألته لماذا لم يخبرني من قبل، أجابني

أن السفر جاء مفاجئاً، حيث يجب أن يسافر ليشارك في منتدى ثقافي عن تراث العراق في لندن، وأنه سيعود بعد أسبوع تقريباً.

في نفس اليوم وأنا ممثلة بافتقاده قابلت عمر راضي في الأوبرا، وتحدثنا عن علاقته بمنى التي تجمدت عند حدود استمرار أهلها في رفض مقابلته، وإصرارها على عدم الالتقاء به في ظل رفض والديها.. اصطحبني عمر إلى مقهى الهناجر، وجلسنا لنحتسي القهوة معاً، كان عمر يشعر بأن ثمة علاقة بيني وبين عارف، لكنه لم يكن يعلم أو يستطيع تخمين حدودها وأبعادها، والحقيقة أنني كنت بخبثي النسائي أستقي أخبار عارف التي لا يعلمني إياها منه دون أن يشعر، أو ربما كان يشعر وأعتقد أنا أنني أغافله وأحصل منه على ما أريد!

أخبرني عمر في ذلك اليوم بأنه سيسافر مع منال حلمي في نهاية الأسبوع إلى لندن، ليشاركا في الحفل الختامي للمنتدى الثقافي عن تراث العراق، الذي سافر عارف للمشاركة فيه، وأن التي استطاعت بعلاقاتها أن تنظم مشاركة عارف وعمر نفسه في هذا المنتدى هي منال، حينها غصت نفسي، فلقد كانت منال دائماً غائبة عن حياتي الفعلية، لكنها حاضرة بكثافة في حياتي مع عارف، الذي كان يبرر الأمر دائماً بأنها صديقة حميمة لا أكثر، وأنني أعيش في أوهام أنثوية بحت.. سألت عمر عن موعد عودتهم جميعاً فقال لي ببراءة لا أشك فيها عن نفسه إنه سيعود في نهاية الأسبوع، لكن في ما يبدو أن عارف ومنال لديهما ترتيبات أخرى!

انتظرت بجنون عودة الجميع في نهاية الأسبوع، لكن ما حدث هو أن عمر وحده هو الذي عاد ولم تعد منال وعارف، حيث غابا لمدة أسبوع آخر ليعودا معاً وعلى نفس الطائرة، كان الأمر بالنسبة لي قاتلاً، لكنني خفت أن أتحدث بشأنه مع عارف، لأنني كنت أموت رعباً من أن يحدث بيننا أي شيء يؤدي إلى افتراقنا، ولهذا السبب ابتلعت

الأمر داخل ذاتي المتمزقة غيرة وشكوكاً وخوفاً، وتابعت عشقي لعارف وأنا ممثلة بالدموع والعرشة مخافة اختفائه.

عقب عودته مباشرة التقيته في منزله كالمعتاد، وعقب انتهائنا من حفلة الجنس الصاخبة التي اعتدنا إقامتها في كل لقاءاتنا، استخدمت غريزة المرأة الاستخبارية معه، في محاولة للوصول إلى معرفة سبب تأخره مع منال في لندن وحدهما لمدة أسبوع، فسألته:

أخبار المنتدى إيه؟! كان ناجح؟!

نظر إلي نظرتة المتفاخرة دوماً، وقال بنبرته الممتلئة ثقة وعظمة: (جداً عظيم.. سوينا ندوات كثيرة، واجو متخصصين في جميع مجالات التراث العراقي قدموا أبحاث جداً مهمة).

وانت بحثك كان عن إيه؟!

بحثي كان عن فرادة الموسيقى العراقية في المنطقة العربية كلها.. ما تتخيلين حبيبتي كيف كان بحثي متميز وأثار اندهاش وإعجاب الجميع.

حبيبي إنت عمرك ما تعمل حاجة أي كلام.. هيه وعملت إيه بعد ما المنتدى خلص؟!

ولا شي.

أمال قعدت في لندن أسبوع زيادة بعد انتهاء المنتدى ليه؟!

كان فيه شغلات مهمة كان لازم أسويها.. يعني ترتيبات لمؤتمرات ومنتديات ثقافية راح يسوونها في لندن خلال السنة.

وشفت منال هناك؟!

منال منو؟!

منال حلمي!

شنو ها السؤال حبيبتي؟!.. طبعاً شفتها مو قدمت حفل الختام مع عمر؟!

آه بس أنا أقصد بعد المنتدى ما خلص.. أصلها قعدت زيك أسبوع بعد كده!

من وين عرفت؟!.. إنت تعرفيها زين؟!

لا زي ما انت عارف علاقتي بيها في إطار الشغل بس، لكن قالولي في الأوبرا إنها ما رجعتش، وانها هترجع في نفس اليوم اللي انت رجعت فيه!.. أصل كنت عايزة أعمل معاها حوار!

والله هم قالولك؟!.. لا ما شفتها خلال ها الأسبوع، بعدين أنا كنت مشغول باتفاقاتي.

كذب عارف علي.. كنت أعرف أنه يكذب، لأنني كنت متأكدة من عودتهما على نفس الطائرة من لندن، كما أن عمر أوحى إلي من خلال كلامه أن هناك شيئاً خاصاً بينهما، لكني برغم ذلك لم أفعل شيئاً، واحتفظت بكذب عارف في مقر مظلم في داخلي، رافضة بعناد إخراجه إلى سطح روعي، روعي التي كانت تبعد مجرد التفكير في اختفاء عارف عن مداري، حيث كنت أؤمن أن لا مدار لي في هذا الكون من دونه!

سافرت قافلة مصرية محملة بالأدوية وبعض المواد التموينية والملابس التي جمعناها إلى العراق، في الوقت الذي كانت الأحداث السياسية على الصعيد العالمي والعربي بشأن العراق ملتبهة، في ظل اتهام حكومة واشنطن برئاسة بيل كلينتون آنذاك النظام العراقي بعرقلة مهمة لجنة التفتيش الدولية، لم أستطع أن أكون ضمنهم نظراً إلى رفض سالم القاطع، والذي جعله يلجأ إلى أمي حتى تثنييني عن الأمر قائلاً لها إنني أعمل على هدم بيتنا بكل الطرق، وإنني أسافر في وقت حرج لاحتمال ضرب أمريكا العراق في أي وقت.. لم يثنيني عن فكرة السفر سوى الذعر الذي انتاب أمي، بسبب خوفها من أن يضرب العراق أثناء وجودي هناك، ولم تجد كل المحاولات التي قمت بها كي أطمئنها، فما كان مني سوى أن استسلمت، وبقيت في القاهرة أتحسر على كل دقيقة يمضيها أعضاء اللجنة هناك دوني، وأنا التي قمت بجهود كبيرة معهم لجمع التبرعات التي سافروا بها، وتمنيت أن أشهد بعيني عملاً إيجابياً واحداً أقوم به، بعيداً عن المظاهرات والمؤتمرات والأمسيات الكلامية التي كنا غارقين فيها تماماً.

بعد عودة القافلة جلست إلى شكري كي أسمع منه بالتفصيل كل ما حدث هناك، ومن خلال كلامه عرفت أنهم يسلمون كل التبرعات إلى الحكومة العراقية بشكل يقترب من الاتفاقات والتعاقدات التجارية، فسألته:

يعني انتم مش بتوزعوها بأيديكم للمستشفيات ودور الأيتام والناس المحتاجة هناك؟!

لأ طبعاً! إحنا ما نقدرش ندخل العراق من أصله إلا بموافقة النظام العراقي، وبفضل نتحرك في البلد من خلاله.. إنتي فاكدة إن الحكومة العراقية هتسيينا نتحرك كده براحتنا في البلد؟!

بس كده انتم مش بتتأكدوا إن الحاجة وصلت للمحتاجين ليها فعلاً؟!

لأ طبعاً بتوصلهم لأن من مصلحة الحكومة العراقية إنها توصلها لهم.

يعني انت بتعتقد إن الحكومة العراقية مهتمة بشعبها؟!.. يعني حكومة عادلة؟!

مش بالظبط يا أحلام.. كلنا عارفين إنها حكومة مستبدة زيها زي أي حكومة عربية، بس أنا أعتقد إنهم في الوقت ده محتاجين يخففوا الضغط على شعبهم في ظل الحصار.. إنتي مش متخيلة الحصار عامل إيه في العراق.

بالتأكيد متخيلة.. لكن أنا عايزة أفهم ليه تعاقدات وتسليم وتسلم بشكل رسمي أوي كده طالما الموضوع في النهاية تبرعات؟!

يا أحلام فوقي من رومانسيته دي بقى، أي حاجة حتى لو كانت تبرعات محتاجة تعاقدات.

انتهى نقاشنا بمجرد انضمام مجموعة أخرى من أعضاء الجمعية إلينا، واتخذ الحديث مساراً آخر، حيث أخذوا يسردون ذكرياتهم في الرحلة، وكيف أمضوا أوقاتاً سعيدة على المقاهي وفي المطاعم والكازينوهات العراقية، مما جعلني أتساءل إن كانوا ذهبوا للنضال أصلاً!.. (هو انتم كنتم بتتفسحوا ولا في مهمة وطنية؟!)، فأجابني أحدهم (يا باي عليكي يا أحلام! إنتي كل حاجة واخداها جد.. يا ماما

في مثل بيقولك ساعة لقلبك وساعة لريك.. يعني مش ممكن نقعد في بغداد أسبوع كامل نقضيه في المستشفيات وملجأ العامرية والمحادثات السياسية.. أكيد في وقت بنستمتع فيه بجمال بغداد).

الحوار الذي دار بينهم أدخل في نفسي الكثير من الشعور بالارتياح مما يقومون بعمله بالفعل في العراق، لكنني ما لبثت أن أزحت ريبتي جانباً وعدت إلى العمل في صفوفهم، مجهزين رحلة أخرى ستسافر في نهاية العام، وتحديداً بعد شهر رمضان. عزمت في داخلي على السفر معهم هذه المرة، مهما حدث ومهما أصيبت والدتي بالخوف، لكن تصاعد الأحداث والاتهامات المتبادلة بين واشنطن وبغداد ووقوف الحكومات العربية موقف المتفرج، مع خروج تصريحات فائزة تطالب صدام حسين بالانصياع لمطالب واشنطن وتسهيل مهمة لجنة التفتيش الدولية، جعلت زعماءنا يفكرون في تأجيل تلك الرحلة، خاصة أن واشنطن بدأت تهدد بقصف بغداد، الذي وقع بالفعل ونحن نستعد لاستقبال شهر رمضان. كنت آنذاك في العمل وفوجئت باتصال من شكري، الذي أخبرني بأن جميع القوى اليسارية في مصر قررت إعلان الاعتصام بنقابة الصحفيين حتى يتوقف القصف، وأن جميع أعضاء الجمعية سيشاركون في الاعتصام، أخبرته دون تفكير بأنني سأكون معهم، لكنه قال لي إنهم جميعاً قرروا إعفاء النساء الأمهات من المشاركة لصعوبة ذلك عليهن، فما كان مني إلا أن قلت له: (دلوقت في أمهات بتفقد ولادها في القصف وأنا بنتي في مكان أمين.. على الأقل أشارك في محاولة لإعلان الاعتراض)، (لكن إحنا مش عارفين إمتى الاعتصام هينتهي لإننا أعلننا إننا هنعصم لغاية ما أمريكا توقف قصفها)، (مش مهم إنشا الله نعتصم سنة.. أنا معاكم).

عدت إلى المنزل بسرعة حتى أحضر بعض الملابس الثقيلة، لأننا كنا في نهاية شهر ديسمبر والبرد نزل بكامل قوته على جميع

أنحاء مصر، وهناك وجدت سالم جالساً أمام جهاز الكمبيوتر يحرق شيئاً، تجاهلت وجوده وفتحت الخزانة وبدأت أجمع الملابس التي أريدها، فنظر إلي متسائلاً وقال:

إيه ده؟! إنتي مسافرة ولا إيه؟!

لا أنا باخد شوية هدوم يمكن أحتاجها في الاعتصام.

نهض من مقعده ثم استفسر مستكراً: اعتصام؟!

أيوه!.. هنعصم اعتراضاً على قصف أمريكا للعراق.

نعم يا اختي؟!.. ويتاخدي هدوم ليه إنتم هتعتصموا كام سنة؟!

هنعصم لغاية أمريكا ما توقف الضرب.

ولو قعدت تضرب العراق سنة هتفضلي معتصمة سنة؟!

بالظبط!

اقترب مني ثم أدار جسدي في مواجهته بعنف وقال: (إنتي باين عليكي اتجننتي خلاص.. إيه مالكيش أهل؟!.. ما عندكيش بيت تتلمي فيه زي بقية النسوان?!).

نسوان؟! اتكلم معايا عدل.

عدل ولا معوج.. رجعي هدومك للدولاب يا أحلام واتلمي أحسن ما اضطر ألمك بطريقتي!

استدريت متجاهلة إياه وسحبت الحقيبة من قاع الخزانة، ثم بدأت أدس الملابس داخلها، فأدارني سالم بكفه بعنف شديد ثم قال: (أنا بأقول ما انتيش رايحة يعني ما انتيش رايحة)، فأجبت به ببرود وتحد، ناضرة إليه بكل الكره الذي يعتمل في صدري تجاهه: (وأنا بأقول هاروح.. سيب دراعي أحسنك)، لكن سالم لم يترك ذراعي ولم يخفف

من شدة قبضة كفه عليها، بل زاد على ذلك صفعه إياي بمنتهى القوة، فتهاويت ناحية الأرض لكنني ظللت معلقة بينها وبين كف سالم التي كانت مازالت قابضة على ذراعي.. لا أتذكر بالتحديد ما الذي فعلته، لكنني وأنا أخلفه ورأي وأرحل لأخر مرة من منزل سالم، كانت غرفة النوم التي دارت فيها معركتنا مقلوبة رأساً على عقب، وسالم يتوسطها وهو واقف في دھول، بعد أن قلت له: (لو عندك كرامة طلقني بهدوء بدل ما تطلقني مكره).

ذهبت إلى نقابة الصحفيين، واتصلت بأمي لأخبرها بكل ما حدث، وأني الآن في النقابة لأعتصم ولا أعلم متى سأعود بالتحديد، ثم أنهيت مكالمتي قائلة: (اعملي حسابك هارجع من الاعتصام على البيت عندك.. أنا خلاص هاطلق من سالم)، لم أنتظر أي رد فعل منها أو تعقيب على ما حدث، لأنني وضعت سماعة التليفون في مكنمها، ثم ذهبت إلى حيث يتجمع الكل معتصمين.

أربعة أيام كاملة اعتصمناها في النقابة، حتى أعلنت واشنطن توقف القصف الجوي لبغداد والبصرة في ما أسمته عملية ثعلب الصحراء، عشية شهر رمضان تماماً، وذلك تكراً منها حتى لا يعيش أهل العراق تحت القصف في الشهر الإسلامي المقدس! كان لذلك الحدث تأثير قوي في مسار حياتي في ما بعد ولمدة عامين تقريباً، التهب حماسي وشعرت بأننا نقوم لأول مرة في حياتنا بفعل جاد ومؤثر، فلقد اعتقدت أن المظاهرات التي خرجت بطول البلاد العربية وعرضها، خاصة التي رأيتها في مصر، هي التي أجبرت واشنطن على إيقاف صواريخها وقنابلها، التي أطلقت عليها الذكية، لأنها كما خططت تم توجيهها إلى أماكن استراتيجية تعتقد أنها تحتوي على أسلحة فتاكة في العراق ولن تصيب المدنيين، لكنها بالطبع حصدت العديد من الأرواح البريئة في كل من البصرة وبغداد، وزادت مأساة

الموت اليومي بسبب نقشي الأمراض نظراً إلى قلة الأدوية والأمصال،
بموت آخر سببته الصواريخ والقنابل الذكية!

لم يكن هذا فقط الذي أثر في مسار حياتي وجعلني أشعر
بتقاؤل وسعادة شديدين، وإنما لأنني تخلصت من سالم علوان أو هكذا
اعتقدت حينها، فلقد كان قرار إخراجه من حياتي بشكل رسمي صعباً
ومخيفاً، لا لخوفي من العيش من دونه، ولكن لخوفي من العيش
كمطلقة في مجتمع ينبذ المطلقات، لكنني أخيراً استطعت حسم هذا
الاستنزاف اليومي لكياني الإنساني، بعد شهور طويلة عشتها وأنا أنقلب
على نيران اتهامي اللحظي نفسي بأنني امرأة خائنة، برغم كل خيانات
سالم لزواجنا التي أعرف تفاصيلها جيداً، لكن للأسف مجتمعنا ربانا
على أن خيانة الرجل أمر هين، بينما خيانة المرأة عار لا يمكن قبوله
أو تمريره!

عدت إلى منزل أمي، لكنني عشت في ظل توتر شديد نتيجة
لقراري الذي وصفته أمي بالمتسرع، وكجميع الأمهات المصريات قالت
لي إن المرأة لا مكان لها أفضل من بيت زوجها مهما كان، وإنما يجب
أن نتحمل كل سخافات الرجال حتى يسير المركب، وحتى لا تعيش
ابنتي بين أب وأم مطلقين، والأهم بالطبع كان هل سأتحمل العيش في
المجتمع كمطلقة؟!.. (يا بنتي أنا عشت مسجونة طول عمري في بيت
أبوي مع إنني انطلقت رغم إرادتي، وحرمت نفسي من كل مباحج الحياة
عشان ما حدش يجيب سيرتي بالبطلال.. ده أنا حتى بطلت أحط مكياج
وألبس شيك وأنا في عز شبابي، عشان ما يقولوش إنني باتزوق عشان
بادور على عريس.. كنت كل ما أزور واحدة صاحبتى متجوزة في
بيتها تخاف مني لأخطف جوزها، فبطلت أروح لحد.. كنت كل ما
اخرج بيكي أفسحك يقولوا إنني باصيع أدور على رجالة وواخداكي معايا

حجة!.. حياة المطلقة في بلدنا صعبة أنا عارفها كويس ومش عايزاها تكون مصيرك).

كنت أعتقد أنني في عصر مختلف عن الذي عاشته أمي، لكنني اكتشفت مع الأيام أن بلادنا لا تتحرك إلى الأمام قيد أنملة، وأن ناسها مثل آبائهم لم يختلفوا أو يتطوروا عنهم في شيء، مياه راكدة لا تتحرك، وإذا ألقيت بها حجراً لتحريكها لفظته. مضيت في ما عزمت عليه برغم كل المشاكل التي أثارها سالم ضدي بين أفراد عائلتي، وتحديث كل قرارات أحوالي الخاصة بإجباري على العودة إلى منزل سالم، سالم الذي أصبح كالمجنون يسير ورائي في كل مكان، ويرسل الجواسيس ليأتوه بأخباري، مما جعلني أبتعد وأنا أموت من داخلي عن عارف خمسة أشهر كاملة، هي مدة الصراع الذي أذعن في نهايته سالم وطلقني، بعد أن تركت له كل شيء، وتنازلت له عن جميع حقوقي القانونية حتى حضانة ابنتي.

كنت جد بائسة خلال تلك الأشهر الخمسة، أنشبت بأي قشة كي تخرجني مما أنا فيه، وأحتاج إلى صديق حقيقي أرتمي بين أحضانه وأبكي.. كانت منى آنذاك تمر بظروف نفسية صعبة، بسبب تعرض حبها إلى الفشل، وتواظب على زيارة طبيب نفسي، ولا تنام من دون منوم، ولا تخرج إلى الشارع إلا تحت تأثير المهدئات، فلم يكن من الممكن أن ألقى بعبء مشاكل علي كاهلها.. حتى قابلت أحمد فادي بعد غياب دام أكثر من عام، انقطعت خلاله حتى اتصالاتنا التليفونية القصيرة التي كنا نتبادلها، لا أنكر أنني التي خططت جيداً لهذا الانقطاع، بعد مشاهدتي هالة زميلتنا في الجامعة، التي ارتبطت به وانتظرته أكثر من ثلاث سنوات، وهي تبكي ليلة عرسها، لا أدري لماذا حملت أحمد فادي وزر فشل علاقته بهالة، ولم أفكر للحظة في أن عقلية مجتمعنا هي التي أجبرتهما على الافتراق، لكنني عندما أبصرته

واقفاً خلف المصور التليفزيوني تقافز قلبي داخل ضلوعي، وناديته بعلو صوتي: (أحمد يا فادي!)، التفت إلى الورا ليرى من المنادي، لكني لم أمهله لتبين مصدر الصوت، فلقد جريت نحوه لأتعلق برقبتة، مقبلة إياه بحرارة شديدة أربكته بشكل لحظته على الفور، فمن الصعب على أحمد أن يتخيل أحلام السيد تقبل رجلاً مهما كان عمق علاقتها به، لكني كنت بالفعل في أمس الحاجة إلى صديق قديم، صديق حقيقي يشعر بي وبآلامي.. ظل أحمد صامتاً وعيناه معلقتان بشعري، فأدركت على الفور السؤال الذي يريد أن يطرحه علي، وقررت أن أجيب حتى لو خجل هو من طرح السؤال: (أيوه قلعت الحجاب، وكمان سبت جوزي وقاعدة مستتية ورقة الطلاق في بيت أمي!)، زفر نفساً كان معلقاً ب صدره، ثم ابتسم ابتسامة باهتة وقال: (يعني ما فشلتش لوحدي؟!)، (كلنا فاشلين يا عزيزي، ما تخليش الموضوع ده يقلقك!)، ضحك ثم سألني عما أفعله في الأوبرا، فقلت له: (إيه ده؟! إنت ما تعرفش إني أشهر صحفية في مصر بتغطي أحداث الأوبرا وكل ما يتعلق بالفنون الراقية؟!)، ابتسم وقال: (يعني برضه ماتخلتنيش عن الجد وبقيتي صحفية بتاعة أغاني شبابية؟!)، (طبعاً يا أستاذ عيب ده أنا برضه أحلام!).

اتفقنا على أن نلتقي عند النافورة التي تتوسط حديقة ساحة الأوبرا بعد الانتهاء من العمل، رؤية أحمد فادي في ذلك الوقت كانت جائزة منحني الله إياها نتيجة جلدي وتماسكي، فانتابنتي مشاعر ممزوجة بالبهجة والفرح الطفولي، كنت أشعر وكأن أيام الجامعة ببيكارتها وأحلامها الغضة قد عادت إلي دفعة واحدة، ووجدتني أنقافز فرحة أمارس ألعاباً طفولية لم أفعلها من قبل، لأنني كنت محكومة بمنهج الأنثى القاسي المفروض من قبل أمي، أو من قبل الدنيا بأسرها! أخذت ألعب في مياه النافورة وأدور حولها، محاولة تأصيل

البهجة داخلي حتى لا تهرب وتختبئ مني كعادتها بمرور الثواني، أخذ أحمد ينظر إلي دهشاً وكأنه يتعرف بلامحي لأول مرة، ثم ناداني، خفت أن تهرب الفرحة إذا ما جلست إلى جواره وبدأ سرد سيرة الأحزان الطويلة، فطلبت منه أن يأتي ليغتسل مثلي من الأحزان، لكنه أجابني ساخراً بأنه اغتسل في المنزل قبل أن يحضر إلى الأوبرا! ثم قال: (تعالى بس واقعدى زي الناس العاقلين جنبى خلىنا ندردش شوية!).. آه يا أحمد من تلك الدردشة! لماذا نستهلك عمرنا في دردشات الأحزان والبكاء على ما ضاع؟! لماذا لا نحاول أن ننظر بأمل إلى الغد ربما خجل وأتى محملاً بجديد مبهج؟! لماذا لا نستطيع إجبار الأيام على عشقنا واحتوائنا دون غدر؟!.. انصعت لطلبه وجلست إلى جواره، فوجدته يسألني إن كنت أرغب في أن يصطحبني إلى المنزل، حيث كانت الساعة تشير إلى اقتراب منتصف الليل، فأجبتة محاولة أن أخذه في اتجاه البهجة قليلاً، لأفر معه من وطأة الأحزان التي أعيشها: (لأ.. طول عمري باروح بدري.. كسبت إيه يعني؟!)، فسألني دهشاً من التغيرات التي لحظها علي: (إيه اللي حصلك خلاكي تتغيري مية وتمانين درجة كده؟!)، (أنا ما اتغيرتش أنا بس خرجت المارد اللي كان محبوس جوه القمقم)، فابتسم وقال لي ساخراً: (ويا ترى إيه اللي هيعمله فيكي المارد ده؟!.. أعتقد إن البشائر مش خير أبداً!)، تجاهلت كلامه ونظرت مباشرة في عينيه مستحثة إياه على أن يأخذ بيدي في اتجاه البهجة المفقودة، ثم قلت: (يا ريت يا فادي تخرج المارد اللي جواك إنت كمان)، (باين عليكى مش بتهزري؟!)، (أنا ما باعرفش أهزر!). لا أدري لماذا أردت صدمه بخبر زواج هالة؟! ربما أردت أن أخرج أحزانه على السطح، كي يقرر معي البحث عن البهجة التي كنت أتوق إلى الحصول على ولو نذر يسير منها في تلك الليلة؟! أو ربما لأنني محرومة من رؤية عارف، حتى لا يكتشف سالم علاقتي به ويستغلها ضدي في مسألة الطلاق، وأريد أن أفتح سيرة العشق وفقدان الحبيب؟!!

ربما كلا الأمرين، وربما كنت ألعب معه لعبة القسوة التي نمارسها بشيطانية ماهرة على بعضنا البعض، حتى لا نبقي وحدنا في وادي الأحزان.. قلت له دون أي مقدمات ودون داع إلى ذكر الأمر من الأساس: (على فكرة هالة اتجوزت واحد مش بتحبه.. كانت بتعيط في الفرح.. كانت بتعيط عليك!).. هل نجحت خطتي؟! نعم نجحت في نكأ الجرح الذي ربما كان قد اندمل داخله، وجئت أنا بمنتهى القسوة وفتحتة مرة أخرى.. ظل واجماً ومطرقاً في الأرض، واضعاً كفيه على آخر رأسه وسانداً ذراعيه على ركبتيه، ثم قال بعد أكثر من دقيقتين: (الله يلعنك يا آسيا!)، فسألته بغباء ناسية حكايته التي قصها علي في أحد لقاءاتنا مصادفة منذ أكثر من عام: (مين آسيا؟!)، فنظر إلي بغضب وحنق شديد تخيلت معهما أنه يلعن المصادفة السيئة التي قابلتني به في تلك الليلة، ثم قال: (يبدو إنك قررت نسيان كل شيء من الماضي.. حكيثلك عنها من سنة تقريباً)، تداركت الأمر من فوري ثم قلت له: (أنا آسفة.. بس أنا فعلاً قررت نسيان الماضي ما عدا حاجة واحدة)، (إيه هي يا ترى؟!)، ولأول مرة تشجعت ونطقت اسمه، بادئة التعايش مع آلامي والتوقف عن الفرار منها: (سعيد مختار!).

انتصب أحمد فادي بظهره وشخص ببصره قليلاً إلى الأمام، ثم عاد إلى الوراء مريحاً جذعه على ظهر الأريكة، وبعد فترة من الصمت بيننا قال: (يبدو أننا كبرنا)، ثم نظر إلي وسألني: (عندك معلومات عن شلة الجامعة؟!.. لو تعرفي حاجة قوليلي).. أصر أحمد فادي على البقاء في الماضي الحزين، رفض أن يطلق مارده معي ليدخل بلورة البهجة، التي حاولت أن أرسم في أفقها ليلة من المرح الطفولي الذي سلب مني، رفض أن يهرب من الأحزان، وأنا التي كانت ترجو صديقاً يعاونها عليها، واستطاع أن يشدني إليه لأستقر في بقعة

البكاء! فسردت عليه أخبار ثلة الجامعة تماماً كما أراد: (مؤمن مات في اليوم اللي اتولدت فيه بنتي، وسعيد مات قبله وحكم على حياتي كلها بالشقاء، وهالة سالت دموعها على فستان فرجها، ومنى هربت من الصحافة وعاشية تحت تأثير المهدئات عشان تنسى حبها اللي على وشك الانهيار، وأنا فشلت في الشغل والجواز!.. يتبقى الأمل في سهام، اتجوزت من صحفي مصري بيحبها ويتحبه بعد ما فشلت في إنها تلاقي أبوها، وخلفت ولد جميل، وهي دلوقت مستتية خمس سنين يمروا عشان تاخذ الجنسية).

انتهى لقائي بأحمد فادي على الأحزان، وشعرت باليأس من إمكانية العثور على صديق يعينني على البهجة، فحتى سهام التي أخبرت فادي بأن الأمل فيها، كانت قد قررت بعد عودتها من رام الله وزواجها بعلي إسماعيل أن تبتعد عن الجميع.. وخاصة أنا! أنا التي تنتظر إلي دائماً كمصدر للإزعاج الوطني، حتى أيام استسلامي وابتعادي عن العمل السياسي، لم تقتنع بأنه من الممكن أن أفعل أي شيء في الدنيا سوى الحديث عن فلسطين والنضال من أجلها، فاقترعت علاقتنا على السلام العابر كلما التقينا مصادفة في المصعد، أو في أحد ممرات مؤسسة الجماهير. ضاع أمني تماماً في العثور على صدر صديق حنون أبثه همومي، فمضيت وحدي في رحلة طلاقي من سالم إلى النهاية، حتى إنني كتبت تنازلاً له عن حضائتي لابنتي، هذا الأمر الذي جعل أمني تتوحش ضدي، وتهيج العالم كله علي، حتى ذهبت إلى أحد المحامين وأخبرني بأن تنازلي هذا لا يؤخذ به قانوناً، لأن حضانة الطفل في هذا العمر ليست حقي وإنما حقه هو، ويجب أن يؤخذ له، فقررت رفع قضية حضانة لاسترداد البنت، ما جعل سالم يعيدها حتى قبل الوصول إلى المحكمة، فقد كانت المسكينة

عَبْئاً عَلَيْهِ، وَمَجْرَدَ وَرْقَةٍ لِلضَّغْطِ عَلَيَّ حَتَّى أُتْرَجَعَ عَنِ الطَّلَاقِ، وَعِنْدَمَا
احْتَرَقَتْ رِمَاهَا!

برغم كل شيء، لم يكن طلاقى من سالم سهلاً أو مبهجاً، بعد أن أتممنا الإجراءات على يد المأذون في مكتب المحامي، الذي وكلت إليه تولي أمر إجراءات الطلاق، تركت الغرفة التي يجتمع فيها الجميع وذهبت إلى الغرفة المجاورة، وأنا أحاول تجميد دموعي التي ملأت مآقي حتى لا تسيل أمام الجميع، لكن بمجرد أن خطوت داخل هذه الغرفة تهاويت بكامل جسدي على الأرض وسقط رأسي إلى الأسفل، بينما احتضن ذراعي جسدي في محاولة للذاتي المتمزقة، وانهمرت دموعي وأنا أئن بصوت مكتوم.. لم أكن أتخيل أن يكون هذا هو رد فعلي لكنه كان.. بكيت على عمر ضاع في بيت أسسته بكل ذرة في كياني، وصفت فيه أحلامي في غد سعيد في كل أركانه وزواياه، بكيت على مطبخي الذي صنعت فيه وجبات لعائلة تخيلت أنني سأنشئها، وبكيت على سريري الذي توهمت أنه سيشهد لذة الالتقاء برجلي، بكيت على حجرة ابنتي العارية إلا من فراش صغير، وخططي للفرش الذي كنت أحلم بشرائه لها، واللعب التي نثرتها في كل ركن حتى تجد الفرحة أينما استدارت، بكيت على النباتات التي سقيتها بصبر في الشرفة وأنا أرقبها تكبر يوماً بعد يوم، والسقف الذي كنت أوفر النقود حتى أضع به تكعيبة تتسدل منها فروع اللبلاب على رؤوسنا، ونحن نتجمع كعائلة صغيرة لاحتساء الشاي مع النسيم، ونثرثر ثرثرات المساء المترامية.. بكيت أحلامي في ذلك المكان، وكل محاولة بذلتها للحصول على الاستقرار في ظل عشيق نلت زواجاً، وبيت بنيته وكنت ما أزال أبنيه حتى انتهى كل شيء.

لم يكن منزل أُمي على كل ما يقدمه من عطف ورحمة ليربحني، فلقد عدت إلى كنف أُمي بنفس تختلف كثيراً عن فتاة

الماضي التي كنتها، فأنا لم أعد فتاة بل امرأة، لكنني امرأة دون رجل يكمل مشهدها أمام الكون كله.. ورغم أنني كنت أحب عارف، وبرغم أنني كان لدي عملي ونشاطي السياسي الذي عدت إليه، وبرغم أنني مباركة بطفلة تتاديني ماما، إلا أنني كنت أشعر بالنقصان والخواء الذي يسيطر على كل أجزائي. ظللت ثلاثة أشهر العدة بعيدة عن عارف، فاكتمل ابتعادي عنه ثمانية أشهر، لم أكن أراه سوى في الأماكن العامة، أو في الندوات التي كان يقيمها باستمرار ليناقدش كتبه أو ليقول أي شيء في أي موضوع بأي ندوة، لكن كل هذا ما كان ليكفيني، فلقد كنت أتوق إلى لحظة من لحظاتها الحميمة، أتوق إليها هذه المرة وأنا حرة خالية من تهمة الخيانة الزوجية.

مرت الأشهر الثلاثة علي بصعوبة، كنت كل يوم أطالع النتيجة لأشطب عن يوم مضى، وأعد ما تبقى لي من أيام حتى تكتمل حريتي ويصبح من حقي الذهاب إلى أي مكان، دون أن أكرث لمراقبات سالم لي، حتى جاء اليوم الموعود فاتصلت بعارف أطلب منه أن نلتقي فوراً وبأي طريقة، كانت رغبتني فيه قد وصلت إلى ذروتها، أمضي الليل أتلوى في الفراش وجسدي يلح في طلب رفيقه بعنف، يوهنني ويشعرنني بالألم في كل ذرة من ذراتي، اتصلت به وأنا كلي لهفة، لكنني صدمت به وهو يخبرني بأنه مسافر بعد ساعات قليلة إلى لندن.. مرة أخرى لندن!.. لندن.. لندن.. لندن!.. ماذا في لندن تلك ليسافر إليها باستمرار؟! وفي كل مرة يسافر أبحث عن منال، لأجدها إما في لندن أو مسافرة إلى بلد لا يعرفه أحد، مما يجعلها في نظري بالتأكيد إلى لندن!

استقبلت خبر سفره بوهن، وهن شديد كان قد بدأ يدب في جسدي وعقلي المتعبين من كثرة الحوادث المؤلمة، ومفردات اللحظات التي تمر علي بعادية خاوية من أي شيء قد يسجل يوماً في دفتر

الذكريات، كذكرى حدثت في يوم كذا من سنة كذا، كانت الأيام تمر علي متشابهة، موضوع صحفي أبله يليه موضوع أكثر بلاهة! واجتماعات سقيمة لا يحدث فيها سوى النقاشات والخطط الساعية لجمع تبرعات وأدوية للعراق، ونوايا حسنة لإقامة مظاهرات قد توقظ الشارع المصري، الذي يغط في متطلبات الحياة اليومية ولقمة العيش الصعبة المنال. لم يكن أمامي سوى المضي قدماً في ما شرعت فيه بالفعل، فما الذي يمكن أن أفعله سوى الاستيقاظ صباحاً لتحضير فطور ابنتي، ومن ثم الذهاب بها إلى دار الحضانة لأشاهد عيون المشرفات والدادات المترهلة، التي يكسوها غشاء الصمت المحيط بلا شيء في فراغ الحياة التي ندور فيها جميعاً، دون رؤية واضحة لشيء قد نصل إليه! وبعد أن نتبادل الابتسام الذابل أخطو نحو محطة الميكروबाص، لأتضارب دون قصد مع الأجساد المهرولة نحو أول ميكروबाص يأتي من بعيد، في محاولة للفوز بكرسي مهترئ! حتى أصل إلى مقر مؤسسة الجماهير في الوقت الذي حددته رئيسة التحرير دون خسائر الخصم من الراتب، لكنني لم أتمكن قط من الحصول على راتبي كاملاً! حيث دائماً هناك تأخير، ودائماً هناك خصم من مرتب هزيل أتقاضاه كصحفية عظيمة!.. وما أن تستريح مقعدتي على مقعد الكرسي، حتى أدير قرص التليفون متصلة بكافيتريا المؤسسة لأطلب ساندويتش البيض، الذي اعتدت أن أبتلعه يومياً بلا لذة، وأعقبه فنجال القهوة (المضطرب)، ومن ثم أقلب الفنجال على الطبق وأنتظر قليلاً، لأرفعه وأقرأ ما يخبئه القدر لي من أهوال داخل الخطوط المتعرجة.

عندما تأتي الساعة الثانية عشرة ظهراً، أبدأ إدارة قرص التليفون للبحث عن صيد ثمين أسعى وراءه، للحصول على خبر أو موضوع فني ربما يكون مثيراً للقراء، وكما يرمي الصياد شباكه في النيل ورزقه على الله، أفعل أنا أيضاً ورزقي على الله! قد أحصل على

سمكة هزيلة تقيم بالكاد أودي، وقد أحصل على سمكة سمينة تحقق لي انتصاراً صحفياً لا معنى له في النهاية!.. أدور وأدور في فراغ الشوارع المزدحم، وقبل أن ينتهي اليوم أجتمع بأصدقاء الكفاح لنخطط ونتناقش ونعد لرحلات العراق.

انتظرت عودة عارف بصبر نافذ، كانت الحياة التي أعيشها سقيمة ومملة للغاية، وكنت أحلم بأن أمضي معه بضع ساعات تشحن قلبي وعقلي وتدفعني إلى قبول أيامي القاتلة، لكن غيبته هذه المرة طالت وغيبة منال أيضاً قد طالت. في ذلك الوقت كنا قد أتمنا إجراءات رحلتنا الجديدة إلى العراق، وأخبرني شكري بأن رئيس الجمعية الأستاذ علي معاطي يريدني أن أسافر معهم هذه المرة، ليستفيدوا بنشاطي هناك في جولات المستشفيات وتنظيم الاحتفال الذي سيقومونه، لأنه سوف يصبحنا هذه المرة مجموعة من الفنانين المصريين الكبار، وافقت بالطبع وقررت ألا أخبر أُمِّي بأنني سأسافر إلى العراق، وإنما إلى لبنان لتغطية مهرجان فني هناك، ولأن أُمِّي لا تعرف كثيراً عن أمر المهرجانات، فقد استطعت أن أولف لها اسماً لمهرجان كبير ببירות سيستمر لمدة عشرة أيام!

حزمت حقيبتني وسافرت طائرة من الفرع إلى العراق براً، بسبب الحظر الجوي المفروض على العراق ضمن الحصار الاقتصادي القائم منذ حرب تحرير الكويت، سافرنا أولاً بالطائرة إلى عمان بالأردن، وأثناء رحلة الطيران تلك لاحظت وجود عدد كبير من رجال الأعمال المصريين على متن الطائرة معنا، كان وجودهم مثيراً لتساؤلاتي، ولكنني لم أجد إجابة لدى شكري، بينما أجابني علي معاطي قائلاً: (ليه هو رجل الأعمال ما ينفعش يكون مصري وطني؟!)، ومع هذه الإجابة شعرت في داخلي برغبة شديدة، لذلك عندما هبطنا في عمان، وبعد كل ما شاهدته أثناء رحلة الطيران من تبادل الفنانين والصحفيين ورجال

الأعمال بطاقات العمل، بشكل يحمل الكثير من التواطؤ على التريح كل من الآخر، قررت أن أفهم، خاصة عندما طلب مني واحد منهم بطاقتي، طالباً أن أزوره في مكتبه بمصنعه في مدينة السادس من أكتوبر، برغم أنني أفهمته أنني محررة فنية ولست محررة اقتصادية، إلا أنه أصر على أنه لا توجد مشكلة في طبيعة عملي الصحفي، وأصر على أن أزوره لأقوم بجولة في مصنعه، ومن ثم مناقشة كيفية الاستفادة من بعضنا البعض!.. كان هذا الحوار الخاطف بيني وبين رجل الأعمال هذا - والذي بدأ بإقباله هو علي، حيث إنني لم أتحرك من مكاني على متن الطائرة، مثلما فعل الجميع متوجهين نحو رجال الأعمال ومبادرين إلى الحديث ومنحهم بطاقات العمل - مثيراً جداً لألف سؤال دار برأسي، خاصة عندما أكدت لهذا الرجل أنني لا يمكن أن أكون مفيدة له، لكنه قال لي: (إنني عجباني جداً لأن شكك راقي ولأنك مش بتبادري بالتعرف علينا رغم إن التعرف علينا كله منفعة!).. كله منفعة؟! منفعة لمن؟! وما المنفعة التي سعى لها الصحفيون في رحلة وطنية مثل تلك؟! رحلة لا تستهدف سوى تدعيم مقاومة الشعب العراقي للحصار، وإسناده في صموده أمام الجبروت الأمريكي؟!.. كل هذه التساؤلات فسرتها لي حنان كامل الصحفية بإحدى الجرائد الحزبية، والتي تعيش بعيداً عن أهلها ونذرت عمرها كله للنضال، ولا تشارك في رحلات العراق إلا لترى حبيبها العراقي، الذي قابلته في واحدة من تلك الرحلات التي شاركت فيها منذ البداية، ولها تاريخ طويل معها يكفي لأن تفهم اللعبة كلها، وتستمر فيها فقط كي تتسنى لها الفرصة لرؤية حبيبها!

بمجرد أن وصلنا بغداد بعد رحلة برية طويلة ومرهقة للغاية محشورين داخل الباصات، نزلنا جميعاً في أفخم فندق ببغداد ألا وهو الرشيد، حيث قابلتنا صورة جورج بوش الأب مصنوعة من الموزاييك

بفنية عالية وهو يتألم، فالصورة موضوعة على أرض المدخل يطؤها كل من يخطو إلى داخل الفندق!.. فوجئت بهذه الصورة الكاريكاتيرية البديعة، والتي تتيح لنا أن نفرغ شحنات الغيظ المكبوت داخلنا بأن ندوس بأحذيتنا على رئيس القوة العظمى الوحيدة في العالم، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أتقافز على الصورة وأرقص بعنف وأنا أدبذب بقدمي عليها! حينها التفتت إلي حنان التي لم تكن صديقة لي قط من قبل، لكنها كانت مجرد رفيقة في جمعية سياسية، وقالت: (عملت نفس الشيء أول مرة جيت فيها هنا.. لكن صدقيني مهما دبذبتني برجلك ودستي بجزمتك على مناخير بوش مش هتحققي الهدف الحقيقي، وهو إن الشعوب دي لازم تفوق وتحرر نفسها من شبح أمريكا)، بعد أن سمعت ما قالته توقفت عن اللطع العنيف بقدمي على وجه بوش، ومشيت ببصري من صورة بوش الموزاييك المتألمة إلى وجه حنان المتألم من معرفة الحقيقة، لذا قررت أن تكون رفيقتي في الرحلة.

بدأت الرحلة عادية جداً كما كنت متوقعة، زيارات إلى ملجأ العامرية الشهير، لأخذ أكبر جرعة أسى وحزن قد يصيبها الإنسان في حياته، وهو يستمع إلى القصص المؤلمة ويرى آثار أطفال تم تفجيرهم بأكثر السبل وحشية في التاريخ، وهم مكдسون داخل ملجأ تحت الأرض للاحتماء من القصف العشوائي، فإذا بهم هدف لصواريخ صممت خصيصاً لاقتحام هذا الملجأ الآمن وتفجيره بمن فيه، ثم زيارات أخرى إلى المستشفيات لتكملة جرعة الانكسار والشعور الأصيل بالهزيمة، ونحن نرى نساء ورجالاً وأطفالاً مشوهين، وآخرين لا يجدون علاجاً حتى لنزلات البرد العادية التي نتلقى لها علاجاً منزلياً باستهانة شديدة بالمرض.. كل ذلك عشته يوماً وراء يوم، وأنا أتألم وأنزوي بين الجدران خجلى من عجزى عن إنقاذ ولو واحد فقط من هؤلاء الأطفال الأبرياء، بينما يستسلم الفنانون لعدسات كاميرات الصحف وكاميرات

الفديو، التي تسجل مشاعر الحزن المرسومة بحرفية على الوجوه، ومشاهد التعاطف والأسى والوطنية المفعمة! لتنتشرها في ما بعد على صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون بمجرد العودة إلى القاهرة.

كان أكثر ما لفت انتباهي عند وصولنا إلى بغداد هو اختفاء رجال الأعمال، الذين حتى لم يظهروا أمام عدسات الكاميرات كنوع من الدعاية، فهل هم وطنيون إلى درجة أنهم انزوا بعيداً عن عدسات الصحافة، مؤثرين تقديم خدماتهم في الخفاء دون كتابة ولو سطر واحد عنهم بأي جريدة كانت؟! هذه الملاحظة أثرتها وأنا أتناول طعام العشاء بمطعم فندق الرشيد مع حنان، التي لازمتها في كل خطواتها بالرحلة، حتى وهي تلتقي حبيبها الذي عرفتني به بمجرد أن وصلنا، حيث كان ينتظرها عند مدخل فندق الرشيد.

في حاجة عاملاي قلق في عقلي من ساعة ما وصلنا هنا، أو بمعنى أصح من ساعة ما ركبنا الطائرة في مطار القاهرة وإحنا رايعين على عمان!

(ابتسمت ابتسامة العارف) وإيه هي؟!

أولاً موضوع رجال الأعمال اللي جايين معنا في الرحلة.. هما على طول بيبجوا الرحلات دي؟!

(اتسعت ابتسامتها) أيوه مش بيفوتوا رحلة!

وده معناه إنهم وطنيين وقلبهم أوي على شعب العراق المحاصر؟!

يعني!

يعني إيه؟!

قولي كل اللي عندك الأول وبعدين هاتكلم.

كل اللي عندي إني أقدر أفهم إن شوية فنانين بييجوا معانا،
عشان يتصورولهم كام صورة هنا، ويروحوا يكتب عنهم في الجرايد
إنهم الفنانين العظماء اللي بيقدّموا فن راقي غير بعيد عن آلام شعوبهم،
وفي نفس الوقت بيشاركوا في الحملات الوطنية.. إلخ إلخ.. لكن رجال
الأعمال؟! بصراحة مش قادرة أوفق بين الرأسمالية وآلام الشعوب
المطحونة!

إنتي شيوعية ولا إيه؟! (بابتسامة ساخرة ومتألّمة في نفس
الوقت).

لا أدعي شرف الشيوعية، ولكن على الأقلّ بافهم الفرق بين
رأس المال وحاجات البروليتاريا، وإنهم لا يمكن يتفاهموا إلا بإجبار
البروليتاريا ليهم.

حاسة إنك ما قلتيش كل حاجة.. قللي كل اللي عندك الأول.

الصحفيين اللي اتبادلوا الكروت مع رجال الأعمال، وكانوا
طول الرحلة بينافقوهم ويتقربوا منهم، ورجل الأعمال اللي طلب مني
الكارت بتاعي زي ما قلتلك قبل كده، وقال لي إن معرفته كلها منفعة،
وبعدين اختفاء كل رجال الأعمال من ساعة ما وصلنا وعدم ظهورهم
إلا في ما ندر على العشا.. هو إيه اللي بيحصل بالظبط؟! وبعدين لا
شكري ولا علي معاطي إدوني إجابات شافية، وكانت طريقتهم في
الكلام كأنهم بيخبوا حاجة عليا.

أسندت الشوكة والسكين إلى طرف طبقها، ثم اعتدلت في
جلستها وقالت لي وهي تنظر في عيني بعمق شديد: (بصي يا أحلام..
أنا مش عارفة ليه مستريحالك، برغم إني كنت مش شايقة فيكي غير
بت عبيطة مش فاهمة حاجة وجاية تلعب لعبة الوطنية!.. ما ترعليش
مني بس أنا ماعرفش عنك حاجة وعمرى ما عرفت عنك تاريخ

سياسي، يمكن لأني أكبر منك شوية وعمرنا ماتقابلنا في جامعة ولا الكلام ده).

تناولت شوكتها وسكينها واقتطعت جزءاً من شريحة اللحم التي أمامها على الطبق، ثم تركتهما مرة أخرى، وبعد أن ابتلعت ما في فمها قالت لي بهدونها المعتاد والذي يكاد يقتلني: (كل الناس اللي انتي شايفاهم هنا دول، في ما عدا القليل جداً زيك وزبي وزبي شكري، جايين هنا للمنفعة، زي ما انتي قلتي.. الفنانين جايين عشان يعملوا شوية دعاية لنفسهم، والمذيعات والمذيعين نفس الشيء، لكنهم بيشتركوا مع الصحفيين في حاجة، وهي إنهم يتصلوا برجال الأعمال اللي ببيجوا في كل رحلة، ويعملوا اتصالات بيهم عن طريقها بياخدوا إعلانات لجرايدهم يكسبوا منها نسبة شرعية، حسب قانون الإعلانات في الصحف، ومنها شوية فلوس تحت الترابيزة يفوتوا بيها شوية جمل عن رجال الأعمال في موضوعاتهم، مضمونها إن الناس دول وطنيين واستثماريين مصريين بيعملوا على نهضة الاقتصاد المصري.. أما رجال الأعمال فبيجوا عشان يعقدوا صفقات تجارية مع النظام العراقي، يدخلوا بيها منتجاتهم للعراق بعيد عن قانون الحصار الاقتصادي، وبالتالي بعيد عن عيون الضرايب في مصر، يعني صفقات تجارية تحت الترابيزة متغطية بالمواقف الوطنية الباسلة العظيمة.. كل المنتجات اللي بتوصل هنا ضمن رحلاتنا على إنها معونات للشعب العراقي، هي في أصلها صفقات تجارية مدفوعة التمن، وطبعاً حكومتنا عارفة الموضوع ده مش غفلة عنه، لكنها بتتغافل عنه لأن الرشاوي بتتدفع لكل مسئول ممكن يوقع على أي ورقة تسهل خروج البضاعة على إنها تبرعات مش تجارة، وكمان رجال الأعمال بيستفيدوا من الصحفيين في إنهم يحصلوا على تخفيضات في أسعار الإعلانات، غير إنهم بيتبروزوا كمصادر صحفية تدلي برأيها في أي موضوع

متفبرك عن أي حاجة مضللة للشعب المصري في الصحف.. وكده
أعتقد إنك فهمتي أصل الموضوع!.

كان كلامها صاعقاً وصعباً استيعابه من أول مرة، فسألتها:
(طبيب وأعضاء الجمعية؟! والأستاذ علي؟!).

أستاذ علي مستفيد طبعاً، أmaal العربية المرسيديس اللي راكبها
دي جاييها منين؟! وشركة الإنتاج الإعلامي الكبيرة اللي عنده عاملها
إزاي وهو عمره ما كان صحفي رسمي في أي جريدة ومع ذلك عضو
نقابة؟!.. معظم أعضاء الجمعية من الكبار داخليين جوه الصفقة، لكن
الغلبة اللي زيك وزبي وزبي شكري وغيرنا كثير داخلينها وطنية، تقدر
تقولي إننا الحطب اللي بيولعوا بيه عشان يستفيدوا باسم الوطن
والوطنية.. إحنا مجرد أدوات مش أكثر لتحقيق أهدافهم النفعية!

وطالما إنتي عارفة كده مستمرة ليه؟!

أنا مش مستمرة ولا حاجة.. أنا بقالي فترة مش باشتغل معاهم،
بس بأقدم لهم خدمات بسيطة على اعتبار العشرة اللي بينا، وبأجي
الرحلات دي عشان أشوف حبيبي زي ما انتي عارفة، لأن مفيش
طريقة تانية أدخل بيها العراق، وهو ما عندوش طريقة يخرج بيها من
العراق بكرامة.

طبيب وشكري ليه مستمر؟!

شكري مسكين جرب كل طرق النضال، الجمعيات السرية اللي
تحت الأرض واللي فوق الأرض! وتأكد إن مفيش ولا طريقة نزيهة،
وبالتالي شايف إنه عليه الاستمرار مهما كان، والتغاضي عن السليبيات
حتى لو كان في سبيل تحقيق شيء إيجابي واحد.

لكن دي متاجرة بقضايا الشعوب!

مين مش بيتاجر بقضايا الشعوب؟! الكل بيتاجر والشاطر هو
اللي يقدر يحصل على أكبر منفعة ممكنة.. إوعي تعتقدي إن في
وطني واحد نزيه، كله بيلعب على كله عشان يكوش على أي شيء
يقابله في دنيا زي الغابة القوي فيها بياكل الضعيف.

أنا لا يمكن أستمر في حاجة زي كده.. لا يمكن!

إنتي حرة يا أحلام.. لو مفيش عندك سبب شخصي يخليكي
تستمري، يبقى ما لوش لازمة وجع الراس بتاع السياسة!

كانت حنان تتحدث معي بتراخ عجيب، لم أستطع تفسيره، بل
إنني لم أستطع تفسير سبب استمرارها هي وشكري برغم كل المبررات
التي قدمتها لي. مرت الأيام الباقية في مدة الرحلة علي بقل شديد، لم
أستطع فيها أن أستمر في لعب دور الكومبارس في هذه المسرحية
الهزلية، الكل أتى لغرض ما، بعيد تماماً عن مناصرة شعب العراق
وإعانتته على تحمل الحصار، لا يوجد سوى عدد قليل من البلهاء
أمثالي هم الذين أتوا لتحقيق هدف وطني، وهم لا يدرون أنهم مجرد
كومبارس لتكملة مشهد مسرحي عفن!

عدت إلى القاهرة وقد قررت ألا أكمل هذا الطريق، الذي اعتقدت يوماً أنه الطريق العملي الوحيد الذي سيحقق في نهايته انتصار الشعب العربي كله بدءاً من قضية العراق، اعتقدت أننا بإنقاذ العراق سوف نصل إلى تحرير فلسطين، ومن ثم مصر التي تترشح تحت نير الاستعمار الوطني!.. مصر التي تغيب دوماً من هتافاتنا في المظاهرات، ولا تأتي إلا اتفاقاً بعد الهتاف باسم عبد الناصر صاحب المشروع القومي العربي الخيالي، تأتي في جملة أو جملتين، ثم نحرف عنها بحثاً عن قضية عربية في أي مكان بالوطن الذي يسمى عربياً لنهتف له، وإذا عملنا عملنا من أجله، وعندما نعمل نكتشف أننا نخدم قضايا الرأسماليين وحكومتها الفاسدة، ليزدادوا قوة وجبروتاً وتقوى شوكتهم المغروسة في ظهورنا!

لم يكن من الممكن أن أستمّر في هزيمة وطنية أخرى بعد هزيمتي الأولى، التي خط سطور نهايتها سعيد بموته التراجيدي في ساحة الجامعة، لم يكن من الممكن حتى التعامل مع هذه الحقيقة الموجعة ببساطة، فلقد دخلت في موجة هستيرية من الحنق على كل شيء حولي، خاصة بعد أن علمت رئيسة التحرير بأمر رحلتي إلى العراق، برغم أنني كذبت عليها وقلت لها إنني متعبة وأحتاج إلى أخذ إجازة أستريح فيها من ضغط العمل، وبعد أن وشى بي بعض الواشين المنتشرين في مؤسسة الجماهير، والذين لا يبتغون من وشاياتهم سوى إرضاء ربهم الأعلى فقط لا غير! واجهتني بالحقيقة، فأصررت على النكران، لكنها عندما شددت من عنف استجوابها لي قلت لها منفجرة في وجهها: (أيوه سافرت العراق فيها إيه دي؟! ولا كده أبقى كفت؟!)، ثم غادرت مكتبها لأعرف من أحد المقربين إلي بالمجلة - المقربين

لأهداف بعيدة تماماً عن نيل صداقتي لوجه الله - أن السفر إلى العراق أمر محظور تماماً على كل الصحفيين بجريدة الجماهير، حيث تعرض رئيس مجلس إدارتنا المبجل إلى فضيحة من قبل النظام العراقي، عقب غزو العراق الكويت ومن ثم تحريرها، بأنه قد تسلم سيارة مرسيدس هدية من صدام حسين وكثيراً من الأموال لتمجيد النظام العراقي في مقالاته، لكن بعد الغزو قام رئيس مجلس الإدارة بشن حملة تقريع وتدنيد وفضح للأهوال التي يذيقها صدام شعبه، مما جعل النظام في بغداد يفضح كل من تربح منه في كل صحف البلاد العربية والصحف العربية الصادرة في الخارج، بالاسم والأرقام والأشياء العينية التي تسلموها، لذلك وبكل بساطة قرر رئيس مجلس الإدارة مقاطعة دولة كاملة بشعبها، وعدم السماح لأي من رعاياه في مؤسسة الجماهير بالسفر إلى العراق، أو كتابة حرف واحد غير الهجاء في حق رئيس العراق وشعبه!

هكذا كلنا لا نمثل سوى أدوار الكومبارس في عالم الكبار المنتفعين من الصحافة والسياسة والحكم، نحن لسنا سوى مهرجي بلاط نكسب حياة الكبار النكهة، حتى لا يشعروا بالملل من حياة تسير في ركبهم طول الوقت! لذلك لا بد أن يكون هناك بعض من المعارضين المراهقين وممارسي السياسة الصغار، الذين يطالبون بالعدل والمساواة والحرية! ليعطوا لأحداث حياتهم بعض التشويق، فيقوموا ببعض تحركات لمانهضتنا أو لتكسير عظمنا، أو لتحريكنا كعرائس ماريوننت في مسرحية كتبوا نهايتها بدقة!

كل ذلك أصابني بالكره لكل ما حولي، فكنت أسير في الشارع حائقة على هؤلاء الناس الذين هم في حقيقتهم ليسوا إلا هوام لا نفع ولا ضرر منها، بالحقن على مؤسسة الجماهير وصحفييها من أصغر إلى أكبر واحد، حيث إنهم في حقيقتهم ليسوا سوى مهرجي بلاط يختلفون

في المراتب والمكانة، على الجمعية المصرية لمناصرة شعب العراق، فهم ليسوا إلا مترشحين من قضية شعب وبعض الأغبياء من مراهقي السياسة والأحلام الوطنية الرومانسية، على ابنتي التي هي ليست إلا نتاجاً لرجل كرية وامرأة محطمة، على أمي التي هي ليست إلا امرأة غبية، ولدت لتعيش عمرها كله مجرد إسفنجة تمتص ما يسكب عليها ولا تخرج إلا عصارات مختلطة لا معنى لها بقوة الضغط الخارجية، على نفسي حيث أنا لست إلا امرأة ولدت على رغم أنفها، وعاشت أوهاماً كبيرة لم تستيقظ منها إلا وقد صارت حطاماً.

لم يكن هناك في حياتي شيء باق غير عارف الذي عاد أخيراً من رحلة لندن، حيث أجاب أخيراً اتصالي التليفوني، بعد أكثر من شهرين اختفى فيهما تماماً عن أنظار الجميع، لكنه أجاب اتصالي بلامبالاة، ورفض أن أزوره في منزله متحججاً بوجود بعض من أهله أتوا لزيارته من العراق ولا يدري متى سيعودون! لكنني عندما أصررت على لقائه في أي مكان، دعاني إلى الندوة التي ستقام احتفالاً بروايته الجديدة، التي لا أدري متى كتبها ومتى نشرها وأين؟!.. لم أفكر سوى في أن أراه، فقط أراه ولا شيء آخر، فلقد كنت متشوقة إلى سكب سيل أحزاني الطويلة بين يديه، ليتلقفني بكفيه اللتين كانتا منذ أن رأيته رحمة زماني الوحيدة!

في قاعة ندوات المجلس الأعلى للثقافة، وقبل أن يتوافد الناس عليها، رأيت عمر راضي جالساً في أول صف من المقاعد، فتوجهت إليه فرحة برؤيتي له بعد وقت طويل مر دون حتى أن أفكر في ما حدث بينه وبين منى، بمجرد أن اقتربت منه وكعادته دائماً، حيث يملك أدناً رائعة تميز البشر حتى من طريقة خطوهم على الأرض، قال:

- تعالي يا هرابة!.. إنتي فين من زمان؟!

إنت اللي فين؟! من زمان ما شفتكش!

أنا موجود وعملت حفلتين من غير ما تحضرهم، لدرجة إني قلت إنك أكيد متي!

للأسف لسه مامتش يا عمر!.. ما قلتليش أخبارك إيه مع منى؟!

إنتي لسه فاكرة؟! ولا حاجة بنشوف بعض في الحفلات ومستشفيات الأورام ودور الأيتام والمسنين، ومفيش جديد بالنسبة لموقف أهلها.

يا خسارة!.. الإنسان يفضل يدور على رفيق عمره الحقيقي كتير، وبعد ما يلاقيه يلاقي الدنيا كلها ضده عشان أسباب هو مالوش ذنب فيها.

واللهي يا أحلام أنا محترم موقف أهل منى، وعموماً الإنسان ما يقدرش يغير طبيعة مجتمع كامل بلمسة من عصا سحرية.

عندك حق، بس أعتقد إنه من حقنا إننا نحدد أخلاقيات ومبادئ عصرنا، مش هنفضل على طول أسرى لمعتقدات قديمة.

حيلك حيلك! إنتي هتعملها قضية وطنية زي عادتك؟!

واللهي يا عمر حتى القضايا الوطنية طلعت وهم!

إيه اللي حصل تاني؟!

ولا حاجة.. المهم قوللي.. عارف أخباره إيه؟ هو لسه ما وصلش؟!

لا يا ستي لسه ما وصلش!.. عموماً هو من يوم ما اتجوز ماحدش بقى يعرف يشوفه!

نزلت جملة عمر كسهم طائش من أعالي السماء على مركز التفكير في رأسي فأدارته، وكأنني ابتلعت وحدي زجاجة ويسكي كاملة مرة واحدة! ارتعش كل جسدي، وأخذ العرق يتصبب سريعاً، بينما بردت أطرافي وأصاب مغص مفاجئ معدتي، وشعرت برغبة مفاجئة في القيء، بينما قلبي ينتفض وكأنني في موقف رعب حقيقي.. شعر عمر بي فمد كفه ليلتقط كفي، مما جعله ينتفض قائلاً:

- أحلام مالك؟! إنتي إيدك باردة جداً وكأنك ميتة.. في إيه؟!

هه؟! لا لا مفيش.. واتجوز مين يا ترى؟!

اتجوز منال حلمي طبعاً!.. إنتي ما تعرفيش إنهم بيحبوا بعض من أيام ما كنا في ألمانيا ومنال كانت بتدرس معايا موسيقى؟!

لا ما عرفش أصله عمره ما قاللي.

معلش أصل علاقتهم كانت اتوترت لفترة، بسبب رفض أهل منال إنها تتجوز واحد مش مصري، بس طبعاً لما وصلوا لطريق مسدود مع أهلها قرروا يتجوزوا من غير موافقتهم وسافروا لندن اتجوزوا هناك.. ما هو عارف كان هناك عشان كده الفترة اللي فانت!

انتهى حديثي مع عمر وجسدي كله ينتفض، لم أكن أدري ماذا أفعل، فلا أنا قادرة على حضور الندوة ورؤيته، ولا أنا قادرة على النهوض وترك المكان كله، فلقد شلت قدمي تماماً، وظللت ثابتة على المقعد لا أحرك ساكناً، حتى دخل عارف ومعه اثنان من النقاد، وسارت الندوة بشكل طبيعي حتى النهاية، لكنني لم أسمع شيئاً على الإطلاق، فقط ظل نظري مثبتاً على عارف، أغالب البكاء بصعوبة حتى أستطيع النهوض والمضي بعيداً عن هذا المكان، وبمجرد أن انتهت الندوة وبدأ الحضور يتركون المكان، بينما عارف واقف ليوقع بعض نسخ روايته، التي اشتراها بعض القراء ويريدون توقيعه عليها،

استطعت النهوض وتوجهت إليه، وعندما رأني قادمة نحوه بوجه ميت تماماً وارى نظره عني منشغلاً بتواقيعه، لكني ناديتة: عارف!

هيه أحلام!

عايزاك دقيقة بعد إذنك.

حالا بس خليني أوقع ها النسخة وأجيك.

وجاء ليقف أمامي ووبرود شديد قال:

- مشتاقين حبيبتي.

ابتسمت في وجهه ابتسامة من يودع الدنيا سعيداً بمفارقة قسوتها أخيراً، ثم قلت: (أنا بس عايزة أقولك مع السلامة.. هتوحشني أوي!).

ليش إنت مسافرة؟!

لا مش مسافرة، بس مش هتشوفني تاني أبداً.

ليش حبيبتي؟!

إنت عارف وأنا عارفة.

ابتسم بخجل شديد، ثم قال بعد أن النقط كفي م أرجحاً إياها بحنوه المخادع: (بسيطة حبيبتي بسيطة!).

بسيطة؟!.. فعلاً بعد كل اللي شفته في حياتي يبقى اللي انت عملته بسيط!

وسحبت كفي من بين يديه للمرة الأخيرة في حياتي ومضيت، مضيت لا أدري إلى أين، كل ما أتذكره أنني سرت في الشوارع أبكي بمرارة، وشهقات بكائي تعلو أصوات السيارات التي تنهب في الشارع

بجواني في قسوة، كان الناس ينظرون إلي بتعجب شديد، بعضهم ينظر إلي متحسراً على فتاة جميلة تبكي بحرقة وهي في عز زهوة شبابها، والبعض ينظر إلي متكهماً على الذي لا بد أنه حدث بالتأكيد، حيث شاب غدر بشابة ورمائها على قارعة الطريق!

كان كل ما حولي لا يعطيني فرصة للانهيـار بحرية، فهناك عملي بمتطلباته اليومية، وابنتي التي تتطلب رعاية مستمرة، ومسؤولياتي المادية المتزايدة يوماً بعد يوم والتي تفرض علي السعي للقامة العيش في الجرائد والمجلات العربية، حتى أحصل على مال يسند الراتب الهزيل، وأستطيع تكملة الشهر بكل سخافات مفردات العيش اليومي لامرأة مطلقة ترعى طفلة وأماً بلا مورد، إلى العيون الكثيرة التي تحاصرني، بدءاً من أمي وابنتي ورفاق الشقاء اليومي في الشارع والمواصلات العامة وزملاء العمل.. الكل لا يمنحني دقيقة واحدة لأبكي فيها بحرية على عارف، وعلى انكساري في الوطن الذي تأكد مع العراق، حتى عاتبت الله بانهزام شديد يوماً قائلة: (يا الله!.. حتى الانهيار بحرية تضن به علي؟!).

ظللت داخل دائرة الحصار تلك أكثر من شهرين، لكن عقلي المنهك لم يستطع الاستمرار كثيراً، فسقطت يوماً دون مقدمات وأنا واقفة في المطبخ أحضر طعاماً لعشاء ابنتي، مكثت على إثره في إحدى المصححات النفسية لمدة شهر، حيث أكد الطبيب الذي نقلوني إليه مغشياً علي في مستشفى مصر الدولي، أنني أعاني انهياراً عصبياً ولا أشكو أي مشكلة عضوية.

زارني خلال ذلك الشهر في المصححة عمر ومنى.. منى التي لم تدر ما الذي يمكن أن تفعله لمحطمة مثلي، وهي في داخلها محطمة أيضاً، حتى أحمد فادي زارني ولم يقل لي سوى جملة واحدة: (ده قدر ومكتوب علينا كلنا.. الانهيار بقى سنة حياتنا وكتابها!!)، أما شكري فقد

قال لي: (الانشغال بالهموم الإنسانية العادية بيأدي للإنهيار، لكن الانشغال بهموم الوطن بيزيد الإنسان قوة وصلابة.. لازم ترجعي لصفوفنا يا أحلام.. ما تضيعيش وقتك في الكلام الفاضي)، أما سالم الذي جاء شامتاً فقال: (طبيعي إن دي تكون نهايتك، لأنك مش طبيعية وهتعيشي وتموتي مجنونة وغيبية!).

وبرغم تناقض ردود أفعال جميع من زاروني في المصححة النفسية، خرجت منها وفي داخلي قرار واحد لا علاقة له بأي منهم.. قررت أن أكون عفنة لأعيش وأترعرع وسط العفنين.. ولم يكن الأمر صعباً!.. فأن تكون المرأة لعباً لتصل إلى مبتغاها أمر سهل لا يشق سوى على الغيبات، وأنا لم أكن يوماً غيبية سوى لأنني آمنت بالوطن، آمنت بالإنسان، وآمنت بالله!

لم يكن من الصعب السقوط بانسيابية إلى درك العفن.. هذا ما اكتشفته عندما عدلت مساري وأعدت ضبط بوصلتي، خاصة أن الأبواب مشرعة عن آخرها لاستقبال فلول العاهرات المقنعات، فأنا لم أغير مهنتي، ولم أضطر إلى العمل في الملاهي الليلية واصطياد الرجال من على قارعة الطريق.. كان الأمر أكثر يسراً من كل هذه التصورات التقليدية للعاهرات، حتى إنني أشقت على راقصات الدرجة الثالثة والعاهرات، لأنهن يتعرضن إلى النبذ في المجتمع، بينما عاهرات الصحافة والسياسة والفن والأدب يحتفظن بكامل أناقة ورقى مظهرهن، ويستمر المجتمع في حالة انحناء لهؤلاء النساء الطليعيات!

لم يكن من الصعب علي أبداً الزلق إلى درك العفن، فدائماً هناك رجل أبله يتدلى لسانه خارج فمه عند رؤية مطلع نهد، فما بالك لو رأى النهد كله أو حظي بشرف لمسه؟!.. هكذا كان الطريق معبداً تماماً للصعود على أكتاف الجميع، وتحقيق قفزات نوعية ومادية في بلاط السيدة صحافة وبلاط السيدة سياسة!.. عشت عمري كله ضائعة بين المبادئ والمثل والوطنيات والأحلام الكبيرة بعالم أفضل، ذقت المر والهوان سنين طويلة وأنا أحاول أن أفعل أي شيء حقيقي، لكنني لم أنل سوى التجاهل والرفض، ولم أحقق سوى الانسحاق داخل ذاتي وداخل وطن لم أره سوى مهزوماً ملقى على قارعة الطريق.. لم أكن أدري أنه ببعض دلال وبعض غنج أنثوي سقيم، وقليل من عقد النفس أثناء تسلل كف مسئول عاجز أسفل القميص، دافعاً حمالة الصدر بانتشاء رجل قام بسحق أنثاه مفرغاً فيها شحناته ألف مرة، لينتهي إلى الارتعاش بمجرد لمس لسعة الحلمة وتكور النهد الشامخ أصابعه! سوف تكون نتائجه مطابقة تماماً لمواصفات كلمة علي بابا: (افتح يا سمسم)!

لتنفتح جميع الخزائن التي استحكم انغلاقها في الوجه سنين طويلة،
ومن ثم آخذ كل الوقت لأجمع الياقوت والمرجان والذهب واللؤلؤ!

ببساطة شديدة نلت رضا رئيسة التحرير، التي تلقت أوامر
عليها بأن ترضى عني وتجعلني يمانها في المجلة، ثم وجدتي أمتع
بأجندة مترعة بجميع تليفونات كبار المسؤولين الإعلاميين في البلد،
أقوم بإعداد برامج كثيرة لكل القنوات التليفزيونية التي زادت وفاضت
مؤخراً، من فضائية إلى متخصصة، هذا غير القنوات الأرضية وقنوات
الإخوة العرب التي تنتشر مكاتبها في القاهرة! أصبحت ضيفة دائمة
على موائد وسهرات رجال الأعمال الكبار، الذين كانوا يعشقونني
ويتعاملون معي كأمية قادمة من الأساطير، فتاريخي البريء كان
يستهوهم جميعاً، بالإضافة إلى أنني برغم كل تنازلاتي، إلا أنني ظلت
في نظرهم مترفعة عنهم وعن أموالهم وجاههم، فقد أكسبني ما حدث لي
لساناً سليطاً ينتقد كل ما يقومون به، ويقول كل الكلام الذي لو كنت
قلته في مقال صحفي لكنت انتهيت إلى ظلمات اللاوجود!

في هذه الفترة التقيت أحمد فادي مرة أخرى، حيث قام رئيس
القناة التي يعمل بها بإسناد مهمة إخراج برنامج عن الفن التشكيلي
الحديث في مصر إليه، وأعطاه مقالاتي في مجلة جماهير الفن
الخاصة بهذا المجال، أمراً إياه بأن أقوم أنا بإعداد البرنامج له، بالطبع
اتصل بي أحمد كارهاً تماماً، لأنه كان قد قرر الابتعاد عن ثلة الجامعة
البائسة، وما جعله أكثر كرهاً للتعامل معي الشكل الجديد الذي رأيته
عليه.. وجه ملون عن آخره بالمساحيق، وملابس تظهر فتنة الجسد،
وسيارة تلقمها شفتاي وتتفت دخانها باحتراف.. أنا نفسي لم أكن أعلم
بأنني قادرة على تحقيق هذا التحول الكلي في تلك المدة الوجيزة من
الزمن، لكنني أعدت اكتشاف قدراتي الخارقة مع هذا الأمر! وإن كنت
قد تحولت خارجياً فقط، حيث ظلت أحلام الحقيقة قابعة داخلي،

متكورة في أحد الأركان المظلمة في نفسي، ترقبني في صمت حزين، وتبكي بأنين مكتوم لا يسمعه سواي طول الوقت، مع كل خطوة أخطوها وكل لمسة من كف ذكورية هطلة لجزء من جسدي، وكل كذبة أطلقها لأحصل بها على شيء، وكل نفاق أقدمه على مائدة عشاء مسئول أو رجل أعمال، وكل رشفة أتجرعها من سم خمر الفنانين والمتقفين والكتاب التقدميين الكبار! وكل جملة رنانة تحمل كل مبادئ الدين والأخلاق أطلقها أمام شيخ من شيوخ السلطة، أو واحد من الذين يرفعون راية الإسلام هو الحل، بينما يتخذونه ذريعة إلى نهب الناس والترح من خسائرهم!.. وكله باسم الإسلام!

قابلت أحمد فادي وأنا أحكم وضع قناعي الذي صنعتته بحرفية شديدة لوجهي الجديد، وتحملت كل كلامه الذي أطلقه بعنف في وجهي، لأنني أدرك تماماً أنه مصدوم بي صدمة كبيرة، فأحلام باعت فلماذا لا يبيع هو الآخر؟! هكذا قال لي عندما التقاني في الهناجر لتتق على البرنامج الذي أمره مدير قناته بإخراجه، وهكذا انطلقت في وجهه كلبوة قد تقيحت جروحها بعد معارك كثيرة خاضتها دون فائدة ترجى.. هدرت في وجهه أنني قد تم بيعي في سوق النخاسة الوطني بأبخس الأثمان، وأنه لم يكن في حياته سوى حمار كبير، لأنه ظل متشبهاً بمبادئ لا وجود لها في دنيانا، برغم أنه يعرف منذ نعومة أظفاره أن عبد الناصر سجن والده برغم أنه كان من عشاقه!

بعد هذا اللقاء الذي قطعنا فيه أوصال بعضنا البعض، اتفقنا على العمل معاً، فبرغم كل شيء نحن صديقان من عصر غضاضة الروح وأحلام الغد الأفضل ومصر الجديدة التي تقنا إلى صنعها، فلم نلق سوى هدم ماثبات لكل معاولنا وأزاميلنا حتى تكسرت وأدميت أكفنا. بدأنا برنامج الفن التشكيلي الذي خرج متميزاً، برغم عادية فكرته التي (تخدم على) بعض الفنانين التشكيليين من خدام البلاط، ثم توالى

الأفكار والأعمال الغبية التي لا تستهدف سوى النقود وإرضاء بعض المسؤولين هنا وهناك، ثم سحبته معي نحو عالم الفضائيات العربية، وجلسات رجال الأعمال العرب الذين يترشحون من وراء تاريخ الإعلام والسينما والأدب والفن المصري، بسرقة ومحو هويته المصرية وتحويلها إلى هوية عامة لكل من هب ودب، كنا نساعد بعقولنا وأفكارنا على قتل ذاكرة بلدنا من أجل بضعة دولارات نتقاضاها أجراً على خيانتنا ثقافتنا، لم يكن أي منا مستريحاً إلى ما يقوم به، لكننا كنا نقوم به على أية حال، على الأقل أصبحنا نمتلك مالاً نشترى به أغراضنا الحياتية العادية، وامتلك كل منا سيارة ترحمه من زحام المواصلات العامة، وتمكنت أنا على الأقل من شراء شقة كبيرة في حي راق بالقاهرة، بعد أن عشت عمري كله في بلد ريفي صغير بأول جنوب مصر، ثم أكملت حياتي في شقة سالم الصغيرة في بولاق الدكرور، وعندما تركته استقر مقامي في شقة أمي الإيجار بأحد أزقة إمبابية.

برغم كل تلك المكاسب المادية، والحياة السهلة المريحة التي حققتها وحققها معي أحمد، إلا أنه لم يستطع الاستمرار، وظل محاطاً بأوهام الوطن وخدمة شعبه والإعلام الراقي، الذي يثقف الناس ويعكس أحزانهم وأحلامهم، ويرقي من مستواهم الفكري، ويساعدهم على النهوض ببلدهم من أجل مستقبل أفضل.. كل تلك الكليشيهات التي ظللنا نردها منذ أول يوم لنا بكلية الإعلام، ونقرؤها في مقالات الكتاب الكبار، ونسمعها في برامج الثرثرة الجوفاء بالإذاعات ومحطات التليفزيون، دون أن نلمسها يوماً أو نراها رأي العين، أو حتى يسمح لنا أحد بمحاولة تحقيقها.. لم يستطع أحمد أن يتعايش مع المبادئ الرخيصة التي تبنيها مؤخرًا، برغم أنها فتحت لنا كل الأبواب التي أصرت على أن تظل موصدة أمام وجوهنا منذ وعينا في الدنيا، وقرر أن يهاجر، وبالفعل استطاع أن يحصل على فيزا دراسة في أمريكا لمدة

خمس سنوات، لكنه قال لي قبل أن يسافر إنه لن يعود، سيدرس السينما هناك، وسيقوم بعمل المستحيل حتى يحصل على إقامة ومن ثم الجنسية، ولن يعود مرة أخرى إلى مصر.

في ليلة سفره تلقيت منه اتصالاً متأخراً في الليل، التقطت سماعة التليفون الذي يجاور فراشي، بينما كنت أقرأ قليلاً قبل أن أنام:
ألو!

أيوه يا أحلام أنا أحمد فادي.

أهلاً يا أحمد.. إنت طيارتك الساعة كام.

مفروض نازل دلوقت بس حبيت أكلّمك قبل ما امشي.

شكراً على رقتك.

أحلام أنا عايز أقولك حاجة مهمة قبل ما اسافر.

إيه هي؟!

إرجعي لأحلام القديمة.. أحلام الجديدة مجرد مسخ لا يمكن يستمر أكثر من كده!

أنا عارفة إن أحلام الجديدة مجرد مسخ، لكن للأسف المسخ قدر يعيش من غير انهيارات.

مهما كانت الانهيارات والأحلام اللي اتكسرت والمبادئ اللي موتوها، فمش أحلام اللي تتحول لمسخ.

أحلام مش إلهة.. أحلام مجرد بشر بيضعف ويتعب ونفسه يعيش في هدوء.

وتفكرى هتقدرى تعيشى فى هدوء وانتى بتشاركى فى هدم
البلد؟!!

أنهى بلد دى؟! طول عمري بأحاول ألاقى ليها معنى أحسه
ووجود ألمسه لكن مالمقيتهاش.

البلد اسمها مصر، ولو انتى مش قادرة تدافعى عنها ما
تشاركيش فى قتلها!

إنت بتتصل عشان تتكد عليا قبل ما تسافر؟! ليه كده يا
أحمد؟!!

مش عشان أنكد عليكى.. لا.. عشان أفوقك.

تفوقنى على إيه وانت نفسك هريان؟!!

الهروب أفضل كتير من المشاركة فى القتل.

طيب يا أحمد هاحاول أفوق، واهرب انت براحتك أحسن ما
تشارك فى القتل!

انتهت مكالمة أحمد، وبرغم الحدة التى تحدثت بها معه،
واستهانتي بما كان يقوله، إلا أن كلامه ظل يتردد داخلي أينما ذهبت:
(الهروب أفضل كتير من المشاركة فى القتل).. هل أشارك فى قتل
مصر؟! هل أنا فعلاً الآن أشارك فى قتلها؟!.. يا الله كيف أتحول إلى
قاتلة؟! ولمن؟! لمصر؟! لبلدى التى ما حلمت يوماً إلا بها ولها؟ لبلدى
التي لأنها موجودة لم أعبأ بغياب الأب، كانت منذ لحظتي الأولى في
الحياة هي السند والمعرفة والعشق.. كانت الوطن.. ذلك الوطن الذي
انغرس في ترابه، وخطوت أولى خطواتي بين حقوله وغيطانه، داعبت
مياه النيل بأطراف أصابع قدمي خوفاً من النداهة، التي حكّت لي أُمي
عنها، وظللت أسيرة مشهد غروب الشمس وهي تختبئ تدريجياً بين

أفرع النخيل على الجانب الآخر من النيل، هناك حيث دأب أجدادنا منذ البداية في توديع الراحلين وضم أجسادهم في الأرض الدافئة، لبلدي التي ما تركت كتاباً يسرد تاريخها إلا قرأته، أهللت متقافزة عند الانتصار وانكسرت منزوية عند الانهزام، جمعت في أحلامي التواقيع لسعد زغلول، وثرث مع الضباط الأحرار في يوليو ٥٢، وتلقيت طعنة هزيمة ٦٧ ببيكاء وعويل لا أول ولا آخر له، ثم عبرت القناة ببسالة مع الجنود في ٧٣، لبلدي التي لا توجد ذكرى واحدة في عمري إلا بها ولها.. ألعابي الطفولية، وانتصاراتي المدرسية، ومهنتي التي اخترتها بإصرار فقط لأنني آمنت أنها الطريق الأمثل للنضال من أجلها، حتى عندما أحببت، أحببت سعيد فيها وبها، وبرغم أنني كرهتها عندما مات وهربت منها طويلاً، إلا أنني لم أستطع الابتعاد كثيراً فعدت إليها، لبلدي التي كانت البسمة الضنيّة وتاريخ الحزن الطويل.

كانت مكالمة أحمد الأخيرة لي قبل أن يسافر، المنبه الذي رنت أجراسه بقسوة لإيقاظي من غفلي التي تماديت في الخدر داخلها فترة طويلة، حتى أقفت وبدأت أدرك بشاعة ما فعلت، لم أستطع تحمل ما أوحلت نفسي فيه، وكيف أقنع الكلاب الذين تحولت إلى واحدة منهم بأنني لا يمكن أن أستمّر في عالمهم؟! كيف يمكن الاتخلاع مما رزأت نفسي به؟! وهل من سبيل للتراجع والعودة إلى ما كنت عليه؟!.. ما كنت عليه؟! وهل يمكن أن أعود إلى عالم عشت فيه مخدوعة لا ألعب سوى دور الكومبارس في مشاهد النخاسة الوطنية؟!.. كان الأمر صعباً جداً فألى أين أذهب؟! لا أنا قادرة على الاستمرار في العهر، ولا أنا قادرة على العودة إلى عالم الوطنية الزائف الذي انكشف تماماً بالنسبة لي، ثم كيف سأقنع رئيسة تحريري بأن تتخذ من آخر أو أخرى ذراعاً يمني لها؟! وكيف سأخلف كل ما أنا متورطة فيه بالفعل ورائي بمنتهى السهولة واليسر، ودون خسائر جمة لا قبل لي بها؟!!

في أواخر شهر سبتمبر العام ٢٠٠٠ ازدادت حدة الأحداث في الأراضي المحتلة، ففي الوقت الذي وصفت فيه مادلين أولبرايت المفاوضات على المسار الفلسطيني بأنها دخلت مرحلتها النهائية، وإعلان الرئيس الأمريكي آنذاك بيل كلينتون أمله في التوصل إلى اتفاق للسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وبرغم أنه كان اليوم الثاني الذي بدأ فيه المفاوضون من الطرفين المحادثات المنفصلة مع المسؤولين الأمريكيين في واشنطن، أعلن أرييل شارون أنه سيذهب إلى الحرم القدسي وسط جنوده، مما استفز الفلسطينيين، ودعت السلطة الفلسطينية حكومة إيهود باراك إلى منع شارون من القيام بزيارته الاستقرازية، والتي لن تكون سوى شرارة ستشعل ناراً في القدس، لن يكون نتيجتها سوى إراقة المزيد من دماء الأبرياء في كل مكان بالأراضي المحتلة، بدءاً من القدس وحتى الضفة الغربية، لكنه لم يحدث شيء وقام شارون بزيارته المشؤمة، التي لم تفعل سوى أن أشعلت الانتفاضة الثانية، حيث دعت حركة حماس الفلسطينيين إلى التوجه إلى المسجد الأقصى لمنع شارون من دخول ساحة المسجد، فأحرق المتظاهرون الفلسطينيون إطارات السيارات، وأشعلوا النيران في صفائح النفايات وسط مدينة القدس الشرقية العربية، احتجاجاً على الزيارة، ولم يكن ذلك سوى مثالاً لما حدث أثناء الزيارة وما بعدها.

اشتعلت كل الأراضي الفلسطينية، وخرج الفلسطينيون في مواجهات عنيفة مع قوات الاحتلال، فلم يكن منها سوى أن ارتكبت مجزرة حقيقية في اليوم التالي لزيارة شارون، حيث أطلقت النار بشكل عشوائي من مسافة قريبة على المصلين في المسجد الأقصى يوم الجمعة، فاستشهد خمسة مصلين، وأصيب أكثر من مائتين من بينهم

نساء وأطفال وشيوخ، خلال مواجهات عنيفة في الحرم القدسي، الذي تحول إلى ساحة حرب.

وأثناء تبادل الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي الاتهامات حول من السبب في وقوع ما حدث، ومن الذي يعمل على نسف عملية السلام، استكملت القوات الإسرائيلية مجزرة الأقصى بمجزرة جديدة كانت ساحتها هذه المرة كل من الضفة الغربية وقطاع غزة، فسقط من سقط وأصيب من أصيب، في مواجهات دموية استخدمت فيها المروحيات والدبابات والرصاص الحي المحرم دولياً.

كل هذا يحدث وأنا غارقة في همومي ومصائبني، أشاهد ما يحدث ببرود تام وقلب ميت تماماً، لا أستجيب لاتصالات شكري التي بالتأكيد ستدعوني إلى المشاركة في المظاهرات التي اندلعت في كل أنحاء مصر، حتى بثت شاشات التليفزيون مشهد مقتل الطفل محمد الدرة، بعد أن أصيب بالرصاص خلال المصادمات التي وقعت بين الفلسطينيين والقوات الإسرائيلية، ووقف الصحفيون لا حيلة لهم وهم يرون الطفل وأباه محاصرين مقابل جدار، لا يحميهما من وابل طلقات الرصاص المنهمر من جانب قوات الاحتلال سوى كتلة خرسانية صغيرة على إحدى الطرق، بالقرب من مستعمرة نتساريم في قطاع غزة، قبع الطفل محمد باكياً خلف والده، الذي حاول دون جدوى أن يحميه بجسده وذراعيه، وفي إحدى اللحظات رفع الأب رأسه ولوح بإصبعه، وبعد وقت قصير أصيب الاثنان وارتمى محمد في حضن أبيه شهيداً، برغم عمره الغض الذي من المفترض يبعد آلاف الأميال عن الموت حتى لو كان شهادة، وبقي الأب على قيد الحياة، ليعيش الباقي من عمره محاصراً بمشهد عجزه عن حماية ابنه من غول الموت المقيت.

كان هذا المشهد المأساوي هو القشة التي قسمت ظهري تماماً فأقعدتني عن الحراك.. نظرت إلى ابنتي وأنا أراها مشروعاً لموت مبكر، أو فشل قادم لا محالة، أو بركة يأس عميقة لا قبل لمن يحاول نزح مياهها الآسنة بأن يصل إلى القرار، ثم نظرت إلى أمي بكره حقيقي، لأنها أنجبتني من أب حقير خلفني وراءه حتى قبل أن يبصرني خارج رحمها، وذهب بلا عودة ولا لحظة واحدة يتساءل فيها عن مصيري. دارت في رأسي كل مشاهد حياتي التعسة، سعيد مختار وهو غارق في دمائه بين ذراعي، وجسد مؤمن المحطم على قارعة الطريق بعد سقوطه من شرفة منزله، ودموع هالة ليلة عرسها، وأحمد الذي فضل الهروب على المشاركة في القتل، ومنى التي انزوت في ركن بعيد، وبرغم ذلك لم يتركها المجتمع وحرماها بهجة واحدة اختارتها من وسط الحطام، وسهام التي فقدت الأمل في تحديد هويتها الحقيقية، وكلاب النضال الزائف، وسالم الذي يبيع ويشترى بالأدب، والأدباء والمثقفون وأسائذة الصحافة العظماء الذي يلهثون وراء العظام التي تخلفها لهم السلطة ورجال الأعمال، وعارف الذي أوقعني في حبال عشقه واصفاً إياي بالوطن، وما كنت له سوى سلوى عن حبه المفتقد، الذي ما أن عاد إليه حتى رماني دون رحمة.. كل شيء.. كل شيء عف، ولا يسمح إلا للعفن كي ينمو إلى جوارهم.

تركت المنزل وسرت في الشوارع ليلاً، لا أستجيب لاتصالات أمي على التليفون المحمول الذي اشتريته بالنقود الملوثة.. ظلت أمشي وأمشي، وأنا لا أعرف إلى أين سوف أذهب، حتى وصلت إلى كورنيش قصر النيل، فوقفت عند سوره، وحاولت استنشاق هواء نقي قد يزيح قليلاً مما يكتم أنفاسي ويضغط على عقلي، فلم يدخل صدري سواء هواء مدخن قاس.. كانت أول مرة ألاحظ أننا لا نستنشق سوى الهواء الملوث من سنين، وبالتالي لن تكون هناك مساحة للأنقياء كي يعيشوا

طويلاً!.. غرقت في موجة ضحك هستيري لأنني اكتشفت السبب..
سقطت التفاحة واكتشفت سبب التلوث المستشري في كل شرايين البلد،
والذي لا يسمح لأي نقاء بأن يعبر.. نعم إنه الهواء!.. وكبلهاء شديدة
البلاهة قررت الرحيل بحثاً عن الهواء النقي في مكان آخر.. نعم قررت
أن أرحل في رحلة للتطهر!

قررت الرحيل، لكن لم أكن أعلم كيف بإمكانني تحقيق ذلك القرار، فأنا لا أستطيع برغم معارفي واتصالاتي التي لا حدود لها، أن أطلب من أي منهم أن يمنحني فرصة للسفر برغم أنهم يستطيعون، ولا أنا من دونهم أمتلك أي قدرة على أن أحقق لنفسني ما أريده، كما أنني لا أستطيع أن ألعب لعبة أحمد فادي بالتقدم للدراسة في الخارج، وانتظار عامين أو على الأقل عام حتى تأتيني الموافقة وفيزا الإقامة بأوروبا أو أمريكا، فأنا أريد الخروج من البلد اليوم قبل غد.

ظللت زمناً أفكر في ما يمكن أن أفعله لأغادر البلد، حتى هداني تفكيرى إلى الدكتور فاروق أبوحمدة، الذي برغم انقطاعي عنه منذ سنين إلا أنه بالتأكيد مازال يتذكرني، أو على الأقل يعرف ما وصلت إليه من مكانة صحفية، اتصلت به في مكتبه بكلية الإعلام في مبناها الجديد بجامعة القاهرة، ولحسن حظي كان موجوداً فالتقط السماعه مجيئاً بنفسه إياي:

- ألو!

- دكتور فاروق؟.. أنا أحلام السيد.. يا ترى حضرتك لسه فاكرني؟!

- (ضحك بأبوية) طبعاً طبعاً.. هو في حد ينسى تلاميذه النابهين؟!

- الله يخليك يا دكتور.. أنا آسفة إنني ما اتصلتش بحضرتك من زمان.. بس أنا عندي مشكلة وما عنديش غيرك يحلها لي.

رحب الدكتور فاروق بزيارتي إياه في مكتبه، فلم أكذب خبراً
وذهبت إليه في اليوم التالي للمكالمة مباشرة.. تحدثت معه طويلاً،
وعرضت عليه وجهة نظري الخاصة بالهواء الملوث الذي لا يخلق
سوى الفساد والفاستدين، فابتسم مشفقاً علي وقال: (طيب ما أنا بانتفس
نفس هوا اللي الكل بيتنفسه.. تفكري إني أنا كمان فاسد؟!)، ولأنني
كنت مشوشة تماماً لم أجبه سوى بأنه بالتأكيد يرتكب الفساد، حتى ولو
كان بنسبة صغيرة مقارنة بغيره! ولأنه كان بالفعل يحبني كتلميذة نابهة
من صفوف تلاميذه الذين تعاقبوا على قسم الصحافة على مدار
السنين، غفر لي حماقتي واستشف تشوشي ولمس أنني منهكة القوى
تماماً، ومع ذلك قال:

بس يا أحلام إنتي بسفرك ده بتضحى بالمكانة الصحفية اللي
حققتيها هنا، لأنك حتى لو غبتي سنة واحدة بره الناس هتساکي،
والوسط الصحفي هيجيب بدل البديل عشرة ليكي.

مش مهم.. أنا عايزاهم ينسوني، وما يهمنيش إنهم يجيبوا
بدائل.. المهم أشم هوا نضيف.

وتفكري هوا النضيف ده هيكون فين؟!

في أي مكان يا دكتور.. المهم بره مصر.. في مكان
مافيهوش مشاكل ولا قضايا سياسية ولا صراعات.. أنا عايزة أروح
لجزيرة معزولة.. مكان هادي وفاضي.. أشغل من سكات ومن غير
أي صراع.

ومتخيلة هتسافري إمتي؟!

بأسرع وقت ممكن.. إنشا الله بكرة!

وكانت الإمارات، وتحديداً دبي، هي المحطة التي اختارها لي دكتور فاروق لأسافر إليها، وقال لي في التليفون عندما أخبرني بشأن عقد العمل: (الإمارات تعتبر أفضل بلد في الخليج وأهدى بلد عربي.. الحياة هناك سلسة وبسيطة ومافيهاش تعقيد.. وفي نفس الوقت ما تكونيش بعدتي أوي عن مصر... المهم أنا مش عايزك تغيبني كثير.. اعتبري سفرك ده فترة استجمام.. لكن دايماً حطي في عقلك إنك مش لازم تغيبني كثير).. كان كل ما يهمني أن يكون هواؤها نقياً فسألتها: (هواها نضيف يا دكتور؟!)، فضحك وقال: (أعتقد إنه هيناسبك.. ابقي طمنيني عليكي).

أنهيت إجراءات السفر بسرعة شديدة، ولم أناقش رئيسة التحرير في الأمر عندما رفضت أن تمنحني إجازة دون مرتب، فقدمت استقالتي، وبمجرد أن اشتريت تذكرة السفر ورتبت حقبيتي سافرت، دون أن أنظر ورائي، أو أهتم بدموع أمي المتساقطة وهي تودعني في المطار، تحمل ابنتي التي أخذت تبكي وهي تشير نحوي.. كانت المسكينة لا تدرك ما الذي يحدث، ولا تعرف إلى أين تذهب أمها، ولماذا تبكي جذتها، وما سبب تلك الأجواء الحزينة التي تحيط بها.. كانت لا تعرف أنها لن تراني على الأقل لمدة عام، وأنا لم أهتم بذلك كله، بل بررت ما أفعله لنفسي بأنني مادمت سأرسل إليهما نقوداً تكفيهما فلن تحتاجا إلى أي شيء آخر، حتى إنني لم أفكر في أنني سأسافر وحدي حتى أرتب الأوضاع ثم أرسل إليهما كي تلتحقا بي، لم أكن أرغب في أن يكون معي أحد، كنت بالفعل أهرب.. نعم أهرب.. أهرب من أمي ومن ابنتي.. ومن نفسي التي تركتها على أرض بلادي ورحلت.

كانت دبي تماماً مثلما خبرني دكتور فاروق أبوحمدة.. مكاناً مناسباً للانعزال والهدوء والصمت، فبمجرد أن وطئت قدماي أرضها،

وذهبت إلى مقر الجريدة التي عملت بها، قررت أن أكون وحيدة تماماً، حيث رفضت التعرف بأي من المصريين العاملين فيها، بل بأي من الصحفيين أياً كانت جنسيتهم! اقتصر تعاملتي داخل حدود العمل، خاصة أن زميلي في قسم المنوعات كان عراقي الجنسية، وهذا ما جعلني أصر على ألا يكون بيننا سوى العمل، فلا أنا أريد سماع لهجته التي تذكرني عارف، ولا أنا أريد أن أتحدث معه في أي شيء يأخذنا إلى حدود البوح بالأحزان، لتأتي سيرة العراق فأتذكر نضالي الأحمق من أجله!

كاد العام الأول يمر بسلام لولا نهايته المأساوية بحدثين.. الأول لم أشغل بالي به كثيراً، برغم عنف نتائجه على جميع البلاد العربية، وهو أحداث الحادي عشر من سبتمبر وسقوط برجتي التجارة العالميين في أمريكا، والثاني نبأ وفاة سهام زهران في إثر حادث وهي حامل في شهرها الثامن، وسقوطها صريعة بين ذراعي زوجها على قارعة الطريق.. كان ذلك هو الحدث الذي أعادني إلى نقطة عدم الارتكاز التي أتيت بها إلى دبي، فوجدتني أدخل في موجة هستيرية من البكاء، وأنا جالسة إلى مكتبي أنظر نحو شاشة الكمبيوتر، الذي وصلنتي عبره رسالة إلكترونية من أحمد فادي في أمريكا تحتوي على ملف مرفق، وبمجرد فتحه وجدت صفحة من موقع جريدة الجماهير الإليكتروني، تحمل نعيّاً طويلاً عريضاً لابنة المؤسسة البارة التي لقيت مصرعها على قارعة الطريق!

ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي أبكي فيها بحرية أمام الجميع ودون أن أفكر في نظرتهم إلي، منذ ولدت، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقريني من قلوب زملائي بالصحيفة، الذين كانوا لا يرون في سوى امرأة متعجرفة لا تحب الناس، أخذت أبكي بل أنتحب وعيناي مثبتتان على شاشة الكمبيوتر، وعندما تشجع زميلي رضا

العراقي واقترب مني متسائلاً بقلق حقيقي: (إشبيك؟! شنو صار يا أحلام؟!)، لم أفعل سوى أن أشرت بهلع ناحية شاشة الجهاز وعويلي يزداد.. كان باقي الزملاء في صالة التحرير قد تحلقوا حول مكثبي، في الوقت الذي أخذ رضا يقرأ نعي سهام بصوت مسموع، ومع كل كلمة يقرأها من النعي يرتفع صوت بكائي أكثر، حتى خرجت صرخة شقت فضاء مقر الصحيفة بأكمله مع آخر كلمة في النعي.

لم أدر بنفسي إلا وأنا مستلقية بكامل جسدي بين ذراعي واحدة من الزميلات بالصحيفة، وأصوات متسائلة من حولي عما إذا كانت سهام واحدة من أقاربي.. كنت آنذاك أنظر إليهم جميعاً في صمت ودموعي تسيل على خدي بلا انقطاع.. بعد فترة وجيزة قرر رضا ومعه زميلتي التي تحضنني أن يصحباني في سيارته إلى منزلي، وبالفعل سرت معهما صامته لا أفعل شيئاً، حتى دموعي السائلة على خدي لم تسلب بارادتي، بل كانت كمطر انهمر بشدة بعد طول صبر من السحاب، في انتظار وصوله إلى أي مرتفع يصطدم به حتى يفك تجمده الصابر في السماء.

صعدت زميلتي معي إلى منزلي بينما انتظر رضا أسفل البناية، وبمجرد أن وضعتني في الفراش سألتني إن كنت أريد شيئاً قبل أن تمضي، فأشرت إليها برأسي أن لا، حينها ربتت على كتفي قائلة: (الأعمار بيد الله يا أحلام خليكي مؤمنة)، ثم مضت. أخذت أتساءل بعد ذلك عن الذي يجب أن أؤمن به تحديداً.. ما الذي يجب أن أؤمن به؟! إننا مخلوقات موزعة بين الحياة والموت، فلماذا لا نطالب سوى بالإيمان بالموت وحده؟!

في المساء ارتفع رنين تليفوني المحمول وظهر على شاشته رقم رضا فأجبتة، فوصل إلي صوته تماماً مثلما كان يصل صوت عارف إلى أذني: (هاللو عيني.. كيفك وردة؟!)، لم أدر بنفسي

ووجدتني أقول: (عارف؟! .. إنت وحشني أوي.. أنا محتالك)، وعندما قال رضا: (شنو؟! منو عارف هذا؟!)، أفقت على كلمات رضا ففقت كالملسوعة من على الفراش، وأخذت أقول بلسان متلعثم تماماً: (أنا.. أنا.. أنا أسفة يا رضا!.. أسفة.. أأأصل إنت.. أأأصل أنا!)، ضحك رضا في التليفون ثم قال: (بس.. عرفت سبب كرهك لي!.. إنت كنت تحبين عراقي وتركك الحيوان!.. عموماً مو كل العراقيين أذال.. شوفي أنا راح أمر عليك الآن، وراح أعزمك على فنجان قهوة في المكان اللي تريدنيه).. لم أدر لماذا قبلت دعوته، لكنني بالفعل كنت في حاجة شديدة إلى أي إنسان أتحدث معه قليلاً.

جلست مع رضا في أحد المقاهي بدبي، تلك المدينة التي برغم أنني كنت على وشك إتمام عام كامل فيها، إلا أنني لم أكن أعرف فيها سوى مقر الجريدة التي أعمل بها والشارع الذي أسكن فيه! ووجدتني ببساطة شديدة أقص عليه مأساتي مع الفراق والموت، وأصدقائي الذين يتساقطون في عمر الزهور، وقلوبهم التي كانت عامرة بحب مصر فلم يلقوا سوى الصد والقتل.. وبعد أن تحدثت طويلاً وجدت رضا يخرج تنهيدة كبيرة من داخله ثم يقول: (الموت في مصر بسيط بالنسبة للموت عدنا في العراق يا عزيزتي.. تعرفين؟!.. أنا الوحيد الباقي من دفعتي بكلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد.. كلنا رحنا على حرب الخليج الأولى مع إيران، وما رجع غيري أنا!).

أخذ رضا يقص علي كيف حاول أن يتأقلم مع الحياة في العراق، بعد أن مات كل زملائه بالحرب، وكيف حاول أن يعمل من أجل عراق هادئ دون حرب، لكنه في النهاية واجه تهمة الخيانة العظمى من نظام صدام حسين العظيم، ولولا أن الله يريد له أن يعيش ليقى شاهداً على مقتل جيل بأكمله، ما كان استطاع الهروب في جنح الظلام من بلده تحمله عربة بضائع متوجهة إلى عمان بالأردن، التي

مكث فيها بضع سنين، ثم استطاع أن يعثر على فرصة عمل في الإمارات، فحضر ليعمل صحفياً في دبي.

توطدت علاقتي برضا، وقصصت عليه حكايتي كاملة حتى علاقتي بعارف، الذي فسر ما فعله بي بأنه إنسان حقير من هؤلاء العراقيين الذين يترحون من وراء قضية بلدهم، وقال لي إنه اختار الزواج بمنال، لأنها ببساطة تستطيع أن توصله إلى أي مكانة يريد الوصول إليها، خاصة بعدما أخبرته عن انتمائها إلى عائلة من العائلات ذات النفوذ في مصر.. كان رضا مثل شمعة أضاءت لي كثيراً من ظلمات علاقتي بعارف، كما أنه كان بحكايته المأساوية أيضاً أكبر سلوى لي، ودليلاً على أننا جميعاً في النكبات سواء!

أصبح رضا تدريجياً رفيق غربة، فكلانا هارب من بلده، وكلانا فقد أحبابه، وكلانا لا يعيش في الإمارات ليجمع المال بغرض العودة ثرياً، وكلانا معترف بأنه في منفى، ويعترف أيضاً بأنه لا سبيل إلى انتهاء فترة النفي، حيث لا سبيل إلى انتهاء الشقاء في بلدنا!

برغم أنه أصبح لي صديق في دبي، إلا أن إصراري على الوحدة والانعزال استمر، بل أكدته موت سهام، فلقد ارتأيت أنني يجب ألا أقترّب من أي إنسان مهما كان راقياً وإنسانياً، حتى لا أفجع مع موته، كنت أرى في جميع العرب مشروعات لموت قريب لا ريب فيه، حتى إنني آمنت بأن لحظة موتي لابد قادمة قريباً، حتى ابنتي ابتعدت عنها تماماً ولم أكن أرغب في التحدث إليها عبر الهاتف، عندما كنت أتصل بوالدتي لأخبرها بموعد وصول المال الذي أحوله إليها كل شهر.. كنت ألمح حزن أُمّي من صوتها وهي تكلمني، لكنني كنت أتجاهله تماماً، فهي أيضاً بالنسبة لي مشروع لنهاية مأساوية.. كنت أرى الجميع مجرد جثث متحركة لبعض الوقت، حتى يأتي ما يمزقها إلى أشلاء ويواربها في الثرى لتصبح نسياً منسياً، مجرد كائن سار على الأرض بعض الوقت، لم يفعل فيه أي شيء مفيد، ولم يتنسم عبير حرية، ولم ينعم بخير أرضه، ولم يشعر سوى بكل تكبيل وقيد وكبت.. نعم هؤلاء نحن وليس غيرنا، مجرد ظلال تسير على الأرض ولا تترك أثراً!

عندما وصلني خطاب سحر سلطان، الذي أرسلته أُمّي إلي بعد أن تسلمته من نقابة الصحفيين، وهي في إحدى زياراتها إليها كي تدفع لي اشتراك العضوية الذي أضحت أحرص عليه مني - كانت تتعامل معي كمريضة لابد سأشفى يوماً -، فتحت الخطاب وأنا أشم رائحة موت تنبعث من داخله، برغم ذلك لم أرتعش ولم أهتز، وأمضيت مساء كاملاً أقرأ فيه خطاب الوداع الذي خطته سحر بيدها المرتعشة، بعد أن ابتلعت كمية من الحبوب المنومة في منفاها الصحي بسويسرا، لا أنكر أن دموعي تساقطت بغزارة، ولكنها هذه المرة كانت دموع حزن

على رفيقة لحقت بمقعدها في قطار الرحيل المحتوم علينا جميعاً، ولم أفعل سوى أن أشرت إليها بكفي وأنا أراها مبتسمة تطل علي من نافذتها بالقطار وتقول لي: (ما تتأخرين علينا.. إحنا مستيينك!).. بالفعل كنت مؤمنة بأن رحيلي قد اقترب، لذلك لم أعبأ تماماً بأي شيء من مباحج الحياة التي تكتظ بها دبي، ولم أرتكب أي فعل له علاقة بالحياة، سوى العمل ولقاءاتي المتقطعة على أوقات متباعدة برضا.. رضا الذي تفهم ظرفي النفسي تماماً، بعدما أخبرته على مقهى الفنون في منطقة الممزر - مقهى المفضل الذي تحول إلى المكان الوحيد الذي أعرفه في دبي! - بأن سحر سلطان أيضاً توفيت، بعد أن ضاع منها حبيب عمرها رؤوف، وبعد أن فقدت أو أفقدوها كل ما يمكن أن يمتلكه إنسان على الأرض بدءاً من الأب والأم.. دخل رضا في حديث طويل عن الإيمان بقضاء الله وقدره، وأنا يجب أن نقاوم ولا نستسلم، وأن غداً بالتأكيد أفضل، وأنا سنعيش لنحكي عن الذين رحلوا مقهورين وحرانى، وكل هذه الكلمات التي نعيش نغزي أنفسنا بها، في حين أننا جميعاً من الداخل نعلم تماماً أنها مجرد أوهام، نطلقها في فضاءاتنا حتى نبتلع حقيقة الهزيمة والموت في هدوء وسلام!

الكل من حولي في الجريدة وفي الباص، الذي أركبه من البيت إلى العمل والعكس، وعلى شاشات التلفزيون يتحدثون عن غزو أمريكا أفغانستان، وكيف أن هذا الأمر يشكل مصيبة للعرب، وأنا لا أفعل سوى الإنصات في استهانة شديدة بكل ما يقولون، لا أفتح من الجريدة سوى الصفحة التي أحررها والصفحات المنافسة في الجرائد الأخرى.. مجرد متابعة للعمل ليس إلا، لكني لم أفتح يوماً على صفحات الشؤون العربية والعالمية، ولم أقرأ منها سطرًا واحدًا، كنت مغيبة تماماً عن الوقائع التي تدور من حولي، ولا أفعل سوى الابتسام عندما يحاول رضا إقناعي بأن عزلتي عن العالم لن تدمر سواي أنا

وليس غيري، كنت أعرف أنها ستمدمني، لكنني كنت أنظر إلى نفسي بالفعل كامرأة مدمرة، أو امرأة ترغب في الاحتضار بهدوء ودون أي ضجيج حولها، فلا أنا أحلم بجنازة مهيبه، ولا أتمنى أن يكون المشيعون جسدي بالآلاف!

وسط كل هذا الدمار من حولي كانت الأيام تمر لا أعلم بما يدور فيها سوى من رضا، كان الوحيد الذي يربطني بالحياة، ولا أدري هل كنت أهتم بوجوده في أيامي لأنني مازلت في أعماقي أرغب في الحياة؟! لا أدري.. لكن كل ما أعرفه جيداً أنه عندما بدأ يثرثر عن خطط أمريكا القادمة لضرب العراق وإسقاط نظامها الحاكم، بدأت أهتم وأنصت لكل كلمة يقولها، بل إنني وجدت نفسي ذات صباح، وتحديداً في السادس من فبراير عام ٢٠٠٣، أقرأ لأول مرة بعد انقطاع تقريراً أخبارياً بعنوان (بغداد تراهن على إطالة أمد الحرب البرية).. حرب برية؟! هل وصل الأمر إلى حد مناقشة وتحليل إطالة لحرب برية؟! .. وأين؟! في العراق؟! هل سيتخطى الأمر مجرد قصف خارجي لمناطق معينة في العراق؟! هل ستحاول أمريكا دخول العراق؟! وهل ستجرح؟!

كان التقرير الأخباري يتحدث عن أن الصحافة الأمريكية، نقلاً عن دوائر البنتاجون، تقول إن الحرب على العراق ستستمر مدة قصيرة، وستعتمد قصفاً صاروخياً مكثفاً لمدة ٤٨ ساعة، توجه خلالها ثلاثة آلاف صاروخ ضد العراق، ليبدأ بعدها الهجوم البري لإسقاط النظام... حملت الجريدة وأنا أغرق في بحر ذهولي ودهشتي، وذهبت نحو رضا الذي كان جالساً إلى مكتبه يحرق موضوعاً لصفحتنا، ودون أي حركة تدل على وجودي إلى جواره، وضعت الجريدة أمامه مقتحمة يده التي تكتب على أوراق أمامه، نظر إلي دهشاً، ثم نظر إلى حيث أشرت في صفحة الجريدة المفتوحة أمامه، بعدها ابتسم ابتسامة واهنة وقال: (إي يا أحلام أmaal أنا كنت أقولك إيش من زمان وإننت مصرة ما تسمعين!).

أخذت الأحداث تجري بسرعة، والكل يتحدث ويناقش ويحلل كيفية غزو أمريكا العراق، وهل ستستطيع ذلك مع جيوشها الموزعة في أفغانستان، وبرغم المعارضات العالمية لهذا الغزو، بل المعارضات الأمريكية الداخلية له؟!.. تحولت الأيام إلى ساحة نقاش وتصايح ديكة بين الجميع، سواء في الجريدة أو على صفحاتها أو على شاشات التلفزيون العربية.. ومصر.. أين هي؟!.. المصريون في حالة غليان، ولكنه مجرد غليان يراوح مكانه، لا يوجد أحد قادر على فعل شيء، والنظام الحاكم في مصر يصدر بيانات لا معنى لها سوى أنه يدير ظهره لكل ما يحدث، ويوافق على أن تقع المصائب دونه، فقط يستنكر و(يشجب) من أسفل الطاولات، وبصوت رقيق هادئ لا يحمل أي معنى حقيقي!

بعد فشل القصاص التي روتها إدارة جورج بوش عن أسلحة الدمار الشامل، ومزاعمها عن علاقات بغداد مع المنظمات الإرهابية، في منع المعارضة العالمية للحرب المزمعة ضد العراق، بدأت واشنطن تتحدث عن ذريعة جديدة تبرر بها رغبتها في غزو العراق، فقد زعمت أن الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام، وأن الاحتلال العسكري الأمريكي للعراق هو الطريق لتحقيق الديمقراطية في الشرق الأوسط!!.. أي شرق أوسط؟! لقد أصبحت الأرض العربية بالنسبة لأمريكا أرضاً شرق أوسطية!!.. اختفى مصطلح العرب والوطن العربي والبلاد العربية، اختفى ما نتباكى عليه وننحر أنفسنا من أجله.. أمريكا ترى أن صدمة تدمير العراق ستؤدي إلى سقوط الأنظمة الشرق الأوسطية الواحد تلو الآخر، لتحل محلها ديمقراطيات مصنوعة في الولايات المتحدة؟!.. هل مصر ضمن تلك الأنظمة الشرق الأوسطية؟! هل ستحل لدينا يوماً ديمقراطية مصنوعة في أمريكا؟! هل سنحول إلى جمهورية مصر الأمريكية؟!..

ويزعم بوش أن الغزو الأمريكي للعراق سيمهد الطريق لتسوية عادلة للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني!.. كيف؟! هل تفكر أمريكا في أنها بإذلال العرب في العراق سيضعف الفلسطينيون ويخافون، وبالتالي سيتخلون عن نضالهم ضد المحتل الإسرائيلي؟! هل من الممكن أن يحدث هذا؟! هل سيموت الأمل في تحرير القدس إلى النهاية؟!.. الرئيس الأمريكي يرى أن نضال الفلسطينيين سيتوقف عندما تتوقف بغداد عن لعب دور النصير، الذي يدفع تكاليف تدريب الفدائيين ويقدم المكافآت لأسر الاستشهاديين.. وأين مصر من كل هذا؟! هل ستناصر الحكومة الفلسطينية أو ستنفذ مخططات أمريكا؟!.. أين بلدي؟!.. هو؟!

ماذا يحدث بالضبط؟! لم أكن قادرة على استيعاب الأمور من حولي.. هل ستدخل أمريكا وبريطانيا فعلاً العراق؟! كل من حولي انقسموا بين متأكد من غزو أمريكا العراق، ومنكر إمكانية حدوثه بسبب تورط الجيوش الأمريكية في أفغانستان، لكن الجميع كان متأكداً من شيء واحد، ألا وهو أنه حتى لو حاولت أمريكا دخول العراق، فإن الجيش العراقي الجبار - والحرس الجمهوري بالتحديد - سيأكل الأمريكان ويحلي بأكبادهم! أما أنا فقد كنت كالبلهاء وسط الجميع، أسير وأهذي بأنه من المستحيل أن يقع العراق في يد أمريكا! لا يمكن أن يقع بلد عربي في قبضة احتلال أجنبي مرة أخرى!.. وكيف نتعرض إلى مثل ذلك، بعد أن دفع أجدادنا وآباؤنا كل نفيس وغال من أموالهم وأحلامهم وأرواحهم لطرد شبح الاستعمار المخيف الذي كان جاثماً سنوات طويلة داخل أراضينا؟!.. لم تمر خمسون عاماً على تحرير كل الأراضي العربية حتى يعود إليها الاحتلال مرة أخرى!.. وماذا يمكن أن نقول لأحمد عرابي وعبدالله النديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول والنحاس؟! ما الذي يمكن أن نقوله لهم؟! ضيعنا كل شقائكم

عبثاً؟! أهدرنا عمركم الذي أنفقتموه على تحرير البلد من أجلنا على طاولات القمار الوطني التي تمتد من المحيط إلى الخليج؟!.. ما الذي يمكن أن نقوله؟! كيف سيرانا من سيأتي بعدنا؟! بالتأكيد سيكون جزاؤنا الوحيد هو البصق على قبورنا، التي ستطمس في التراب حتى لا يكون لنا أثر واحد أننا عبرنا من هنا ذات يوم!

تمر الأيام ثقيلة ومرعبة حقاً، كل الشواهد تقول بأن الغزو آت لا ريب فيه.. تتعقد قمة في أمريكا تجمع كلاً من بريطانيا وإسبانيا وأمريكا، يوحى كل المشاركين فيها أنهم بذلوا كل ما في وسعهم لتجنب الحرب، لكنهم باتوا مقتنعين بحتميتها!.. وجدت أمريكا في تلك القمة مخرجاً مناسباً لتحقيق مآربها، بعدما بلغت المشاورات في مجلس الأمن طريقاً مسدوداً، وتأكيد فرنسا وروسيا عزمهما على استخدام الفيتو ضد مشروع القرار الأمريكي البريطاني.

الدقائق تمر تكمل الساعة والساعتين والثلاث.. وهكذا حتى يكتمل يوم لا يحتوي في تفاصيله على أي شيء سوى ترقب وقلق، يسير بهما كل الناس من حولي وأسير أنا بدوري بهما.. لأول مرة أكثرث لوجود ابنتي في الحياة، بعد فترة طويلة جداً من تجاهلي أهمية وجودها على الأرض، لأول مرة أشعر بالخوف عليها، وأحرص على أن يكون لها نصيبها من الحياة الحلوة التي لم أعشها أنا يوماً.. أخذت أتصل بأمي كل يوم، يصلني قلقها علي في الإمارات، فلقد تخيلت أن القرب الجغرافي بينها وبين العراق سيجعل لها نصيباً من القذائف والحمم الجهنمية التي تخيلتها بقلبها الأمومي، أخذت تطالبني بالعودة فوراً، لكنني لم أكن أعرف ما الذي يجب علي فعله، كان هناك شيء في داخلي يطالبني بالعودة، حيث يجب أن أكون في بلدي في مثل تلك الظروف، ليس خوفاً من الإصابة بحمم أمريكا التي قد تصل إلى الإمارات حسب خيال أمي، ولكن لكي أكون في بلادي التي أراها أكثر

اقترباً من السقوط، إذا ما سقطت العراق في قبضة وحش العصر المخيف! لكنني في نفس الوقت أسأل نفسي سؤالاً واحداً (وهل ستفعلين شيئاً بعودتك إلى هناك؟!)، لقد تركت بلدي وأنا لا أرى فيها سوى هواء ملوثاً للغاية، لا قبل لي أنا ومن هم مثلي بفعل شيء لإزاحته عن السماء، لتعود نقية مثلما كانت من قبل في كتب التاريخ التي انخدعنا بها طويلاً!.. الحيرة كانت هي نصيبي، وربما كانت نصيب الجميع في ذلك الوقت المتوتر، والذي لا نشعر فيه جميعاً سوى بالعجز الكامل، حيث تحولنا جميعاً إلى مقعدين لا نمتلك حتى كرسيّاً متحركاً ندفع به أجسادنا إلى الأمام!

في يوم ١٩ مارس نشرت الجرائد أن البيت الأبيض قطع كل شك في عدم فرص السلام بإعلانه - قبل مضي الثماني والأربعين ساعة إنذار التي وجهها الرئيس الأمريكي إلى صدام حسين، إما مغادرة البلاد مع ولديه وإما الحرب - أن قوات التحالف الذي تتزعمه أمريكا ستدخل العراق لنزع أسلحته، حتى لو رحل صدام وولداه إلى المنفى!.. انطلقت مخاوف الجميع من أن تطلق واشنطن جحيم الحرب على العراق قبل انقضاء مدة الإنذار، الذي ينتهي في الخامسة فجر الخميس.

لم أنم، بل أكاد أزعم أنه لا يوجد إنسان عربي واحد نام في تلك الليلة، ظللت جالسة أمام شاشة التلفزيون أتنقل بين القنوات الاخبارية، وأعيش حالة الترقب والقلق الذي طغى حتى على المذيعين والمذيعات والمراسلين في بغداد وكل مناطق العراق، حتى وقعت الواقعة التي كنا برغم تأكيدنا من حتمية وقوعها، إلا أننا كنا نتمنى من داخلنا يائسين ألا تحدث!.. كنا جميعاً نقول: (يااااااااااارب!.. معجزة واحدة من عندك في زمن أحوج إلى المعجزات من كل عصور المعجزات الغابرة!)!

ثلاثة آلاف قذيفة في الساعات الثماني والأربعين الأولى.. القوات الأمريكية تتوجه صوب المنطقة المنزوعة السلاح بين العراق والكويت!.. القوات الأمريكية تخوض قتالاً شرساً في ميناء أم قصر العراقي في الجنوب.. إغراق بغداد بالصواريخ وبدء اجتياح الجنوب.. العالم يغلي بالمظاهرات، وواشنطن تبدأ خطوات لعزل النظام العراقي وتجميد أموال صدام.. ثلاثون ألف متظاهر في جامع الأزهر، وسط حصار مكثف من قوات الأمن والعربات المصفحة!!.. المصريون يطالبون بإغلاق قناة السويس أمام سفن الأعداء التي تحمل السلاح لضرب العراق دون جدوى!!

الأحداث تجري ونحن غارقون في وهم مقاومة الجيش العراقي قوات أمريكا وإنجلترا، والحرس الجمهوري الذي سيحمي مطار بغداد، وسيحمي بغداد نفسها من السقوط في أيدي الأمريكان، والتصريحات الرسمية العراقية التي تكذب كل ما يقوله الأمريكان، من تقدمهم في الأراضي العراقية واقتربهم من بغداد وسقوطها المؤكد.. حتى سقطت بغداد في أيدي الأمريكان!!

ماذا سأفعل؟!.. هل سقطت بغداد فعلاً؟!.. ومصر؟! ما الذي سيحدث لمصر؟!.. مصر (الثلاث أحرف الساكنة اللي مالية الدنيا ضجيج).. أين الضجيج يا جاهين؟!.. مظاهرات واستنكارات (شجب)!!.. إلى متى؟! حتى تسقط القاهرة؟!..

القاهرة!!.. القاهرة!!.. القاهرة يا أحلام تقترب من السقوط.. القاهرة عاصمة العزة العربية، ورافعة راية العروبة، وحاملة لواء النصر والعز العربي.. عز عربي؟! الإنجليز خرجوا من مصر بعد كفاح دام أكثر من سبعين سنة.. فماذا فعلنا حتى لا يعودوا؟! ماذا فعلنا حتى لا يعودوا؟! ماذا فعلنا حتى لا يعودوا؟!..

ألو رضا!.. إلحق يا رضا!.. القاهرة يا رضا!

بغداد سقطت يا أحلام!... ضاع كل شي يا أحلام.. شنو راح
نسوي يا أحلام؟!

القاهرة يا رضا!.. أعمل إيه يا رضا عشان السقوط ما
يوصلش لحد القاهرة؟!

الناس تموت في العراق.. كل ثانية بألف إنسان يموت من
القصف وزخات الرصاص.

القاهرة بتتخفق يا رضا!.. كل يوم ألف إنسان بيموتوا من
الكبت وضياح الأحلام!

بغداد يا أحلام راحت!

القاهرة يا رضا بتروح!

أين الأصدقاء؟! وأين حبيبي؟! لماذا لا يأتون ليتسامروا معي
مثلما عهدتهم في الماضي؟! أين أنت يا سعيد لتحدثني عن الوطن؟!
وأين أنت يا مؤمن لتعلي قهقهاتي؟! وأنت يا منى لا تتركيني، تعالي
بأوهامك الجميلة، ولتحضري معك سهام لتتلو علينا سفر العودة إلى
فلسطين.. وأنت يا فادي، عد إلينا بقصصك وسرابك.. وأنت يا سحر،
لملمي أشلاءك المتناثرة على قمم الثلج السويسري وعودي!

أين أنتم؟!.. وأين أيامنا التي ضاعت من بين أيدينا عبثاً؟..
هل من الممكن أن يمنحنا الله فرصة واحدة أخرى على هذه
الأرض؟!.. فرصة حقيقية هذه المرة، يسجن فيها المردة والشياطين،
ويوصد عليهم أبواب جهنم ليقفوا مصفيين بالأغلال، بدلاً من أن يرتعوا
عابثين بأقمارنا المسائية، مشنتين شعاع الشمس ليصطدم بالأرض
مبعثراً كشهب مطفأة بين أقدامنا!

فرصة واحدة يا الله!

لا أطلب منك سوى أن توجه نظرك نحونا قليلاً.. نظرة واحدة
لا أكثر!.. أم أنك خلقتنا لتطعم بنا الموت وتتخم بأجسادنا معدة
الفناء؟!